



80

M

1

الفيستوف أم الملك؟

روايات اهلل



ماشادو دو أسيس الجزء الاول

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٩٦ - أغسطس ١٩٧٣ - ١٦ رجب ١٣٩٣

No. 296 - August 1973

مجلس الإدارة: فكري أباطة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفني: جمال قطب

سكرتير التحرير: موسى عيل

بيانات إدارية

من العدد : في جمهورية مصر العربية ١٠٠ ملجم - من الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الأردن والعراق ١٣٠ فلسا ، قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والأفريقى ١٠٠ قرش صاغ - في سائر أنحاء العالم ٥ ونصف دولارات أو ٢ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية - في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف في « جمهورية مصر العربية » - والاسعار الموضحة أعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب - القاهرة
تليفون : ٢٠٦١٠ مشرة « خطوط »

الفيلسوف أم الكلب؟

روايات المهملات



ماشادو دواسيس

الجزء الثاني

روايات الهلال

Rewayat Al-Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٢٩٧ - سبتمبر ١٩٧٣ - ١٧ شعبان ١٣٩٢

No. 297 - September 1973

رئيس مجلس الإدارة: فكري أباطة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفني: جمال قطب

سكرتير التحرير: موسى عييل

بيانات ادارية

نمن العدد : في جمهورية مصر العربية ١٠٠ ملجم . من الكميات المرسلة بالطائرة - في سوريا ولبنان ١٢٥ قرشا ، في الأردن والعراق ١٣٠ فلسا قيمة الاشتراك السنوي : « ١٢ عددا » في جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والاfrيقى ١٠٠ قرش صاغ - في سائر انحاء العالم « ونصف دولارات أو ٢ جك والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال : في جمهورية مصر العربية والسودان بحواله بريديّة . في الخارج بتحويل أو بشيك مصرفى قابل الصرف في « جمهورية مصر العربية » - والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى - وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب

الإدارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد مر العرب - القاهرة
تلفون : ٢٠٦١٠ مشرة « خطوط »



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بـريشـة
الفتان جمال قطب

الفيلسوف

أم الكلب؟

كونكاس بوربا

الجزء الأول

بقلم

ماشادو دواسيس

ترجمة

الدكتور سامي الدروبي

دار الهلال

مقدمة

ليس في الادب البرازيلي ، بين الاتجاه الباروكي في القرن السابع عشر والاتجاه الحديث في القرن العشرين ، فترة كلاسيكية كما في معظم الآداب الاوربية . غير ان هناك كاتباً كلاسيكياً شاءت المعجزة ان يكون واحداً أحداً لا ثاني له . لاشك ان هذا الكاتب قد أملاً بمنظر مدينة ريو دو جانيرو التي لم يخرج منها يوماً ، وهو منظر منسوج كله من ضروب الاحتكاك وأنواع العنف ، يصارع فيه البحر الجبل ، وتجتاح فيه الغابة المنازل ، كما ذاق جميع « السموم » الرومانسية ، وعرف شهوانية الليالي الاستوائية ، وشهد انحلال الأسرة الأبوية التقليدية ، التي أصبحت عاجزة عن الصمود لأنار تحول البلاد الى مدن ، شهد تمرد الطفل أو المرأة على السلطة المطلقة التي يمارسها رب الأسرة ، وارتقاء حامل البكالوريا والخلاسي في مسرح الحياة ، وقيام طبقة بورجوازية . تلك مشاهد متناقضة في مجتمع غير متجانس ، تضاف الى مشاهد متناقضة في طبيعة مؤثرة . ولكنه أخرج من هذه المتناقضات انسجاماً . فاذا صدق ما ذهب اليه أندريه جيد من أن الكلاسيكية إنما تعرف بتغليب القاعدة ، والاقتصاد في الوسائل ، والحشمة ، فما من كاتب يمكن أن يعد كلاسيكياً أكثر من ماشادو دو أسيس . ان فنه كله رهافة ونعومة ، وان أسلوبه كله ألوان هادئة لطيفة . لقد قطر السموم التي كانت تأكل أحشائه ونفسه ، فأخرج منها أكاسير ، غير أن نقاء الأكاسير أو صفاءها الرائع لا ينفي احتراق الجوف .

ولد ماشادو دو أسيس في اليوم الواحد والعشرين من شهر يونية عام ١٨٣٦ في بيت من بيوت العمال بمدينة ريو دو جانيرو ، لأسرة فقيرة ملونة . كان أبوه دهانا ، وكانت أمه خادماً . وقد ماتت أمه وهو صغير ، ثم ماتت أخته الوحيدة . فتزوج أبوه زواجا آخر من امرأة خلاسية ، هي « ماريا انيس » ، فكانت للصبي أما نانية ، رغم انه هجرها بعد ذلك فيما يبدو . واضطر الصبي النحيل العليل الذي لا بد انه كان يحس اذ ذاك بأول أعراض مرض الصرع ، اضطر ان يعمل أجيراً في مطبعة ليساعد أسرته . ولكنه كان قد أوتى مع

ذلك ظمأ شديدا الى المعرفة ، و ارادة قوية ، فكان يعمل آثناء الليل .
فيقرأ روايات مستعارة ، ويتعلم الفرنسية من غسال صحون ولد
بفرنسا ، ويتهيا بذلك لحياته الادبية المقبلة . لقد كان الادب ،
دوما ، سبيل الخلاص الى الصعود في البرازيل ، لكن بعضهم
لم ير فيه الا وسيلة لدخول الصالونات أو لدخول حلقات
« البوهيمية » الفنية على الاقل . أما ماشادو دو أسيس ، فقد
اتحد بالادب اتحادا كاملا ، فكان يعمل في الادب عمل صانع يتعام
مهنة ، يدرس كبار الكتاب ويقرأ آثارهم والقلم في يده ، ويتفصى
أسرار « البيان الجميل » ، حتى لقد ظل حياته كلها يصقل ملكته
ويجود فنه ، فكانت آثاره مثالا للصبر الطويل والارتقاء الدائم .

وحين عرض أشعاره الاولى وجد حماة وأصدقاء : مثل باولا بريتيو
الذى كانت مكتبته ملتقى كتاب العصر ، والكاتب الروائى مانويل
انطونيو دى الميدا ، مدير المطبعة الوطنية التى كان ماشادو يعمل
فيها أجيرا متمرنا على فن الطباعة ، وكونتينو بوكابوفا الذى الحقه
صحفيا بجريدة « ديارو دو ريو دو جانيرو » التى نشر فيها مقالات
جميلة عذبة . وكانت الرومانسية هى المدرسة الادبية الرائجة في
ذلك الوقت ، فكان ماشادو دو أسيس رومانسيا أول الامر ، فنظم
في الغزل ، وكان غزله خياليا بعض الشيء ، وكتب عددا من الآثار
على الطريقة الرائجة التى كانت تتحدث عن الهنود ، فنشر « كرين
اليداس » عام ١٨٦٤ ، و « بياليناس » عام ١٨٧٠ ، و « أمريكاناس »
عام ١٨٧٥ ، غير انه وهو ابن تلك البلاد التى تهوى الاقازصة في
الكلام ، ووليد ذلك العصر الذى كثيرا ما اختلطت فيه الفنائية
بالفصاحة ، ظل محافظا في قصائده على اعتدال اللهجة ، فما هو
بشاعر الصيحات الملتهبة ولا الصور العاصفة ! ثم انه ألف في الوقت
نفسه مسرحيات ، كتب بعضها بالفرنسية ، وهى مسرحيات يحتل
فيها تحليل العواطف مكانا أرحب من المكان الذى تحتله الاحداث ،
لا بل هى مسرحيات تكشف عن ميل ماشادو الشاب الى الحوار .
واذا كان كثير من كتاب الرواية في أيامنا هذه يكشفون ، متأخرين ،
أن لهم رسالة مسرحية فلا شك أن المسرح هو الذى كشف لماشادو
عن ميله الروائى .

وعين في عام ١٨٦٧ مساعد تحرير بجريدة « دياريو أوفيسيال »
فأصبح موظفا ، وظل كذلك الى آخر حياته . ففي عام ١٧٧٣ الحق
بإدارة الزراعة والتجارة العامة ، فتقلب في جميع المناصب الادارية ،

حتى ارتقى الى ارفع المراكز . ولم يشأ يوما أن يعتزل الوظيفة ،
لا عن بخل ، بل لانه لو فعل ذلك لشعر من جرائه بنقصان قيمته ،
ولكف الناس عن الاعتراف له بأنه يقدم خدمة « مفيدة » . وكان
مثال الموظف الجاد المجتهد المواظب الدقيق في عمله ، المهذب في
معاملة مرءوسيه ورؤسائه على حد سواء .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٦٩ ، تزوج من
برتغالية مثقفة ، اكبر منه سنا بقليل ، هي كارولينا أوجوستا
كسافيه دى نوفائس ، أخت شاعر هجاء معروف ، وذلك بعد أن
قاوم ارادة أهلها مصطدما بالتفرقة بين الملونين والبيض . وكان من
خير الازواج كما كان من خير الموظفين . ورغم انه أصبح يكسب مالا
كثيرا ، فقد ظل طوال حياته يعيش عيشته البسيطة المتقشفة ،
موزعا نشاطه بين عمله في الوظيفة وعمله في التأليف الروائي ،
مستظلا بظل زوجته المعبودة . كان لا يخرج من بيته الا قليلا ،
فيودع مذكراته في صندوق التوفير ، ويرعى أزهار حديقته ، ولا
يستقبل في بيته الا قلة من أصدقاء مصطفىين ، فكانت حياته متحدة
بعمله الادبي .

وكان الوقت مع ذلك مضطربا أشد الاضطراب . كان هنالك
اضطراب أدبي . مثاله ان سلفيو روميرو كان ينتقد الاتجاه الرومانسى
والإتجاه الهندى ، ويطالب بأدب « خلاسى » أو « هجين » يتفق
ووجه البلاد ، ضد أدب وافد محض ، أو هندى محض ، أو أفريقى
محض . ودخلت المدرسة الطبيعية أعنى مدرسة اميل زولا وايسا
دى كيروز الى البرازيل . واحتدمت المعركة بين « المدارس » .
فظل ماشادو دى أسيس بعيدا عن المعركة . انه لم يهجر الرومانسية
بجارية لتطور الافكار ، بل لان مزاجه كان يوجب عليه ذلك ، وظل
غير آخذ بالمدرسة الطبيعية اخذا كاملا . وفي السياسة لم يشترك
في ضروب الصراع التى قامت بين الأحزاب . ورغم انه كان خلاسيا
فانه لم يسهم في الحملة التى قامت ضد نظام الرق ، ولئن احتفل
بيوم إلغاء العبودية ، فيمكننا أن نتساءل : اتراه اشترك فيه بدافع
من نفسه ، أم انه استسلم لعدوى عامة سرت اليه من الجمهور ؟
ولم يحفل كذلك بظهور الحزب الجمهورى ، ولا بنشوء العمائد
السياسية الجديدة التى أدت الى سقوط الامبراطورية عام ١٨٨٩ .
انه يحيط نفسه بالظلال والاسرار . ان هذا الكاتب الذى جعل
رواياته حوارا مستمرا بينه وبين القارئ ، كان يختبئ في حياة

منطفئة هي حياة موظف ، أو في مكتبه قرب صفحة بيضاء ، أو في حديقته إلى جانب زوج يساقها حبا رقيقا .

وقد أخذ عليه ذلك بعنف في كثير من الأحيان . فوصف بأنه أناني ، وقيل عنه أنه منفصل عن المجتمع البرازيلي . ومع ذلك لم يكن أحد أكثر وطنية منه . غير أنه كان يضع الوطنية في الفن . أن هذا الرجل الذي كان بغير إيمان ولا دين ، هذا الرجل الذي رفض معونة الكاهن لحظة وفاته ، قد جعل الأدب رهبانية حقيقية . كان يرى أن خير وسيلة لخدمة بلاده البرازيل هي أن يهب لها آثارا أدبية جديرة بها . وإذا كان قد هجر الرومانسية ، فمرد ذلك إلى أنه رآها أدب مراهقين لا ثمرة حضارة ناضجة ، وإذا كان لم يصف المناظر ، ولم تشتمل آثاره على تصوير الطبيعة الاستوائية ، تصويرا بصريا على الأقل « أن هذا التصوير موجود في آثاره ، إلا أنه داخلي ، تلمسه في روح شخصياته ، وفي الألوان الجسمانية نعواطفها » فمرد ذلك إلى أنه كان يرى أن الطبيعة حادثة عن اتفاق الأعراض الجيولوجية ، وأنها « هبة من هبات الله » ، لا من خلق البشر .

أن البرازيل الحقيقية هي البرازيل التي تنشأ من الجهد البناء يبذله أبنائها . لذلك لم يكن ماشادو يؤمن إلا بالبشر . ومن الخطأ أن يقال أنه لم يعمل في السياسة ، لكن له سياسته « الخاصة » ، هي إنشاء « الأكاديمية البرازيلية للآداب » ، لم يدفعه إلى ذلك حب المجد ولا رغبة الخلاص في أن يساوى البيض أو يفوقهم ، وإنما كان يرى في صراع الأحزاب بدور تفكك قومي كما كان يرى في الأدب المحلي ، الذي بدأ نتيجة للمدرسة الطبيعية ، خطرا على الوحدة الثقافية للبلاد . لقد كان يقبل أن تتمتع الولايات المختلفة التي كان لكل منها اقتصاد مختلف ، باستقلال سياسي وإداري ، ولكنه كان يرى أن حركة الابتعاد عن المركز هذه يجب أن يقابلها مزيد من الاستناد إلى ما هو أساس الوحدة البرازيلية ، أعنى اللغة ، فالأكاديمية مؤسسة لها أذن هدف اجتماعي كبير ، فليس الفرض منها اقتسام أمجاد أو نيل خلود باطل ، إنما هدفها أخطر من ذلك كثيرا ، وهو أن تخلق أمام المجالس النيابية ، التي ينقلب فيها التضامن القومي إلى فئات من المذاهب المتفرقة أو المصالح الاقتصادية المتعارضة ، كيانا صلبا يستمد فيه ذلك التضامن قوة من حب اللغة ، رمز الحضارة .

ليس ماشادو دو أسيس ضد البرازيل ، بل هو أكثر كتاب البرازيل برازيلية . فكما تغفو الليالي العطرة ، ليالي الريو ، في الشعر الاسود الذي يكسو رعوس بطلاته ، كذلك يعلو زبد أمواج البحر ويهبط في عيون نسائه . انك تجد في رواياته أصدق تصوير للمجتمع الامبراطوري في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مع الصراع بين الحب والمال ، بين ارسقراطية الارض والبرجوازية الناشئة ، بين الشارع والمنزل ، وهو يظهر تمسكه بوطنه في ابتعاده خاصة عن المدارس المستوردة من أوربا ، وفي وقف حياته كله على خلق لغة برازيلية . ولكن التمسك بالوطن لا يعنى الانفلاق أو الانعزال . فهو اذ يكتب روايات نفسية يستطيع أن يكون برازيليا الى أبعد حد وأن يفتح للأدب البرازيلي في الوقت نفسه مجالا عالميا . ان أدبه أدب برازيلي لأن أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ، ولكنه في الوقت نفسه أدب عالمي لان التحليل الذي يتضمنه يقدم لمن ينتمون الى حضارات أخرى اصالة طيبة المذاق تأتيهم من بلد آخر . انه يضع أرضه وزمانه في آثاره ، ولكنه يخرج منهما عطرا يصلح لاناس من أرض أخرى وأزمنة أخرى .

ونستطيع أن نميز في الآثار الروائية التي كتبها ماشادو دو أسيس ثلاث مراحل :

فأما المرحلة الاولى فيمكن ان نسميها مرحلة تصفية الرومانسية . وهي تمتد بين حوالي عام ١٨٧٠ وعام ١٨٨٠ ، وتضم مجموعتين من الحكايات هما Contos fluminese و « Historias de Meia Noite » وأربع روايات هي : « البعث » ، « اليد والقفاز » ، « هيلينا » ، « يايا جارسيا » . لم يكن في وسع ماشادو دو أسيس أن يبدأ بداية أسوأ من هذه البداية ، فهو في هذه المرحلة يتأثر بأوكتاف فوييه ، موضوعاته رومانسية ، كقصة تلك الفتاة التي تبناها رجل آخر غير أبيها الحقيقي ، وآثرت أن تموت على أن تعد مغامرة ، أو كذلك الحب الشقي الذي يعانيه يورجي واستللا في رواية « يايا جارسيا » . ان الشخصيات التي صورها في هذه الكتب لم تكن شنية من الناحية النفسية ، فهي أقرب الى أن تكون كتلة واحدة ، كما أن أسلوب ماشادو لم يصل بعد فيها الى ما وصل اليه بعد ذلك من كمال . فعبارته قصيرة بل قصيرة النفس قليلا ، ومع ذلك ففي أسلوبه شيء من الاسهاب والاطناب ، فالفاظه تتكرر كثيرا ، وموسيقاه شائعة . ونستطيع أن نقول ان القصاص في هذه المرحلة

الاولى يتفوق على الروائي تفوقا كبيرا . كان ماشادو دو أسيس في هذه المرحلة لا ينطلق انطلاقا سهلا الا في تلك القصص القصيرة ، سواء اكانت قصص سحر أم قصص حب .

ولئن كانت الموضوعات والشخصيات خيالية تنتمي الى الرومانسية التي كانت لا تزال مهيمنة في البرازيل ، فان هذه الرومانسية تختلف مع ذلك من كتاب الى آخر باختلاف نوع السخرية . لقد تأثر ماشادو دو أسيس تأثرا كبيرا بالصحافة . وفي ذلك العصر الذي كانت فيه كتابة أخبار الشارع رائجة رواج « الازياء » ، تعود أن يتحاور مع القارئ ، لذلك نراه في رواياته لا يستطيع أن يمتنع عن أن يغمز قراءه غمزة صغيرة بعينه ، كأنه « يتهزا » مجرى القصة ، وكأنه يعمد الى نقد رومانسيته بنفسه ، وكثيرا ما أرجعت سخرية هذا الكاتب الى عقدة النقص الذي يشعر به الخلاسي ، والى كون الرجل الملون يعيش في أطراف الحياة منقسما على نفسه . ولسنا ننكر تأثير هذا العامل . وتحدث بعضهم كذلك عن تقليده للكاتب الايرلندي سترن أو الكاتب الفرنسي كسافيه دو ميتر . ولكن المرء لا يقرأ الا ما يناسب شعوره الخاص . وعندى انه ليس في آثار ماشادو دو أسيس سخرية بل سخریات ، أو قل ان سخريته قد اتخذت في آثاره المتعاقبة صورا مختلفة . فهي في هذه الروايات أو الاقاصيص الاولى سلسلة من أخبار الشارع قبل كل شيء ، هي ادخال أساليب صحفية في سياق العقدة نفسها ، أو وضع آلة جهنمية في داخل الرومانسية الرائجة من أجل نسفها .

ومن خلال هذه السخرية تحررت شخصية ماشادو دو أسيس من تأثيرات البيئة الادبية شيئا فشيئا . ونحن نرى في الواقع ان شخصياته تظل دائما مترددة ، متحيرة ، منطوية على نفسها ، لم تبلغ بعد درجة كبيرة من التعقد . لقد كتب يقول فيما بعد : « ان الفسيفساء ذات اللون الواحد هي في الحياة النفسية امر نادر جدا » . ولئن لم يصل ابطاله بعد الى تلك الفسيفساء من العواطف الكثيرة المتداخلة ، لقد كان في بعضها شيء من الالتباس العاطفي . وكان لابد مع ذلك من أن يطلع المرض على ماشادو مثلما طلع على بروسست ، بتهديده الاسود حتى يبلغ كاتبنا ذروته .

ان منظر ريو منظر مقطع : جبال ناتئة من الاوقيانوس وتمزقان وحشية . غير ان هناك منظرا آخر يقابل هذا المنظر الخارجي ،

هو منظر داخلي لكنه وحشي أيضا . ولقد سبق ان عبر ماشادو الشاعر عن ذلك ، فقال :

« ومع ذلك ، اذا أغمضت عيني ، وهبطت

« الى داخل نفسي ، رايت ، في ضوء شمس

« أخرى ، هوة أخرى ...

« سرا يجذب ويتحدى وينـام ... »

ان هذا السر هو نذر الصرع . وكان المرض ما ينفك يتقدم . لقد كتب ماشادو في الطبعة الاولى من كتابه « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ان فرجينيا أصيبت بنوبة صرع ، ثم حذف هذه الكلمة في الطبعة الثانية . ولكن المرء لا يستطيع أن يحذف المرض بسهولة كما يحذف الكلمة . ان ماشادو يحس بالجنون يقترب منه خفية . ان رؤى قاتمة تحاصره . وان نوعا من الهلع « الكونى » ، على حد تعبير جراسا آرانيا ، أصبح مقيما في نفسه منذ ذلك الحين لايفارقها . وعندئذ تبدأ السلسلة الثانية من رواياته ، وهى تلك التى سميت « روايات الفسق » . « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » ، « كونكاس بوربا » (١٨٩٢) « دون كاز مورو » (١٩٠٠) ، « ايزاو ويعقوب » وكذلك سلاسل جديدة من الاقاصيص اشد مرارة من الاولى كثيرا .

ويتراءى للقارىء ان ماشادو دو أسيس يستمر . . ولكن وسائله قد تغيرت دلالتها الآن . انه لا يزال يقطع القصة ليتحدث الى القارىء ، ولكن ذلك أشبه بهرب المدعور . انه يتشبه بقارئه كما يتشبه المرء باطار اجتماعي ، حتى لا يهوى في عزلة تعج بعجائب المخلوقات المخيفة . انه وقد اضطر أن يتجنب الاتصال بالناس حتى لا يروا مشهد نوباته وتفككه ، يستعيض عن ذلك الاتصال بهذا الحوار الخيالى . وهذا بعينه هو السبب فى انه لم يشأ أن يعتزل انوظيفة ! ذلك انه كان يجد فى قواعد العمل البورقراطى وفى النسبية الاجتماعية للنظام الادارى ، وفى تحديد ساعات المواظبة على المكتب ، حواجز تحول دون ترديه فى هوة الجنون . وكذلك لا تزال السخرية غالبية فى مؤلفاته . ولكن السخرية قد تغير اتجاهها . انها الآن تأمل فى الجنون . ان مجانين ماشادو يفكرون ، انهم مجانين منطقيون . ولماشادو دو أسيس فلسفة ، وهذه الفلسفة المركبة فيه كالة ميكانيكية تخيفه : الا يمكن ان تستحيل الى ورم ، الى طفيلي ، الى دمل آكل ؟ لذلك نرى غاية السخرية هنا أن تحمى المرء

من هذه الفلسفة ، وان تمنعها من أن تدور في رأسه دوران الهذيان ، وأن تكافح التمثيل الفلسفي بأدوية التهكم رغم أنه لم يتحرر من نظراته التشاؤمية الى العالم ، نتيجة لمرضه .

ومن الناحية الفنية انتقل ماشادو دو أسيس من المدرسة الرومانسية الى المدرسة الطبيعية . ولكنه كما قلنا ، لم يكن طبيعيا أكثر مما كان رومانسيا في حقيقة الامر . ان الواقعية ليست عنده حتى الآن الا وسيلة لمكافحة أغراء الجنون الذي كان يتفجر من أعماق نفسه ، ممعنا في وصف البيئة الاجتماعية ، وحياة الصالونات ، واضطرابات الشارع ، ومتشبثا بأذيال الحوار الذي يقوم بين أبطاله . لكنه لم يظفر بتجنب نداء المرض هذا تجنباً كاملاً . فانه ما ينهك يرتد الى نفسه . وهؤلاء أبطاله الذكور يعترفون بذلك . لقد وضع نفسه فيهم ، انه واياهم شيء واحد ، على صورة كاريكاتورية . بل ان كتبه لتصبح معرض مجاني . براز كوباس ، كونكاس بوربا ، روبيان ، سيمون باكاماتني « الاخصائي في الامراض العقلية » . لكن هؤلاء المجانين أيضا بعدا خاصا . ان سيكولوجيتهم فنية «بتقلبات القلب» ، وبتفتت الذات احساسات أو عواطف متناقضة . ان محبة قائمة تسكن فيه . ولئن ظل الاسلوب صافيا موسيقيا كنوع عذب يفنى ، فان هذا الصفاء لا ينفى تداخل الانعكاسات على الماء المخادع ركوده وهي انعكاسات دم حمراء ، لا بل انعكاسات سوداء لأجنحة ملائكة الليل .

والمرأة في منجى من الجنون ، هي في منجى منه لانها أميل من الرجل الى المجتمع ، ولانها حريصة على الوصول الى غايتها بالصالونات والحب ، أو الأتھاف . وهذا أغلب - أدنى من الرجل الى الفطرة ، وأقرب الى الحياة . انها الصق بالبر أو البحر . انها أقرب الى النبات أو الحيوان . فبهن تتكلم عبقرية النوع في جزائر شعرهن الذي يشبه غابة استوائية ، في بياض نحورهن التي تظهر وتتخفى ، في أذرعهن التي تذكر بالقمر ، في أعينهن المرتدة أمواجهها . ولكن لئن كن لايعرفن الهوات التي يتردى فيها أبطال ماشادو دو أسيس ، ان فيهن أسراراً أيضا . انهن جميعا مثل فلورا التي أحبت التوأم ، بدرو وباولو ، في آن واحد ، فلما لم تستطع أن تحل لغز قلبها ، آثرت أن تنحل في ليلة الصيف ، أن تنطفئ في الظل ، في عطور الازهار ، في تراب الحديقة . انهن لا يعرفن أنفسهن ، يترددن بين الخطيئة والآداب الاجتماعية ، بين

الابتسامة والمداعبة . انهن في روايات ماشادو دو أسيس يتبحرن عبر الصفحات شهوانيات ، فيمنعن هذه الصفحات من الوقوع في جفاف كان على ماشادو أن يحمي نفسه منه .

وفي عام ١٩٠٤ فقد ماشادو زوجته ، فكأنه هو الذي مات . كتب الى « يواكيم نابوكو » يقول : « ذهب أحسن جزء من حياتي . أنا الآن وحيد في العالم . والعزلة لا تثقل على . بل العكس هو الصحيح . لان العزلة هي الوسيلة الوحيدة لكي أظل أعيش بها ، وأسمع صوتها . . سألحق بها . انها تنتظرنى . . » وظن انه لن يكتب شيئاً بعد موت زوجته . انه يزداد انحباساً في منزله الصامت ليعيش مع طيف ، ولا يخرج من البيت الا الى المقبرة . انه يستسلم للموت الذي يتقدم الآن منه . ويرضى أن يجمع بعض الاقاصيص القديمة في مجلد نشر بعنوان «Reliquias da Cosa Velka» . لكنه يحس شيئاً فشيئاً بحاجة الى أن يحدث الفقيدة ويتحدث عنها . أن عليه قبل أن يغيب الى الابد ، ما دام الآن نصف نفسه فحسب ، أن يستمر في التعبير عن حبه لتلك التي تركته . واذا كان الحياء يمنعه من التحدث بصيغة المتكلم ، فقد عبر عن حبه في رواية ، فكان كتابه « Mémorial de Ayres » ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عن سائر المؤلفات التي سبقته . انه وحده المرحلة الاخيرة من ذلك الشموخ الروائي . واذا كانت روايات المرحلة الثانية يمكن أن تسمى « روايات الفسق » ، فان هذا الكتاب الاخير يمكن أن يوصف بأنه كتاب الليل . انه همس غزلي عذب كل العذوبة في الليل الذي يفشى . ولم يبق لماشادو بعد ذلك الا أن يموت . ولكن الالم لن يتركه حتى النهاية . لقد كافح البؤس وأصوله الخلاسية قبل ذلك الى آخر حدود الكفاح ، ثم كافح ثوبات الصرع وتهديدات الجنون ، وها هو ذا يصاب الآن بسرطان في الفم . ثم يموت في اليوم التاسع والعشرين من (سبتمبر) عام ١٩٠٨ ، ليلحق بالحبيبة تحت أزهار المقبرة .



ينتمي كتاب « كونكاس بوربا » اذن الى سلسلة روايات الفسق .

لقد أودع ماشادو دو أسيس في هذا الكتاب كثيراً من نفسه ، حتى التفاصيل الصغيرة ، مثل حبه للأزهار . لقد كتب يقول في احدي أقاصيصه : « في حديقتي أزهار أرعاها في حب ، وهي تحبني وتحينني كل صباح بأزكى عطورها ، ولا تستحي أن تقول

لى كلمات لطيفة عن متع الحياة . أعترف بأننى لا أقبل أن أقطفها ،
وانما أدعها تموت حيث ولدت .. » ، أو مثل حبه للكلاب :

لقد كان كلفا بكلبته أشد الكلف ، فلما اختفت مرة أعلن عن فقدتها
فى الصحف الى أن عثر عليها ، حتى اذا ماتت حزن لموتها وعنى بدفنها
فى ركن من فناء منزله . ان هذه الامور الصغيرة التى لا تبدو ذات
بال ، دلالات هامة ، فهى تدعونا الى البحث فى الرواية عن جزء
من اعترافات الفنان ، وان هذا الجزء لكبير .

فى شخصية روبيان يصور الكاتب نفسه ، فيتلبس باهاب
مجنون . ان روبيان هذا يعبر عن الفلسفة التشاؤمية المستمدة من
شوبنهاور ، وهى تشاؤمية أراد بعضهم أن يرى فيها ضربا من
الفلسفة الكلبية . ليس روبيان سوى معلم مدرسة فى مدينة صغيرة
بميناس . ولكن حين ورث كونكاس بوربا لم يرث بيوتا وثقودا
وأموالا فحسب ، بل ورث أيضا جنونه وفلسفته لأن كلا من هذين
الامرين يتصل بالآخر اتصالا عميقا بل ورث هذه الطبيعة «الانسانية»
ان فى العالم جوهر لا ينقسم ولا يتهدم ، « كالارادة » التى تحدث
عنها شوبنهاور ، لا شىء ينال من هذا الجوهر ، وما الموت اذن الا
شرط الحياة ، التى تعود تولد فى صورة أخرى . ان الطبيعة
« الانسانية » تستخدم أوهام الحب لتبقى ، وتستخدم الحرب
لتتبدل . فما هى أخلاقية ولا هى غير أخلاقية ، انها هادئة لا تتأثر
ولا تبالى بأحكامنا فى تقدير قيم الاشياء : ان كل نهاية هى وعد
ببداية .

والواقع ان هذه الفلسفة هى فلسفة ماشادو دو أسيس بعينها .
وقد سبق أن عبر عنها فى أشعاره التى نظمها وهو مراهق :

هذه القوة الخالقة ماثوثة فى كل مكان .

تتلظى فى الزهرة فتفسد ثمرتها .

والثلج حين يهدمها يضاعف قواها .

تمحض الطاهر والنجس حبا واحدا .

تبدا وتعيد عملا مستمرا .

تخضع ، باسمه ، للقاعدة الالهية :

« تقول هو الموت ، وأنا أقول هى الحياة » .

كما عبر عنها فى أشعاره الى كورين ، وفى أسطورة سيبييل التى
تلتهم الجثث لتحيلها ازهارا أو حيوانات أو كائنات حية أخرى ،
وفى حكاية آهاسفيروس وبروميشيوس : « الحياة مائة باب كمدينة

طبيعة القديمة . فما أن تفلق بابا حتى تتفتح أبواب « . والغبابة
الواسعة التى تحيط بمدينة ريو دو جانيرو ، ألا تظهرنا هى أيضا
على هذا الانبثاق الدائب الناشئ عن التعفن ، وعلى هذا الاستمرار
فى انبجاس الحياة من سوق الاشجار المتفسخة ومن الجدوع التى
حطمتها العاصفة ؟ ان ماشادو يعلم ان هذه الفلسفة البائسة تتناقض
مع ما بقى من مثالية رومانسية فى البيئة التى يعيش فيها ، لذلك
اجرى هذه الفلسفة على أفواه المجانين بسخرية قاسية . ولكن
هذا لا ينفى انها تمثل الفكرة التى ظلت فكرته العميقة من أول حياته
الى آخرها .

وقد يلاحظ على الاقل انه حين بدلها هذا التبديل باضفاء طابع
من السخرية عليها ، قد ميز بين وجوده السليم السنوى وبين
شخص كوتكاس بوربا أو شخص روبيان المصابين بهذيان . لكن
هذه الفترة هى الفترة التى كان فيها ماشادو يعيش فى خوف من
الجنون ، ويحس ان الجنون يحوم حول عقله كحيوان كاسر ، فوصف
نفسه حتى فى هذيان أبطاله .

وحين كان ماشادو صبيا صغيرا ، ألقى بياض بيضة فى قدح من
الماء ، كما يفعل جميع الناس ، فى ليلة عيد القديس يوحنا ،
ليقرأ مستقبله عليها ، فلما نظر اليها فى الصباح رأى فى السائل الذى
يتنبأ بالمستقبل شكلا غامضا يصور باخرة . فكان يقول فى بعض
الاحيان : « لم أركب باخرة الى الآن ، لكننى لن أفقد الاسل ،
ما بقى على سطح البحر بواخر » . ولم يخيب القدر ظنه ، لكن
رحلات ماشادو دو أسيس كانت رحلات بالخيال . لقد كان هذا
الرجل المتوحد رجلا حالما ، ركب البحور الداخلية مطوفا بين اللجج
المزبدة ، وطحالب الاحلام التى تتشبث بجدران المركب وتدبق
قعره ، وسمع اغاني جنيات البحر التى تتحدث عن حلاوة الموت
البطىء . وما جنون روبيان الا هذه الاغنية المعبرة عن الحنين ،
وهذا النداء الاصم الذى يصعد من وحدته ومن الخدر أو الفتور
الذى يحمله اليه الفكر الحالم وتحمله اليه نوبات الصرع ...
وآية ذلك ان هذيانات الابطال الذين يصورهم ماشادو دو أسيس
ملونة بأخيلته هو . ان مجانينه لايشبهون مجانين «ادجار آلان بو»
أو «مجانين دوستويفسكى» انهم مجانين متفلسفون متمنطقون ،
وهم كذلك اناس يريدون ان يهربوا من أنفسهم ، ويفلتوا من ذواتهم .
لقد كان ماشادو دو أسيس معجبا اشد الاعجاب بقيصر .

وتابوليون وكرومول ، والرجال الاقوياء ، وبناء الامبراطوريات ، وهذا روبيان في رواية « كوتكاس بوربا » يتحد بنابوليون . صحيح انه يتحد بنابوليون الثالث ، ولكن نابوليون الثالث هذا يقهر ملك بروسيا . ان ها هنا أكثر من هذان بالامجاد . ان روبيان اذ يقص لحيته ويجعل وجهه كوجه نابوليون الثالث ، يغير شخصيته ، ويشرع في رحلة خيالية كبيرة .

وقد قلنا ان روايات الفسق التي كتبها ماشادو دو أسيس ظهرت ابان تغلب المدرسة الرومانسية في الاوساط الادبية في ذلك العصر . ويجب ان نذكر مع ذلك ان الرومانسية لم تمت تماما في مؤلفاته بل ظلت تترقرق في باطنها ، ولكن في هذه الصورة الخفية ، صورة الانفجارات المفاجئة التي نرى فيها تدفق الاحلام والهذيان المنطقي والجنون . لقد لاحظ النقاد ان مؤلفات ماشادو دو أسيس لا تشتمل الا على قليل من حوادث الانتحار . وهذا صحيح . غير ان مرده الى ان ماشادو دو أسيس كان يريد الاستمتاع بهذا القسم البطيء الذي يتم في باطن كيانه ، وكان يريد الاستمتاع بهذا الخراب التدريجي ، بهذا الانتحار الذي يدوقه العقل جرعات صغيرة ، وعلى ذلك فان ماشادو دو أسيس ظل رومانسيا . ولكنه كان طبيعيا أيضا من حيث عنايته بالوصف الدقيق . انه يصف تطور الجنون لدى روبيان وصفا لا يستطيعه الا عالم من علماء الامراض العقلية ، كتبلور الهذيان ، وازدواج الشخصية ، والتجول الآلى ، والهلوسة ، ثم السقوط النهائي .

على ان النزعة الطبيعية في تصويره بطله قد عاقها الميل الى الاعتراف . لذلك كانت عبقريته في الملاحظة تظهر في تصويره للشخصيات الثانوية خاصة . وليس معنى هذا ان ماشادو دو أسيس لم يودع هذه الشخصيات الثانوية شيئا من نفسه أيضا .

ان صوفيا مثلا كانت متقدمة في السن قليلا حين عرفها روبيان ، وكلما ازدادت تقدما في السن كانت تزداد جمالا ، كتلك التماثيل اليونانية التي يصقلها الزمن بالشمس والمطر متعاقبين . فكيف لا تذكرنا صوفيا بـ زوجة ماشادو دو أسيس التي كانت أكبر سنا من زوجها . ان كاتبنا في حاجة دائمة الى شيء من حنان الام في الحب ، وربما كان مرد ذلك الى انه حرم هذا الحنان صبيا . غير ان هذه الامور ليست الا لمسات خفيفة . أما فيما عدا ذلك فقد كان ماشادو دو أسيس يخرج من ذاته ليحسن تصوير شخصياته ،

فهو يلاحظ الناس الذين يحيطون به ملاحظة دقيقة أمينة ، ويصفهم وصفاً حياً إذا . لا يظهر ذلك في تصوير شخصية باليا ، هذا الملك « كاندول » ، الذي يعرض مفاتن امراته ، على شرط أن يكون مالكها الوحيد ، ولا في تصوير شخصية صوفيا التي نشأت في بيئة وضيعة ، وعرفت أنها لا تستطيع أن ترقى فيها إلا بالمال وحفلات المجتمع ، واجادة استعمال الحب مع الشرف اجادة نادرة ، وانما يظهر أيضا في تصوير الشخصيات الثانوية جدا ، مثل فريتاس الطفيلي ، وتونيكا العازبة الابدية .

ولاشك في أن الكتاب معرض أناس غلاظ أو مجرمين . لقد كان ماشادو دو أسيس أشبه بجراح يرتدى قميصا أبيض وقفازين من المطاط ، يعمل مبضعه في نفوس أبطاله مظهرا اثرتها وجبنها وطمعها ، ملفعا ذلك كله بموسيقى عباراته ، وبأسلوبه الشفاف الهادئ . وكما كانت نظرتة الى العالم نظرة « سادية » ، فكذلك كان في روبيان شيء من السادية حين مضى يشهد تنفيذ الحكم بالاعدام في رجل زنجي . وقد يقال أن هذه السادية تشوه صورة الواقع وتفسد صحتها . حتى ذهب بعضهم الى أن كتاب « كوناكاس بوربا » لا يضم الا كائنا واحدا محببا الى القلب ، هو ذلك الكلب المسكين المتعلق بمولاه أشد التعلق ، الذي أسند اليه المؤلف حياة نفسية شبيهة بحياة كلب أناتول فرانس في « الحديقة المزدوجة » ، والذي مات تحت سماء العاصفة في شارع صغير بائس . وهذا غير صحيح تماما لان في الرواية شخصية تفيض شهامة واخلاصا وتفانيا هي دونا فرناندا . ويروي السيدس مايا انه عبر في يوم من الايام لماشادو دو أسيس عن عاطفته نحو تلك المرأة ، وأنه قال له : « ليست هذه المرأة خلقا أدبيا بل هي شخصية حية » فما كان من ماشادو ، فيما يروي الراوى ، الا أن نهض مضطربا ومضى الى النافذة ، وأجاب دون أن يلتفت : « نعم ، لقد عرفت هذه السيدة ، وهي من بلدك » . ولكن الشفقة هي التي يسيطر جوها على الرواية بوجه خاص ، كما يترقرق فيها حب كبير للبشر ، رغم ما نرى فيها من ضروب الخبث والصفار والانانية .

واذا صح أن الالم قد يشوه رؤية الواقع ، فانه من الحق أيضا أن المجتمع في ذلك العصر كانت له أصباغه القاتمة . كان المجتمع الامبراطوري قد انحل انحلالا كاملا ، ففي السياسة كانت حركة العقائد السياسية عاجزة عن اخفاء حقيقتها عن الانظار وهي انها

خصومات على مصالح شخصية ، ونزاعات قديمة بين الفئات لا تزال قائمة . وفي الاوساط الراقية كان السعى الى الامجاد ، والى المال خاصة ، كيف النفوس ويشوه العواطف ، والصالونات التي يملؤها تلالؤ العقود في الاعناق ، وهفيف أثواب السهرة ، والتفزل بالكلام. المهموس في ضوء القمر تحت ظلال الحدائق ، كل ذلك كان يؤلف عالم النساء العواقر المتفتحات كالازهار الزاهية في آنية جميلة تزهو ثم تموت ولا توثى ثمرا . ان ماشادو دو أسيس يصور ، من غير تشويه ، الآثار الاولى لنشوء المدنية والصناعة في مجتمع ريفي الاصل .

والكاتب يضع نفسه في اثره دائما . هذا صحيح . ولكننا لا نستطيع ان نوحدهما . ذلك ان الرواية ثمرة ارادة فنية تحاول ان تبلغ صورة من صور الجمال . فاذا كان « ماشادو دو أسيس » يتيح لنا ان نلمح في بعض المواضع ذلك الخوف الرهيب الذي يستبد به ازاء تهديدات الجنون ، فانه يظل حريصا على العنيفة بحرفته ككاتب . لقد اراد بعضهم ان يفسر ميله الى التفاصيل الصغيرة بأنه كان حسير البصر : « أحب نبش الامور الصغيرة المختلفة . وحيث لا يدس احد أنفه ، ادس انا أنفى ، وفي نفسى من الفضول ما في نفس من يكشف أمرا مخبأ » . ولكن لهذه الاشياء الصغيرة الدقيقة دلالة فنية : انها تريح القارئ من الخطوط الكبرى الفاجعية ، اللهم الا ان نقول انها تشير الى تفتت الزمن في غبار ذهبي من اللحظات . وقد اراد بعضهم أيضا ان يعلل قصر جملته بثأثاته ، ولكن الجملة القصيرة كانت عنده سلاحا ضد الرومانسية الخطابية ، ضد العبارة المنتفخة المتفخمة التي يستعملها الطلاب المتخرجون في القانون أو الشعر . لقد هجر أخيرا أوكتاف فوييه ، واهتدى الى اخوته في الفن من أمثال ميرييه وستاندال . والتكرار كثير في آثاره ، لكن هذا التكرار ليس ثمرة لمزاجه الصرعى ، ولا هو لدى هذا العامل المجتهد المخلص تهاون ورخاوة في الأسلوب . واذا كان وصفه لذلك الجزء الذي يمتد في مدينة ريو من ساحة فورموزا الى ساكو دي افريس يتكرر في « كوتكاس بوربا » و « روكوليداس » ، و « اقاصيص بلا تاريخ » فمرد ذلك الى انه حتى طفولته ومرتفع نزواته الطويلة على شاطئ الماء . انه أشبه بعنقود من ذكريات حبيبة على باقة ازهار اصطناعية . واذا كنا نرى حادثتين من حوادث اصطدام العربات في « كوتكاس بوربا » ،

وحوادث أخرى في أقاصيص أخرى ، فمرد ذلك الى أن « الحياة لا تتألف الا من أربعة ظروف أو خمسة في أكثر تقدير ، ولأن نزوات الظروف هي التي تبدلها في نظرنا وتكثرها » . لقد تعلم « ماشادو دو أسيس » من فن المسرح الذي حفل به أول الامر في كثير من الحماسة ، كيف يرد الحياة الى عدد من مواقف بعينها ، واستفاد من ذلك ، حين أصبحت المدرسة الرائجة هي اظهار فقر الانسان بل وفقر المصادفات ، على خلاف ما يتراءى لخيال الرومانسيين .

نعم لقد كان ماشادو دو أسيس مريضا ، وكان خلاسيا ، وكان من أبناء الشعب . ولكنه كان قبل كل شيء فنانا ، واستطاع في الرواية التي ستقرءونها أن يصل الى امتلاك ناصية أسلوبه ، حتى أصبح علما من أعلام القدرة الفنية على تصوير المناظر أو البيوت أو الشخصيات بوضع لمسات خفيفة كالكلاسيكيين ، وعلى الإيحاء بأخطر الأشياء وأخفى خلجات النفس وهو بذكرها ذكر عابر ، ويخفيها في ركن من جملة ، مع الخاحه على أمور تافهة والقائه القارئ في طرق جانبية بشيء من السخرية ، وعلى المزج بين الطبيعة والانسان ، بدلا من أن يصف الطبيعة في ذاتها ، فهو يجعل « رقص الامواج » امتدادا لرقص الصالونات ، حتى لكان الرقصين كليهما حركة مضطربة خضراء واحدة ، وهو يكسو نساءه بضوء القمر وبالسمااء المرصعة بالنجوم ، ويشربهن كل ما في النبات الاستوائى من شهوانية . ولما أصبح علما من أعلام القدرة الفنية فبذلك أصبح علما من الاعلام في التهكم والسخرية .

لقد كتب الباحثون كثيرا في السخرية الماشادية ، ومع ذلك لا يزال عليهم أن يكتبوا كل شيء عنها . لقد عرفوها تعريفات عامة ، وتحذثوا عن سترن وعن كسافييه دو ميتر ، واستشهدوا بالحند الذي يشعر به الخلاسي ، وذكروا الازياء الانجليزية التي كانت رائجة في البلاد . ولكننا ما زلنا في حاجة الى تحليل فني لسخرية ماشادو . ان في عنوان الكتاب وحده شيئا من السخرية « كونكاس بوربا » . ان هذا الشخص لا يظهر الا في الصفحات الاولى من الكتاب . وهو يلعب في قصة « مذكرات براز كوباس تنشر بعد موته » دورا اكبر . ان كونكاس بوربا هو هنا كلب . وقد سبق ان عمد ماشادو الى هذه الطريقة في احدى حكاياته الاولى . فجعل عنوان الحكاية « الأنسة دولار » بحيث يتوهم القارئ انه سيرى امرأة ، فاذا هي حيوان . على ان السخرية هنا ليست مجرد مزاح ، فان كونكاس بوربا حاضر

بقيامه نفسه حتى من أول صفحة في الكتاب الى آخر صفحة .
لقد ورثه روبيان ، وهو يقضم روبيان كدودة خفية . واذا كان
الفرض من السخرية هنا الاشارة الى المصير ، فانها تهدف في مواضع
أخرى الى غير ذلك . انها تظهر ، مثلا ، بانقلابات مفاجئة في الرواية
« رؤية روبيان للعالم قبل الميراث وبعده » ذلك التقطع الزماني الذي
كان يحاضر ماشادو دو أسيس ، هرب الزمان الى غير رجعة
وانقضاؤه بغير عودة . ليست السخرية هنا ترفا يضاف الى الاثر
اضافة ، ولا هي نوع من اظهار « الفكاهة » ، ولا هي مجرد تعبير
عن مزاج . ان لها وظيفة فنية . انها لا تصفى الرواية من مرارة
الدمعة ولكنها تحيل الدمعة في آخر الفصن المشدود قطرة
مضيئة من الندى .

روحيه باستيد

١

كان روبيان يحدق الى الخليج الصغير . هي الساعة الثامنة من الصباح . لو رأيته على هذه الحال مطلا من نافذة منزل كبير ببوتافوجو ، غارزا ابهاميه في حزام ثوبه ، لظننت انه يعجب بالماء الهادئ الممتد أمام بصره . لكننى أوكد لك انه كان يفكر في شيء آخر لا صلة له بهذا البتة . لقد كان يقارن بين الماضي والحاضر . ماذا كان منذ سنة ؟ معلما . ماذا أصبح الآن ؟ ثريا من الاثرياء . وألقى نظرة على نفسه ، على نعليه « وهما نعلان تونسيان أهدهما اليه صديقه الجديد كرستيانو باليا » ، على البيت ، على الحديقة ، على الخليج ، على الروابي ، على السماء . انه يتأمل هذا كله ، من النعلين حتى السماء ، تأمل مالك .

قال بينه وبين نفسه : « ليس في وسع المرء أن يدرك طرق العناية الالهية . لو أن أختي ببيداي تزوجت كونكاس بوربا ، لما كان لى الآن الا بضعة آمال على الهامش . لكنها لم تتزوج ، ومات الاثنان كلاهما ، فاذا كل شيء يؤول الى ، ان ما كان يبدو مصيبة من المصائب ... »

٢

ما أعمق الهوة التى تفصل بين الفكر والقلب ! لقد حاول فكر المعلم السابق ، وقد آلمه هذا خاطر أشد الايلام ، أن ينتقل الى موضوع آخر : هذا قارب يمر ، لكن قلبه ظل يخفق فرحا . ما لقلبه وللقارب وراكبه اللذين تتشبت بهما نظراته ؟ كان القلب يردد : ما دام أجلها قد انتهى ، فمن الخير انها لم تتزوج . كان يمكن أن تلد صبيا أو بنتا ... ما أجمل هذا القارب ! - الحق أنه لم يكن فى الامكان أبدع مما كان ، ما أزوع طواعيته للمجدف ! لاشك انهما فى السماء .

وجاء حادم بالقهوة ، فتناول روبيان الفنجان . وفيما هو يضع السكر ، نظر خلسة الى الصينية المصنوعة من فضة منقوشة . كان قلبه يحب الذهب والفضة حبا خاصا . انه لا يحب البرونز ، لكن صديقه باليا قال له ان البرونز معدن ثمين أيضا . لذلك نرى في غرفة الاستقبال ذينك التمثالين الصغيرين اللذين يمثلان مفستوفيلس وفاوست . على انه لو أوتى الاختيار ، لأثر الصينية ، هذه التحفة الفضية ، الرائعة بأناعتها ورهافتها . وظل الخادم ينتظر رصينا هادئا . ان الخادم اسباني . وروبيان لم يقبله من بين يدي كرستيانو بغير مقاومة . ذكر لصديقه انه قد تعود صحبة أهل مينا ، وانه لا يريد في بيته لغات أجنبية ، لكن صديقه أصر على رايه ، وأوضح ان من الضرورة بمكان ان يكون له خدم بيض . فأذن روبيان على مضض . وخادمه الطيب الذي كان يريد ان يكل اليه أمر الخدمة في غرفة الطعام ، لكونه أثرا من آثار الولاية التي جاء منها ، لم يستطع ان يدعه حتى في المطبخ حيث كانت السيطرة لفرنسي اسمه جان ، واضطر ان يعهد اليه بأعمال دون ذلك مقاما .

— هل كونكاس بوربا مضطرب كثيرا ؟
كذلك سأل روبيان الخادم وهو يرشف ثمالة القهوة ، ويلقى على الصينية نظرة أخيرة .
فأجابه الاسباني بالاسبانية :
— أظن ذلك .
فقال روبيان :
— أنا ذاهب لأفكه .

ولم يذهب ، وانما لبث ينظر الى الاثاث فترة من الوقت . فلما وقع بصره على الصور الانجليزية الصغيرة المعلقة بالحائط فوق التمثالين البرونزيين ، أخذ يفكر في صوفيا الجميلة ، زوجة باليا . ثم تقدم بضع خطوات الى امام ، وجلس على مقعد في وسط الصالون ، ينظر الى بعيد .

— هي التي شجعتني على شراء هاتين اللوحتين الصغيرتين يوم كنا نبحث نحن الثلاثة عن أشياء نشتريها . ما كان أجملها ! ان كتفيها اللذين رأيتهما في حفلة الرقص التي أقامها الكولونيل هما ما أفضله فيها . ما أروعهما كتفين ! لكنهما من مرمر . . . ما أنعمهما

ما أنصع بياضهما ! والذراعان .. آه .. يا لهما من ذراعين !
ما أحسن تكوينهما !

وتنهذ روبيان ، ولف ساقا بساق ، واخذ يعبت بحزام ثوبه .
لم يكن يشعر بأنه سعيد كل السعادة . لكنه كان يشعر بأنه غير
بعيد عن السعادة الكاملة . تذكر بعض الحركات ، بعض النظرات ،
بعض الاوضاع . انها جميعا لا يمكن أن يكون لها سبب غير الحب ،
بل لا يمكن أن يكون مصدرها الا حب كبير . لم يكن روبيان طاعنا في
السن . سيبلى الاربعين قريبا ، بل ان من ينظر اليه لا يقدر له هذا
العمر . وجعله هذا الخاطر يمر بيده على ذقنه . انه يحلق ذقنه في
هذه الفترة من حياته كل يوم . وذلك أمر جديد لا عهد له به من
قبل « كان في الماضي يقتصد ، ولا يشعر بالحاجة الى حلق ذقنه » .
تخلوا ماذا كان ، معلما بسيطا . انه يدع كثنين من الشعر في
خديه « وقد أرخى لحيته كلها بعد ذلك » ، وهى تبلغ من النعومة
درجة تجعل امرار أصابعه فيها يولد له لذة . اى لذة . . . ثم تذكر
لقاءهما الاول في محطة فاسوراس ، حين دخلت صوفيا مع زوجها
الى عربة القطار التى كان مستقرا فيها منذ سفره من ميناس .
وهو انما كشف في تلك اللحظة عينيها الشهوانيتين اللتين تذكران
بدعوة النبي : « من كان منكم ظامئا فليشرب » . صحيح انه لم
يكن في الحالة النفسية التى تقتضيها دعوة كهذه الدعوة . فلقد
جاء مثقل الرأس بالمراث والوصية وقائمة الاشياء . وتلك كلها
أمور ينبغى لنا الآن ان نشرحها حتى يستطيع القارىء ان يمسك
بخيطة القصة . فلندع روبيان اذن فى صالون بيته يحى بوتافوجو ،
عابثا بحزام ثوبه ، مفكرا فى صوفيا الجميلة . اتبعنى ايها القارىء ،
حتى نلتقى بروبيان ساهرا على كونكاس بوربا قبل ذلك ببضعة أشهر .



اذا شرفتمونى بقراءة كتابى « مذكرات براز كوباس تنشر بعد
موته » . رأيتم كونكاس بوربا هذا يظهر فى ذلك الكتاب متسولا
ورث ثروة طائلة على حين فجأة ، وله من جهة أخرى مذهب فلسفى
هو خالقه . ذلك هو الآن فى مدينة بارباسينا . انه ما كاد يصل
الى هذه المدينة حتى وقع فى غرام أرمل ظروفها ومواردها متواضعة .
وكانت هذه المرأة الى ذلك شديدة التحفظ ، حتى لقد بلغت من

شدة التحفظ ان ما أعلنه لها عاشقها من حب لم يوقظ في نفسها
أى صدى . كان اسمها ماريادادى . وقد بذل أخوها روبيان
الذى سبق الحديث عنه ، كل مايطيقه من جهد فى سبيل تزويجهما .
لكن بيادادى لم تتزحزح عن موقفها ، ثم ماتت بالتهاب الرئتين .

وقصة الغرام الصغيرة هذه هى التى ربطت بين الرجلين وشدت
أحدهما الى الآخر . هل كان روبيان يعرف ان رأس صاحبنا
كونكاس بوربا يضم تلك البذرة من الجنون التى اعتقد أحد الاطباء
انه اكتشفها فيه ؟ لا شك فى ان روبيان كان يجهل ذلك . كل مافى
الامر انه كان يعده شاذاً بعض الشذوذ . لكن هذا لا ينفى ان
تلك البذرة من الجنون لم تبرح رأس كونكاس بوربا فى يوم من
الايام ، لا قبل ذلك المرض الذى أفناه شيئاً بعد شيء . .
ولقد كان لكونكاس بوربا أقرباء ، لكنهم كانوا فى عام ١٨٦٧ قد
ماتوا جميعاً . وآخر من مات منهم انما هو ذلك العم الذى ورث
عنه كونكاس بوربا ثرواته . وظل روبيان الصديق الوحيد
الفيلسوف . لقد كان يدير مدرسة للصبيان ، فلم يلبث ان أغلقها
من أجل أن يفرغ للعناية بالمرضى . كان قبل أن يصبح معلماً ،
قد أقدم على عدة مشاريع ، لكنه منى بالاختفاق فيها جميعاً .

ظل روبيان يزاول مهنة الممرض هذه مدة خمسة اشهر ، او ستة
تقريباً . وكان صادق الاخلاص ، صبوراً ، باشاً ، نشيطاً ، يطيع
أوامر الطبيب ، ويجرع المريض أدويته فى مواعيدها ، ويمضى ينزله
دون أن ينسى شيئاً ، فلا هو يغفل عن خدمة البيت ، ولا هو
يهمل قراءة الجرائد متى وصلت فى صندوق ريو أو صندوق
أوروبريتو .

وكان كونكاس بوربا يقول له متنهدا :

— أنت طيب ياروبيان .

وكان رأى الذى يعلنه الطبيب هو ان كونكاس بوربا سيشفى
شيئاً بعد شيء . لكن روبيان سأل الطبيب ذات يوم وهو يشيعه
حتى الباب : ما هى حالة صديقه حقاً ؟ فعلم عندئذ انه سيقضى
نحبه لا محالة ، غير ان من الواجب مع ذلك أن نستمر على بث
الامل والرجاء فى نفسه ، اذ ليس من الحكمة فى شيء أن نكشف له
عن الحقيقة ، فنجعل الموت أشق على روحه وأقسى .

فأجابه روبيان بقوله :

— صدقنى اذا قلت لك ان الموت أمر سهل عنده . ألم تقراً

بدأ ذلك الكتاب الذى ألفه منذ عدة سنين ، وفيه يعالج موضوعا
من مواضيع الفلسفة لا أدرى ما هو ؟
- لا لم أقرأ الكتاب ، لكن التفلسف شيء ، والموت حقا
شيء آخر .



كان لروبيان منافس ينازعه قلب كونكاس بوربا ، هو ذلك الكلب
الجميل ، المتوسط القامة ، الأشهب اللون على بقع سود . كان
كونكاس بوربا يصطحب الكلب حينما يذهب . وكانا ينامان معا في
غرفة واحدة . وكان الكلب هو الذى يوقظ صاحبه في الصباح .
يتسلق السرير ، ويأخذ الاثنان يتبادلان التحيات . ومن غرائب
كونكاس بوربا انه سمي الكلب باسمه هو ، وكان يعمل ذلك
بعاملين ، أولهما ذو صلة بالعقيدة ، والثاني شخصي :

- ذلك ان « الطبيعة الانسية » في عقيدتي هي مبدأ الحياة
نفسه ، فهي مبثوثة في كل مكان ، قائمة أيضا في الكلب ،
فنستطيع اذن ان نسميه باسم انسان ، سواء أكان هذا الانسان
مسيحيا أم كان مسلما .

فقال له روبيان وقد تذكر اسم احد الخصوم السياسيين في
المدينة :

- ولكن اليس من الافضل والحالة هذه ان تطلق عليه اسم
بيرناردو ؟

فأجابه كونكاس بوربا :

- هنا نصل الى العامل الشخصى ، اذا مت قبل كلبى العزيز ،
وهذا ما أتوقعه ، بقيت بعد الموت في اسمه . هذا يضحكك ؟
اليس كذلك ؟

فأشار روبيان منكرا :

- بل ينبغي لك ان تضحك يا عزيزى ، لان الخلود نصيبى او
مهربى ، ما في ذلك من ريب ، لسوف أعيش الى الابد بكتابى
العظيم . والذين لا يعرفون القراءة ، سوف ينادون الكلب باسم
كونكاس بوربا ، و ...

فلما سمع الكلب اسمه هرع الى السرير ، فنظر كونكاس بوربا
منفعلا .

- صديقى المسكين ، صديقى الطيب ، صديقى الوحيد .

ـ الوحيد ؟

ـ عفوك . أنك لصديقى أيضا . أنا أعرف أنك صديقى ، واني لا شكر لك ذلك أجل الشكر . على المرء أن يغفر للمريض كل شيء .
ايكون الهذيان قد بدأ منذ الآن ؟ ناولنى المرأة .

أعطاه روبيان المرأة . فظل المريض يضع لحظات يتأمل وجهه الناحل ونظرته المحمومة التى تطل منذ الآن على عالم الموت ، على العالم الذى يسير المريض اليه بخطا بطيئة لكنها محققة ، ثم قال .
وهو يبتسم ابتسامة صفراء ساخرة :

ـ مظهرى ينبىء عما أحسه فى داخلى . اننى مائت ياعزيزى .
روبيان ... ليس يجدى أن أحتج .. انى مائت .. ولكن ما هو الموت حتى تجزع منه هذا الجزع كله ؟

ـ أعرف ، أعرف ان لك فلسفتك ... ولكن فلنتكلم عن الغذاء .
ماذا نحب أن نأكل اليوم ؟

فنهض كونكاس بوربا على السرير ودلى ساقيه اللتين يدرك المرء
نحولهما الشديد من خلال السروال .

فأسرع روبيان يسأله :

ـ ماذا ؟ ماذا تريد ؟

فأجابه المريض مبتسما :

ـ لا شيء ... فلسفتك ... أنك تقول هذه الكلمة باحتقار شديد .. هيا كررها .. أحب أن أسمعها مرة أخرى . فلسفتك .
ـ ما هذا بالاحتقار . وكيف يكون لى أن أحتقر فلسفة ؟ كل ما أقوله هو أنك تستطيع أن تستخف بالموت ، لان لك حججا ، لان لك مبادئ .

وبحث كونكاس بوربا عن نعليه بقدميه ، فجاءه روبيان بهما ، فانتعلهما وأخذ يمشى ليزيح ساقيه . ودغدغ الكلب ، واشعل سيجارة . فأراد روبيان أن يغطى المريض جسمه ، فجاءه برداء وصدرة وثوب ومعطف ليختار منها ما يشاء . لكن كونكاس بوربا دفعها عنه جميعا بحركة من يده . لقد تبدل وجهه الآن تبديلا كاملا ، فكان عينيه الفائرتين تحللان ما يجرى فى دماغه . وبعد أن ظل فترة من الوقت يتجول فى الغرفة طولا وعرضا ، وقف يضع لحظات أمام روبيان .

— من أجل أن تفهم معنى الموت والحياة حق الفهم ، يكفي أن
أروى لك كيف ماتت جدتى .
— كيف ماتت ؟
— أقعد .

أطاع روبيان الامر ، وقد ظهر في وجهه أعظم مايمكن من الاهتمام ،
بينما أستمع كونكاس بوريا يسير في الغرفة طولا وعرضا .

— حدث ذلك في ريو دو جانيرو ، في يوم من أيام الاعياد ، أمام
« الكنيسة الامبراطورية » التي كانت يومئذ « الكنيسة الملكية » .
خرجت جدتى من الكنيسة ، واجتازت الفسحة التي أمام الباب ،
لكي تمضي الى كرسي يحمله حمالون ، كان ينتظرها في ميدان
« ياسو » . المكان يعج بالناس ، لان الشعب يحلو له أن يرى
كبريات السيدات وهن يركبن عرباتهن . وفي اللحظة التي قطعت
فيها جدتى الفسحة التي أمام باب الكنيسة لتتجه نحو كرسيها
الذي كان بعيدا بعض البعد ، فزع على حين فجأة أحد بغلي عربية
من العربات ، واهتاج احتياجا شديدا ، فقلده البغل الآخر ، وفي
غمرة الاضطراب والاصطخاب اللذين أعقبا ذلك ، سقطت جدتى على
الارض ، فداسها البغلان والعربة ، فنقلت فورا الى صيدلية في شارع
ديزيتا ، وهرع الى نجدتها صيدلى ، ولكن كان الاوان قد فات ،
فان جدتى التي شق رأسها وتحطمت ساقها وكتفها ، لم تكن اذ
ذاك الا جرحا فافرا ، فما انقضت دقائق الا ولفظت أنفاسها الاخيرة .
قال روبيان :

— يا لها من مصيبة !

— لا ...

— كيف لا ؟

— اسمع التتمة . اليك كيف وقع الامر : لقد كان صاحب
العربة في الفسحة التي أمام الكنيسة ، وكان جائعا ، بل جائعا
جدا ، لان الوقت متأخر ، ولانه أفطر في ساعة مبكرة ، ولم يأكل
في افطاره الا قليلا . واستطاع من مكانه على الفسحة أن يومئ الى
الحوذى أن يتقدم ، ف ضرب الحوذى البغلين ليُمضى الى سيده ،
وبينما كانت العربة تسير التقت بحاجز قلوبته ، وكان هذا الحاجز
هو جدتى . فالفعل الاول في هذه السلسلة كلها انما كان فعلا

محافظة على البقاء . كانت الطبيعة « الطبيعة الانسية » جائعة .
فلو كان هنالك في مكان جدتي فأرة أو كلب لما ماتت جدتي ، ولكن
كذلك ما كان ليبدل الواقعة في ذاتها ، وهي ان « الطبيعة الانسية »
كانت في حاجة الى أن تأكل . ولو كان هنالك ، في مكان الفأرة أو
انكلب ، شاعر من الشعراء ، مثل بايرون أو جونزالفس دياس ،
لاختلفت الحالة بعض الاختلاف ، بما قد يكتب فيها من مقالات
رنانة كثيرة ، لكن جوهر الامر لا يتغير ، فالارض لم تتوقف حتى
الآن عن الدوران لأن عددا من قصائد الشعر لم تظهر بعد ولكن
الطبيعة الانسية « وهذا فوق كل شيء » في حاجة الى أن تأكل .

كان روبيان يصفى محمقا ، صادق الرغبة في الفهم . لكنه لم
يدرك كل الادراك تلك الضرورة القطعية التي يعزو اليها صاحبه
موت جدته . اذ لا شك في ان صاحب العربة ما كان ليموت جوعا
لو وصل الى بيته متأخرا ، في حين ان السيدة المسكينة قد ماتت ،
ماتت الى الابد . وحاول روبيان أن يبسط لصاحبه ما يساوره من
شكوك ، ثم سأله :

— وما هي هذه الطبيعة الانسية ؟

— « الطبيعة الانسية » هي المبدأ . لكن لا ... لن أقول
شيئا ، فما أنت بقادر على أن تفهم يا عزيزي روبيان . فلنتحدث
في شيء آخر .

— بل اتم كلامك .

ولم يكن كونكاس بوربا قد انقطع عن المسير اثناء ذلك ، فتوقف
عندئذ بضع لحظات وقال :

— هل تريد أن تكون تلميذي ؟

— من غير شك .

— حسن . ستنفذ اذن الى فليفتي شيئا فشيئا ، وسيكون
اليوم الذي نهضمها فيه كل الهضم أجمل أيام حياتي ، اذ لا شيء
أجلب لنشوة السعادة من الحقيقة . صدقني اذا قلت لك ان
« الطبيعة الانسية » غاية كل شيء . والذي اكتشفها ، أعني انا ،
هو أعظم انسان في العالم . هه . انظر كيف يحدق الى كونكاس
بوربا . ان « الطبيعة الانسية » هي التي تحدد ، لا هو .

— ولكن ما هي الطبيعة الانسية ؟

— « الطبيعة الانسية » هي المبدأ . ان في كل شيء من الاشياء
جوهرًا مختبئًا هو واحد فيها جميعا ... جوهرًا وحيدًا ، شاملا ،

أبدى ، عما ، لا ينقسم ، ولا يزول ، أو قل كما قال كامونس العظيم
« حقيقة موجودة في كل شيء » .

« قائمة فيما يرى وما لا يرى على السواء » .

فهذا الجوهر أو هذه الحقيقة ، هذا المبدأ الذى لا يزول هو
« الطبيعة الانسية » ، وقد سميت به بهذا لأنه يلخص الكون ،
والكون هو الانسان . هل بدأت تفهم ؟
- قليلا . ولكن كيف يكون موت جدتك ؟

- الموت لا وجود له . فالتقاء قوتين بل نمو جسمين يمكن أن
يؤدى الى زوال أحدهما . أما الموت فلا وجود له في واقع الامر...
لا وجود الا للحياة ، لان زوال شيء هو شرط بقاء الآخر ، والزوال
لا يصيب اذن الجوهر العام المشترك . ومن ثم كانت الحرب تحافظ
على الحياة وتحسن اليها . تصور حقلا من حقول البطاطا وقبيلتين
جائعتين . ان محصول هذا الحقل يكاد لا يكفي الا لاطعام احدى
القبيلتين ، فاذا استأثرت احدى القبيلتين بالمحصول كله اكتسبت
من القوة ما يكفيها لاجتياز الجبل والوصول الى سفحه الآخر الذى
تنبت فيه البطاطا غزيرة . أما اذا اقتسمت القبيلتان محصول
الحقل بسلام ، لم يغد هما المحصول تفضية كاملة ، فاذا هما تموتان
جوعا . فالسلام في هذه الحالة يعنى الزوال ، والحرب تعنى
البقاء . ان احدى القبيلتين تفنى الاخرى وتستولى على بقاياها .
ومن ثم كانت نشوة النصر ، والانشيد ، والتهافت ، والجوائز
القومية ، وسائر ما يعقب الاعمال الحربية . ولو لم تكن الحرب
كذلك ، لما حدثت هذه المظاهر ، لسبب عملي وهو ان الانسان
لا يخلد ولا يحب الا ما هو ممتع له أو مفيد ، ولسبب منطقي وهو
انه ما من أحد يحتفل بشيء معناه عنده الدمار . فللمغلوب الكره
أو الشفقة ، وللقالب البطاطا .
- ولكن ما رأى من يزول ؟

- لا زوال . الظاهرة الفردية تغيب ، أما الجوهر فيبقى . ألم
تر ماء يغلى ؟ يجب ان تتذكر ان الفقاعات تظهر وتغيب بغير
انقطاع ، لكن الماء نفسه يبقى . وما الافراد الا هذه الفقاعات
العارضة .

- نعم ، ولكن ما رأى الفقاعة ؟

- لا رأى لفقاعة . هل هنالك شيء ادعى الى الحزن ، في ظاهر
الامر ، من تلك الاوبئة الفظيعة التى تجتاح جزءا من الكرة . ان

ما نظنه شرا هو في واقع الامر خير، لا لأنه يزيل الاجسام الضعيفة العاجزة عن المقاومة فحسب ، بل كذلك لأنه يتيح تحصيل معارف كثيرة ، ويتيح في آخر الامر كشف الدواء المنقذ . ان علم الصحة ثمرة قرون من القذارة . ونحن مدينون بعلم الصحة للملايين من الكائنات كانت تعيش في التثانة . ما من خسارة البتة . كل شيء ربح . اعود فأقول لك : ان الفقاعات تضطرب ، لكن الماء يبقى . هل ترى هذا الكتاب ؟ انه دون كيشوت . هبني هشمت نسختي . اننى بذلك لا ازيل الكتاب ، فالكتاب يبقى خالدا في النسخ الاخرى وفي الطبعات اللاحقة ، يبقى خالدا وعجيبا ، خلودا رائعا ، خلود هذا العالم ، المتصف بالالوهية « وبما فوق الالوهية »

٧

وأرهق كونكاس بوربا عياء ، فصمت ، وقعد وهو يلهث . فخرج روبيان يحمل اليه ماء ، ورجاد أن يضطجع ليستريح . لكن المريض أجاب بعد بضع لحظات بأنه في خير . كل ما هنالك أنه قد فقد عادة القاء الخطب . ثم أشار الى روبيان أن يبتعد قليلا بحيث يستطيع ان يراه من غير جهد ، وطفق بعد ذلك يصف العالم وعجائبه وصفا بارعا .

مزيج من آرائه الخاصة وآراء غيره ، تضاف اليه صور من كل نوع ، صور فيها من شعر الفناء مثل ما فيها من شعر الملاحم ، فما وسع روبيان الا أن تساءل كيف يستطيع مشرف على الموت ان يتحدث مثل هذا الحديث في مثل هذه الموضوعات . قال له :

- هيا استرح قليلا .
- ففكر كونكاس بوربا ، ثم أجاب :
- بل سأمضي أتنزه .
- لا الآن ، فأنت متعب كثيرا .
- لكن تعبى قد زال .
- ونهض ، ووضع يديه على كتفى روبيان ، في أبوة .
- أنت صديقى ، أليس كذلك ؟
- يا له من سؤال !
- بل قل انك صديقى .

— كهذا الحيوان بل أكثر .
بذلك أجاب روبيان وقد فاضت نفسه رقة وحنانا .
فشد كونكاس بوربا على يديه ، وقال : *
— حسن .

٨

أفاق كونكاس بوربا من نومه في الغداة وقد عقد العزم على أن يسافر الى ريو دو جانيرو... قال انه سوف يعود في آخر الشهر... لأن له أعمالا يجب أن يقوم بها هناك... وذهل روبيان . والمرضى والطبيب ؟ فأجابه المريض بأن الطبيب دجال ، أما المرض فان تغيير الهواء لن يفاقمه . اليس المرض والصحة ، ثمرتى شجرة واحدة ؟ اليسا حالتين للطبيعة الانسية ؟
وختم المريض كلامه بقوله :

— سأسوى هنالك بعض الاعمال الشخصية... ثم اننى قد رسمت لسفري خطة تبلغ من الروعة درجة لا تستطيع أن تفهمها . اغفر لى صراحتى ، لكننى أستطيع أن اكون معك أنت صريحا . وظن روبيان ان مشروع السفر هذا سينطوى مع الزمن كما انطوت قبله مشاريع كثيرة ، لكنه أخطأ الظن . أضف الى ذلك ان صحة المريض كانت تبدو في تحسن حفا ، فهو الآن لا يظل راقدا على فراشه ، بل يخرج ويكتب . وفي نهاية الاسبوع استدعى الكاتب بالعدل .

— الكاتب بالعدل ؟

— نعم . أريد أن أسجل وصيتى ، وفي وسعنا أن نذهب اليه معا . . .

وذهب الثلاثة ، لان الكلب لا يترك مولاه يخرج من دون ان يرافقه . وسجل كونكاس بوربا الوصية وفقا للأصول المتبعة ، وعاد الى البيت هادىء البال مطمئن النفس . أما روبيان فكان يشعر بقلبه خفق خفقانا قويا .

— لن ادعك تسافر الى العاصمة وحدك طبعاً .

— لا نفع في ذلك . ثم ان كونكاس بوربا لن يصحبنى ، ولا يمكن أن أعهد به الى أحد غيرك . سأترك البيت كما هو ، وفي غضون شهر أعود . اننى مسافر غدا ، ولا أحب أن يعلم بسفري . اعتن به يا روبيان .

— اطمئن .
— هل تحلف ؟
— بأقدس ما أملك . أتظننى طفلا ؟
— أسقه لبنه فى نظام ، وناولہ وجبات طعامه فى مواعيدها .
واغسله كذلك . وحين تمضى به الى النزهة ، حاذر أن يفلت منك ،
بن الافضل الا يخرج البتة ... نعم ، الافضل الا يخرج .
— اطمئن .

كان كونكاس بوربا الآخر يبكى صاحبنا كونكاس بوربا . لم يشأ
أن يراه ساعة الرحيل . كان يبكى حقا . لك أن تعد دموعه دموع
جنون أو دموع حب ... لقد كانت على كل حال تهطل فتروى
أرضه الميناسية (١) القديمة كقطرات أخيرة من عرق روح غامضة
تهم أن تغيب الى الأبد .

٩

بعد بضع ساعات مرت بخاطر روبيان فكرة رهيبة . قد يظن به
أبيه دفع صاحبه الى هذه الرحلة دفعا ، ليعجل موته وليعجل بذلك
استيلاءه على الارث ، أن كان فى الوصية ارث . وأخذ ضميره يؤنبه
فى غير هوادة . لماذا لم يصدده عن السفر بكل ما أوتى من قوة ؟
وبرأت له جثة كونكاس بوربا صفراء رهيبة ، ترشقه بنظرات
العداوة والانتقام . فقرر أن يرفض الارث إذا وافى الرجل منيته
أثناء هذه الرحلة .

أما الكلب فكان يقضى وقته شاخرا عاويا محاولا أن يهرب .
أصبح لا يطيق أن ينام نوما هادئا ، فهو ينهض فى الليل مرارا ،
ويأخذ يطوف فى أرجاء المنزل ، ثم يعود آخر الامر الى ركنه . وكان
روبيان يناديه عند الصباح وهو فى سريره فيهرع اليه الكلب فرحاً .
كان الكلب يظن أن الذى ناداه هو صاحبه ، لكنه ما يلبث أن
يدرك خطأه ، ومع ذلك كان يقبل ملاعبات روبيان ، ويرد عليها
بمثلها ، كما لو كان روبيان يستطيع أن ينقلها الى صاحبه أو يستطيع
أن يرجع صاحبه الى بيته . وأحب الكلب روبيان إذ كان الصلة
التي تربطه بحياته الماضية . لقد رفض فى الأيام الاولى أن يأكل .
ولاحتماله الجوع أكثر من الظمأ رضى أن شرب الحليب الذى حاول

(١) نسبة الى ولاية ميناس جيراس (الترجم) .

روبيان أن يجبره إياه ، فظل اللبن غذاءه الوحيد مدة من الزمان .
وكان يلبث بعد ذلك ساعات بكاملها صامتا حزينا مقعيا مثل كرة ،
أو متمددا واضعا رأسه بين قائمتيه .

وحين جاء الطبيب صقق من تهور المريض ، وقال ان الواجب كان
يقضى بمنعه من السفر ، فالموت محقق لا محالة .
— محقق ؟

— عاجلا أو آجلا . هل اصطحب الكلب ؟

— لا ياسيدى . بقى الكلب معى ، وسألنى صاحبنى أن أعني
بأمره ، أنك لا تستطيع أن تعلم كيف كان يبكى وهو يسألنى ذلك ،
يبكى ولا يفرغ من البكاء .
وأضاف روبيان يقول دفاعا عن المريض :

— والحق إن هذا الكلب يستحق تقدير صاحبه . لكأنه انسان
لا كلب .

ونزع الطبيب قبعته الكبيرة المصنوعة من فش ، فأصلح شريطها ،
ثم ابتسم . انسان ؟ كيف يمكن أن يشبه بانسان ؟ فأصر روبيان
على رأيه ثم بدأ يشرحه بقوله : لست أعنى طبعاً انه انسان
كالاناسى ، غير أن له جوانب عاطفية ، بل وجوانب عقلية . اسمع مثلاً .
هم روبيان أن يحكى له أن ...
لكن الطبيب قاطعه قائلاً :

— لا ياعزيزى ، ستحكى لى ذلك فيما بعد ، أما الآن فعلى أن
أعود مريضاً مصاباً بالتهاب فى الجلد . اذا وصلت من صديقك
رسائل ، ولم تكن رسائل خاصة ، فأننى اود لو أراها ، هل توافق ؟
وختم كلامه وهو يخرج قائلاً :
— وتحياتى وذكرياتى للكلب .

ان أناسا كثيرين أخذوا يهزأون بروبيان ، وبهذه الوظيفة الغريبة
التي يتولاها ، وهو انه يحرس كلباً ، بدلاً من أن يحرسه الكلب ،
وظفقا يتندرون عليه ، ويفمزونه بألقاب السخر . الى أين وصل
الاستاذ ؟ لقد صار حارس كلب . وكان روبيان يخشى رأى الناس .
فبدأ له الامر مضحكا حقاً . فأخذ يهرب من نظرات الملائ ، ويرمق
الحيوان باشمئزاز ، ويضرع الى جميع الاولياء ، حتى كاد يكره
الحياة ويمقتها لولا أمله فى ميراث مهما يكن صغيراً . . . انه لمن
المستحيل الا يترك صاحبه شيئاً يكون بمثابة ذكرى فى اقل تقدير . .

بعد أساييع ، وصلت الى بارباسينا ، من ريودوجانيرو ، الرسالة التالية ، مكتوبة بخط كونكاس بوربا :

« لاشك ان صمتي بدا لك غريبا . هناك أسباب شخصية منعتني من الكتابة اليك ، الخ . . سأعود في القريب ، لكنني أريد منذ الآن أن أفضي اليك بأمر سري ، سري جدا .

« من أنا يا روبيان ؟ أنا القديس أوغسطين . أعلم انك ستبتسم ، لانك جاهل يا روبيان . ان الصداقة الحميمة التي بيننا تسمح لي بأن أقول لك كلمة أشد فظاظة من هذه الكلمة ، لكنني أتساهل معك هذه المرة ، آخر مرة ، أيها الجاهل . . .

« اصغ الى أذن أيها الجاهل . انني القديس أوغسطين . اكتشفت ذلك أول أمس . اصغ واصمت . كل شيء في حياتنا متماثل ، أنا والقديس أوغسطين . كل منا قضى شطرا من حياته في المملكات والهرطقة - ذلك انني أصف بالهرطقة كل ما عدا عقيدتي في الطبيعة الانسية - وارتكبنا كلانا سرقات ، سرق هو في طفولته بضع تفاحات من قرطاجنة ، وسرقت أنا في ابان مراهقتي ساعة من صديقي براز كوباس . وأمه وأمي كلتاهما كانتا على جانب كبير من التقى والعفة . وكان يعتقد ، مثلي ، ان كل ما في الوجود خير ، وهذا ما يبرهن عليه في الفصل السادس عشر من الباب الرابع من « الاعترافات » ، مع فرق واحد وهو انه كان يرى ان الشر انحراف في الارادة ، وضلال من ضلالات عصر متخلف ، واستسلام للخطأ ، لان الشر لا وجود له أصلا ، أما أنا فأرى ان الرأي الاول من هذه الآراء هو وحده صواب ، فكل شيء خير ، تلك هي الحقيقة .

« تلك هي الحقيقة أيها الجاهل . لا تقصص على أحد ما أفضيت به اليك من سر ، هذا اذا كنت لا تريد أن تفقد أذنيك . اصمت ، واحتفظ بالأمر كله لنفسك ، واشكر العناية الالهية على ان لك صديقا هو رجل عظيم مثلي ، وان كنت لا تفهم ذلك . سوف تفهمني آخر الامر . ومتى عدت الى بارباسينا شرحت لك ، بعبارات بسيطة تناسب عقل حمار من الحمير ، ما معنى قولنا : رجل عظيم . وداعا بلغ عزيزي المسكين كونكاس بوربا مودتي . لا تنس أن تقدم اليه الين . . ولا تنس غسله كما ألف . وداعا . وداعا . وسلمت لثمخلص لك من قرارة قلبه .

« كونكاس بوربا »

كادت تسقط الرسالة من يدي روبيان . وقد بعد أن فكر بضع لحظات انها قد تكون مزاحا من صديقه ، فأعاد قراءتها . لكن القراءة الثانية لم تزد على أن عززت شعوره الاول ، وهو أن صاحبه مجنون ، ما في ذلك ريب . مسكين كوتكاس يوربا . اذن لم تكن تصرفاته الشاذة وتقلبات مزاجه الكثيرة وحماساته المبالغية التي لا داعي اليها ، وسورات حنانه المفرطة ، لم يكن ذلك كله الا نذرا بالهاوية التي ستردى فيها عقله . لقد كان يموت اذن ميتتين . ما كان أطيب قلبه وأشد مرحة ! صحيح انه كان في بعض الاحيان وقحا ، ألا يمكن أن يكون مرد وقاحته الى مرضه ؟ وجفف روبيان عينيه اللتين اخضلتا بالدموع من شدة التأثر . ثم تذكر الارث الذي قد يتركه له صاحبه ، فما زاده ذلك الا حزنا على الصديق الغالي الذي سيفقده .

وأعاد قراءة الرسالة مرة أخرى في ببطء ، محللا كل كلمة من كلماتها ، رجاء أن يدرك المعنى كله ، فعسى أن ترجع في جملة الامر الى مزاح يمزحه الفيلسوف . ان هذه الطريقة في شتمه على سبيل العبث ليست جديدة . لكن كل ما عدا ذلك يعزز الشكوك الاولى واأسفاه ! ووقف روبيان عند السطر الاخير وقد غزاه اضطراب شديد . ألا يمكن أن يقال ان الوصية التي سجلها الرجل باطله ، وان المواريت التي عينها لا يؤخذ بها ، ما دام الموصى على هذه الحال من الخبل العقلي ؟ وانتاب روبيان دوار مفاجيء .

وبينما كانت الرسالة لا تزال مفضوضة بين يديه ، رأى الطبيب يدخل عليه بفتة ويسأله عن اختيار المريض . لقد أنباه موظف البريد بوصول رسالة .

— أهذه هي الرسالة ؟

— نعم ، ولكن ...

— لعلها تشتمل على أخبار خاصة لا يجوز الاطلاع عليها ؟

— نعم ، تحمل الى خيرا خاصا ، خاصا جدا ، يتعلق بأمور شخصية . باذنك .

قال روبيان ذلك ووضع الرسالة في جيبه . حتى اذا رأى الطبيب يذهب ، تنفس الصعداء . لقد أوشكت هذه الوثيقة الخطيرة التي قد تكشف عن حالة كوتكاس يوربا العقلية أن يشيع أمرها . وبعد بضع لحظات ندم روبيان على ما فعل . لقد كان ينبغي له أن يطاع الطبيب على الرسالة ، وأخذ ضميره يؤنبه فرأى أن يبعث بالرسالة

الى الطبيب ، فنادى عبدا ، لكنه ما لبث أن غير رأيه مرة أخرى لما وصل الخادم . قال لنفسه : ليس من الحكمة ولا من التبصر بالعواقب أن أفعل ذلك ، لأن المريض سيعود قريبا - الأمر أمر أيام معدودة - وسيسأله عن الرسالة ، وسيتهمه بأنه لم يحفظ السر وبأنه خانه ... وساوس عارضة لا تدوم طويلا ... قال للعبد :

- لا ، لا أريد شيئا .

وعاد يفكر في الارث مرة أخرى ، ويحسب مقداره . أيمن أن يقل عن عشر قونترات ؟ (١) مستحيل . سيشتري اذن قطعة من الأرض ، وسيشتري بيتا ، وسيزرع كيت أو كيت ، أو سيشرع في البحث عن الذهب . ولكن ماذا لو كان المبلغ أقل من ذلك ؟ خمسة قونترات مثلا ... خمسة ؟ طبعا لن يكون في هذه الحالة مبلغا كبيرا ، ولكن يجب توقع ذلك .. وهبه خمسة قونترات ... هل خمسة قونترات مبلغ تافه ؟ .. انها على كل حال خير من لا شيء ... خمسة قونترات ... المهم ألا تلفى الوصية ... لا بأس بخمسة قونترات .

١١

في مطلع الاسبوع التالي قرأ روبيان - وكان يتلقى الجرائد من العاصمة بفضل اشتراكات كونكاس بوربا - قرأ في احداها هذا الخبر : « توفي أمس السيد يواكيم كونكاس بوربا دوسانتوس ، بعد أن احتمل آلامه بفلسفة تدعو الى الاعجاب . كان المرحوم على جانب كبير من العلم ، وقد حارب في غير هوادة ذلك التشاؤم اليائس الشاحب الذي سيفد الينا ذات يوم لأنه مرض العصر . كانت الكلمات الاخيرة التي نطق بها هي ان الالم ليس الا وهما وان بانجلوس ليس من حماقة في الدرجة التي زعمها فولتير ... وكان حين نطق بهذا الكلام في أوج الهذيان . ولقد ترك ثروة طائلة . ووصيته في بارباسينا » .

١٢

قال روبيان متنهدا :

(١) القوت = ١٠ آلاف كروزيرو = مليون رايش (قرش)

— لقد تخلص من العذاب .

ثم لم يلبث أن أدرك ، وهو ينعم النظر في النبأ ، أن النبأ يصور الرجل في صورة من ينعم بالاحترام والتقدير بين الناس كافة ، بل انه ينسب اليه شرف القيام بنضال فلسفى خطير . وما من اشارة الى الجنون . بالعكس ، ان نهاية المقالة يفهم منها انه لم يهد الا في الساعة الاخيرة ، وذلك بتأثير المرض . الحمد لله . وأعاد روبيان قراءة الرسالة ، فبدأ له ان افترض المزاج أرجح فاعترف بأن كونكاس بوربا كان لا يخلو من روح الفكاهة . لاشك انه أراد أن يهزأ به . لقد ذكر القديس أوغسطين وكان يمكن أن يذكر القديس أمبرواز أو القديس هيلير . انه كتب الى روبيان رسالة معمة من أجل أن يحيره ، فاذا عاد أخذ يضحك عليه للحيلة التى دبرها له . رحمة الله عليك أيها الصديق . لقد كان سليم العقل ، كان سليم العقل لكنه مات . انه ارتاح من الالم الآن .

ولما رأى الكلب قال متنهدا :

— مسكين يا كونكاس بوربا ... لو علمت ان صاحبك قد مات ..

ثم قال يخاطب نفسه :

« الآن وقد تحررت من كل التزام ، سأعطيه لهذه الخادم أنجليكا الطيبة » .

١٣

ذاع النبأ في المدينة كلها ، وارسل الكاهن والصيدلى والطبيب يسألون عن صحة الخبر . وجاء موظف البريد الذى قرأ النبأ فى الصحف ، جاء بنفسه يحمل الى روبيان رسالة وصلتة بالصندوق . قال لنفسه : قد تكون الرسالة من المتوفى « رغم انه لم يتعرف خطه » .

وبينما كان روبيان يفض الرسالة ، ويركض ببصره الى التوقيع ليقرأ : براز كوباس . قال له موظف البريد :

— اذن أغمد صاحبنا سلاحه آخر الامر ؟

وكانت الرسالة بطاقة بسيطة ، هذا نصها :

« لقد توفى صديقى المسكين كونكاس بوربا أمس فى بيتى وكان قد وصل منذ مدة متسخا ممزق الثياب . هذه نتيجة من نتائج مرضه . وقبل أن يموت رجائى أن أكتب اليك لأبلغك نبأ وفاته ،

ولأنقل اليك أيضا جزيل شكره . أما ما عدا ذلك فسيتم وفقا
للأصول القانونية المتبعة » .

أن الشكر قد جعل وجه صاحبنا يمتقع . غير أن الاصول القانونية
ردت اليه الوانه . طوى روبيان الرسالة دون أن يقول شيئا .
وأخذ موظف البريد يتكلم متنقلا من موضوع الى موضوع ، ثم
انصرف . عندئذ أمر روبيان أحد العبيد أن يمضى الى السيدة
آنجليكا ليعطيها الكلب ، وعرفه أن يقول لها انه يهدى اليها هذا
الكلب زيادة على ما عندها من كلاب ما دامت تحب الحيوانات هذا
الحب كله ، ويوصيها أن تعنى به كل العناية التى ألفها ، وأضاف
أن اسم الكلب هو اسم صاحبه المتوفى نفسه كونكاس بوربا .

١٤

كاد روبيان يسقط على قفاه حين فضت الوصية . هل حذرت
السبب ، أيها القارئ ؟ لقد جعله المتوفى الوارث الشرعى الوحيد
لثروته كلها . لم يكن حظ روبيان من الميراث خمسة قونترات ، ولا
عشرة ولا عشرين ، بل كان الثروة كلها ، المال بكامله ، الاملاك
جميعها ، بغير استثناء ، البيوت التى يملكها فى العاصمة ، وبيتا
آخر فى بارباسينا ، العبيد ، الفوائد ، أسهم « بنك البرازيل »
وغيره من الشركات ، الجواهر ، النقود ، الكتب ، كل شيء آلا
الى روبيان ، لم يحول منه جزء ، وليس هناك مواريث خاصة ولا
هبات ولا اقتسام من أى نوع . ولم يفرض الموصى على وارثه الا
شرطا واحدا ، هو أن يحتفظ الى الابد بكلبه العزيز المسكين كونكاس
بوربا الذى خلع عليه اسمه دليلا على ما يحمله له من حب . انه
يطلب من روبيان أن يعامل الكلب كما لو كان الكلب هو الموصى
نفسه ، وأن لا يدخر جهدا فى توفير الرخاء له وفى حمايته من
الامراض أو الهرب أو السرقة وفى الحيلولة بينه وبين كل شر يراد
به ، وأن يعنى به عنايته بانسان لا بكلب . وألزم روبيان أيضا
بأن يدفن الكلب ، حين يوافيه أجله ، فى أرض يحسن اختيارها
لهذا الغرض ، وأن يجعل له قبرا مهيبا تغطيه الازهار والنباتات
العريقة ، وعليه كذلك أن يخرج عظام الكلب عندما يحين الوقت
فيضعها فى صندوق من ثمين الخشب ، ويضع الصندوق فى اكرم
مكان من بيته .

ذلك هو الشرط الذى اشتملت عليه الوصية . وقد رآه روبيان طبيعيا جدا وهو فى غمرة اهتمامه بالارث . كان لايرجو الا نصيبا سيرا ، فاذا بالوصية تضع بين يديه الميراث كله . انه لا يستطيع أن يصدق . ولولا ان الناس صافحوه مهنئين مرات كثيرة ، فى قوة تعدل قوة التهانى ، لما ايقن انه ليس فى حلم . قال له الصييدنى الذى كان يقدم اذوية كونكاس بوربا :

— انتفع بحظك السعيد أيها السيد !

ان يكون وارثا فذلك وحده خير . . . فكيف وهو الوارث الشرعى انوحيد ! . . . لكأن هذه الكلمة وحدها تضخم الميراث . لقد ورث كل شيء ، كل شيء على الاطلاق ، لا تنقص منه ملعقة قهوة . ترى كم يبلغ الميراث كله ؟ كذلك تساءل روبيان . البيوت ، الدخل السنوى ، الاسهم ، الملابس ، الاطباق ، اللوحات التى كان كونكاس بوربا يملكها فى ريو ، لانه صاحب ذوق ، ولانه كان رحمه الله ضليعا فى شئون الفن . والكتب ؟ لاشك انه يملك عددا كبيرا من الكتب ، لانه كان يستشهد دائما بكتب كثيرة . ولكن ماذا يبلغ هذا الميراث كله ؟ مائة قونت ؟ ربما مائتين ؟ ليس ذلك بمستحيل ! وليس بمستغرب أن يبلغ ثلاثمائة قونت ! ثلاثمائة قونت ! ثلاثمائة ! ود روبيان او يرقص فى الشارع . لكنه هذا نفسه . وسواء اكان المبلغ مائتى قونت أم ثلاثمائة ، فهو على كل حال حلم يهبط عليه من السماء ، حلم لن ينقضى .

وأخيرا انبثقت ذكرى الكلب من اعصار الافكار التى كانت تجتاز رأس صاحبنا . لقد رأى روبيان ان الشرط الذى اشتملت عليه الوصية كان طبيعيا جدا ، وان كان نافلا ، ما دام هو والكلب صديقين . اليس من الامور البديهية أن يقطنا بيتا واحدا ابقاء على ذكرى صديقهما المشترك الذى مات وحقق السعادة لهما كليهما ؟ لاشك ان الشرط الذى اشتملت عليه الوصية يضم امورا غريبة . . . حكاية الصندوق وأشياء أخرى غيرها مما لا يعزقه جيدا . . . لكنه سينفذ كل شيء ولو أطبقت السماء على رأسه . . . واستدرك روبيان يقول : لا . . . لا . . . بل سأنفذ كل شيء بمعونة الله . الا ما أطيبه من كلب ! الا ما أروع من كلب !

لم ينس روبيان انه حاول غير مرة أن تكون له ثروة ، وان

محاولاته باءت كلها بالاخفاق في مهدها . كان يظن ان النحس يحالفه مع ان الواقع غير ذلك . اذن صدق المثل القائل : كل شيء ممكن بمعونة الله . حتى هذا الثراء الذي حصله لم يكن مستحيلا .
قال بصوت عال :

— أى شيء مستحيل ؟ لا شيء بمستحيل ! الا خداع الله ! ان الله لا يكذب وعده .

كان روبيان يسير على غير هدى ، يصعد شارعا ويهبط آخر ، دون ان يتجه الى بيته ، ودون ان يكون له هدف بعينه . وفجأة قامت في ذهنه مشكلة خطيرة . اقيم بمدينة ريو دو جانيرو أم يمكث في بارباسينا ؟ انه يريد ان يبقى في بارباسينا ليلمع نجمه بعد ان كان كاييا ، وليضع القدي في أعين الذين كانوا الى ذلك الحين لا يقدرونه ، وخاصة أولئك الذين سخرُوا من صداقته لكونكاس بوربا . لكنه لم يلبث ان انبعثت في خياله صورة ريو دو جانيرو التي سبق ان عرفها بمفاتها وتدفق الحياة فيها ومسارحها التي لا تعد ولا تحصى ، ناهيك عن نسائها الجميلات اللاتي « يلبسن أزياء فرنسية » ! واختار أخيرا ان يقيم بريو دو جانيرو . ان في وسعه دائما ان يزور مسقط رأسه متى أراد .

١٦

صاح وهو يدخل الى البيت :

— كونكاس بوربا ! كونكاس بوربا ! نهيه ! كونكاس بوربا !

لا أثر للكلب ، وعندئذ تذكر انه اهداه الى السيدة آنجليكا . فهرع يذهب الى بيتها الذي يقع في مكان غير قريب . وفي أثناء الطريق لم تكف الهواجس السود والافكار الغريبة عن مهاجمة رأسه . . ربما هرب الكلب . . ربما ذهب أحد أعدائه الى منزل آنجليكا بعد ان علم بأمر الوصية ، فسرق الكلب ليخفيه أو ليقتله . ماذا يكون مصير الميراث في هذه الحالة ؟ . . ومرت أمام عينيه سحابة سوداء . . ثم أخذ يرى الامور رؤية أوضح .

قال لنفسه : « ليس لى بأمور القانون علم ، ولكن يخيل الى أنني لا شأن لى بهذا كله . فالوصية تفترض ان الكلب على قيد الحياة وانه في البيت ، فاذا كان قد هرب أو مات ، فاننا لا نستطيع ان نخلقه . ويترتب على ذلك ان القصد الاول . . ولكن أعدائي

يستطيعون أن يصطنعوا العلل وينتحلوا الاسباب اذا رأوا أن الشرط الذى تشتمل عليه الوصية لم ينفذ .

وقطر جسم صاحبنا فى تلك اللحظة عرقا باردا ، وخطرت أمام عينيه مرة أخرى سحابة مظلمة ، وأخذ قلبه يخفق خفقانا قويا . وبدأ الشرط الذى اشتملت عليه الوصية يبدو له شاذا غريبا ! وأصبح لا يدرى الى أى ولى من الاولياء يضرع .. ونذر قداسا بل نذر عدة قداديس ، نذر عشرة قداديس . ولكنه أوشك أن يضل طريقه وأسرع فى سيره . ها هو ذا يلمح أحدا . أليست هي السيدة آنجليكا نفسها ؟ نعم ، انها هي بعينها ، واقفة على باب بيتها تبسم .

— ما أغرب وجهك يا صديقى المسكين ! لو رأك أحد وأنت تهز ذراعيك على هذه الصورة لحسبك مجنونا .

١٧

سألها روبيان وهو يتظاهر بالهدوء ، لكن وجهه شاحب :
— أين الكلب يا صديقتى الطيبة ؟
فقالت له :

— ادخل واجلس ، أى كلب ؟
قال روبيان وقد ازداد وجهه شحوبا :
— أى كلب ؟ الكلب الذى أرسلته اليك . أنسيت اننى أرسلت اليك كلبا ليستريح هنا بضعة أيام ، ثم .. كلب له قيمة كبيرة .. انه ليس لى .. وقد بعثت به اليك من أجل أن .. أنسيت ؟
قالت مجمجة بسرعة :

— آه .. لا تحدثنى عن هذا الحيوان ..
السيدة آنجليكا امرأة قصيرة ، لا تكف عن الارتعاش ، وأوداجها تنتفخ من الانفعال . رجته مرة أخرى الا يسألها عن الكلب .
— ولكن ماذا صنع لك يا سيدة آنجليكا ؟

— ماذا صنع لى ؟ وماذا يستطيع أن يصنع لى هذا الحيوان المسكين ؟ انه لا يأكل شيئا ولا يشرب شيئا ، ويظل يبكى كطفل ، ولا ينى يبحث عن مخرج يفر منه .

فتنفس روبيان الصعداء . وظلت السيدة آنجليكا تصف شقاء الكلب ، لكن روبيان أصبح لا يصفى اليها ، فهو يتحرق شوقا الى رؤية الكلب .

— انه هناك في آخر الدار ، في الحظيرة الكبيرة ، تركته هناك وحده حتى لا تضايقه الكلاب الاخرى . ولكن هل جئت لآخذه ؟ ليس هذا ما قيل لى . لقد فهمت انه أصبح لى ، انه هدية منك . — لأعطيك ستة كلاب اذا أردت . أما هذا فلا يمكننى ان أهديه اليك . ما انا بصاحبه ، وانما هو أمانة عندى . لا تخافى . . سوف أعطيك واحدا من صفاره . أحسب ان الخادم نقل إليك رسالتى مشوهة .

واتجه روبيان الى الحظيرة بخطا كبيرة ، تتبعه آنجليكا التى كانت ترافقه بدلا من ان تقوده . هناك كان الكلب متمددا بعيدا عن طعامه لم يمسه . وكان ثمة كلاب وطيور تتواثب من كل جهة عند مرورها به . وعلى مقربة من الحظيرة يوجد قن للدجاج ، وإلى جانب القن بضعة خنازير ، وبعد الخنازير بقرة راقدة وسنى ، ودجاجتان تنقران بطنيهما بحثا عن القردان . قالت السيدة آنجليكا :

— انظر ما أجمل طاووسى ! . . .

لكن عيني روبيان لا تنظران الا الى كوتكاس بوربا الذى كان يتشمم الارض نافد الصبر ، فما ان فتح باب الحظيرة حتى وثب الكلب على روبيان . الا انه لمشهد هديان . . روبيان يدغدغ الكلب . . والكلب يرد على دغدغاته بعواء ونط ، ويلعق يديه .

— يا الهى . . . لشد ما يحبك ! . .

— يحبنى فوق ما يتصور الخيال ياعزيزتى الطيبة آنجليكا . الى اللقاء . أعدك بواحد من صفاره .

١٨

حين عاد روبيان والكلب الى بيتهما ، شعرا فجأة بحضور المتوفى . أحسا كلاهما بأنهما يسمعان صوته . وبينما كان الكلب يتشمم الاركان والزوايا جلس روبيان على المقعد الذى جلس عليه يوم شرح له كوتكاس بوربا موت جدته شرحا علميا ، وراح يستعيد بذاكرته الحجج التى أدلى بها الفيلسوف ، لكنه لم يستطع ان يتذكرها الا نتفا متفرقة وشذرات مضطربة . حاول لأول مرة ان يركز فكره في تلك الحكاية الرمزية ، حكاية القبيلتين الجائعتين ، ففهم مغزاها . « للفالب البطاطا » . انه يسمع الآن ، بوضوح ، ذلك الصوت

الأخن ، صوت الراحل العزيز ، وهو يعرض موقف القبيلتين ،
والصراع الذى قام بينهما ، وأسباب هذا الصراع ، وفناء أحدهما ،
وانتصار الأخرى . ودمدم يقول بصوت خافت :

— للغالب البطاطا .

الامر بسيط غاية البساطة ، واضح غاية الوضوح . ورمق سرواله
العتيق الأغبر ، وردنجوته المرقع ، فقال فى نفسه أنه كان منذ قليل
فى عداد المغلوبين ، فى عداد الفقاعات ، لكن ذلك قد مضى وانقضى
وهو الآن من الغالبين . لاشك ولا ريب . لقد خلقت البطاطا للقبيلة

التي تفنى الأخرى ، حتى تستطيع أن تجتاز الجبل وأن تجنى
البطاطا التي على سفحه الآخر . هذه هي حاله ، لسوف ينزل من
بارباسينا ، ليبنى بطاطا العاصمة ويتذوقها . ويجب عليه أن يكون
قاسيا لا يرحم . أليس هو القادر القوى ؟ وانتصب واقفا على حين
فجأة ، ورفع ذراعيه فى حماسة ، وصاح بأعلى صوته :

— للغالب البطاطا !

ان العبارة لتعجبه قطعا ، وانه ليجدها محكمة بارعة . لقد
جمعت بين الأيجاز والبلاغة ، والعمق والصدق . وراح يتخيل
البطاطا فى جميع الصور الممكنة ، ويصنفها على حسب مذاقها
وشكلها وقيمتها الغذائية ، حتى شبع من مائدة الحياة منذ الآن .
لقد آن له أن يتخلص من الاطعمة الرديئة التي لا تزيد على أن
تخدع الجوع ، والتي كانت غذاءه حتى الآن . له بعد اليوم الطعام
الفنى ، الطعام القوى ، الطعام الوافر الغزير . لسوف يأكل حتى
يموت من فرط الاكل ، فان مات مات فى طنافس الجري . ووعد
نفسه مرة أخرى أن يكون قاسيا لا يرحم ، وتذكر العبارة التي تلخص
مغزى حكاية القبيلتين ، بل تخيل انه سينقش لنفسه خاتما يكون
شعاره : للغالب البطاطا .

وسرعان ما نسى مشروع الخاتم . لكن العبارة نفسها ظلت ماثلة
فى ذهنه عدة أيام . للغالب البطاطا . انه لم يفهمها قبل الوصية .
لقد وجدها غامضة لا تفسر . حقا ان الضوء يختلف باختلاف
اللغة التي تراه منها ، وان خير وسيلة لتقدير السوط أن
نمسك بقبضته .

يجب ألا يفوتنا أن نذكر أن روبيان تولى إقامة قداس على روح الفقيد ، وأن كان يعلم أو يقدر أن الراحل العزيز لم يكن كاثوليكيًا . أن كونكاس بوربا لم يهزأ بالكهنة ، لا ولا انتقد العقيدة الكاثوليكية . لكنه لم يكن يتحدث قط لا عن الكنيسة ولا عن المؤمنين . أضف إلى ذلك أن احترامه لمذهب الطبيعة الانسية لا يتفق كثيرا مع الديانة الكاثوليكية في نظر الوارث . لكن هذا لم يمنع روبيان من إقامة القداس ، لأنه رأى أن إرادة المتوفى لا شأن لها في الأمر ، ولأن القداس لا يزيد على أن يكون تكريما دينيا للراحل يتولاه الأحياء . وكان يرى عدا ذلك أنه لم يقم ، وهو الوارث الشرعي الوحيد للراحل ، الصلوات التي لا يضمن بها على أي إنسان مهما يكن بائسا أو بخيلا ، عرض نفسه لفضيحة في المدينة كلها . ولئن امتنع بعض الناس عن المجيء حتى لا يروا النصر الذي فاز به روبيان ، فإن عددا كبيرا منهم — ليس من أهونهم شأنا — قد شهد القداس ، ورأى بأم العين الحزن الصادق الذي كان يضني روبيان ، معلم المدرسة سابقا .

منذ قطعت تصفية الميراث مراحل كافية ، أصبح روبيان يهتم بأمر سفره إلى مدينة ريو دو جانيرو التي قرر أن يستقر فيها متى انتهى كل شيء . صحيح أنه لا يزال مرتبطا بالمدينتين كليهما ، ولكن من الممكن التنبؤ بأن الأمور ستجرى بخطا سريعة .

في محطة فاسوراس ركبت صوفيا القطار مع زوجها كرستيانو دو- ألميدا أي باليا . أن كرستيانو رجل على جانب من السمنة ، في الثانية والثلاثين من العمر . أما صوفيا فهي بين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين . وقد احتللا المقعدين الخاليين إلى جانب روبيان ، فرتبا السلال ورزم التذكارات التي حملها من مدينة فاسوراس حيث مكثا أسبوعا ، ثم عقدا أزرار معطفيهما وأخذا يتبادلان بضع كلمات بصوت خافت .

وبعد سير القطار لاحظ الزوج صاحبا روبيان الذى كان وجهه الهادى الرضى مختلفا عن وجوه سائر المسافرين الذين كانت وجوههم لا تنم الا عن الضجر والضييق . فبدأ الحديث قائلا ان الاسفار فى القطار متعبة جدا ، فأيد روبيان رأيه ، وزاد عليه ان القطار متعب وممل حتى ان تعود السفر على ظهور الحمير . لكننا لا نستطيع ان ننكر ان السفر بالقطار نفع . فأجاب باليا :

— صحيح . انه تقدم كبير .

— لعلك مزارع ؟

— لا ياسيدى .

— اتقيم فى المدينة ؟

— فاسبوراس ؟ لا وانما قضينا فيها ثمانية أيام . نحن نقيم فى ريو دو جانيرو . اننى لا أحس بأى ميل الى الزراعة ، رغم اننى أفدر هذه المهنة حق قدرها .

وانتقل الرجلان من الحديث عن الزراعة الى الحديث عن تربية المواشى ، ثم تطرقا الى مشكلة الرقيق ، ومنها انتقلا الى الكلام فى السياسة . فلم ينس كرستيانو ان يلعن الحكومة التى أدخلت فى خطاب العرش عبارة عن امتلاك العبيد ، وأدهشه ان روبيان لم يشاطره هذا الاستنكار . ذلك ان المعلم السابق كان يعتزم ان يبيع جميع ما أورثه كونكاس بوريا من عبيد ، الا واحدا كان بمثابة خادم . وكان يرى ان ذلك قد يسبب له بعض الخسارة ، لكن باقى الميراث يعوض هذه الخسارة الصغيرة تعويضا كبيرا . ثم ان خطاب العرش ، وكان قد قرأه ، يطالب باحترام الارزاق المكتسبة ، فماذا يعنيه من امر العبيد الجدد اذا كان لا ينوى ان يشتري عبيدا جدد ؟ ولسوف يحرر الخادم الذى يحتفظ به متى ملك ذلك الميراث . وغير باليا موضوع الحديث وطفق يتكلم فى السياسة ، ومجلس النواب ، وحرب باراغواى ، أى فى أمور عامة لم يكن روبيان يعنى بها الا قليلا . وكان يبدو على صوفيا أنها تصفى الى الحديث أصفاء متخفيا . وكانت عيناها وحدهما تسطعان ، وهى لا تجهل جمالهما ، فكانت تنظر بهما تارة الى زوجها وتارة الى روبيان . وبعد انقضاء عشرين دقيقة فى هذا الحديث ، سأل باليا صاحبه فائلا :

— أنت باق فى ريو أم أنت تنوى العودة الى بارباسينا ؟

— فى نيتى ان أستقر بـريو . فقد سئمت الريف ، وأريد ان أنتفع

بالحياة ، حتى لقد أسافر الى أوربا ، لكننى لما أقرر شيئاً فى هذا
أنصدد بعد .

فالتمعت عينا باليا حين سمع هذا الكلام ، وقال :

— فكرة رائعة . لو كان فى وسعى أن أسافر الى أوربا لفعلت .
غير اننى لا أستطيع ذلك الآن . لعلك ذهبت الى أوربا من قبل ؟
— لا ، لم أذهب من قبل . لذلك راودتنى هذه الفكرة حين غادرت
بارباسينا . يجب على المرء أن يتحرك قليلاً فى هذه الحياة . لا أدرى
متى أحقق هذا المشروع ، لاشك فى اننى سوف .. ؟

— عين الصواب . يقال ان فى تلك البلاد أموراً رائعة ، ولا عجب
فهم أعرق منا كثيراً ! .. لكننا سندركهم فى ذات يوم . ونحن فى
بعض الامور نضارعهم ان لم نفقههم .. أنظر الى عاصمتنا مثلاً ..
نسنت ادعى انها تنافس باريس أو لندن .. لكنها جميلة جداً ،
وسترى .

— سبق أن رأيتها .

— سبق ؟

— نعم . منذ زمان بعيد جداً .

— سترأها أجمل مما كانت . لقد تحقق فيها كثير من التقدم فى
الآونة الأخيرة . وحين تذهب بعد ذلك الى أوربا ..

— هل زرت أوربا ياسيدتى ؟

كذلك قاطع روبيان صاحبه ، متجهاً بالكلام الى صوفيا .

— كلا ياسيدى .

فاعتذر كرستيانو قائلاً :

— نسيت أن أعرفك بزوجتى .

فأنحنى روبيان باحترام ، ثم التفت الى الزوج وقال له مبتسماً :

— ألا تعرفها بى أيضاً ؟

فابتسم باليا كذلك ، وأدرك ان كلا منهما لا يزال يجهل اسم
الآخر ، وأسرع يذكر اسمه .

— كرستيانو دى الميدا اى باليا .

— بدرو روبيان دى الفارنجا ، لكن جميع الناس يسموننى
روبينان .

وأعطاهما تبادل الاسمين مزيداً من الراحة . ومع ذلك ظلت
صوفيا لا تشارك فى الحديث . لكنها تركت الكلام لنظرتها التى
ازدادت الآن فتنة . كان روبيان يتكلم ويضحك ، ويصفى الى باليا

متأثرا بهذه الصداقة بينه وبين رجل لم يره قبل ذلك قط . حتى
لقد قال لصاحبه انه من الممكن أن يقوموا بهذه الرحلة الى أوروبا
معا ، فأجابه باليا بقوله :

— لكنى لا أستطيع أن أسافر قبل عدة سنين .

— لست أقول أن نسافر الآن ، فأنا أيضا لا أستطيع أن أسافر
فورا . والرغبة التى قامت فى نفسى حين غادرت بارباسينا لا تعدو
أن تكون رغبة بغير تاريخ محدد . لاشك اننى مسافر ، أما متى
أسافر فذلك لا يعلمه الا الله .

فانتهر باليا هذه الفرصة وقال :

— وأنا أيضا حين أقول اننى مسافر بعد بضع سنين ، فانما
أريد أن أقول أيضا : ان شاء الله . وقد لا يتعدى الامر بضعة
شهور . ان الله وحده يعرف ما هو خير لعباده .

قال ذلك وهو يصطنع ما يناسب هذا الكلام من وضع الاذعان
لمشيئة الله والتسليم بآرادته . ولكن ، لا صوفيا التى كانت تنظر
الى قدميها ، ولا روبيان الذى لم يصغ الى هذه الكلمات الاخيرة ،
لاحظ ذلك . لقد كان روبيان يتحرق شوقا الى أن يقص على رفيق
السفر قصة السبب الذى ينقله الآن الى العاصمة . كانت الرغبة
فى الافضاء بالسر تحرق شفتيه حرقا ، ولم يكن هنالك الا قليل
من التردد بحول بينه وبين البوح بكل شيء ، وكان هذا التردد
يضعف قليلا قليلا . علام لا يتكلم فى الامر ؟ ما هو بجريمة على كل
حال . ثم انه سيذيع وسيعرفه الناس كافة .

دمدم يقول أخيرا :

— هناك قضية ميراث يجب أن أفرغ منها قبل كل شيء .

— من والدك المحترم ؟

— لا .. من صديق .. صديق عظيم حرص على أن أكون وارثه
الشرعى الوحيد .

— آه ..

— الوحيد . ثق ان أمثال هذا الصديق لم يبق منهم فى هذه الايام
كثير . كان أحسن الرجال ! يا لدماغه الجبار ! يا لذكائه الخارق !
يا لثقافته الواسعة ! كان فى آخر حياته مريضا جدا ، وهذا هو
السبب فيما كان يتصف به سلوكه من عنف ومن غرابة فى بعض
الاحيان . هل فهمت ؟ رجل غنى مريض ، لا عائلة له ، فمن
الطبعى أن يكون صعب المراس . لكنه من ذهب على كل حال ،

« من ذهب خالص » . اذا احترم أحدا احترمه الى الابد . كنا صديقين حميمين لكنه لم يقل لى شيئا . وبعد ذلك ، فى ذات يوم ، حين قضت وصيته على اثر موته . اتضح انه أوصى لى بجميع أرزاقه . هذه هى الحقيقة . جعلنى الوارث الوحيد . لاحظ ان الوصية لا تشتمل على أى هبة لأحد غيرى . يجب ان أذكر أيضا انه لم يكن قد بقى من أهله أحد ، والشخص الوحيد الذى كان يمكن أن يصبح قريبه هو أنا ، لو انه تزوج أختى ، لكن أختى ماتت ، رحمها الله ، وبقيت أنا صديقه الوحيد . غير انه عرف كيف يبرهن على صداقته . أليس كذلك ؟

— بدون أى شك .

وكانت نظرة باليا ملتمة ، فاذا هى تصبح الآن حاملة . أما روبيان فكان يحس فى غمرة حماسته انه انتقل الى جنة مسحورة ليس لتفريد العصافير فيها من هدف الا أن تبارك حظه السعيد . لقد كان يسحره حقا أن يتحدث عن الميراث . واعترف بأنه لا يزال يجهل مبلغ الميراث ، لكنه يستطيع أن يحسب على وجه التقريب

فقاطعه كزستيانو يقول :

— خير الا تحسب البتة . لن يقل المبلغ عن مائة قونت على كل حال ، أليس كذلك ؟
— طبعا !

— ما عليك والحالة هذه الا أن تنتظر هادىء البال . وهناك شيء آخر . . .
— لا أظن ان المبلغ يقل عن ثلاثمائة قونت . .

— قلت هناك شيء آخر ، يجب عليك الا تتحدث فى هذا الامر الى أناس لا تعرفهم . اننى أشكر لك الثقة التى تفضلت فأوليتها ، لكننى أرى الا تبوح بأمورك مثل هذا البوح لأول من تلقاه من الناس . ان اللطف والتحفظ لا يجتمعان دائما .

٢٢

حين وصلا الى ريو دو جانيرو افترقا أشبه بصديقين . وقد قال باليا لصاحبه انه يضع بيته فى سانتاتيريزا تحت تصرفه . ومضى المعلم القديم ينزل فندق « الاتحاد » متواعدا الرجلان أن يتزاورا .

طلع الفد على روبيان وهو أشد ما يكون شوقا الى رؤية الصديق الجديد الذى انعقدت أواصر الصداقة بينهما أثناء السفر ، وقرر أن يزوره فى بيته بسانتاتيريزا بعد الظهر . لكن باليا هو الذى جاء يزور صاحبه منذ الصباح . فقد أراد أن يقدم اليه تحياته ، وأن يطمئن الى أنه فى خير حال ، وأن يسأله ألا يؤثر أن يقيم فى بيته الواقع على الجبل ؟ رفض روبيان أن ينتقل الى منزل صاحبه ، لكنه قبل توكيل المحامى الذى دله عليه ، والذى يمت الى باليا بقربى بعيدة ، ويعد من المع المحامين بمدينة ريو رغم انه لا يزال فى شرح الشباب .

ودعا روبيان صاحبه الى تناول طعام الفداء ، وصحبه الى مكتب قريبه ، غير عابىء باحتجاجات الكلب الذى كان يريد أن يرافقه وسويت الامور بسرعة .

قال له باليا وهو يستأذنه بالانصراف :

— ستأتى الى منزلى بسانتاتيريزا هذا المساء للعشاء . لا ... لا تتردد . اننى منتظر كقطعا .
قال ذلك وانصرف .

كان روبيان مرتبكا ، بسبب صوفيا خاصة . انه لا يعرف كيف يتصرف مع النساء . وذكر عندئذ — والذكرى جاءت فى محلها — العهد الذى قطعه على نفسه ، وهو أن يكون قويا لا يضعف . فذهب الى العشاء . ولقد كان موقفا فى الهامه . أين كان فى وسعه أن يقضى لحظة امتع من هذه اللحظة ؟ ان صوفيا فى بيتها أجمل منها كثيرا فى القطار . فى القطار ، كان معطفها يغطيها ، فلا يرى منها المرء الا عينيها المتوقدتين . أما فى سانتاتيريزا ففى وسع المرء أن يعجب لا بعينيها وحدهما بل بها كلها . كانت ترتدى ثوبا أنيقا من الكتان يكشف عن يديها الفاتنتين ، بل ويكشف قليلا عن ذراعيها . هى الآن ربة البيت ، تتكلم كثيرا ، وتحيط الضيف بألوان العناية والرعاية . فحين انصرف روبيان كان فى دوار .

وتعشى في بيتهما بعد ذلك كثيرا ، فكان يبدو في كل مرة خجولا متحفظا . ولئن أضعف التعود شيئا فشيئا حماسة الايام الاولى فان شعله متقدة لا يستطيع اطفاءها كانت لا تزال تختبئ في قلبه ، ان صح انها تختبئ حقا . صحيح ان هناك أمورا أخرى ظلت تشغل بال صاحبنا مدة تصفية الميراث ، وخاصة حين طعن أحدهم في الوصية بحجة ان كونكاس بوربا لا يستطيع أن يوصى لانه مجنون ، لكن صحة الوصية ما لبثت أن اقرت ، وسرعان ما سوى الميراث . واحتفل باليا بالحادث ، فدعا الى عشاء في بيته حضره عدا الاصدقاء الثلاثة ، المحامى وقاضى التحقيق ومأمور الاجراء . وكانت عينا صوفيا في ذلك المساء أجمل عينين في العالم .

« لكانهما تبدلان في كل يوم . ما رأيتها قبل الآن كما كانتا هذا المساء » . كذلك قال روبان لنفسه وهو يهبط الجبل . ثم جاء يوم الانتقال من الفندق ، وأقام روبان في منزله بحى بوتافوجو ، وهو واحد من البيوت التى ورثها . وكان لابد من تأثيث البيت ، فقدم باليا لصاحبه في هذه المناسبة ، مرة أخرى ، خدمات كبرى ، اذ أرشده بذوقه ونصائحه ، وصحبه من مخزن الى مخزن ، ورافقه الى محلات البيع بالمزاد . وكانت صوفيا تصحبهما أحيانا ، ذلك ان هناك اشياء لا تحسن اختيارها الا امرأة ، على حد قولها . فكان روبان يسعد بصحبتها سعادة عظيمة ، ويلجأ الى جميع أنواع الحيل ليطيل مدة وجودها الى جانبه ، فهو يطرح أسئلة لا محل لها ، ويخترع حاجات وهمية من أجل ان يطول الوقت الذى يستغرقه الشراء . وكانت صوفيا تقبل ذلك راضية مسرورة ، ولا تنى تريبه الاشياء ، وتتكلم ، وتشرح

استعرض روبان بخياله كل هذا ، بعد أن احتسى قهوته جالسا في المكان الذى تركاه فيه منذ قليل ، مسرحا بصره الى بعيد ، الى بعيد جدا . وظل يعبث بحزام ثوبه . وتذكر أخيرا ان عليه ان

يقوم ليزى كونكاس بوريا ويفك رباطه . فهذا واجب عليه أن يقوم
به كل يوم . فنهض ومضى الى آخر الحديقة .

٢٨

قال لنفسه وهو يسير : « ولكن ما هذه الرغبة التى تطاردنى ؟
أنها متزوجة ، وهى مع زوجها على خير وفاق ، وزوجها صديقى ،
هو يثق فى أكثر من ثقته بأى انسان آخر ... فقيم هذه
الفوايات ؟ » .

وتوقف عن المسير ، فتوقفت الفوايات أيضا ... ياله من قدس
كالقدس انطون ! قدس « علمانى » ! لكنه يختلف عن ذلك
المعتكف فى ان وساوس الشيطان كانت تستطيع بشيء من الالاحاح ان
تعجبه فى آخر الامر . ومن ثم هذه التناقضات الدائمة :

« ما أجملها ! يظهر انها تحبنى حبا شديدا . ان لم يكن هذا
حبا فما هو الحب ؟ انها تشد على يدي بكثير من اللذة وكثير من
الحرارة ... لا أستطيع أن أتركها ... ولو طلبت الى ذلك ...
الامر أقوى منى » .

سمع كونكاس بوريا وقع خطواته ، فأخذ ينبج ، فأسرع وروبيان
يخلصه ، وأحس فى الوقت ذاته انه يخلص نفسه بضع لحظات من
ألهم الذى حاصره . صاح به وهو يفتح له الباب :

— كونكاس بوريا .

فأسرع الكلب فى الخروج . ياله من فرح ! يالها من حماسة !
ما هذه الوثبات يثبها حول صاحبه ؟ وأخذ الكلب يلحق يد مولاه
من شدة سرووه ، لكن مولاه لم يزد ان لطمه ، فتراجع الكلب
حزينا ، واضمأ ذيله بين قائمتيه . غير ان صاحبه لم يلبث أن
صفق بأصابعه على حين فجأة ، فعاد الكلب يتواثب من جديد ،
فرحا ذلك الفرح نفسه .

— اهدأ ، اهدأ ...

وتبع كونكاس بوريا صاحبه روبيان الذى خرج من الحديقة ،
ودار حول البيت ، تبعه سائرا تارة ، متواثبا تارة أخرى . انه
يستمتع بحريته استمتاعا كاملا ، لكنه لا يغفل عن مولاه لحظة
واحدة . فهو يشخر ، وهو يتوقف من حين الى حين ليحك اذنه
أو ليلتقط قملة على بطنه ، ثم يستدرك الزمن والمسافة بقفزة

وأحدة ، فيلتصق بنعلى صاحبه من جديد . كان يلوح له ان روبيان لا يفكر الا فيه ، ولا يخرج الا ليتيح له ان يتريض وأن يعوض اللحظات الطويلة التي قضاها مربوطا . فاذا وقف روبيان عن المسير رفع رأسه ، قائلا لنفسه : لاشك انه يفكر في أمرى ، فهو بسبيل وضع خطة لنزهة تقوم بها معا ، أو لمشروع آخر ممتع كالنزهة . ولم يكن يخطر بباله أن يلطمه صاحبه بيده أو أن يلكزه بقدمه . انه مجبول من ثقة ، وسرعان ما ينسى اللطمات ... انه لا يحتفظ الا بذكرى المداعبات ولو جاءت من مولاه وهو في حالة ذهول . انه يريد أن يكون محبوبا . وحسبه أن يظن انه كذلك ...

والحياة التي يعيشها لم تكن سعيدة كل السعادة ، ولا شقية كل الشقاوة . هنالك أولا ذلك العبد الذي يفصله كل يوم بالماء البارد . انه لا يستطيع أن يألف أبدا هذا الاختراع الشيطاني . ولئن كان هذا الخادم الاسباني لا يطيقه فان الطباخ جان يحبه كثيرا . وروبيان كثيرا ما كان يغيب عن البيت ، الا انه كان لا يسىء معاملته بل يدع له أن يدخل البيت ويسمح له أن يحضر الغداء والعشاء ، وأن يرافقه الى قاعة الاستقبال أو الى المكتب . وكان في بعض الاحيان يلعبه وينططه ، ولكن متى جاء زائر ذو شأن اقتيد الى حظيرته ، فاذا أبى أن يخرج وقاوم لم تجده المقاومة شيئا ، لأن الخادم الاسباني يخرج به عنوة . أن الخادم يعمد الى كثير من الليونة واللفظ أول الامر ، حتى اذا أدار روبيان ظهره ، شده من أذنه أو من قدمه ورماه الى الخارج وأغلق جميع الابواب حتى يمنعه من العودة :

— كلب من جهنم .

فكان الكلب يحزن أشد الحزن لهذا الفراق المفاجيء ، وينكسر قلبه ، ويمضى يقبع في ركن من الاركان ثم يظل على حاله هذه صامتا مدة طويلة . كان يدور على نفسه ثم يدور الى أن يهتدى الى وضع مريح فيسكن ويفمض عينيه لكنه لا ينام وانما هو يستجمع أفكاره وذاكرياته ويحاول أن يربط بينها . أن قامة مولاه القديم تبدو له في بعض الاحيان كأنها في ضباب ، بعيدة بعيدة ، لكنها ما تلبث أن تمحى شيئا بعد شيء ، ثم تختلط بقامة صاحبه الجديد ، فاذا الرجلان واحد . ثم تراوده أفكار أخرى ...

أفكار كثيرة ، مسرفة في الكثرة . هون عليك أيها القاريء ! ما هذه الافكار أخيرا الا أفكار كلب ، الا غبار أفكار ! ولعلك تقول انها

أقل من غبار . انظر مع ذلك الى هذه العين التي تتفتح من حين الى حين ساهية لتأمل اللانهاية . الا ترى فيها انعكاسا لشيء ما . شيء لعله يلتصع في آفاق طبيعة الكلب . شيء ليس ذنبه ولا أذنيه وأنسكه مع ذلك جزء منه ؟ بأى اسم يمكن أن أسمى هذا الشيء ؟ إلا ما أقفر لغة الانسان !

وكان الكلب ينام في آخر الامر ، وكانت لحظات حياته كلها تعود في حلم الى رأسه : خليط صاخب من ذكريات الحياة الماضية وصور الحياة الحاضرة . فاذا أفاق من نومه نسي كل شيء ، لكنه كان يحتفظ منه بشعور ما لا أجرو أن أصفه بأنه الكتابة ، حتى لا أحنق كثيرا أيها القارئ العزيز . ان في وسع المرء أن يصف منظرا من مناظر الطبيعة بقوله انه منظر كئيب لكنه لا يستطيع ان يصف بذلك الوصف كلبا . ان كتابة منظر من مناظر الطبيعة قائمة في أنفسنا . أما اسناد مثل هذا الشعور الى كلب فهو يفترض ان الكتابة تنبع من مصدر غير ذاتنا . ومهما يكن من أمر فان التعبير الذي كان يظهر في وجه الكلب لا يدل على الفرح . ولكن كان يكفي أسر أمر من الامور : ان يصفر له الطباخ أو ان يوميء اليه مولاه أياما . تنم عن الصداقة ، حتى يسترد كل حماسه فاذا عيناه تتوهجان واذا بوزه يرتفع من اللذة ، واذا أقدامه تثب وثبات غريبة لبست في الحسبان .

٢٩

ظل روبيان بقية الصباح مشرق المزاج مفتبط النفس . واليوم يوم أحد . وهذان صديقان يجيئان لتناول طعام الغداء على مائدته . شاب في الرابعة والعشرين من سنه قد بدأ منذ قليل يبدد أموال أمه ، ورجل في نحو الخامسة والاربعين لم يبق عنده شيء يبدده .

الاول اسمه كارلوس ماريا ، والثاني اسمه فريتاس . والرجلان كلاهما يعجبان روبيان . لكن اعجابه بأحدهما يختلف عن اعجابه بالآخر . ليست السن وحدها هي التي كانت تقرب بينه وبين فريتاس أكثر مما كانت تقرب بينه وبين كارلوس ماريا . ان طبع فريتاس أيضا كان يحبه اليه . كان فريتاس يجيد الثناء على كل شيء ، ويتقن فن أزجاء المديح اللطيف لكل طبق من أطباق الطعام ولكل نوع من أنواع الخمر ! وكان لا ينصرف من بيت صاحبه الا وقد حشا جيوبه بأنواع السيجار دليلا على تقديره لها واعجابه بها .

وقد عرفه روبيان في مطعم بشارع البلدية ذهب يتعشى فيه ذات يوم . قصوا عليه هنالك قصة هذا الرجل ، وحدثوه عن حظه الحسن والسيئ ، ولكن من غير دخول في التفاصيل ، فقطب روبيان وجهه : ان فريتاس « حطام » ، وان معاشرته لن تحمل اليه أى متعة شخصية ولن تجلب له الاعتبار والتقدير . لكن فريتاس لم يلبث أن أخذ على عاتقه تبديد هذا الشعور الاول من نفس روبيان : انه رجل لامع الذكاء ، ظريف النكتة ، حاضر البديهة ، يجيد رواية النوادر ، وقص الفكاهات ، يحسب المرء حين يرى مرحة انه ينعم بإيراد لا يقل عن خمسين قونتا . وحين تحدث روبيان عن الازهار الجميلة التى يزدان بها بيته سأله أن يسمح له بزيارته ليراها لانه يعشق الازهار . فما هى الا أيام حتى جاء الى بيت روبيان فعلا ، قائلا انه يريد رؤية تلك الوردات الجميلة وانه لن يملك الا بضع دقائق ، ويرجو خاصة ألا يزعج روبيان ان كان مشغولا . وأرضى غرور روبيان كثيرا ان صاحبه ظل يتذكر الحديث الذى دار بينهما ، فنزل الى الحديقة حيث وقف فريتاس منتظرا ، وأخذ يريه الوردات بنفسه ، فوصفها فريتاس بأنها رائعة ، حتى لقد بلغت حماسته فى انعام النظر اليها انه كان لابد من انتزاعه انتزاعا من كل شجرة من أشجار الورد لينتقل الى شجرة أخرى . كان يعرف اسم كل شجرة من هذه الأشجار ، بل لقد ذكر أنواعا كثيرة منها كان روبيان يجهل وجودها ، وكان يصف هذه الأنواع فيقول انها كيت وكيت وان حجمها كذا وكذا « مشيرا الى الحجم بتدوير الابهام والسبابة » ، وكان يذكر أسماء الأشخاص الذين يملكون منها شجرات ممتازة ، غير ان وردات روبيان تعد من أجود الأنواع ، فهذه مثلا هى من أندر الورد ، وكذلك تلك الأخرى . وكان البستاني يصفى اليه دهشا . حتى اذا انتهت الزيارة قال روبيان :

— تعال نشرب قليلا . ماذا تحب أن تشرب ؟

لم يرغب فريتاس فى شيء بعينه ، لكنه مدح موقع البيت ، وانعم النظر فى تحف البرونز واللوحات والاثاث ، ثم نظر الى البحر وقال :

— حقا انك لتعيش ياسيدى عيشة رجل راق .

فتبسم روبيان راضيا . ان لكلمة الرجل الراقى وقعا جميلا فى أذنه ، حتى لو قيلت فى معرض التشبيه ! ووصل الخادم الاسباني حاملا صينية الفضة وعليها ألوان منتقاة من الاقداح وأنواع

الشراب . انها للحظة ممتعة عند روبيان . قدم بنفسه الشراب لصاحبه ثم أوصاه بأن يذوق نوعا من أنواعه قيل له انه أفخرها جميعا . فابتسم فريتاس ابتسامة من لا يصدق وقال :
- لعل في هذا شيئا من المبالغة .

وجرع جرعة وأخذ يتلمظ ببطء ليذوقها ، ثم جرع جرعة ثانية فثالثة ، فاعترف وقد ظهر في وجهه معنى النشوة بأن الشراب رائع حقا . ترى أين عثر عليه روبيان ؟ فأجاب روبيان بأن أحد أصدقائه : وهو صاحب متجر كبير للخمور ، أهدى اليه زجاجة منه ، فبلغ من إعجابه به انه لم يلبث أن طلب منه ثلاث دسنتات .

وما هي الا فترات قصيرة حتى توثقت علاقات الصداقة بين الرجلين . وأصبحت زيارات فريتاس لصاحبه على الغداء أو العشاء تزداد شيئا بعد شيء ، حتى لقد ازدادت أكثر مما كان يقدر لها أن تزداد . . . هل من السهل على امرئ أن يقاوم رجلا يحرص هذا الحرص كله على رؤية وجوه صديقة ، ويسعد بذلك هذه السعادة كلها ؟

٣٠

سأله روبيان ذات يوم :
- قل لي ياسيد فريتاس . . . هبني رغبت يوما من الايام في السفر الى أوربا ، فهل تصحبني ؟
- لا . . .
- لماذا ؟
- لأن صداقتي لا تكون بغير استقلال ، وقد لا نتفق على خطة الرحلة .

- آسف . اننى أقدر ميلك الى المرح واللهو .
- أنت مخطيء ياسيـيـدي ، ان وراء قناعي الضاحك لوجهي حزينا . ان ما أوثره هو الخرائب والاطلال . فاذا سافرت الى أوربا بدأت بزيارة خرائب اثينا ثم ذهبت الى المسرح لأشاهد تمثيلية « متسول الخرائب » ، وهى مأساة فظيعة ، ثم مضيت الى مجالس القضاء لأشهد المحاكمات التى تفصل فى الافلاسات ، والتى ترى فيها رجالا دمروا ثرواتهم . . .
كان روبيان يضحك . انه يحب هذه الصراحة ويحب هذه الحرارة البليغة .

هل يرضى حبك للاطلاع ، أيها القاريء العزيز ، أن تعرف الآن تقيض فريتاس ؟ أنظر اذن الى الضيف الآخر الذى يتناول غداءه مع الرجلين : كارلوس ماريا . اذا كان الاول يملك مزايا « الصراحة والحرارة البليغة » التى يقدرها روبيان قدرا عظيما ، فانه لمن الواضح ان الثانى هو تقيض ذلك تماما . لن يدهشك اذن أن نراه يدخل الصالون بخطا بطيئة ، وفى وجهه فتور وكبرياء ، حتى انه ليأبى النظر الى فريتاس حين يقدم اليه ليتعرف به . ان فريتاس الذى لعنه فى سره لتأخره « فقد شارفت الساعة على الثانية عشرة » لم يلبث أن غمره بسيل من احط انواع عبارات التملق .

وتستطيع ان تدرك أيضا ، أيها القاريء ، ان صاحبنا روبيان كان ، رغم ايثاره فريتاس ، يضمم لكارلوس ماريا احتراماً أعظم . لقد أنتظره حتى الآن ، وهو مستعد لان ينتظره حتى انقضى ! لكن كارلوس ماريا كان لا يحترم واحدا من الرجلين ، لا روبيان ولا فريتاس !

ولننظر اليه من كثب : رجل قوى البنية ، صافى النظرة هادئها ، يدل ظاهره كله على الثقة بالنفس . يحس المرء حين ينظر اليه انه مسيطر على نفسه ، وانه أكثر سيطرة من ذلك على غيره . انه ينظر الى كل شئ من حل ، وله ضحكة هي الى السخر أقرب منها الى المرح . ها هو ذا يجلس الى المائدة ، فيتناول شوكة وسكينة ، ويفض فوطته . انك تشعر ان كل حركة من حركاته شارة شرف ينعم بها على صاحب البيت ، بل اشارات شرف ، لانه يتواضع فيفضل بتناول الطعام على مائدته ، ولا يعامله كما يعامل فلاح من غلاظ الفلاحين .

على ان الغداء انقضى فى مرح رغم هذه الفروق بين الضيفين . كان فريتاس يلتهم الطعام لقما مضاعفة ، ولا يسمح لنفسه الا بلحظات قصيرة من الهدنة . وسره أن يدرك فى قرارة نفسه انه لم بدأ الطعام فى الموعد المضروب له « وهو الساعة الحادية عشرة » لما تلذذ به هذا التلذذ كله . لاشك ان مشرفا على الفرق ما كان له أن يبتلع الطعام بسرعة أكبر من هذه السرعة ! وبعد عشر دقائق استطاع أن يشرع فى الكلام : انه الآن ابتسام كله ! واخذ ،

وهو يفيض حركات وإشارات ، يسرد في كثير من التدفق عددا كبيرا من القصص الخفيفة والنوادر المضحكة . فكان كارلوس ماريا يستقبلها كلها تقريبا بجد عابس من قبيل الاستخفاف ، لذلك أصبح المسكين روبيان لا يجرؤ أن يضحك لها رغم أنه يراها فكهة . وفي آخر الغداء بدأ كارلوس ماريا يتخلص من جموده قليلا ، وأصبح يتكلم ، حتى لقد قص على صاحبه بضع مغامرات غرامية كان قد سمع بها . وعندئذ سأله فريتاس على سبيل التملق ألا يستطيع أن يروي لهما بعض مغامراته الخاصة ، فانفجر كارلوس ماريا ضاحكا وقال :

— ياله من دور تريدان لي أن أمثله !
فتكلم فريتاس قائلا أنه لا يطلب إليه إلا أن يسرد وقائع . ولا خير في هذا قطعا ، وما من أحد يستطيع أن يفترض على كل حال . .
فقاطعه كارلوس ماريا موجها هذا السؤال إلى صاحب البيت :
— أنت راض عن إقامتك ببوتا فوجو ؟

فعض فريتاس على شفثيه غيظا من هذه المقاطعة ، ولعن الرجل في سره مرة أخرى ، وغاص في مقعده مغلق الوجه ، وأخذ ينظر إلى صورة معلقة بالجدار . أجاب روبيان بأنه راض كل الرضا عن إقامته ببوتا فوجو ، وإن الشاطيء رائع حقا . فقال كارلوس ماريا :

— لاشك في أن المنظر جميل ، لكنني لم أستطع في حياتي أن أطيق الروائح التي تفوح هنا في بعض الأحيان .
وأضاف ملتفتا إلى فريتاس :
— ما رأيك ؟

فاستقام فريتاس وأخذ يشرح رأيه ، فقال انهما كليهما على حق ، لكنه ألح خاصة على أن الشاطيء ساحر حقا رغم كل شيء .
وإن يدع لشيء من غيظه ولا انزعاجه أن يظهر أثناء كلامه ، حتى أنه تَلَطَّف فلفت نظر كارلوس ماريا إلى نشارة من الفاكهة كانت قد تشبثت بشاربه .

ودقت الساعة الواحدة بعد الظهر حين شارف الغداء على الانتهاء .
كان روبيان صامتا ، يتذكر أطباق الطعام واحدا بعد واحد .
ويستعرض جميع مراحل هذه الوجبة ، ويرمق الكؤوس الفارغة والفتات المتبعثر راضيا مسرورا ، ويرقب ما على المائدة من فوضى تؤذن بقرب احتساء القهوة . ومن حين إلى آخر كان يلقي نظرة على الخادم الذي يرتدى ملابسه الرسمية . حتى لقد لاحظ كارلوس

ماريا مفتبطا أشد الاغتباط بعد أولى الانفاس التى نشقها من احدى لفائف السيجار التى قدمها اليه . وفى هذه اللحظة دخل الخادم يحمل سلة صغيرة مغطاة بمنديل رقيق ، وصلت الآن مع رسالة .

٣٢

سأل روبيان :

— من مرسل هذا كله ؟

— السيدة صوفيا .

كان روبيان لايعرف خطها بعد ، فهذه أول مرة تكتب فيها اليه . ما عسى أن يكون الخبر ؟ أن أصابعه ترتجف ، وفى وجهه يظهر الاضطراب الذى يهزه . وفيما هو يفض الرسالة ، رفع فريتاس المنديل الذى يغطى السلة ، دون تحرج ، فاذا السلة مملوءة بشمار الفراولة . وقرأ روبيان الرسالة منفعلا أشد الانفعال . وهذه هى بضعة الاسطر التى تضمنتها :

« أبعث اليك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة للغداء ، آملة أن تصلك فى موعدها . يجب أن تأتى إلينا هذا المساء حتما لتناول طعام العشاء . فذلك أمر أصدره كرستيانو .

صديقتك المخلصة

« صوفيا »

سأل روبيان وهو يطوى الرسالة :

— ما هى هذه الفاكهة ؟

— فراولة .

— وصلت بعد فوات الاوان . فراولة ؟

كذلك ردد الكلمة دون أن يعرف ماذا يقول .

قال له فريتاس ضاحكا ، بعد خروج الخادم :

— لا داعى الى الاحمرار يا صديقى العزيز : تلك أمور تقع كثيرا للعشاق ...

فقال روبيان وقد ازداد وجهه احمرارا :

— للعشاق ؟ ولكن فى وسعك أن تقرأ الرسالة ، فترى بنفسك

ان

وكاد يمد الرسالة ، لكنه عدل عن ذلك ، ووضعها فى جيبه .

كان منفعلا أشد الانفعال ، يتقاسمه الاضطراب والفرح معا .

قال له كارلوس ماريا :

— ليس في إمكانك أن تنكر أن هذه الالتفاتة الرقيقة إنما جاءت من شخص يحبك . ثم إنه لا اعتراض على هذا ، فالحب قانون عام . وإذا كانت امرأة متزوجة ، فليس يسعنا إلا أن نحمد لك هذا التكتيم

فقاطعه المضيف يقول :

— ناشدتك الله ، أرجوك

فتابع كارلوس ماريًا كلامه يقول :

— أهى اذن أرمل؟ سيان . . . في هذه الحالة أيضا يحمد التكتيم . أكبر خطيئة ، بعد الخطيئة نفسها ، افشاؤها . ولو كنت مشرعا لاقتحنت أن يحرق جميع أولئك الذين يقتربون جريمة افشاء السر في هذه الأمور ، ولقضيت بأن يجروا إلى العذاب باحتفال كالاحتفال الذي كان وقفا على متهمى محاكم التفتيش ، مع فرق واحد هو أن يلبسوا معطفا مغطى بريش ببغاء بدلا من قميص الكبريت وضحك فريتاس حتى كاد يختنق من الضحك ، وكان ينقر على المائدة من قبيل التصفيق ، فتمتم روبيان يقول وقد امتقع لونه فجأة :

— ما هي بالمتزوجة ولا هي بالارمل

فأجابه كارلوس ماريًا :

— هي اذن فتاة؟ فمتى يكون الزواج؟ ما ينبغي لك أن تتردد ، فقد آن الاوان .

ثم أضاف وهو يتناول بأصابعه بعض الثمار :

— فراولة الخطبة ! ان لها شذى كشذى ازهار البرتقال .

أصبح روبيان لايعرف ماذا يقول . وانتهى آخر الامر الى التراجع ، فقال ان الثمار قد بعثت بها اليه زوجة أحد أصدقائه . فغمز كارلوس ماريًا بعينه . أما فريتاس فقال ان كل شيء قد اتضح الآن . . . ففي البداية كان السر الذي يحيط بالسلة ، وطريقة ترتيب السلة ، وحتى مظهر الثمار التي بدا أنها ثمار « زانية » — قال ذلك ضاحكا — ذلك كله كان يطبع الامر بطابع الخطيئة ومجافاة الاخلاق ، أما الآن فقد سويت المسألة .

واحتسى الصاحب القهوة رائقة صافية ، ثم انتقلوا الى الصالون . ظل روبيان يبدو قلق البال رغم احتياطه . وبعد لحظة من تفكير ، قدر ان ظنون صاحبيه الاولى ترفع قدره وترضى غروره : ان تخون امرأة زوجها من أجله . حتى لقد انتهى الى الاعتقاد انه أسرف في

الدفاع عن نفسه بتلك الحرارة المفرطة . لقد كان في وسعه ان يعترف بأن الامر أمر خاص حقا ، ما دام لم يذكر أى اسم . على انه من الممكن أن تكون حرارة انكاره قد تركت هى نفسها عند محدثيه شيئا من الشك ، ومن الريبة !.. ان هذا يعزیه ، وهاهو ذا يتسم ...

نظر كارلوس ماريا الى ساعته . انها الثانية . يجب عليه أن ينصرف . شكره روبيان ألف مرة ومرة على تفضله بقبول الدعوة ، ورجاه الا يتأخر في تكرار الزيارة . أليس من الممتع أن يقضوا يوم الأحد من حين الى حين في مثل هذه الاحاديث الودية ؟ صاحب فريتاس وهو يقترب :
- فكرة عظيمة !

وكان قد دس نصف دسته من لفائف السيجار في جيبه ، فهمس في اذن روبيان حين خرج :
- اخذت التذكار المعتاد . ستة أيام من المتعة ، واحدة في كل يوم فقال له روبيان :
- خذ مزيدا .
فأجابه :

- لا ... لكنى سأجىء لأخذ لفائف أخرى .
شيعهما روبيان حتى الباب الحديدى . وحين سمع كونكاس بوربا أصواتهم هرع من آخر الحديقة ليحييهم في حماسة ، ليحيى مولاه خاصة . وقد اهتم الكلب بكارلوس ماريا ، حتى لقد أراد أن يلحق يده ، لكن صاحبنا سحبها مشمزا ، فلكز روبيان الكلب بقدمه ، فهرب الكلب معولا . وافترق الاصحاب .
قال كارلوس ماريا لصاحبه فريتاس :
- الى أين أنت ذاهب ؟

فقدر فريتاس ان كارلوس ماريا ربما كان ذاهبا الى زيارة في نواحي سان كليمانت ، ولما كان يحب اصطحابه أجابه بقوله :
- أنا ذاهب الى آخر الشاطئ .
فقال الآخر :
- أما أنا فالى الجهة الأخرى .

بعد أن رأهما روبيان ينصرفان ، عاد الى الصالون وأخذ يقرأ

بطاقة صوفيا مرة ثانية . ان كل كلمة من كلمات هذه الرسالة غير المنتظرة سر من الاسرار . لكن التوقيع هو اعتراف حقا . لقد ذيلت الرسالة بتوقيعها : « صوفيا » ، « صوفيا » فقط . لم نضف الى اسمها الشخصى أى اسم . أما قولها : « صديقتك المخلصة » فهو مجاز ولا شك . وأما الكلمات الاولى : « أبعث انيك بهذه السلة الصغيرة من الفاكهة الغداء » ... فهي تدل على براءة نفسها الطيبة الكريمة ؟ لقد رأى روبيان هذا كله ، وأحس به بغيرته . وفجأة وجد نفسه يقبل الورقة ، بل لقد أخطأت التعبير . وجد نفسه يقبل الاسم ، الاسم الذى سميت به عند تعميدها ، الاسم الذى نادتها به أمها مرارا ، ثم انتقل الى زوجها رمزا الى عقد الزواج ، ثم طار الآن من جميع هؤلاء الذين ملكوه الى حين ليحىء اليه ، اليه هو ، هو روبيان ، فى ذيل صفحة من الورق ... صوفيا . صوفيا . صوفيا .

٣٤

— لماذا تأخرت هذا التأخر كله ؟
كذلك سألته صوفيا عندما ظهر على باب الحديقة فى سانتاثيرزا .
— لم ينته الغداء الا فى الساعة الثانية ، وبعد الغداء قمت بترتيب بعض الاوراق . ثم اننى لم أتأخر كثيرا « أضاف ذلك وهو ينظر الى ساعته » والساعة لا تكاد تبلغ الرابعة والنصف .
قالت صوفيا وهى تظهر العتب :
— الاصدقاء يصلون متأخرين دائما .

فشعر روبيان بأنه مذنب ، لكن وقته لم يتسع حتى للاعتذار . فأمامه ، قرب المنزل ، أربع سيدات جالسات على مقاعد من حديد ، ينظرن اليه نظرة غريبة وهن صامتات . انهن مدعووات صوفيا ينتظرن بفارغ الصبر وصول الثرى الشهير روبيان . فقدمته صوفيا اليهن . ان ثلاثا منهن متزوجات . أما الرابعة فهي فتاة أو قل هى عانس ، عمرها تسعة وثلاثون عاما ، ولها عينان سوداوان اتعبهما الانتظار . انها ابنة ضابط برتبة ماجور يقال له سيكويرا ، ولم يلبث أن ظهر فى الحديقة .

قال الماجور لروبيان منذ قدم اليه :
— ان صديقى باليا قد حدثنى عنك سابقا . وفى وسعنى أنؤكد انه نعم الصديق لك . لقد قص على قصة المصادفة التى وثقتا

عري الصداقة بينكما . خير الصداقات في بعض الاحيان صداقة قامت مصادفة . اليك هذا المثال : في عام ١٨٣٠ ، قبل عهد الوصاية بقليل ، تعرفت بصديقي الذي أصبح أعز أصدقائي حينذاك ، بمصادفة تشبه هذه المصادفة كل الشبه . تم ذلك في صيدلية برناردس الذي كان يلعب بـ «حنا ذى الربلتين الضخمتين» ... يخيل الى انه كان في شبابه بين عام ١٨٠١ و ١٨١٢ يضع لساقيه ربلتين اصطناعيتين . لقد بقي له اللقب على كل حال . الصيدلية في شارع سان جوزيه ، عند زاوية شارع الميزيريكورد ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ... وانت تعلم ان الربلة الاصطناعية تجعل حقا منظر السباق ... اسمه الحقيقي برناردس ، حنا آلفس برناردس ... وصيدليته في شارع سان جوزيه ... وهو مكان كنا تلتقى فيه لنتحدث ونتناقش حتى ساعات متأخرة من الليل . كنا نذهب مرتدين المعاطف ، حاملين العصي ، حتى لقد كان بعضنا يحمل فوانيس . أما أنا فلا ... كنت أرتدي معطفا فحسب ... كنا نذهب الى هنالك مرتدين المعاطف . وبرناردس - أقصد آلفس برناردس ، فذلك هو اسمه - أصله من ماريكا ، لكنه نشأ هنا في ريو ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ، ذلك هو لقبه . يقال انه كان في شبابه يضع ربلتين اصطناعيتين . اذ كان من فتیان المدينة الانيقين . لقد ظلت أتذكره زمنا طويلا ... حنا ذو الربلتين الضخمتين ... كنا نذهب الى هنالك مرتدين المعاطف ...

غرق روبيان تحت هذا السيل من الكلام . لكنه وقد وقع في الفخ ، لا يرى مخرجا يفر منه . ان الماجور يحاصره من كل جهة . ليس هناك أي باب للخروج . واستمر سيل الكلام ينهمر الى غير نهاية . لو استطاع روبيان أن يلقي نظرة صوب السيدات لسهه على الاقل أن يلاحظ انه كان موضع استطلاعهن جميعا ، وانه يلفت نظر تونيكا ابنة الماجور بوجه خاص . لكنه لم يستطع حتى ذلك ، والماجور لا يلوح عليه انه سيقطع هذا السيل المنهمر ، ماذا أقول : بل هذا البحر المصطخب . وجاء أخيرا باليا يحمل اليه قارب نجاة ... كانت صوفيا قد ذهبت تقول لزوجها ان روبيان وصل ، فنزل باليا الى الحديقة بسرعة ليحيي صديقه ويقول له : «تأخرت كثيرا» . كان الماجور قد شرع عندئذ في سرد قصة لقب الصيدلي من أولها ، فترك فريسته ، ومضى يلتحق بحلقة السيدات . وخرج بعد قليل .

لا شك في ان هؤلاء السيدات المتزوجات جميلات . وحتى العانس
منهن لم تكن دميمة ، حين كانت في الخامسة والعشرين من سنها ،
سكن صوفيا قد أطفأت جمالهن جميعا .

والحق ان هذه المرأة ليست بالمرأة التي لا تضارع ، كما كان
يتراءى لصاحبنا ، ولكنها بارعة الجمال فعلا . انها واحدة من
تلك النساء اللاتي يصقلهن الزمن ببطء يوما بعد يوم ، كنحات
دقيق ، فاذا هي تحف جميلة حقا . ان صوفيا توشك ان تتم الثامنة
والعشرين من عمرها ، وهي الآن أجمل مما كانت في السابعة
والعشرين . وفي وسعنا ان نفرض انها ستبلغ الثلاثين قبل ان يفرغ
النحات من لمساته الأخيرة ، هذا اذا لم يشأ ان يستمر في عمله
سنتين أو ثلاث سنوات أيضا .

ان عينيها مثلا قد تبدلتا الآن عما كانتا عليه اثناء تلك السفرة
التي كان يبدو خلالها انهما تتابعان الحديث بين روبيان وباليا .
لقد أصبحتا أحلك سوادا ، وهما لا تتابعان الآن شيئا ، حتى انه
لبخيل للنّاظر اليهما انهما هما اللتان تتحدثان ، ويا لحديثهما
ما أبلغه ! وفمها أصبح يبدو انضر نضارة وأطرى طراوة ، وكتفاها
وذراعاها ويدها قد ازدادت رشاقة ، ويزيد درشاقتها ما تقوم به
من حركات مدروسة واشارات مقصودة . وحتى تكاثف حاجبيها
— وهو ما كانت تضيق به صوفيا وتكرهه ، وما وجده روبيان
نفسه لا ينسجم وسائر وجهها — كان يسهم الآن في اسباغ هذا
الطابع الخاص على وجهها .

كانت صوفيا في ذلك المساء ترتدى أبهى حلة . لقد شدت صدرها
وخصرها بقميص صغير من الصوف بندقي اللون . وقميص بسيط .
لكنه أنيق . وفي أذنيها قرطان من اللؤلؤ الطبيعي ، كان روبيان
قد أهداهما اليها في عيد الفصح .

ان هذه المرأة الشابة هي ابنة موظف عجوز من موظفي الدولة ،
تزوجت في العشرين من عمرها كرستيانو دي الميدا أي باليا الذي
كان يعمل وسيطا تجاريا وكان في الخامسة والعشرين من عمره .
ان باليا يحسن كسب رزقه ، فهو امرؤ نشيط بارع ، ذو احساس
قوى بشئون الأعمال ، حتى لقد استطاع في عام ١٨٦٤ ، رغم قلة
خبرته ، ان يشم — ليس هنالك كلمة أخرى نستعملها في هذا

المقام - نعم ، أن يشم الافلاس المصرفى الذى كان يتهيا ، فقال
لنفسه : سيحدث شىء فى يوم قريب أو بسيد ، فالوضع معلق بخيط
واهن ، وعند أول صرخة تنذر بالخطر ، سينهار كل شىء .
لكن عيبه هو انه كان ينفق أكثر مما يكسب . انه يحب الترف
حبا شديدا . فايراداته ، ما حصله منها وما سيحصله ، كانت
تتبخّر حفلات وأثوابا أو حليا لزوجته ، ومقتنيات كثيرة الانواع
يشتريها راضيا لتزيين بيته ، وخاصة اذا كانت على آخر زى أو
كانت مبتكرات حديثة . وكان فى مقابل ذلك مقتررا على نفسه بعض
التقتير ، الا فيما يتصل بالطعام . وكان يرتاد المسرح كثيرا رغم انه
لا يحبه حبا خاصا ، فهو لا يمل حفلات الرقص مثلما يمل المسرح .
والحق انه كان لا يكثر من الخروج استمتعا بالخروج ، وانما يخرج
ليطلع الناس على جمال عيني زوجته ، على جمال عينيها وجمال
صدرها . لقد كان فى الواقع مجبا للظهور حبا غريبا ، كان يلبس
زوجته أثوابا عارية النحور حتى يستطيع جميع الناس ان يحسدوه
على حظه . فهو من هذه الناحية شبيه بالملك كاندول (١) ، ولكنه
أكثر احتشاما من بعض النواحي ، وأكثر صخباً من نواح أخرى .
ويجب هنا أن ننصف المرأة الشابة . انها لم تستكن لنزوة زوجها
فى أول الامر الا على مضض . لكنها بلغت من اثاره الإعجاب بها
انها أصبحت فى النهاية تحب عرض مفاتها لتسعد برؤيتها أنظار
الناظرين «وما أسرع ما تصبح العادة طبيعة ثانية» يجب أن ننصفها
فلا نصورها خيرا مما هى ولا شرا . لاشك ان حب الظهور عندها
كان يمكن أن يكتفى باظهار عينيها الضاحكتين ، المثيرتين ،
الجدابتين ، الجذابتين وكفى ، فكأنهما اللافتة المعلقة على باب فندق
حجراته كلها مشغولة . . فالناس تتمهل أمام جمال اللافتة ، تتمهل
وتتأمل ثم تمضى . كان حسبها هذا ، وما من شىء يوجب عليها
أن تعرض المزيد من مفاتها . ومع ذلك استسلمت لارادة زوجها .
غير ان باب الفندق - اذا صح ان نطلق هذا الاسم على قلبها - قد
ظل مغلقا ، بل ظل محكم الاغلاق .

٣٦

قال روبيان لنفسه : « ما أجملها يارب ! اننى لأحس بأن من

(١) الملك كاندول ، ملك « ليديا » كان يحب ان يعرض لزوجته على نديمه سافرة ،
فأحبته هذا النديم واتفقت معه على قتل زوجها . (المترجم)

الممكن أن ارتكب فضيحة ! »
هبط الليل ، وصاحبنا مسند ظهره الى احدى النوافذ ينظر الى
صوفيا ، وصوفيا تنظر اليه .
كان هنالك سيدة تفنى . ان أزواج السيدات الثلاث قد قطعوا
لعبهم بالورق وجاءوا الى الصالون بضع لحظات ينصتون الى غناء
المغنية التى هى زوجة أحدهم . وكان باليا يرافق غناء المغنية
بائعزف على البيانو ، لذلك لم يستطع أن يرى النظرات المتبادلة
بين زوجته وصاحبه الثرى . لست أدري هل كان هنالك أشخاص
آخرون أيضا . لكن ما أعلمه على كل حال هو ان هناك شخصا
لاحظ سلوكهما ملاحظة كاملة : وهذا الشخص هو تونيكا بنت الماجور
وظل روبيان يردد لنفسه قوله : « ما أجملها يارب ! انى لاحس
بأن من الممكن أن ارتكب فضيحة ! » . ظل يردد لنفسه قوله هذا ،
وهو لايزال مسندا ظهره الى النافذة ، محدقا الى المرأة الشابة
التى ما انقطعت هى أيضا عن التحديق اليه .

٣٧

لايستغرب المرء أن تلاحظ تونيكا نظراتهما المتبادلة ، ذلك انها
نم يكن لها من هم منذ وصول روبيان الا أن تلفت نظره اليها . ومن
أجل ذلك كانت عينها البائستان - عينها اللتان عمرهما تسع
وثلاثون سنة ، اللتان لم تستطعا حتى الآن أن تجدا رفيقتين ،
اللتان كانتا تدلفان من التعب الى اليأس - قد استردتا بعض
الالتماع . ويجب أن نذكر ان التجربة الطويلة قد علمت تونيكا كيف
تستعمل عينيها وكيف تسبغ عليهما حين الحاجة كل ما يشتهى من
العيون الناعسة . فكان من السهل عليها أن تهيهما لمهاجمة صاحبنا
الثرى .

ورغم ان قلبها قد أصيب بخيبات كثيرة ، فقد أخذ يخفق مرة
أخرى . شئ ما قال لها ان السماء أرسلت اليها هذا الثرى
الرفي حلا لمشكلة زواجها . والحق انه غنى أكثر مما كانت تتمنى
من غنى . انها لم تكن تطلب الفنى . انها لم تكن تطلب الا زوجا .
وقد قامت بجميع حملاتها الزوجية دون أن تقيم وزنا للاعتبارات
المالية . وقد قلت مطاعمها كثيرا منذ بعض الوقت . حتى ان آخر
حملاتها كانت مطاردة لطالب صغير فقير !
ولكن من يدري ؟ لعل السماء قد كتبت لها أن يكون زوجها

رجلا غنيا ، كانت تونيكا تؤمن بسيدتها العذراء ، عذراء الحبيل
دون دنس . وأخذت تطوق القلعة بحنكة وشجاعة .

قالت في نفسها : « الاخريات متزوجات جميعا » .

ولم تلبث أن لاحظت ان نظرات روبيان وصوفيا لا تفترق .
ولاحظت مع ذلك ان نظرات صوفيا أقل من نظرات روبيان وأقصر ،
وبدا لها ان مرد ذلك بطبيعة الحال الى ما يقتضيه الظرف من
احتياطات . ربما كانا عشيقين .. وأحزنتها هذه الفكرة . لكن
الامل انتصر . اذ بين لها ان الرجل بعد ان يقوم بتجربة عاطفية
أو عدة تجارب عاطفية ينتهى دائما الى الزواج . فالمشكلة اذن انما
هى الوصول الى الاستيلاء عليه فاذا أراد ان يتزوج وأن يبنى أسرته
تولى هذا الميل قتل كل ميل آخر فى نفسه ، هذا اذا صح ان فى
نفسه ميلا آخر .

وها هى ذى تضاعف جهودها حاشدة كل مفاتنها من تحريك
المروحة أمام وجهها فى خفة ورشاقة ، الى ارجاش الشفتين ، الى
الغمز بالعينين ، الى المشى جيئة وذهابا اظهرا لأناقة الجسم وجمال
القد . انها لم تدخر من ذلك كله شيئا . وهذه هى الخطة القديمة
التي كانت تستعملها دائما . ولئن لم تنجح حتى الآن فلا ضير !
ليس هذا هو المبدأ الذى يقوم عليه « اليانصيب » ؟ ان يوم الربح
يعوض كل الخسارات الماضية ويزيد ...

ولكن حين أخذت السيدة تفنى لاحظت تونيكا كيف ان روبيان
وصوفيا يشرب كل منهما الآخر بنظراته شربا ، فاخفت شكوكها
وأيقنت ان الامر ليس امر لفتات عارضة طارئة . وانما هو تأمل
حقيقى يذهل البصر عن سائر ما فى الوجود . وعندئذ ترجع فى
أذنيها ذلك الصوت الحزين ، صوت نعيق الغراب الذى ينعى كل
أمل : انتهى الى الابد (١) .

وظلت مع ذلك تناضل فظفرت بجلوس روبيان الى جانبها بضع
دقائق وحاولت أن تتمم له بوضع عبارات جميلة تذكرت انها قرأتها
فى إحدى الروايات ، أو أوحى اليها بها ما فى الظرف من حزن
وكآبة ، فكان روبيان يصفى ويجيب ، لكنه لا ينقطع عن مراقبة
صوفيا ، ويقلق حين تترك الصالون ويضطرب حين تعود اليه ،
حتى لقد جاوز ذهوله الحدود فى إحدى المرات : كانت تونيكا تعترف

(١) بالانجليزية فى الأصل ، والعبارة من قصيدة لادجار آلان بو عنوانها
(الغراب) . (المترجم) .

له بأنها تتمنى أن تعرف ولاية ميناس ومدينة بارباسينا خاصة ،
فكيف المناخ هنالك ؟ فلم يزد على أن ردد ترديدا آليا :
- المناخ !

لقد كان ينظر الى صوفيا التي كانت واقفة أمامه مديرة اليه
ظهرها ، تتحدث الى سيدتين جالستين . . انه يتأمل جمال قوامها
وحركة جسمها المنتصب انتصاب باقة من الازهار منبجسة من
آنية . ان رأسها أشبه بزهرة مانجوليا لا نظير لها ، قد غرست
قائمة في وسط الباقة . ذلك ما كان روبيان يتأمله حين سأته
تونيكا عن مناخ بارباسينا ، فلم يزد على أن ردد كلمتها ترديدا
لا يشتمل حتى على لهجة الاستفهام .

٣٨

عزم روبيان أمره . لم يبد له في يوم من الايام أن قلب صوفيا
يدعو قلبه بمثل هذه اللجاجة الى السير معه في طريق من التخفى
لا يرجع منه المرء عامة الا وقد هرم وانطفأت حرارته . بعض الناس
لا يرجعون أبدا . وآخرون يتوقفون في منتصف الطريق . وكثيرون
لا يتجاوزون حتى عتبة الباب !

٣٩

كان القمر رائعا . وهناك ، على الهضبة ، بين الارض والسماء ،
تشعر النفس ، مهما تكن قليلة الجراءة ، أنها قادرة على أن تواجه
جيشا عدوا فتفنيه ، فكيف والجيش حليف ؟ كانت صوفيا قد
أعطت روبيان ذراعها ليمضيا الى الحديقة ويريا ضوء القمر . وقد
دعت تونيكا الى مرافقتهما فأجابت الفتاة المسكينة بأن قدمها
موجعة ، وانها ستلحق بهما بعد قليل . ولكنها لم تفعل .

ظل الاثنان صامتين بعض الوقت . ومن النوافذ المفتوحة كان
الاشخاص الآخرون يرون متحدثين ، وفيهم الرجال الذين انقطعوا
عن اللعب بالورق . الحديقة صغيرة ، لكن سلم درجات الصوت
الانساني يتيح لهما أن يتبادلا كلمات جميلة دون أن يسمع
حديثهما أحد .

وتذكر روبيان ، على حين فجأة ، تشبيها قديما جدا ، مستمدا
من قصيدة من قصائد عام ١٨٥٠ ، هذا اذا لم يكن شائعا في أي

نشر من أى زمان : عيناك نجوم الارض ، والنجوم عيون السماء .
كذلك قال لها بصوت خافت مرتعش .

دهشت صوفيا أشد الدهشة . وإذا بجسمها الذى كانت الى
ذلك الحين تسنده كله الى ذراع روبيان ، يتصلب فجأة ... لقد
اعتادت أن ترى صاحبنا قبل ذلك خجولا ... النجوم ؟ العيون ؟
وأرادت الا يمزح هذا المزاح ، لكنها لم تعرف كيف تدبر جوابها
بحيث لا تدحض قناعة تشسارك فيها ، ولا تشجعه مع ذلك على
الاسترسال . ومن ثم خيم صمت طويل .

تابع روبيان يقول :

- مع فرق واحد ، هو ان النجوم أقل جمالا من عينيك . ولكن
ما هى النجوم فى حقيقة الامر ؟ لئن جعلها الله عالية هذا العلو كله
قريبا كان ذلك لأنها تفقد كثيرا من بريقها اذا هى رثيت من قرب .
أما عيناك فلا . انهما على قريهما منى هذا القرب كله ، تظلال
واسعتين ، متلاشتين ، بل تظلان أشد تلالؤا من السماء .

ان روبيان يبدو لها الآن بفصاحته وجراته مختلفا كل الاختلاف
عن عهدا به . ولم يتوقف روبيان عن الكلام ، بل تابع حديثه
حول هذا الموضوع نفسه . انه ليس غنيا بالأفكار . والموقف رغم
ما طرا على صاحبنا من تبدل ، خليق بأن ينضب معين أفكاره بدلا
من أن يوحى اليه بأفكار جديدة . وكانت صوفيا لا تدري ماذا
تفعل . لقد جاءت الى الحديقة فى صحبة حمل وديع هادى ،
فاذا هى الآن مع ذئب شره يتضور جوعا .

كان لابد من أن ترد بشيء ما ، أن تضطره الى السكوت ، أن
تقول له انه يسير فى طريق لا تحب أن تسير فيه ، ولكن على
ألا تفضبه وألا تطرده ... وبحث صوفيا عن مخرج ، لكنها لم
تجد مخرجا ، لأنها كانت تصطدم دائما بهذا السؤال الذى لم
تعثر له على حل . أتظاهر بأنها فهمت ، أم تتجاهل ذلك ؟ وتذكرت
عندئذ اللفتات اللطيفة والكلمات الرقيقة التى بدلتها لروبيان ،
وتذكرت العناية الخاصة التى أحاطت بها . انه لمن المستحيل اذن
أن تتظاهر بأنها تجهل معنى هذه العبارات الغزلية التى يقولها .
ولكن كيف تعترف بأنها فهمتها ثم لا تطرده فورا ؟ تلك هى المشكلة

كان النجوم فى أعلى السماء كانت تضحك من هذا الموقف المعقد .

أما ان القمر وآههما ، فلا ضير . ان القمر يجهل فن الهزء
والسخر . والشعراء الذين يجدونه حزيننا كاسف البال يدركون

انه كان ذات يوم عشيق احدى النجوم الشاردة ، وان عشيقته قد هجرته بعد بضعة قرون . ومن يدري ؟ لعلهما لا يزالان عشيقين ، ولعل الخسوف « واغفروا لى جهلى بعلم الفلك » ألا يكون الا موعد غرام ، ولعل الاسطورة التى تروى ان ديانا هبطت الى الارض لتلقى انديميون ان تكون اذن صادقة . ولكن لماذا هبطت الى الارض ؟ أى ضير فى ان يلتقى العشيقان فى السماء نفسها ، كما تلتقى الجداجد هنا على الارض بين أوراق الشجر ؟ ان الليل يتولى ستر كل شيء بفلالته السمجة .

ثم ان القمر وحيد ، والوحدة تحمل صاحبها على الجد . ولا كذلك جمهرة النجوم انها اشبه بعصبة من الفتيات الجميلات الفرحات المهازرات ، يضحكن ويتحدثن بصوت واحد معا عن جميع الاشياء وجميع الناس . لست أنكر انهن عفيفات . ولكن ذلك يكون عندئذ أسوأ وأنكى ، فهن يضحكن اذن دون أن يفهمن ! .. النجوم العفيفات .. ذلك هو الاسم الذى يطلقه عليهن عطيل الرهيب وتريسترام شاندى المرح ، كلاهما . ان المرء لا يستطيع أن يتخيل رجلين يبلغ التعارض بينهما فى القلب وفى العقل على السواء ، ما يبلغه التعارض بين هذين الرجلين . ومع ذلك نراهما يتفقان فى هذا الأمر ، وهو انهما كليهما يصفان النجوم بالعفة . وهذه النجوم العفيفات تسمع الآن كل شيء ، تسمع كل ما تجاسر فم روبيان المتهور على أن يلقيه فى اذن صوفيا المبهوتة . ان أقل ما أصبح من الممكن أن يوصف به صديقنا الخجول « يأتيها النجوم العفيفات ! » هو انه متحلل . الا نستطيع ان نقول انه « ابليس » نفسه ، حاول أن يخدع المرأة الشابة بجناحيه الملائكيين اللذين وهبهما له الله ، ثم اذا به يخفيهما فجأة فى جيبه ، ويتعرى ليظهر فى قرنيه الخبيثين فوق قمة رأسه ؟ انه يضحك ، تلك الضحكة الموارية التى يصطنعها الخبيثاء ، يعرض عليها فى آخر الامر لا أن يشتري روحها فحسب ، بل أن يشتري جسدها أيضا .. يا أيها النجوم العفيفات !



تمت صوفيا تقول :

— فلنعد .

وقد أرادت أن تسحب ذراعها ، لكن روبيان أمسك بها .

لا .. لماذا نعود ؟ نحن هنا مرتاحان ، مرتاحان جدا .. أين يمكن أن يتوافر لنا من الراحة ما يتوافر هنا ؟ أم ترانى أضايقتك ؟ فأجابت صوفيا بأنه لا يضايقها ، بالعكس .. ولكن عليها أن تعود الى الصالون لتعنى بضيوفها .. انهم هناك منذ مدة طويلة .
- منذ أقل من عشر دقائق . ما عشر دقائق ؟
- ولكن قد يلاحظون غيابنا .

ارتعش روبيان حين سمع كلمة «غيابنا» .. غيابنا «نحن» ... ورأى في ذلك بداية تواطؤ . ربما لاحظوا «غيابنا» حقا . انها على حق . يجب أن يفترقا . لكنه يريد أن يسألها شيئا واحدا ، بل شيئين . الاول هو ألا تنسى هذه الدقائق العشر الرائعة مدى الحياة ، والثانى هو أن تنظر كل يوم ، متى هبط المساء ، الى «صليب الجنوب» ، لانه سيفعل ذلك هو أيضا ، فتتصل روحاهما عندئذ اتصالا حميما في مكان وسط بين الله والبشر .
كان هذا الرجاء شعريا ، لكنه كان ضاريا كذلك . فلقد كان روبيان ، وهو يشد على يد المرأة الشابة ليمنعها من الذهاب ، يرشقها بنظرة ملتهمة ، فلا حركته ولا نظرتة تشتمل على أى اثر من شعر . وأوشكت صوفيا أن توجه الى روبيان كلمة حادة ، لكنها تذكرت ان روبيان صديق وفي للأسرة فصمتت . وأرادت أن تضحك ، لكنها لم تستطع ذلك ، فحرنت في أول الامر ، ثم اذعننت ، ثم توسلت وتضرعت . تضرعت اليه باسم أمه التى لاشك انها فى السماء ... لكن روبيان لم يعبأ بالسماء ، ولا بأمه ، ولا بشيء . وكان يمكن أن يقرأ المرء فى وجهه قوله : ما السماء ؟ ما أمى ؟

دمدمت المرأة الشابة تقول بصوت خافت :

- آى ... حطمت أصابعى .

وعندئذ أخذ روبيان يثوب الى صوابه ، فخفف الضغط على أصابعها لكنه لم يتركها . قال لها :

- طيب ... اذهبى ، ولكن يجب أولا ...

ومال ليقبل يدها فاذا هو يسمع صوتا قريبا يرده الى الاحساس بانواقع ردا كاملا .

٤١

- هيه ! تتأملان جمال ضوء القمر ؟ انه رائع ، اليس كذلك !

هذه ليلة خلقت للعشاق ... حقا انه رائع .. لم أر ليلة كهذه
الليلة منذ زمن بعيد .. انظروا ما أجمل الانوار تحت .. انها رائعة
الهيئة ... مثل أعلى للعشاق ... العشاق يحبون دائما ضوء
القمر ... في زمانى ، بمدينة ايكاراهى ...

انه الماجور الرهيب سيكويرا . لم يعرف روبيان ماذا يقول . حتى
اذا انقضت لحظات الدهشة الاولى استعادت صوفيا روعها ، فقالت
ان الليلة جميلة حقا ، وأضافت ان روبيان يصر على القول ان
ليالى ريو لا يمكن ان تضاهى ليالى بارباسينا ، وقد قصص على فى هذه
المناسبة نادرة عن كاهن يقال له ماندس ... اسمه ماندس .
اليس كذلك ؟

فدمدم روبيان يقول :

— ماندس ، نعم ، الكاهن ماندس .

لم يكن فى وسع الماجور أن يخفى دهشته . فانه قد رآهما بأمر
حبيبه وقد تماسكت يداهما ومال روبيان عليها برأسه قليلا ، ورأى
انتفاضتهما حين وصل الى الحديقة ، فكيف يزعمان انهما كانا
يتحدثان عن كاهن اسمه ماندس ؟ ونظر الى صوفيا فلم ير الا
وجها ضاحكا هادئا لا سبيل للاضطرابات اليه ... لا اثر لخوف
أو انزعاج . انها تتحدث فى انطلاق حر مسترسل ! .. جعل الماجور
يقول لنفسه : لعلنى قد أسأت الرؤية . لكن روبيان أفسد كل
شئ . انه منزعج صامت ، لم يزد على أن اخرج ساعته فقربها من
أذنه كأنها متعطلة ، ثم مسحها بمنديل مسحا خفيفا دون أن ينظر
الى صوفيا ولا الى الماجور .

— استمرا فى الحديث ... اما انا فعلى أن اذهب لارى صديقاتى .
لا أستطيع أن أدعهن وحدهن . هل انتهى الرجال من لعبهم
المنحوس ؟

فقال الضابط وهو ينظر الى صوفيا نظرة غريبة :

— نعم لقد انتهوا . حتى انهم سألوا عن السيد أين هو . ومن
أجل ذلك جئت الى هنا عسى أن أجده فى الحديقة . أنتما هنا منذ
مدة طويلة ؟

قالت صوفيا :

— بل منذ لحظة ..

ثم تركتهما واتجهت نحو البيت بعد أن ربتت على كتف الماجور
فى مودة . وحرصت على أن تتحاشى الدخول من باب الصالون ،

فدخلت من باب غرفة الطعام ، فاذا لحقت بضيوفاها ، ظنوا انها كانت أثناء هذه الغيبة تأمر الخدم بتهيئة الشاي .

واسترد روبيان صوابه ، لكنه ما زال لا يجد ما يقول . وكان لزاما عليه مع ذلك أن يقول شيئا ما . نادرة الكاهن مهندس فكرة طيبة . لكن الصعوبة هي انه ليس هناك كاهن ولا نادرة . وأحس انه عاجز عن أن يلفق أى شيء . فاكتمى بأن دمدم قائلا :

— ها .. نعم .. الاب مهندس .. حقا لقد كان رجلا فكها ، هذا الكاهن مهندس .

قال الماجور وهو يتسهم :

— أنا أعرف هذا الكاهن . الكاهن مهندس ! أعرفه تمام المعرفة . رحمه الله . هل مكث في ولاية ميناس بعض الوقت ؟ دمدم الآخر مبهورا :

— أظن ذلك .

— أصله من ساكواريا . كانت تنقصه هذه العين » قال الماجور ذلك وهو يسدد أصبعه الى عينه اليسرى « . اذا كان هذا هو ، فأننى أعرفه تمام المعرفة . أم لعل الذى ذكرتماه شخص آخر ؟ — جائز جدا .

— رحمه الله . كان رجلا لاماخذ عليه ، لكنه كان يحب رؤية النساء الجميلات ، كما يحب المرء أن يتأمل لوحة جميلة لرسام كبير . وأى رسام كبير يمكن أن يقارن بالصانع الاعظم ؟ انظر مثلا الى السيدة صوفيا . كان لا يصادفها في الشارع مرة الا ويقول لى بعد ذلك : التقيت اليوم بـ زوجة باليا الجميلة .. رحمة الله عليه . انه من ساكواريا .. ولاشك في انه كان على جانب كبير من حسن الدوق .. ان امرأة صديقنا باليا رائعة حقا ، رائعة الوجه ، رائعة الجسم ، بل اننى لاراهـا أقرب الى حسن التكوين منها الى الجمال بالمعنى الاصلى .. ما رأيك ؟ .. اجاب روبيان :

— نعم ، ربما كنت على حق .

فأضاف الماجور وهو يشعل لفافة سيجار :

— زد على ذلك انها لطيفة وربة بيت ممتازة .

ان نور الثقاب قد بسط على وجه الماجور تعبيرا وحشيا ، أو تعبيرا عدائيا في أقل تقدير . وشعر روبيان بقشعريرة تسرى في ظهره . ترى هل سمع الماجور شيئا ؟ هل رأى شيئا ؟ أم انه

حزر ؟ هل روبيان امام شخص متكتم ، أو هو امام شخص خبيث متأمر ؟ ان وجه الرجل موصد لا يمكن النفاذ اليه . ومهما يكن من امر فخير لروبيان أن يتوقع ما هو شر . ولو رأيت بطلنا على ذلك الوضع الحزين ، لحسبته واحدا من أولئك الملاحين الحذرين الذين ظلوا سنوات طويلة يبحرون على محاذاة الشواطئ فإذا هم يجدون أنفسهم ذات يوم وسط الامواج في عرض البحر . ومن حسن الحظ ان الخوف يوحى الى صاحبه ببعض الافكار في كثير من الاحيان . فها هو ذا روبيان يخطر بباله فجأة أن يتملق صاحبه ، فقال في غير تردد انه يجده شخصا محببا الى القلب كثيرا ، وانه يضع منزله الواقع على شاطئ بوتافوجو ، رقم كذا ، تحت تصرفه ، وانه يشرفه كثيرا أن تنعقد بينهما الصلات ، فليس له في ريو دو جانيرو الا عدد قليل من الاصدقاء : بالبا الذي غمره بلطفه ، والسيدة صوفيا الكريمة المهذبة ، وثلاثة اشخاص آخرين او أربعة . انه يعيش وحيدا ، وربما عاد الى ميناس .

— فورا ؟

— لا .. لن أعود فورا ، ولكن ربما عدت قريبا . انك لتعرف أن من عاش حياته كلها في مكان ما يصعب عليه كثيرا أن يالف الحياة في مكان آخر .

— هذا يختلف باختلاف الافراد والظروف

— صحيح ... يختلف ... لكنه هو القاعدة العامة .

— قد يكون هو القاعدة العامة ، لكنك ستكون انت الاستثناء من القاعدة . ان ريو مدينة شيطانية . فالمرء هنا يقع في الحب بسرعة كسرعة اصابته بالزكام . ولن تمضي لحظات حتى يجيء دورك . أراهن انك ستصبح رجلا متزوجا قبل أن تنقضي ستة أشهر

قال روبيان لنفسه : « اذن لم ير شيئا » .

وأردف يقول فرحا أشد الفرح :

— ربما ... ولكن في وسع المرء أيضا أن يتزوج بميناس ... لا يعوزنا هناك كهنة .

فأجاب الماجور ضاحكا :

— ولكن يعوزكم هناك الكاهن ماندس .

فابتسم روبيان وقد لاح في وجهه الانزعاج ، وتسائل هل تضرر كلمات الماجور شيئا من الفمز أم هي لا تضر شيئا من ذلك . ومن حسن الحظ ان الماجور استلم زمام الحديث وأخذ يتكلم في أمور

لا أول لها ولا آخر . تكلم عن الجو ، عن المدينة ، عن الوزارة ، عن الحرب ، عن المارشال لوبيز ، عن غير ذلك أيضا ... لقد تغير الموقف تغيرا كبيرا . لا شيء كان يمكن أن يسر روبيان كما سره هذا السيل من الكلام الذى كان أشد غزارة من سيل الكلام الذى تدفق من الضابط عند وصوله . وكلما ازداد الضابط إيفالا فى حديثه الذى لا ينتهى ، ازدادت الغبطة العذبة التى تنتشر فى قلب روبيان . وكان يحاول من حين إلى حين أن يقول بضع كلمات إذا استطاع ، لكنه كان لا ينقطع عن هز رأسه خاصة ، علامة الاستحسان والتأييد . واعتقد مرة أخرى أن الماجور لم ير شيئا .

— بابا ... بابا ... أنت هنا ؟

كذلك نادى صوت عند باب البيت ..

إنها تونيكا . لقد جاءت تبحث عنه لينصرفا . صحيح أن الشئ سيقدم بعد قليل ، لكنها أصبحت لا تطيق البقاء ، لأن صداها قد ألم بها . هذا ما قالت لآبيها بصوت خافت . ثم مدت يديها إلى روبيان . فطلب منها أن تبقى بضع دقائق أيضا ، لأن والدها المحترم ...

فقاطعه الماجور يقول :

— لا تضع وقتك سدى ، فهى الأمرة الناهية !

والح روبيان على الماجور مرة أخرى أن يزوره فى بيته ، بل رجاء أن يحدد للزيارة موعدا فى هذا الأسبوع نفسه منذ الآن ، لكن الماجور أجابه بأنه لا يستطيع أن يلزم نفسه بموعد محدد فورا ، وبأنه سيجيء إليه متى استطاع أن يجيء . أن أوقاته مليئة ، فهناك عمله بالثكنة ، وهو عمل يستغرق وحده وقتا طويلا ، ثم هناك ...

— انتصرف يا بابا ؟

— حالا . هل رأيت ؟ لا أستطيع حتى الكلام لحظة . هل استأذنت ؟ ترى أين قبعتى ؟

٤٢

أثناء هبوطهما الرابية ، تحملت تونيكا تتمة حديث أبيها . أنه حديث لا ينضب معينه ، يتغير موضوعه لا أسلوبه . لكن تونيكا سمعت هذا السيل من الكلام دون أن توليه أقل انتباه . أنها

غارقة في تخيل كل ما حدث ذلك المساء ، وفي تصور نظرات صوفيا وروبيان .

ووصلا الى بيتهما بشارع « سينا » . مضى الاب الى فراشه . أما البنت فلم تستلق على سريرها رأسا ، وإنما جلست على كرسي صغير قرب منضدة كانت تحتفظ فوقها بصورة العذراء . لا تظنوا ان عواطف كريمة هادئة تهز نفسها . انها وان لم تعرف من الحب شيئا ، تفهم بعض الفهم ما هي الخيانة الزوجية . وبدأت لها صوفيا في صورة كريهة منفرة ، تراءت لها في ملامح شيطان نصفه امرأة ونصفه أفعى . وشعرت نحوها فجأة بكره شديد ، وقررت أن تستقيم منها شر انتقام ، بإبلاغ زوجها كل شيء . قالت لنفسها : « سأذكر له كل شيء ، شفاها أو كتابة ... لا بل شفاها ... » سأقول له كل شيء ، يوم أنفرد به .

واطلقت العنان لخيالها ، فتصورت باليا وهو يبهت للنبا ، ثم تصورت غضبه ، وتصورت ما سيوجهه الى أمراته من تقريع وشتم : شقية ، حقيرة ، قذرة . ما أجمل وقع هذه الكلمات في قلبها المستعر . وراحت ترددها فتجد فيها شفاء لغيلها هي . انه ليسر لها أن تدل صوفيا بالخيال ، وأن تتصور أن زوجها سيمرغها في الوحل ، ما دامت لا تستطيع أن تفعل بها ذلك هي نفسها ! ... قذرة ، حقيرة ، شقية ...

واستمر هذا الحنق الداخلي مدة طويلة ، استمر نحو عشرين دقيقة ... ثم هدا قلب تونيكا ، وثاب اليها رشدها شيئا بعد شيء . والحق انها كانت فقيرة الخيال ، لذلك لم تلبث أن عادت الى الواقع القريب . نظرت حولها ، فلم تر الا غرفتها ، غرفة العانس ... كل شيء مرتب في فن ، في فن بارع خلع مظهر الحرير على قماش من الكريتون ، وخلع شكل الستائر على قطع بالية من النسيج ، واستطاع أن يزين أبسط الأشياء فيحيل منظرها القاسي الى منظر جميل ، واستطاع أن يبدل حزن الجدران العارية فرحاً ، وأن يخفي فقر الاثاث القليل . وكأنها قد أعدت كل شيء لاستقبال عريس حبيب .

لكن الريح أثناء عصفها الحائق لم تجلب لها في يوم من الايام الخطيب الذي طال انتظاره ، لا ولا قال لها الصبح الأبلج في يوم من الايام أين عساها تعثر عليه . فلا شيء الا أن تنتظر ، وأن تنتظر ولما هدا غضب تونيكا وسكن خيالها ، تأملت غرفتها المنعزلة مرة

أخرى ، وأخذت تفكر في صديقات طفولتها ، في صديقات المدرسة .
لقد تزوجن جميعا ، جميعا ، وآخر واحدة منهن تزوجت ، وهى
فى الثلاثين من عمرها ، ضابطا من ضباط البحرية . لقد أنعش
هذا الزواج آمال تونيكا بعض الوقت . ولم تكن تونيكا مترددة .
لقد خفق قلبها أول مرة لضابط صغير وهى فى الخامسة عشرة من
عمرها !.. ما أبعد ذلك العهد الآن ! هى اليوم فى التاسعة والثلاثين .
والاربعون قريبة كل القرب . أربعون عاما ولا تزال عانسا . وشعرت
تونيكا بقشعريرة تسرى فى جسمها . وظلت تنظر حولها ، فعاد إلى
ذاكرتها كل شيء . وأخيرا نهضت نهوضا مفاجئا ، وسارت بضع
خطوات ، ثم تهالكت على سريرها باكية .

٤٣

لا تحسبن أيها القارئ العزيز ان ألم تونيكا كان أعمق من غضبها .
ان هذين الشعورين اللذين هزأها واحدا بعد واحد لا تختلف قوتيهما
وانما تختلف نتائجهما . أما الغضب فقد ظل عقيما ، وأما المذلة
فقد ولدت تلك النوبة المشروعة من البكاء . ليس معنى ذلك ان
تونيكا لم تتمن ان تخنق صوفيا وان تركلها برجليها وأن تمزق قلبها
تمزيقا وهى تلقى فى وجهها تلك الشتائم المقدعة التى أسندتها إلى
زوجها ... لكن ذلك كله لم يتعد مرحلة الخيال . صدقنى اذا
قلت لك ان هناك طغاة لا يخطر ببالك انهم طغاة .. وانما تعوزهم
الفرصة . من ذا الذى يستطيع أن يزعم ان كاليجولا لم يعد إلى
الحياة بضع لحظات فى نفس هذه الفتاة ؟

٤٤

واحد يبكى وآخر يضحك . تلك هى سنة العالم ياسيدى العزيز ،
وذلك هو ما يسمونه بالسكمال الكلى العام . فان لم يكن ثمة الا
دموع كان العالم رتيبا مملا ، وان لم يكن ثمة الا قهقهات كان العالم
متعبا . اما التوزيع المناسب للأحزان والأفراح ، للبكاء والضحك ،
فذلك هو ما يهب العالم تنوعه المنشود ويرد إلى الحياة توازنها .
ان روبيان هو الفرح . انظر إليه وهو يهبط الهضبة وقد غمرت
قلبه النشوة وأخذ يشهد النجوم على سعادته بموسيقى لا تستطيع
أى لغة أن تصفها . فلما وصل إلى تحت بدت له الشوارع الخالصة

مليئة بجمهور نشيط متحرك ، وتحول الصمت في اذنه الى ضجة صاخبة ، وعلى كل نافذة خيل اليه انه يرى قامة امرأة تميل اليه وتحنو عليه ، امرأة لها وجه اخاذ ، وحاجبان كثيفان . انهن جميعا صوفيا ، صوفيا الوحيدة ، صوفيا الفريدة ، صوفيا التي ليس كمثلهما امرأة ! وكان روبيان يتصور في بعض الاحيان انه قد أسرف في الجراءة ، وانه لم يلتزم ما ينبغي التزامه من تحفظ . انه يتخيل المشهد الذي جرى في الحديقة ، ويتصور ما أظهرته المرأة الشابة من مقاومة وتبرم ، فتنتابه عندئذ قشعريرة ، ويرهقه أن يتخيل انهما قد يفلقان باب بيتهما في وجهه بعد الآن ، وقد يتقطعان كل صلة به .. كل ذلك لانه تعجل الامور .. نعم ، كان ينبغي له أن يصبر .. ان الفرصة لم تكن مناسبة البتة .. كان ألييت مليئا بالناس والاضواء .. أى شيطان وسوس له أن يتحدث فجأة في الحب ، دون احتياط ودون تحفظ ؟ نعم ، لقد كانت على حق ، وانه ليستأهل ما صنعت له اذ تركته هناك ومضت .

فكان يخاطب نفسه عندئذ بصوت عال :

— لقد تصرفت تصرف مجنون ! ..

انه لا يفكر الآن في العشاء الذي كان شهيا ولا في الخمور التي كانت سخية ، لا ولا في الكهرباء التي تتموج في الهواء حين يكون المرء في صحبة نساء جميلات . بل يرى انه كان مجنونا ، مجنونا يستحق أن يوثق .

ثم غير روبيان موقفه ، فاذا هو مدافع بعد أن كان متهما . ليست صوفيا نفسها هي التي جرت له الى هذا السلوك : نظراتها الكثيرة الطويلة ، وضعها كله ، ملاحظاتها ، ايسارها اياه باجلاسسه الى المائدة قربها ، ثم عنايتها به ، وهيئتها الناعسة اثناء حديثها اللطيف معه ، هذا كله كيف لا يعد تشجيعا ونداء ؟ وها هو ذا يلتمس لصاحبه الاعتذار . فيعمل التناقض الظاهر بين لفتات تلك المرأة ووضعها في الحديقة : ليست هذه اول مرة تسمع فيها مثل هذا الكلام من شخص غير زوجها ؟ ألم يكن من حقها أن ترتعش واللقاء يتم على مقربة من مثل هذا العدد الكبير من الناس ؟ ثم انه قد أسرف في سرعة الكشف عن نفسه ، وتعجل الامور تعجلا كبيرا ، حقا انه لم يبرهن على شيء من الاعتدال . كان ينبغي له أن يتقدم خطوة خطوة ، والا يضغط يدها الى الحد الذي يوجعها . وخلص روبيان الى هذه النتيجة : لقد كان خشنا . وعاد مرة أخرى يخشى

ان يفلقا في وجهه باب بيتهما . ثم ارتد ثانية الى الامل ، ففكر في وضع المرأة الشابة ، وفي تلك القصة التي اخترعتها هي نفسها ، اعنى قصة الكاهن مانديس ، فرأى انها دليل على التواطؤ ، وفكر كذلك فيما يحمله له زوجها من احترام . . لكنه حين وصل الى هذه النقطة من تفكيره ارتعش . ان هذه الفكرة تجعله يشعر بالمرء الضمير . نعم ، ان باليا يثق به . زد على ذلك ان باليا مدين له بمبلغ من المال ، عدا ثلاث حوالات قبل ان يوقعها له .

قال لنفسه : « لا أستطيع وما ينبغي لى أن أمضى الى أبعد مما مضيت » . ثم استدرك يقول انه لا يد له في الامر والحق يقال ، فهي التي تستثيره منذ مدة طويلة . فلتحاول بعد الآن ما شاء لها هواها أن تحاول . لا بد اذن من مقاومتها . لقد اقضته هذا المال دون أن يطلب منى ذلك تقريبا . كنت أعرف انه في حاجة الى المال صحيح ان الحوالات هو الذي طلب منى أن أوقعها ، لكنه لم يطلب شيئا غير ذلك . ثم اننى أعرف انه رجل نبيل شريف . أعرف انه يعمل كثيرا . ان شيطان المرأة هو الذي جاء يقف بيننا بعينيه الواسعتين وجسمه الجميل . ما أجمله من جسم يارب ! لقد كانت رائعة حقا في هذا اليوم . حين كانت ذراعها تلمس ذراعى ونحن على المائدة ، رغم كمي . . .

كان روبيان قلقا مترددا ، انه لا يريد أن يخون صديقه ، لكن ضميره كان ينقسم عندئذ الى معسكرين متعادين ، يهاجم أولهما الثانى ، ويرد الثانى على الاول معللا ، وكلاهما حائر . . . وبعد أن سار هكذا على غير هدى ، وجد نفسه فجأة في ساحة الكونسيتوسيون . فخطر له أن يذهب الى المسرح ، لكن أوان المسرح كان قد فات . فاتجه عندئذ نحو ميدان سان فرنسيسكو ليركب عربة ويعود الى بوتافوجو . كان هنالك ثلاث عربات ما لبثت أن اتجهت نحوه تعرض عليه خدماتها . ان سائقى العربات يكيلون المديح لخيولهم . انظر الى هذا الحصان الجميل ، انظر الى هذا الجواد الكريم .

٤٥

أيقظت ضجة الاصوات والعربات متسولا كان نائما على درجات الكنيسة . جلس المسكين ليرى ما حدث ، ثم لم يلبث أن استلقى من جديد . لكنه أفاق من نومه ، وها هو ذا راقد على ظهره

يصدق الى السماء . ان السماء تحقق اليه أيضا ، هادئة كهدهوئه
سواء بسواء . لكن السماء ليس لها من الشجاذ غضون وجهه ،
وليس لها علاه الباليان المثقوبتان ، وليس لها اسماله الخلقة . انها سماء رائره
ذات نجوم ، هادئة أولمبية ، كالسماء التي أشرفت من عليائها على
زفاف يعقوب أو انتحار لوكرس . السماء والشجاذ ينظر كل منهما
الى الآخر ، كطفلين يحاول كل منهما أن يضحك الآخر ، ولكن
بوقار رفيع ، فلا تكبر ولا صغار ، كأن الشجاذ يخاطب السماء بقوله :
« لست بساحقتى على كل حال »
وكان السماء تجيبه بقولها :
« لا ولا أنت بعارج الى »

٤٦

لم يكن روبيان فيلسوفا البتة . والمقارنة التي عقدها في هذه
المناسبة بين همومه وهموم الفقير البائس لم تحمل اليه الا طرفا
من الفيرة . قال لنفسه : « ان هذا الوغد لا يفكر في شيء . انه
سينام بعد لحظة ، أما أنا .. »

— هيا اركب يا مولاي . حصانى من جياذ الخيل . سنصل بعد
خمس عشرة دقيقة .
وقال الحوذيان الآخران كلاما من هذا القبيل ، ورددا الالفاظ
نفسها تقريبا .

— تعال يا مولاي وسترى ..
— انظر الى هذا الحصان الضامر !
— تفضل . لن تستغرق المسافة الا ثلاث عشرة دقيقة . بعد ثلاث
عشرة دقيقة تكون في منزلك .

وبعد تردد طويل ركب روبيان اقرب هربة اليه ، وأمر الحوذى
ان يمضى به الى بوتاغوجو . وتذكر عندئذ حادثة من حوادث شبابه
كان قد نسيها من زمان طويل . ترى هل ذكرى هذه الحادثة هي
التي حملت اليه على غير شعور منه حلا للاضطراب الذى كان يهز
نفسه ؟ مهما يكن من أمر فان روبيان لم يكن يرغب في شيء الا ان
يجد خلاصا من هذه الافكار التي كانت تحاصره منذ نهاية تلك
السهرة .

وقع ذلك منذ زمان بعيد جدا . كان روبيان يومئذ في ريعان
شبابه ، وكان فقيرا شديدا الفقر . ففي ذات يوم ، في السنامة

انثانية من الصباح ، خرج من البيت الذى يقيم فيه بشارع كالر « وهو اليوم شارع ٧ ايلول - سبتمبر » ، ووصل الى ميدان سان فرنسيسكو دى باولا . ومن هناك أخذ بهبط شارع أوفيدور . كانت تدور فى رأسه يومئذ بعض الهموم . أنه يسكن عند صديق دعاه الى السكنى معه ثلاثة أيام ، وذلك منذ أربعة أسابيع . والناس تقول ان الضيف يحتمل ثلاثة أيام ، أما بعد ذلك فيصبح ثقيلًا والامر الذى لاشك فيه هو ان روبيان الذى كان غرا بسيطا كميناسى ، وكان مع ذلك كثير الشك والحذر كباولستى (١) ، كان فى ذلك اليوم مهموم البال جدا لانه قرر ان يترك بيت صديقه بأقصى سرعة ممكنة . ومنذ خرج من البيت واجتاز ميدان سان فرنسيسكو وهبط شارع أوفيدور ، كان قد بلغ من فرط الفرق فى أفكاره درجة لا يستطيع معها أن يسمع شيئًا ولا أن يرى شيئًا .

وفجأة ، عند زاوية شارع الاوريف ، أوقفه تجمع عدد من الناس يحيطون بموكب غريب ، ففى وسط الموكب وقف رجل يرتدى ملابس السلطة القضائية ، يتلو حكما بصوت عال وحوله كاهن وجنود وأفراد بله يشاهدون ويسمعون . غير ان هناك زنجيين هما اللذان يلفتان الانتباه . أولهما نحيل متوسط القامة موثق اليدين ، مطرق الى الارض ، أشهب اللون ، فى عنقه حبل مربوط ، والثانى ممسك بالحبل ، رافع رأسه ينظر الى الامام ، ولونه شديد السواد لامع . أنه يواجه فضول الناس غير هياب . حتى اذا انتهى القاضى من تلاوة الحكم أخذ الموكب الآتى من السجن الى ميدان مورا ، يسير فى شارع الاوريف .

ومن الطبيعى أن يتأثر روبيان بهذا المشهد تأثرا كبيرا ، وقد لبث مترددا بضع ثوان ، كتردده فى هذا المساء حين كان عليه أن يختار عربة . ان صراعا داخليا يمزقه . فجزء من نفسه يهيب به أن يقفل راجعا وأن يمضى الى شأنه ، وجزء آخر يوحى اليه أن يسير مع الموكب ليشهد شق الزنجى . انه لأمر نادر أن يرى المرء شنقا . « هيا بعد عشرين دقيقة ينتهى كل شيء » - « بل دعك من هذا ، وامض الى شئونك » . وأغمض صاحبا عينيه واستسلم للمقادير . لكن المقادير لم تجعله يهبط شارع أوفيدور حتى يصل الى كيتاندا ، وانما قادتة الى شارع الاوريف خلف الموكب . قال لنفسه : لن أشهد تنفيذ الاعدام . انه لا يريد أن يرى الا سلوك

(١) نسبة الى مدينة سان باولو

المحكوم عليه ، ووجه الجلاد ، وباقي الاحتفال . . أما الشنق نفسه فلا يريد أن يراه . وكان الموكب الصغير يتوقف من حين الى حين فيعيد ضابط القضاء تلاوة الحكم بينما يهرع الناس الى ابواب بيوتهم أو يقفون خلف النوافذ . ثم يستأنف الموكب سيره ويستمر في تقدمه على هذا النحو من الفخامة . والتعليقات على الجريمة تنهمر غزيرة . هي جريمة قتل وقعت في ماتابوركوس . والقاتل يوصف بأنه رجل سفاح كاسر . وهذا ما بث في روبيان القوة اللازمة للنظر اليه دونما شفقة . لكن وجه المحكوم عليه بالاعدام ليس الآن وجه مجرم . لقد حل الذعر محل القسوة . وأخيرا وجد صاحبنا نفسه في الميدان الذي سيتم فيه تنفيذ الحكم بالاعدام ، دون أن يشعر بذلك . كان في الميدان أناس كثيرون ينتظرون ، انضم اليهم أولئك الذين كانوا يسرون وراء الموكب ، فامتلا الميدان بحشد كثيف .

قال روبيان لنفسه : « . الآن فلأمض الى شأني » .

لكنه استذرك فقال ان المحكوم عليه بالاعدام لم يصعد على المنصة بعد ، ولن ينفذ فيه الحكم فورا ، وثمة اذن متسع من الوقت . وهبه بقي فقى وسعه أن يغمض عينيه ، كما فعل رجل يقال له البيوس أمام مشهد الحيوانات المفترسة . يجب أن نلاحظ هنا أن روبيان لم يسمع في حياته أحدا يتحدث عن ذلك الرجل الذي عاش في العصر الخالية . فلم يكن يجهل اذن أن الرجل أغمض عينيه فحسب ، بل كان يجهل أيضا أنه لم يلبث أن فتحهما حبا بالاطلاع ولكن ها هو المحكوم عليه يصعد المنصة . ان رعشة تسرى في الحشد كله وبدأ الجلاد عمله . فاستدارت قدم روبيان اليمنى يمينا كأنما هو يريد أن يذهب ، غير أن القدم اليسرى التي كانت تستلم عاطفة مناقضة ظلت حيث هي ، وقام في نفس روبيان صراع دام بضع لحظات ، كالصراع الذي قام في نفسه منذ قليل : « انظر الى هذا الحصان - انظر الى هذا الحصان الجواد - لا تكن قاسي القلب - لا تكن ضعيف الجنان » . على هذه الحال من التردد ظل روبيان بضع ثوان الى أن أزفت اللحظة الحاسمة . فشخصت الاعين كلها ومنها عيناه الى نقطة واحدة . لم يفهم روبيان ذلك الاحساس العجيب الذي أخذ بأحشائه وأوثقه في مكانه حتى لكان يدا من حديد قد سمرته . ولم تدم اللحظة الحاسمة الا هنيهة خاطفة . اضطربت ساقا الرجل فجأة في تشنيج ،

ثم تصلب جسمه كله ، بينما وثب الجلاد الى كتفيه في مهارة .
وسرت في الحشد همهمة . وصرخ روبيان . ثم لم ير شيئا .

٤٧

لعلك لاحظت يا صاحب السعادة كيف ان حصاني سريع
فتح روبيان عينيه وكان قد اغمضهما نصف اغماضة ، فرأى
الحوذى يقرع سوطه قرعا خفيفا ليحث الحصان على العدو . انزعج
روبيان في داخل نفسه من الرجل لأنه انتزعه من ذكرياته التي كان
غارقا فيها . صحيح انها ليست بالذكريات الممتعة ، ولكن هذه
الذكريات البعيدة كل البعد تمتاز الآن بأعظم مزية وهي انها تمنعه
من التفكير في الحاضر ، فكأنها اكسير عجيب . وها هو ذا الحوذى
يوقظه فيفيق منتفضا . ان العربة تصعد شارع لابا . . . حقا لقد
كان الحصان يلتهم المسافة التهاما . . .
وتابع الحوذى كلامه قائلا :

ان هذا الحصان يضمن لي حبا عظيما . أعرف ان ذلك امر
يصعب تصديقه . لكنني أستطيع ان أقص عليك قصصا خارقة
في هذا الصدد . هنالك أناس يقولون اننى ألق حكايات لكن ما
أقوله يأسىدى هو الحقيقة الخالصة . يعرف الناس جميعا ان
الحصان والكلب خير صديقين للانسان . وربما كان الكلب يمتاز
بهذا على الحصان . . .

فما أن سمع روبيان كلمة « الكلب » حتى تذكر كونكاس بوربا
فجأة . لا شك ان الحيوان ينتظره بفارغ الصبر . ان روبيان لم
ينس الشرط الذى اشتملت عليه الوصية ، وقد حلف لينفذه
تنفيذا دقيقا . ويجب ان نذكر من جهة أخرى انه لا يخاف ان
يهرب الكلب فحسب ، بل يخاف كذلك ان يفقد أمواله . وكان
هذا الخوف لا يزايله رغم كل ما كان يقوله له المحامى . كان المحامى
يقول له : ان الوصية لا تشتمل على أى بند ينص على ان المال
يؤول الى شخص آخر اذا هرب الكلب ، معنى ذلك ان الميراث
لا يمكن أن يفلت منك ، فقيم الخوف من هربه ، ولعل الافضل ان
يهرب ، فتتقص همومك . . هذا كل ما فى الامر . كان روبيان
يتظاهر بقبول هذه الشروح ، لكن الشك يظل قائما فى قرارة
نفسه . ان ما يعرفه من أمثلة كثيرة عن دعاوى طال أمدها ، وما
يعرفه من اختلاف الآراء القضائية فى امر واحد بعينه ، وما قد

يشنه حاسد أو حاقد من هجوم عليه ، وخوفه من أن يصبح ذات يوم فقيرا لا يملك شروى نقيرا ، كل ذلك كان لايزال ينقر في رأسه . وهذا هو السبب في أنه فرض على الكلب ذلك الحبس القاسى ، وهذا هو السبب أيضا في أنه شعر بعذاب الضمير حين تذكر أنه قضى فترة ما بعد الظهر وفترة السهرة دون أن يفطن الى كونكاس بوربا مرة واحدة .

قال لنفسه : « اننى عقوق » .

ثم لم يلبث أن استدرك فقال انه أشد عقوقا من ذلك أيضا ، لأنه لم يتذكر كونكاس بوربا الآخر الذى أورثه كل شيء . وفجأة خطر بباله أن كونكاس بوربا الكلب وكونكاس بوربا الرجل قد لا يكونان الا مخلوقا واحدا بعينه ، فلعل روح كونكاس بوربا الراحل قد تقمصت جسد كونكاس بوربا الكلب ، لا لتطهر من خطاياها فحسب ، بل لتراقب المولى الجديد للكلب . ان زنجية من سان جوان دلرى هى التى أدخلت في روعه أفكار التناسخ هذه حين كان صبيا . قالت له انها الارواح المثقلة بالخطايا تحل في أجسام الحيوانات ، حتى لقد حلفت له انها تعرف كاتبها بالعدل قد تحول الى قنقر أمريكى ..

- أرجو من سعادتك ألا تنسى أن تقول لى أين يقع البيت .

كذلك قال له الحوذى فجأة . فأجابه روبيان :

- قف هنا .

٤٨

نبح الكلب من داخل المنزل ، ولكن ما ان دخل روبيان حتى هرع اليه فرحا أعظم . الفرح ، فغمره روبيان بملاطفاته رغم انه كان متزعجا أشد الانزعاج . تصور ان الراحل قد يكون ثاويا فيه ، فسرت في جسمه قشعريرة قوية . وصعد الاثنان درجات المصطبة ، ثم لبثا عليها بضع لحظات في ضوء مصباح أمر روبيان أن يظل مشتتلا . ان صاحبنا روبيان أقرب الى التصديق الساذج منه الى الإيمان . ما من عقيدة كانت تدفعه الى أن يهاجم أى شيء أو ان يدافع عن أى شيء . حتى ليتمكن تشبيه ذهنه بقطعة رخوة من الشمع لم ينقش عليها شيء حتى الآن . وقد وهبت له حياة ريودو جانيرو هذه الميزة الخاصة . أن يستطيع الظهور بمظهر الجاحد في عالم يضم أناسا لا يصدقون !

وبانتظار أن يفتح له الباب ، أخذ ينظر الى الكلب . وأخذ الكلب ينظر اليه نظرة يحق للمرء معها أن يتصور أن كونكاس يوربا الأصلي قائم فيه . أنها تلك النظرة الممتلئة بالتأمل التي كان يصطنعها الفيلسوف حين يتحدث في كبريات المشكلات الانسانية ... واقشعر بدن روبيان مرة أخرى . لكن خوفه ، على شدته ، لم يكن من القوة بحيث يشل يديه ، وها هو ذا يمر بهما على رأس الكلب ، ويدغدغ أذنيه ورقبته .

— مسكين كونكاس يوربا . أنت تحب مولاك ، أليس كذلك ؟
انك تعرف أن روبيان صديق وفي لكونكاس يوربا ...

والكلب يحرك رأسه تحريكا بطيئا ، من اليسار الى اليمين ومن اليمين الى اليسار ، ليتيح لصاحبه أن يحسن مداعبة أذنيه الطويلتين المتهدلتين ، ثم يرفع ذقنه ليحك له صاحبه رقبته . وصاحبه يطيع ... وعينا الكلب ، اللتان كانتا من اللذة مغمضتين نصف اغماضة ، قد ظهر فيهما ذلك المعنى الذي كان يظهر في عيني الفيلسوف حين كان يشرح لروبيان ، من على سريره ، أمورا لا يفهمها روبيان الا قليلا أو لا يفهمها البتة ! .. وأغمض روبيان عينيه . وفتح له الباب أخيرا . فودع الكلب لكنه كان بتودده وتحببه اليه أثناء الوداع كمن يطلب اليه أن يدخل . وتولى الخادم الاسباني ارجاع الكلب الى تحت .
أمر روبيان الخادم بقوله :
— لا تضربه !

ولم يضربه الخادم ، لكن ارجاعه الى تحت كان وحده أمرا مؤلما ، فظل الكلب الطيب يثب في الحديقة مدة طويلة . دخل روبيان ، فخلع ثيابه ، وركد على سريره . آه ... حقا لقد عاش يوما حافلا بالانفعالات المتنوعة المتناقضة : من أحلامه عند الصباح وغدائه مع صديقيه ، الى فكرة التقمص التي راودته ، بالاضافة الى ذكرى المشنوق والى اعترافه بالحب ، وهو اعتراف لم يقبل في الظاهر قبولا حسنا ، لكنه لم يصد كذلك صدا عنيفا ، كما أنه ثم يعد سرا خافيا ... وهذا أنكى ما في الامر !

كل شيء يختلط الآن في رأس روبيان ، فكره ينقذف من جهة الى جهة ككرة من المطاط بين يدي صبي ، ولكن الاحساس بالحب أقوى احساس . أن روبيان مدهوش من نفسه ، بل هو نادم على موقفه . غير أن الندامة لا وجود لها الا في ضميره ، أما خياله

فلا شيء يستطيع أن ينتزع منه صورة صوفيا ... دقت الساعة الأولى من الصباح ، ثم دقت الثانية والثالثة ... لا تزال صوفيا تلوح من بعيد .. ولا يزال الكلب ينبع تحت .. والنوم لا سبيل إليه .. الساعة قد دقت الثالثة ، ولكن منذ متى ؟ ها هي ذي تشير الآن الى الثالثة والنصف . وأخيرا ، بعد تلك الخواطر كلها ، غلبه النوم في لحظة . كانت الساعة عندئذ تقارب الرابعة من الصباح .

٤٩

أيتها القارئة العزيزة ، لاتحسبي ان ذلك اليوم الحافل قد انتهى . اننا لا نعرف ما الذي جرى بين صوفيا وزوجها بعد انصراف صيوفها ، وربما كان ذلك أشيق من مشهد تنفيذ الحكم بالشنق . عليك اذن بالصبر ، ولنعد الى سانتا تيريزا مرة أخرى . ان الصالون لا يزال مضاء ، لكنه مضاء بمصباح واحد ، أما المصابيح الأخرى فقد أطفئت ، وكان هذا المصباح الوحيد على وشك أن يطفأ هو أيضا ، حين طلب باليا الى الخادم أن يتريث قليلا . كانت صوفيا تهم أن تترك الحجرة ، لكن زوجها أوقفها فارتعشت . قال لها :

— كانت حفلتنا موفقة جدا .

— نعم ، موفقة جدا .

— سيكويرا مزعج ، لكن مرحه يجعله محتملا على كل حال . كانت ابنته أنيقة هذا المساء . هل لاحظت كيف كان راموس يلتهم كل ما يوضع في طبقه ؟ لسوف ترين في ذات يوم انه أكل زوجته . قالت صوفيا مبتسمة :

— زوجته ؟

فأجابها زوجها :

— أوافقك على انها سمينة قليلا . لكن زوجته الأولى كانت أسمن منها ، ولا شك انها لم تمت ميتة طبيعية ، وانما ابتلعها هو .

كانت صوفيا مسندة ظهرها الى الأريكة تضحك لآمازيح زوجها . وتنادرا ببعض ما جرى في الحفلة أيضا . وفجأة قالت صوفيا لزوجها وهي تدغدغ شعره :

— لكنك لا تعرف الى الآن أطرف حادثة وقعت في السهرة .

— ما هي ؟

- حزر ..
صمت باليا بضع لحظات وهو ينظر الى امراته محاولا أن يعرف
ما تلك الحادثة التي هي أطرف ما حدث في السهرة . لكنه لم
يستطع أن يحزر . افترض عدة فروض فكانت امراته تهز رأسها
نقيا . فقال لها أخيرا :
- ما هي اذن ؟

- لا أدري .. حزر ..
- لم أستطع أن أحزر .. قولي ما حدث !
- على شرط .. لا أريد صراخا ولا زعلا .

فأظلم وجه باليا . صراخ ؟ زعل ؟ ما عسى أن يكون الامر اذن ؟
أصبح لا يضحك ، وانما تطوف على شفثيه ابتسامة مصطنعة ،
ساحبة ، مدعنة . تفرس في وجه امراته ، وسألها :
- ماذا حدث ؟

- هل تعدنى بما طلبته منك ؟
- أعدك .. ما هو الامر ؟
- اذن فاعلم اننى في هذا المساء سمعت شيئا أقل ما يوصف به
هو انه تصريح غرامى .

شحب وجه باليا شحوبا شديدا . انه لم يعدها بالا يشحب
وجهه . نحن نعلم انه كان يبلغ من حبه لزوجته ذلك المبلغ الغريب
وهو أن يعرض جمالها الى أبعد حد . لكن النبأ الذى تذكره الآن
لا يمكن أن يشيره . ولاحظت صوفيا اصفراره المفاجيء ، ضرها
انها أثارت هذه الاثارة الشديدة . ومن أجل أن تستمتع بهذه اللذة
مدة أطول مالت بصدرها وحلت طارة شعرها التى كانت تضايقها
فليلا ، ووضعت دبائيس شعرها فى منديلها ، وتنفست تنفسا طويلا
ثم هزت رأسها وأمسكت بيد باليا الذى ظل طوال ذلك الوقت واقفا

- هي الحقيقة يا عزيزى ، لقد تغزل احدهم الليلة بزوجتك .
فقال باليا وقد نفذ صبره :

- ولكن من هو ذلك الوغد الذى تجرأ ؟
- لا ... اذا غضبت هذا الغضب كله فلن أقول شيئا .. من
هو ؟ أتريد أن تعرف من هو ؟ اذن حافظ على هدوئك .. هو
روبيان .

- روبيان ؟
- نعم ، وما كنت لاتصور صدور مثل هذا عنه . انه يبدو

خجولا شديد الخجل ، متحفظا شديد التحفظ . صدق من قال :
ليس الراهب بمسوحه . ما من أحد من الرجال الكثيرين الذين
يزوروننا خاطبني يوما بمثل ما خاطبني به هذا الرجل . صحيح
أنهم ينظرون الى لاننى غير دميمة .. لماذا تسير هكذا جيئة وذهابا ؟
قف .. لا أريد أن أرفع صوتى . نعم . هكذا أحسن . لنعد الى
الموضوع . انه لم يكشفني بالحب مكاشفة صريحة .
- ها .. اذن لم يفعل ؟

كذلك قاطعها زوجها على الفور . فأجابته بقولها :
- لكن النتيجة واحدة .

وقصت عليه ما جرى فى الحديقة ، منذ لحظة خروجها اليها مع
روبيان حتى لحظة وصول الماجور . وختمت القصة بقولها :

- هذا كل ما حدث . وهو كاف لأن تدرك انه اذا لم ينطق
بكلمة الحب فما ذلك الا لأن هذه الكلمة لم تراود شفتيه . لكنى
أؤكد لك أن يديه كانتا تتكلمان كلاما واضحا حين كانتا تشدان
على أصابعى .. هذا كل شيء . غير أن علينا الآن أن نغلق الباب
فى وجهه ، سواء أفعلنا ذلك دفعة واحدة أم شيئا بعد شيء . أما
انا فأفضل أن نغلق الباب فى وجهه فورا . على أن الامر لك ، تفعل
ما تشاء . ما رأيك ؟

ظل باليا بضع لحظات ينظر الى زوجته نظرة بلهاء ، وهو يعرض
على شفته السفلى . ثم جلس على الارىكة دون أن يقول شيئا . انه
يفكر فى الامر . وما هو ذا يجد أن من الطبيعى أن تأسر فتنة زوجته
رجلا من الرجال ، فلماذا لا يكون هذا الرجل روبيان ؟ لكنه كان
يثق بروبيان ثقة عظيمة حتى لقد كتب بنفسه نص البطاقة التى
أرسلتها اليه صوفيا مع سلة الفاكهة ، ولم تزد صوفيا على أن
نسختها ووقعتها وأرسلتها . ما كان ليخطر ببال باليا يوما أن
روبيان يمكن أن يصرح بحبه لاي امرأة من النساء ، فكيف بصوفيا ؟
ولكن هل الامر أمر حب حقا ؟ الا يمكن أن يكون أمر مزاح يبيحه
له ما بينه وبين الاسرة من مودة حميمة ؟ صحيح أن روبيان كان
ينظر اليها كثيرا ، وان صوفيا كانت تبادله النظرات فى بعض الاحيان .
لكن هذا ليس الا تلطفا من امرأة جميلة . ثم ما دامت العينان
ملك يمينه هو ، افلا يستطيع أن يتكرم على غيره ببعض نظراتهما
أحيانا ؟ ما ينبغى لامرئ أن يكون غيورا على عصب بصرى على كل
حال . بذلك حدث باليا نفسه . ونهضت صوفيا ومضت الى الباتو

فضع عليه المندبل الذى لفت به دبائيس شعرها ، ونظرت الى وجهها فى المراة لترى كيف صار شعرها بعد أن حلت طارته . فلما عادت الى الاربكة تناول زوجها يدها وقال لها وهو يضحك :

- يخيل الى انك تصدعين رأسك أكثر مما يستحق الامر . ان تشبيه عينى امرأة بالنجوم ، أو تشبيه النجوم بعينيها ، شئ يستطيع المرء أن يفعله على مرأى ومسمع من جميع الناس ، حتى ليستطيع أن يهتف به فى حشد من الملا شعرا أو نثرا . وذات العينين الجميلتين المسرفتين فى الجمال هى المسئولة عن الامر كله . ثم اننى رغم كل ما قصصته على ، ما زلت أعده ريفيا غرا .

- الشيطان اذن ريفى غر ، لاننى قد رأيت فيه الشيطان نفسه . ثم ما قولك فيما طلبه الى من أن أتأمل صليب الجنوب فى ساعة معينة من الليل لتلتقى روحانا ؟ فأجاب باليا قائلا :

- فى هذا شئ من الحب طبعاً . ولكن ألا ترين ان مثل هذا العمل الساذج لا يمكن أن يصدر إلا عن نفس بسيطة بعض البساطة . هذه هى اللغة التى تستعملها البنات فى الخامسة عشرة من العمر . وهى اللغة التى يستعملها البله فى جميع الازمان ويستعملها كذلك الشعراء . وما هو بالبنت ولا هو بالشاعر .

- صحيح . . . ولكن ما قولك فى انه شد على يدى ليمنعنى من مفادرة الحديقة ؟

انتفض باليا حين سماع هذا السؤال . ان الشئ الذى كان لا يزال يؤلمه أشد الايلام هو أن أيديهما قد تلامست وأن صاحبه لجأ الى القوة ليحول بين زوجته وبين الانصراف . . خفا انه لو استطاع للذهب الى روبيان يمسك بتلابيبه . غير ان أفكارا أخرى مرت بخاطرهم فمحت هذه الرغبة من نفسه ، فاذا بصوفيا التى خشيت أن تكون قد أهاجته ، تراه يرفع كتفيه احتقارا ، ولا يزيد على أن يقول ان ذلك كان منه فظاظة فى حقيقة الامر . وأضاف يقول :

- ولكن ، يا صوفيا ، كيف خطر ببالك أن تدعيه الى الحديقة لرؤية ضوء القمر ؟

- لقد طلبت الى تونيكا أن تأتى معنا .

- ولكن حين رفضت تونيكا مرافقتكما كان ينبغي لك أن تجدى وسيلة للعدول عن الذهاب والاعذار فى هذه الحالة سهلة . أنت قيضت له الفرصة .

نظرت صوفيا اليه وقد قطبت حاجبيها الكثيفين ، وهمت ان تجيبه لكنها صمتت . واستمر باليا يفيض في هذا النوع نفسه من الكلام قائلا ان الفلطة غلطتها هي ، وأنه كان عليها ألا تتيح له الفرصة ...
قالت امرأته :

— ولكن ألست انت الذى قلت لى ان علينا ان نعامله في كثير من المراعاة ؟ وما كان لى طبعاً ان اذهب معه الى الحديقة لو كنت أقدر ما سيحدث فيها ، ولكن أين لى ان أتوقع من رجل هادئ هذا الهدوء كله ، من رجل « لا أدري كيف أصفه » ، ان يخرج فجأة من قوقعته ليفازلنى هذه المغازلة ؟

فقال لها زوجها وهو يبتسم ابتسامة متكلفة :
— اذن عليك بعد الآن أن تسيئي الظن في القمر والحديقة .

— ولكن ، يا كرستيانو ، كيف اكلمه حين يأتى الى هنا مرة ثانية ؟ لا ... أننى أشعر بأننى لن أستطيع ذلك قطعا . اسمع ...
الأفضل ألا تراه بعد اليوم أبدا .

فوضع باليا ساقا على ساق ، وأخذ ينقر على حذائه . وظلا كلاهما صامتين فترة من الوقت . ان باليا يفكر في هذا الاقتراح الذى جاءت به امرأته ، لا لأنه يريد أن ينفذه ، بل لأنه لا يعرف بماذا يجيب زوجته التى تظهر هذا الاستياء كله ، وتتصرف تصرفا يدل على شدة حرصها على كرامتها . ما ينبغي له ان يشجب هذا الاقتراح ، ولا ان ينفذه ، فماذا عساه يصنع ؟ ونهض ووضع يديه في جيبه ، وأخذ يمشى . وبعد بضع خطوات وقف أمامها وقال :

— أغلب الظن اننا نصدع رأسنا بأمر قد لا يكون الا ثمرة أقرط في الشراب . ألم تلاحظى أنه كان لا يعاف شرب كأس تقدم اليه ؟ رأس خفيف وشيء من الانفعال ... فإذا هو يقول ما قال ... لست أعنى انك لم تعجبيه كما أعجبه نساء كثيرات . تذكرى أنه كان منذ بضعة أيام في حفلة راقصة بقصر « كاتيتى » ، وأنه عاد من الحفلة مفتونا بالسيدات اللاتي لقيهن هناك ، وخاصة بسيدة يقال لها مدام مانديس ، وهي أرملة ، فيما أظن .
فقاطعت صوفيا قائلة :

— ولماذا لم يطلب الى تلك المرأة الجميلة أن تتأمل « صليب الجنوب » ؟

— انه لم يتعش هناك ، ومن جهة أخرى لم يكن ثمة حديقة ولا قمر . والذي أريد أن أقوله على كل حال هو أن صديقنا لم يظهر على حقيقته في هذا المساء . لعله يعرض الآن أصابع الندم على ما بدر منه . لعل نفسه تفيض بالخجل والشعور بالعار . لعله يتساءل هل في وسعه أن يعتذر . أم الأفضل ألا يثير الموضوع البتة . حتى أن من الممكن جداً أن يتغيب فترة من الوقت ...

— أحسن ..

— الا اذا دعوناه .

— ولماذا ندعوه ؟

قال باليا وهو يجلس الى جانبها :

— صوفيا ، لا أحرص الآن على الدخول في التفاصيل . كل ما أستطيع أن أقوله هو اننى لن أسمح لمخلوق على وجه الارض أن يقصر في احترامك .
قال ذلك ثم صمت بعض الوقت ، وصوفيا شاخصة ببصرها اليه تنتظر أن يكمل كلامه .

— لن أسمح بذلك لمخلوق على وجه الارض ، وويل لمن يجرو أن يلمسك ، وويل لك أيضا اذا رضيت بذلك . انك لتعلمين حق العلم اننى لا أعرف في هذا الامر هواة ، ولا شيء يحمل الى الثقة والهدوء الا يقينى من عاطفتك أو قولى من حبك . فقيم أزعج نفسى بهذا الموقف الذى وقفه روبيان ؟ وتذكرى أن روبيان صديقنا ، وان له على حق الاعتراف بالجميل .

— بضع هدايا ، وبضع حلى ، وشرفات بالمرح ، هذا لا يكفى لأن أتأمل معه « صليب الجنوب » .
قال باليا متنهدا :

— ليت هذا كل شيء !

— ماذا هناك أيضا ؟

— لا فائدة من الدخول في التفاصيل . هناك شيء آخر ...

سأحدثك عنه فيما بعد . ويجب أن تكونى واثقة ، على كل حال ، انه ما من شيء كان يمكن أن يحملنى على التراجع لو رأيت فيما قصصته على أمرا ذا بال . اننى لا أرى فيما قصصته على أمرا ذا بال . وما روبيان في الحقيقة الا غبي مسكين ! ...

نهضت صوفيا . أصبحت هى أيضا لا تريد الدخول في التفاصيل .

وتناول زوجها يدها ، لكنها ظلت لا تنبس بكلمة . أن باليا ينظر إليها مبتسما وقد أسند رأسه على ظهر الأريكة ، لا يعرف ماذا يقول . وقال بعد بضع ثوان أن الوقت متأخر وأنه سيأمر بإطفاء جميع الأنوار ، ثم أضاف بعد صمت قصير :

— طيب ! سأكتب اليه غدا ألا يدوس عتبة هذا البيت بعد الآن .

ونظر الى امرأته ينتظر منها أن تنهيه عن ذلك ، لكن صوفيا حكّت حاجبيها ولم تجب بشيء . وكرر باليا اقتراحه ، ولعله كرره هذه المرة صادقا ، فقالت له صوفيا في تدمير :

— اسمع يا كرستيانو ، من ذا الذى يطلب اليك أن تكتب اليه رسائل ؟ أننى آسفة منذ الآن على اننى حدثتك فى الامر . لكننى نقلت اليك ما عددته امتهانا لكرامتى ، ثم اقترحت عليك أن نقطع صلاتنا بالرجل شيئا بعد شيء أو دفعة واحدة !

— ولكن كيف نستطيع أن نقطع صلاتنا به دفعة واحدة ؟

— انغلق باب بيتنا فى وجهه . على اننى لا اذهب الى هذا الحد . وفى وسعك أن تفعل ذلك شيئا فشيئا ان أردت ...

كان هذا تنازلا من صوفيا ، وقد قبل باليا هذا التنازل راضيا . لكن وجهه لم يلبث أن اكفهر مرة أخرى ، وترك يد امرأته فجأة بحركة يائسة ، ثم لم يلبث أن أمسك بجسمها وقال لها بصوت اقوى :

— لكننى يا حبيبتي مدين له بمال كثير .

فوضعت صوفيا يدها على فمه ، ونظرت الى الممر مذعورة ، ثم قالت :

— طيب . دعنا من هذا الامر . وسأرى كيف يتصرف بعد الآن . وسأحاول أن اكون أكثر ابتعادا عنه .. ولكن عليك أنت فى هذه الحالة أن تظل كما كنت ، حتى لا يظهر انك على علم بما حدث . سأرى ما الذى أستطيع أن افعله .

— أنت تفهمين يا صوفيا ، هنالك صعوبات تعترض أعمالى ، هنالك عقبات لم تكن فى الحسبان ... استحقاق دفع هنا ، واستحقاق دفع هناك . وما لا أدري أيضا ... ومن أجل ذلك ... ولكن يجب أن نحتفظ بالابتسامة يا عزيزتى ... كل ما حدث ليس بذى بال ... أنت تعرفين مدى ثقى بك ..

— تأخر الوقت ، هيا بنا الى النوم .

— نعم ، هيا بنا الى النوم .

كذلك ردد باليا وهو يقبل صوفيا على خدها . فدمدمت صوفيا
تقول :

- بى صداع شديد . لعل السبب هو الرطوبة ، الا ان يكون
تلك القصة الطويلة ... بى صداع شديد حقا .



كان باليا قد استحم وحلق ذقنه وارتنى نصف ثيابه وأخذ يقرأ
الجرائد بانتظار الافطار ، حين دخلت زوجته في صباح الفد الى
مكتبه . كانت شاحبة بعض الشحوب . سألتها زوجها :

ب - ألم يخف الصداع ؟

فخرجت من بين شفتيها غممة غير مفهومة ، لا هي نعم ولا هي
لا . فأكد لها باليا ان صداعها سيزول في النهار . ان مرده الى
تعب الحفلة وتأخر العشاء ... ثم استأذنها في إنهاء قراءة مقالة
تتصل بشئون الاعمال . ان المقالة تدور حول خلاف بين تاجرين
في أمر حوالات . فقد نشر أحدهما بالامس مقالة في هذا الموضوع ،
وها هو ذا الثاني يرد عليه اليوم . قال باليا وهو ينهي قراءة
المقالة : رد كامل جدا . وشرح لزوجته مسألة الحوالات تفصيلا ،
وأوضح مجزى العملية ، وجلا موقف الخصمين ، وتحدث عن
الشائعات التي تدور في هذا الصدد ، مستعملا في ذلك كله تعابير
تجارية محضة . وكانت صوفيا تصغي اليه وهي تنهد ، لكن
التشوه الذي تفرضه المهنة على صاحبها لا يعأ بتنهدات النساء ،
ولا يحفل بكياسة الرجال . ومن حسن الحظ ان طعام الافطار
كان قد أعد أثناء ذلك .

لم تطعم المرأة الشابة الا طبقا من المرق . وفي الساعة الثمانية
بعد الظهر ، بينما كانت هي وحيدة ، مضت تجلس في الحديقة أمام
باب البيت . وأخذت تستعيد أحداث قصة البارحة . انها في حالة
نفسية ملتبسة لا يمكن تحديدها . نصفها عنب ونصفها تين . فهي
نادمة على أن حدثت زوجها في الامر ، لكن ذكرى التعليقات التي
حاول زوجها أن يقنعها بها تفضيها مع ذلك . وفيما هي غارقة في
تأملاتها سمعت كلمات الماجور ترن في أذنيها واضحة متميزة : « هية
... تتأملان جمال ضوء القمر ؟ » . لم يكن ذلك الا حفيف أوراق
الشجر ، لكن أذنيها وجدت فيه أصداء الكلمات التي قالها

الماجور في الليلة البارحة. انتفضت صوفيا. لقد كان سيكويرا قليل التحفظ والكتمان. انه يحب أن يحشر أنفه في شئون غيره ، هذا صحيح ، ولكن أترأه يمضي الى حد اذاعة الامر ونشره ؟ وتصورت صوفيا ان الناس أخذوا منذ الآن يشتهون فيها ويشهرون بها . وراحت تضع الخطط تلو الخطط . لن ترى بعد اليوم أحدا . . بل ستسافر . . . في وسعها أن تسافر الى نوبا فريبورجو مثلا ، أو الى مكان أبعد من ذلك أيضا . . . لقد أسرف زوجها حين طلب اليها أن تستقبل روبيان كأن شيئا لم يحدث ، وخاصة للسبب الذي ذكره . أنها لا تريد أن تعصى طلبه ولا أن تلبيه ، لذلك أصبحت لا تفكر الا في السفر متعلقة بأي حجة . قالت متنهدة :
— هذا كله ذنبي أنا .

نعم ، كان ينبغي لها ألا تحيط روبيان بتلك العناية كلها ، ولا أن تكون لطيفة معه ذلك اللطف كله ، ولا أن تسمع بنشوء تلك الصداقة الحميمة بينها وبينه . . عدا تلك النظرات التي تبادلها في الليلة البارحة . فلولا انها فعلت ذلك لما حدث شيء . هكذا راحت تفكر الى غير نهاية . ان كل شيء يحق صوفيا الآن . الازهار ، والاثاث ، وجدجد يغنى ، وأناس يتحدثون في الشارع ، وقرقرة آنية البيت ، وسائقو العربات ذاهبين آيبين ، وحتى ذلك الزنجي الهرم الذي يصعد الرابية أمام بيتها . ان مشيته المستأنية تلطم اعصابها لطما .

٥١

ومر أمام البيت شاب طويل ، فحياها تحية طويلة وهو يبتسم ، فردت صوفيا تحيته رغم انها دهشت أشد الدهشة . قالت لنفسها « من عساه يكون ؟ »

وراحت تتساءل . أين ترأني عرفته ، ذلك ان وجهه ليس غريبا عني ، ولا قامته ولا عيناه الواسعتان الهادئتان . أين ترأني رأيتة؟ واستعرضت بذاكرتها عدة حفلات شهدت ، لكننا لم تصل الى نتيجة . وتذكرت آخر الامر حفلة رقص أقامها في الشهر الماضي أحد المحامين احتفالا بعيد ميلاده . نعم لقد التقت به هنالك . حتى لقد رقصا إحدى الرقصات معا ، وذلك ما يمكن أن يعد التفاته منه ، لانه لم يكن يرقص أبدا . وتذكرت انها سمعته يتحدث بعبارات عذبة جدا عن جمال المرأة قائلا أنه العيان والكتفان .

« نحن نعلم ان صوفيا لا تستطيع أن تحسد في هذا أحدا » ولم يتطرق يومئذ الى أى موضوع آخر . . لم يتحدث الا عن العينين والكتفين . . كان فى الكلام على هذا معينا لا ينضب . . حتى لقد قص بضع نوادر وقعت له . . . صحيح ان بعض هذه النوادر لم يكن شائقا ، لكن الرجل كان مبدعا فى الحديث كل الابداع . وكان الموضوع الذى يدير عليه كلامه يناسب صوفيا ، نعم انها تتذكر الآن كل شيء . ما ان تركها الرجل ليلتئذ حتى جاء بالينا يجلس الى جانبها ويقول لها اسم هذا الرجل الذى راقصها ، اسمه الذى لم تدركه ادراكا واضحا حين قدم انيها قبل ذلك : كارلوس ماريا . « هو ذلك الشخص نفسه الذى عرفناه على مائدة الغداء التى اولها روبيان » . قال لها زوجها وقد تملق غروره ان الرجل اهتم بزواجه خلال تلك المدة الطويلة كلها ا

— انه أبرز شخصيات السهرة .

فصححت صوفيا كلام زوجها بقولها :

— من الرجال .

— اما شخصيات النساء فانت أبرزها .

ذلك ما أسرع باليا يقوله وهو ينظر الى جسم امرأته ، ثم يدير طرفه فى القاعة وقد ظهر فى وجهه ذلك التعبير الذى تعرفه صوفيا حق المعرفة ، والذى كان لا يسيئها قط ، أعنى التعبير عن انه هو السيد والمالك .

حين انتهت صوفيا من تذكر ذلك كله كان كارلوس ماريا قد ابتعد . على أن تذكر هذه الامور كان هدنة قصيرة فى معركة القلق التى كانت قد استولت عليها . كانت تشعر بألم فى ظهرها ، وقد هذا الألم بضع لحظات ، الا انه لم يلبث أن عاودها أشد مما كان . واسترخت صوفيا فى قاع المقعد ، وأغمضت عينيها . وحاولت أن تجد سبيلا الى النوم لكنها لم تستطع . ان همومها عنيدة كالوجع الذى تحسه ، بل انها أقسى منه . وكان اصطفاق الاجنحة يقطع الصمت من حين الى حين . انها حمامات بيت مجاور تعود الى أعشاشها . لقد فتحت صوفيا عينيها فى أول الامر مرة أو مرتين عند مرورها ، ثم اعتادت هذه الضجة ، فظلت مغمضة عينيها لترى هل تستطيع حقا أن تنام ، وبعد فترة من الوقت سمعت وقع أقدام ، فرفعت رأسها ظانة انه كارلوس ماريا فى طريق عودته . لكنها رأت ساعى البريد يحمل اليها رسالة من الريف . فتناولت منه الرسالة ،

وفيما كان الرجل يخرج من الحديقة تعثرت قدمه بمقعد فسقط
الى الارض على طوله ، وتبعثرت الرسائل في جميع الجهات . فلم
تملك صوفيا أن تحبس نفسها عن الانفجار ضاحكة .

٥٢

اغفروا لها هذا الضحك . أنا أعرف أن قلقها والليلة التي قضتها
مسهدة وخوفها من أقاويل الناس ، أعرف أن ذلك كله يتعارض
تعارضاً قوياً مع هذا الضحك الذي ليس في محله . ولكن لعلك ،
أيها القارئة العزيزة ، لم ترى في حياتك ساعى يريد يهوى الى
الارض على طوله . ان آلهة هوميروس - وهي آلهة لا بشر - كانت
تتناقش ذات يوم في الاولمب مناقشة جدية بل حامية . وفيما هي
تتناقش أخذت جونون المزهوة المتعجرفة تغار من أحاديث تيتيس
وجوبيتر في الثناء على آشيل ، فقاطعت فجأة ابن ساتورن ، فأخذ
جوبيتر يرعد ويعصف ، وأخذت زوجته من جهتها ترتعد غضبا .
وكان الآخرون لايزيدون على أن يتنهدوا أو ينتحبوا . ولكن حين
تناول فولكان الاناء المملوء بالشراب وأخذ يسقى الحاضرين وهو
يعرج ، انطلقت في الاولمب على حين فجأة نوبة جنونية من ضحك
لا ينطفىء . لماذا ؟ انك ياسيدتى العزيزة لم ترى ساعيا ينقلب على
خهره في يوم من الايام .

وفي بعض الاحيان لا حاجة الى سقوطه ، وفي احيان أخرى
لا حاجة الى وجوده ، بل يكفي تخيله أو تذكره . ما من عذاب
مهما يكن عنيفا يمكن أن يمنع ابتسامة عابرة أن تطوف بالشفقين حين
تستيقظ في الخيال على حين فجأة ذكرى حادثة مضحكة مهما تكن
حافلة . فلندع اذن صوفيا تضحك ونقرأ الكتاب الذي وصل اليها
من الريف .

٥٣

بعد خمسة عشر يوما بينما كان روبيان في بيته دخل عليه زوج
صوفيا فجأة . لقد جاء يسأل صاحبه ما الذي حدث له ، وأين
أختفى حتى أصبح لا يرى قط ؟ أكان مريضا ، أم هو لا يحفل
باصدقائه الذين لم يؤتوا من اليسار مثل الذي أوتيه ؟ تمتم روبيان
ببضع كلمات ولم يتم جملة . فلاحظ باليا ان في الصالة رجلا ينظر
الى اللوحات ، فقال خافضا صوته :

— سامحنى ، لم لاحظ ان عندك زوارا .
 — أسامحك ؟ هو صديق مثلك . يادكتور (١) ، أقدم لك صديقى
 كرستيانو دى الميدا اى باليا . اظن اننى قد حدثتك عنه قبل الآن .
 صديقى الدكتور كاماشو ، جوان دوسوزا كاماشو .
 حنى كاماشو رأسه محيا ، وقال بضع كلمات ، ثم أراد أن
 ينصرف . لكن روبيان أصر عليه أن يبقى . اليسا كلاهما
 صديقيه ؟ ثم ان ضوء القمر لن يلبث أن يضىء خليج بوتافوجو الرائع
 ضوء القمر — الا يزال يذكر ضوء القمر ؟ وهذه العبارة « اظن
 اننى حدثتك عنه قبل الآن » ، كل ذلك أثر فى الزائر الجديد تأثيرا
 جعله يصمت بضع دقائق . ويجب أن نضيف الى هذا ان صاحب
 البيت كان لا يعرف ماذا يقول هو أيضا . وقعد الثلاثة ، روبيان
 على الاركة ، وباليا وكاماشو على كرسيين متقابلين . وكان كاماشو
 محتفظا بعصاه ، فوضعها على ركبتيه ، ثم أخذ ينقر بها أنفه وهو
 ينظر الى السقف . وكانت تسمع من الخارج قرعة عربات وخيول ،
 تمازجها أصوات بعض الناس . الساعة هى السابعة والنصف من
 المساء ، بل هى تشارف الثامنة . وطال الصمت . لكن روبيان
 وباليا لم يلاحظا ذلك ، وها هو ذا كاماشو يمضى الى النافذة وقد
 مل هذا الوضع ، ثم يهتف وهو يلتفت اليهما قائلا :
 — هو ذا القمر قد ظهر .

فقام روبيان بحركة ، وقام باليا بحركة أخرى . ولكن لا تحسبوا
 انهما قاما بحركتيهما لغرض واحد . أما روبيان فقد أراد أن يتجه
 الى النافذة ، وأما باليا فقد أوشك أن يشب الى عنق صاحب
 البيت ، لا يدفعه الى ذلك خوفه من أن يرى نبا المفامرة ينتشر بين
 الناس ويذيع حوله الشائعات بقدر ما تدفعه اليه ذكرى عنف
 روبيان فى قبضه على يدي امراته ليشدها اليه . ولكن احدا من
 الرجلين لم يتم الحركة التى قام بها . . . وسرعان ما وضع روبيان
 ساقا على ساق ، ومال نحو كرستيانو يسأله :
 — هل تعلم اننى سأترككم ؟

٥٤

كان باليا يتوقع كل شيء الا هذا . وزال غضبه لتحل محله دهشة

(١) يطلق هذا اللقب فى البرازيل على المحامين ورجال السياسة وعلى جميع
 الاشخاص الذين لهم مقام هام (المترجم)

أضيف إليها شيء من الأسف ، وذلك ما لم تكن تتوقعه أنت أيضاً
أيها القارئ العزيز ، أليس كذلك ؟ يتركهم ؟ طبعاً . سيفادر ريو
دو جانيرو ! هذا هو العقاب الذى فرضه على نفسه للسيئة التى
ارتكبها فى سانتاتيريزا . لقد ندم على ما فعل فوراً ، وهو يشعر
الآن بالخجل ، حتى أصبح لا يجرؤ أن يظهر أمام امرأة صديقه .
تلك هى الفكرة الأولى التى خطرت ببال باليا . ثم انبثقت فى ذهنه
فروض أخرى ، منها أن غرام روبيان لا يزال أقوى مما كان ، وإن
سفره ليس سوى وسيلة للابتعاد عن موطن هواه . وخطر بباله
كذلك أن وراء هذا السفر مشروع زواج . فأحدث له هذا التصور
شيئاً من خيبة الأمل . وامتزج هذا الإحساس الجديد بما شعر
به من أسف الفراق القريب ، وبما شعر به من الفضب الذى أخذ
يهدر فى قرارة نفسه منذ لحظة . يا لها من فسيفساء عجيبة من
العواطف ! كذلك سنقول أيها القارئ . نعم إنها فسيفساء عجيبة
من العواطف ، ولكن ثق أن الفسيفساء ذات اللون الواحد نادرة
جداً فى الحياة النفسية . وإنما المهم بعد كل شيء ، ما دام التناظر
مفقوداً ، ألا تتنافر الألوان تنافراً شديداً . وذلك حال صاحبنا .
فقد تحسب من النظرة الأولى التى تلقىها على مشاعره أن عواطف
متنوعة أشد التنوع قد ارتسمت على صفحة نفسه — أقول ذلك
للحفاظ على التشبيه بالفسيفساء — لكننا إذا انعمنا النظر فيها
عن كثب أدركنا ما فى كيانه من انسجام عام ووحدة نفسية ، رغم
ما هنالك من تعارض فى الألوان .



ولكن لماذا كان روبيان بسبيل أن يتركهم ؟ ما هو الباعث على
هذا القرار المباغت ؟

فى اليوم الذى أعقب حادث سانتا تيريزا ، استيقظ روبيان من
نومه مكتئب المزاج خائر النفس ، حتى أنه لم يحسن تناول طعام
الافطار . ما من شيء كان فى ذلك الصباح يشوقه . أنه يدس قدميه
فى حذائه شارد اللب فلا هو يتفضل بالقاء نظرة على التحف النادرة
أو الثمينة التى يمتلئ بها بيته ، ولا هو يطيق أن يحتمل وثبات
الكلب الحارة أكثر من دقيقتين ، فما كاد يدخله الى الصالون حتى
طرده . لكن كوتكاس بوربا استطاع أن يفلت من رقابة الخدم وأن
يتسلل الى الحجرة مرة أخرى ، فما كان من روبيان إلا أن لطمه

على اذنيه لكمة جعلته يقف عن الوثب دفعة واحدة ، ويستلقى على الارض محققا الى مولاة .

كان روبيان حائقا وخجلا في آن واحد مما اقدم عليه بالامس . تذكرون اننا رأينا من قبل ، في الفصل العاشر ، ان صاحبنا سرعان ما يشعر بعذاب الضمير ، رغم ان عذابه هذا سريع الزوال في اكثر الاحيان . وهنا يجب ان نشير الى ما كان يجعل عذاب الضمير هذا مقيما بعض الشيء . في الحالة التي تحدثنا عنها من قبل كان الامر امر رسالة كتبها كونكاس بوربا الراحل ، وهي رسالة تدل دلالة واضحة على اضطراب صاحبها . لقد حرص روبيان على الا يطلع الطبيب عليها رغم الفائدة التي يمكن ان يجنيها منها العلم وان تجنيها منها العدالة . فلو قد اطلع الطبيب على تلك الرسالة لذهب عذاب ضميره ، ولكن كان يمكن ان يذهب الميراث ايضا ، الميراث الصغير الذي كان يتوقع ان يرثه من صاحبه المريض . والآن يعاني ضميره عذابا من محاولة دفع امرأة الى خيانة زوجها . صحيح ان روبيان كان في قرارة نفسه يحب صوفيا منذ زمن . وصحيح ايضا ان قوة سحرية دفعته الى الفعل دفعا ، ولكنه ما كان ليجرؤ على ان يكشفها بحبه تلك المكاشفة التي أساءت استقبالها لولا موقفها ولولا هياجه العارض في تلك اللحظة ، وقد زالت ابخرة الليل ، فأصبح الرجل لا يشعر بالخجل فحسب ، بل يشعر أيضا بعذاب الضمير . لئن تعددت الخطايا ان الاخلاق لواحدة .

ولكن دعونا الآن من العواطف والافكار التي عصفت بروبيان على هذه الصورة خلال عدة ايام . لقد توقع روبيان في يوم الاحد التالي شيئا ما ، توقع مثلا ان يتلقى بطاقة كالبطاقة التي تلقاها في يوم الاحد الماضي ، سواء اوصلت مع البطاقة فاكهة من ثمار الفراولة أم لا . فلما جاء يوم الاثنين كان قد اتخذ قراره : سيسافر الى ميناس ليقتضى هناك شهرين . انه يحس بالحاجة الى الاستجمام في جو بارباسينا . عزم على ذلك دون ان يحسب للدكتور كاماشو حسابا .

كرر باليا سؤاله :

— ستركنا ؟

— اظن ذلك . سأسافر الى ميناس .

فايتمد كاماشو عن النافذة وعاد الى الجلوس على الكرسي الذي كان قاعدا عليه ، وقال وهو يتسم :

— كيف تسافر الى ميناس ؟ دعك الآن من ميناس . سوف تسافر اليها حين الحاجة . وما أظن ان ذلك سيتأخر كثيرا على كل حال .

لم تكن دهشة باليا لكلمات كاماشو أقل من دهشته لكلمات روبيان . من أين أتى هذا الرجل الذي يبدو أن له سيطرة كبيرة على صديقه ؟ وألقى عليه نظرة سريعة . أنه متوسط القامة ، مستطيل الوجه ، قوى الكتفين قليل شعر اللحية ، ذو أذنين بارزتين . ذلك كل ما أدركه باليا في هذه اللحظة القصيرة . ولاحظ مع ذلك أيضا انه يرتدى قميصا ناعما مترفا ، وانه ينتعل حذاء أنيقا . لكنه لم يستطع أن يلاحظ عينيه ولا ابتسامته ولا أسلوبه في الحديث والحركة ، ولم يتح له أن يلاحظ بداية صلعه ، ولايديه المعروقتين الشعراوين .

٥٦

كاماشو رجل من رجال السياسة . تلقى دراساته الحقوقية بكلية رسييف ، وعاد يقيم في منطقته ممارسا مهنة المحاماة . لكن هذه المهنة لم تكن عنده الا ذريعة . انه منذ كان طالبا في الجامعة قد أنشأ جريدة سياسية ان لم تكن ذات اتجاه واضح معين فقد كانت تجمع بأفكار مستمدة من هنا ومن هناك ، معروضة بأسلوب يمكن أن يوصف بأنه جاف ومنتفخ معا . وفي وسعنا أن نستمد من هذه الجريدة التي أصدرها في صباه بعض أفكاره الأساسية :

« النظام في الحرية ، والحرية في النظام ، ما من سلطة تسيء استعمال القانون الا وتخون نفسها ، حياة المبادئ ضرورة أخلاقية للأمم الفتية والأمم القديمة على السواء ، أعطنى سياسة حكيمة أعطك اقتصادا سليما . » بارون لويس ، يجب أن نقتطع في « اردن » الدستور من جديد ، أيها الحكام ، افسحوا المجال للرجال البواسل يكونوا لكم خير سند ، الخ الخ .

لكنه أدرك وهو في البلد الذي ولد فيه ، ان أمثال هذه الحكم ليس لها رواج ، وكذلك الأسلوب الذي كتبت به . وسرعان ما فطن حين أنشأ جريدة ثانية الى أن السياسة المحلية ليست بالأمر المجرد الى هذا الحد . لذلك عدل عدولا كاملا عن تحقيقاته الجميلة تلك ، وارتضى أن يركز جهوده في تسمية النواب المحليين ، والاهتمام بالأعمال التي تعود بالمنفعة على المنطقة ، والمشكلات الصغيرة الخاصة

بالقرية ، دون أن يفقل عن مكافحة الجريمة المعادية ، وعن ملء مقالاته بالاسماء الاعلام وغير الاعلام من كل جنس ونوع . وكان يعنى عناية دقيقة بالنعوت التى يطلقها على الاشخاص . فاذا هاجم الحكومة ألصق بها هذه النعوت حتما : مشئومة ، متفسخة ، ملطخة بالعار ، فاجرة ، حتى اذا تبدلت الوزارة يتبدل الرئاسة ، اندفع فى مناصرتها اندفاعا لا يضارعه فيه أحد ، فتبدلت النعوت فصارت : فعالة ، رشيدة ، عادلة ، أمينة على المبادئ ، شعلة

من حسن الادارة والتدبير ، الخ الخ ، ودأب هذا النوع من العمل ثلاث سنين ، استبد هوى السياسة خلالها بالمحامى الشاب .

وقد أصبح عضوا فى مجلس المنطقة ، ثم عضوا فى مجلس النواب ، فحاكما لمنطقه من الدرجة الثانية . « فأتيج له أن يرى جرائد المعارضة تعرقه بسيل من النعوت التى كان يستعملها هو من قبل : «مشئوم» ، متفسخ ، ملطخ بالعار ، فاجر . . . » . لقد عرف كاماشو فترات صعود وفترات هبوط ، لكنه لم ينقطع يوما عن الخطابة والكتابة والنضال العنيد ، سواء فى مجلس النواب وفى غير مجلس النواب . لقد انتهى الى الاستقرار فى العاصمة عضوا بمجلس النواب تحت شعار المصالحة الوطنية فى عهد حكومة مركز بارانا ، واستطاع ان يحصل على بعض التعيينات التى سعى اليها وتوسط فيها . ولكن

لئن كان المركز يسأله النصيحة فى كثير من الاحيان ، حتى ليفضى اليه ببعض مشاريعه ، فما من أحد كان يوقن بما يقوله كاماشو ، لان كاماشو ، كان لا يتردد فى الكذب اذا لزم الامر من أجل أن ينسب على شخصه علو الشأن وخطورة المنزلة .

لكن الامر الثابت على كل حال هو ان كاماشو يريد أن يصبح وزيرا ، وأنه لا يدخر وسعا للوصول الى تحقيق هذا الهدف ، حتى لقد كان ينتقل من جماعة الى أخرى تبعا للظروف سعيا وراء هذا الغرض . كان يلقي فى المجلس النيابى خطبا طويلة عن الحكم ، محشوة بالارقام والمواد القانونية وخلاصات التقارير والاستشهادات بنصوص لكتاب فرنسيين « مترجمة ترجمة رديئة » . ولكن المسافة بين الكأس والشفقين كبيرة ، لذلك ظل الشراب الذى كان يمكن أن يطفىء ظمأه بعيدا عن متناول يده ، رغم كل ما فعل ، فى حين ان أشخاصا آخرين استطاعوا الوصول الى هذا الهدف دون أن يبذلوا فى سبيله ما بذله هو من حماسة ونشاط .

ان فى السياسة « عوائس » . وكاماشو يدخل الآن فى عداد تلك

الطبقة الحزينة الكئيبة ، طبقة أولئك الذين يتبدد أملهم في الزواج مع الزمن ، لكنه لايجرؤ أن ينسحب من الميدان طائعا مختارا . وما من أحد مع ذلك يعهد اليه بأى وزارة حين تشكيل الحكومة ، حتى ولو كان يضمن له أحسن النيات . واحس كاماشو بأن نجمه الى أفول . ومن أجل أن يتظاهر بأن له نفوذا لم يكن له منه شيء في حقيقة الامر ، أصبح يكتفى بالظهور بمظهر الصديق لأصحاب السلطة ، والتحدث على رءوس الأشهاد عن زياراته للوزراء وكبار رجال الدولة .

ولم يكن من الناحية المادية بغير موارد . إن أسرته صغيرة : زوجة ، وابنة تشارف الثانية عشرة من عمرها ، وابن بالمعمودية في التاسعة . والكسب الذى يجنيه من مهنة المحاماة يسد حاجات الأسرة في يسر وبجبوحة . لكن السياسة في دمه . فهو لا يعنى بغيرها . ولا يقرأ الا ما يتصل بها ، أما الادب والعلوم الطبيعية والتاريخ والفلسفة والفنون فقد ظلت بعيدة عنه كل البعد . وحتى في القانون كانت معارفه محدودة . انه لم يحتفظ من الدراسة التى تلقاها في الجامعة الا ببعض طلاء قانونى ، تضاف اليه معرفة بالتشريع اللاحق وخبرة أتاحت له مهنة المحاماة أن يحصلها . لكن ذلك كله كان يكفيه ليرافع في المحاكم ويكسب رزقه .

٥٧

لقد التقى بروبيان منذ بضعة أيام أثناء سهرة ذهب يقضيها في منزل مستشار بالبلاط . كان الناس يتحدثون عن احتمال عودة المحافظين الى الحكم ، وعن احتمال حل المجلس . وقد شهد بروبيان منذ قليل الجلسة التى طلبت أثناءها حكومته ايتابوراهاى الاقتراع على الميزانية ، فكان في تلك السهرة يتحدث في حماسة عن مشاعره ، وعن الأروقة التى كانت تعج بالناس ، وعن الخطاب الذى ألقاه بونيفاسيو ، وعن الاقتراح فالتصويت . . كان واضحا أن هذه الحماسة لايمكن أن تصدر الا عن طبيعة ساذجة بعض الشيء ، بل كانت فوضى اشاراته ، وحتى حرارة كلماته ، تسبغ على حديثه بلاغة الصديق . . وكان كاماشو يصفى اليه في انتباه . ثم تذرع بحجة من الحجج ليمضى به الى أحد الأركان ، وليسر اليه بتعليقات خطيرة عن الموقف الراهن ، فكان بروبيان يرد عليه بهزات من رأسه

ولا يكاد يقول الا بضع كلمات قصيرة يؤيد بها كلامه ، قال له
كاماشو أخيرا :

— لن يبقى المحافظون في الحكم مدة طويلة .
— تعتقد ؟

— هذا مؤكد . هم لا يريدون الحرب (١) ، لذلك لا بد أن يسقطوا
حتما . انظر كم كنت نافذ البصيرة حين وضعت برنامج الجريدة !
— أي جريدة ؟

— سنتحدث عن ذلك فيما بعد .

وفي الغد تناولا طعام الغداء معا في « فندق البورصة » . ان
كاماشو هو الذي دعا روبيان . وحدثه عن الجريدة التي أنشأها
منذ بضعة أشهر ، والتي يتخلص برنامجها في نقطة واحدة هي
الاستمرار في الحرب مهما يكن الثمن .

لقد كانت الانقسامات في صفوف حزب الاحرار في أوج حدتها ،
فبدا له ان خير وسيلة لخدمة حزبه هي أن يجعل له شعارا
حياديا قوميا .

قال مختتما كلامه :

— والآن يفيدنا هذا كثيرا ، لان الحكومة تجنح الى السلم .
سأشر منذ الغد مقالا عنيفا في هذا الموضوع .
كان روبيان آذانا مصغية ، وكان نظره لا يفارق صاحبه لحظة ،
حتى اذا مال كاماشو برأسه الى صحنه انتهر هو هذه الفرصة
ليبتلع بضع لقم على عجل . لقد أسكره أن ينفذ هذا النفاذ الى
أسرار السياسة . والحقيقة ان فكرة انخراطه في المعركة بنفسه
ليجنى من ذلك فائدة ما ، كأن يصبح عضوا في المجلس مثلا، كانت
نملا خيال صاحبنا منذ ذلك الحين بأحلام ذهبية . ولم يقل له
كاماشو شيئا غير ذلك . وفي الغد ذهب يزوره بيته ، لكنه لم
يجده . وقد جاء اليوم منذ لحظة ، قبيل وصول باليا على غير
ميعاد .

٥٨

الح روبيان يقول :

— نعم ، ولكن يجب أن أذهب الى ميناس .
فسأله كاماشو :

(١) هي الحرب مع باراجواي (المترجم)

- ولماذا ؟

وطرح عليه باليا هذا السؤال نفسه . لماذا يذهب الى ميناس ؟
اللهم الا الا يطول غيابه اكثر من بضعة ايام ... ام تراه مل
العاصمة وسثمها ؟

- آه ... لا ... بالعكس .

بالعكس ، انه في العاصمة سعيد كل السعادة ، لكنه يحن دائما
الى البلد الذي رأى فيه النور ، مهما يكن هذا البلد بشعا ، ومهما
يكن موحشا . وهذا الشعور يكون أقوى حين لا يترك المرء بلده .
الا في سن الرجولة . انه يريد ان يرى بارباسينا مرة أخرى .
ما من شيء يضارع بارباسينا حتما . وافلت روبيان من سيطرة
ساحبيه افلاتا تاما خلال بضع دقائق . ان حبه لمسقط رأسه يجري
في عروقه ، فلا الطموح ولا حب الظهور ولا اللذات العابرة ، لا شيء
من ذلك كله يصمد أمام حنينه الى بلده . ولئن انطوى قلبه على
شيء من النفاق في بعض الاحيان ، واستجاب لنداء المصلحة كثيرا ،
فليس هذا القلب الآن الا قلب انسان طيب سئم اللذات بل سئم
ثروته نفسها .

ونظر كاماشو وباليا أحدهما الى الآخر . كانت هذه النظرة أشبه
ببطاقة تعارف تبادلهما ضميراهما . كانت كافية ليحكم كل منهما على
الآخر وليتفاهم معه ... انها خير من أى شرح . نعم يجب ان
يحال بين روبيان والسفر . لأن ميناس قد تستأثر به الى الابد .
ووافقا على أن يسافر الى ميناس ، ولكن شريطة أن يؤخر هذا
السفر ... أن يؤخره بضعة أشهر ... وربما ذهب معه باليا
حينئذ . ان باليا لا يعرف ميناس ، وهذه فرصة طيبة لزيارتها .
سأله روبيان :

- أنت ؟

- نعم ، انا . اننى ارغب في السفر اثنى ميناس والى سان باولو
منذ مدة طويلة . وما زلنا نرجىء السفر منذ سنة بكاملها من حين
الى حين ... ان صوفيا تحب هذا النوع من الاسفار جدا شديدا .
الا تذكر ... يوم التقينا في القطار؟ كنا عائدتين يومئذ من فارسواس .
لكن مشروع السفر الى ميناس لم يفارق خيالنا أبدا . نعم
سنسافر نحن الثلاثة معا .

فتعلل روبيان بقرب موعد الانتخابات . لكن كاماشو تدخل فأكده
له انه ليس من اللازم أن يسافر الى ميناس لهذا الغرض ، وأن

الاولى أن تسحق الافعى من رأسها أى بالعاصمة . وفى وقت روبيان
متسع بعد ذلك للسفر الى حيث يحب ، وللحصول على جزائه أيضا .
تحرك بطلنا على أريكته . جزاؤه ؟ لاشك أن هذا الجزاء مقعد فى
مجلس النواب . أمل رائع . أن مثل هذا المطمع لم يدر فى خلد
يوما حين لم يكن الا تعيسا . لكن جنون العظمة يستبد به الآن ،
ويثير رغبته فى المجد والظهور الى أقصى حدود الاثارة الملهبة .
وألح مرة أخيرة على ضرورة ذهابه الى ميناس لقضاء بضعة أيام ،
ولكن الحقيقة توجب أن أذكر أنه أصبح لا يتمنى أن يوافق صاحبه
على سفره .

كان ضوء القمر رائعا . أن لمنظر الخليج من النافذة جمالا بالفا
يستحيل على من يقطن ريو أن يقع على مثله فى أى موطن من
الأرض . وكما رأى روبيان فى الحلم خيال صوفيا يخطر لحظة من
بعيد على سفح الرابية ، ثم يغيب شيئا فشيئا ، فكذلك كان صخب
الجلسة الأخيرة فى مجلس النواب لا يزال يدوى فى أذنيه .

ومضى كما مشوا الى النافذة ، ثم لم يلبث أن عاد فورا ، فسأل
روبيان :

- كم تمكث فى ميناس ؟
- لا أدري بعد . لكن مكوثى هنالك لن يطول .
- على كل حال سنتحدث فى هذا الامر غدا .

واستأذن كما مشوا بالانصراف . وبقي باليا بضع لحظات كى يقول
لصاحبه ان من الغريب أن يعود الى ميناس قبل أن يصفى ما بينهما
من حساب . فقاطعه روبيان قائلا :

- أى حساب ؟ ومن ذا الذى يطالب بحساب ؟
- فأجابه كرستيانو باليا :

- وأوضح أنك لست من رجال الاعمال .
- لست من رجال الاعمال . هذا صحيح . لكن المرء يدفع
ديونه حين يقدر على دفعها . فكذلك جرت الامور بيننا دائما .
ولكن من يدري ؟ كن صريحا . أنت فى حاجة الى شيء من المال ؟
- لا . . . أشكرك أجزل الشكر . هناك صفقة أحب أن أعرضها
عليك . لكننى أتركها ليوم يكون لنا فيه متسع من الوقت أكبر .
وانما جئت اليوم لاراك ، حتى لا أضطر الى أن أنشر فى الصحف
اعلانا أقول فيه « مفقود صديق اسمه روبيان . العلامة الفارقة :
له كلب » .

فاستملح روبيان المزحة . وحين خرج باليا شيعه الى ناصية
شارع ماركيزدو ابرانتس . حتى اذا ودعه وعده أن يزوره في
سانتا تيريزا قبل سفره الى ميناس .

٥٩

مسكنة ولاية ميناس . حين كان روبيان عائدا الى بيته وحده
كان لا يفكر الا في وسيلة تسمح له بالآ يذهب الى ميناس . ان
أقوال صديقيه تترجع في اذنيه كأنها كتبت بأحرف من نار . « هنا
يجب أن تقتل الافعى . هنا يجب أن يسحق رأسها » . « صوفيا
تحب هذا النوع من الاسفار حبا شديدا » . حقا ان ولاية ميناس
مسكنة .

وفي الغد تلقى روبيان جريدة لم يكن قد رآها من قبل ، هي
جريدة « الخفير » . ان الافتتاحية تهاجم الوزارة هجوما عنيفا :
لكنها تنتهي ببناء موجه الى جميع الاحزاب والى الامة بأسرها .
« يجب أن نفطس في « أردن » الدستور مرة أخرى » . وقد وجد
روبيان المقالة رائعة ، وحاول أن يعرف أين تطبع هذه الجريدة
حتى يشترك فيها . انها في شارع أجودا . وذهب الى هناك فور
خروجه من منزله ، حتى اذا عرف ان رئيس تحريرها ليس الا
الدكتور كاماشو هرع يمشى الى مكتبه .

لكنه كان لا يزال في شارع أجودا حين سمع صرخة موجهة
تنطلق فجأة :

— ديوليندو ، ديوليندو .

كذلك كانت تعول امرأة أمام مخزن من مخازن الاسرة .

التفت روبيان فأدرك على الفور ما وقع . ان طفلا في الثالثة أو
الرابعة من عمره قد عبر الشارع أمام مربة كانت في تلك اللحظة
تهبط المنحدر ، فصار تحت أرجل الخيل تقريبا رغم ما بذله
الحوذي من جهود لوقف المربة . فما كان من روبيان الا أن رمى
بنفسه الى المربة فانتزع الطفل من الخطر . وحين تناولته أمه من
بدي روبيان لم تستطع أن تنبس بكلمة واحدة . كانت شاحبة
أشد الشحوب ولا تزال ترتجف . وأخذ بعض الاشخاص يشتمون
الحوذي ، لكن رجلا أصلم كان في جوف المربة أمر الحوذي أن
يتابع طريقه ، فأطاعه . لذلك فان أبا الطفل ، الذي كان في المخزن،

لم يجد العربية حين خرج هو أيضا . كانت العربية قد انصرفت ،
وأخذت تنعطف عند زاوية شارع سان جوزه .
قالت الام :

— كاد يموت . لا أدري ماذا كان يمكن أن يحدث لابنى المسكين
لولا هذا الرجل ؟

قام فى الحى ما يشبه ثورة . الجيران يدخلون ليعرفوا ما حدث ،
والاطفال والسود يتأملون هذه الجلبة الشديدة فى الشارع مشدوهين .
لكن الطفل الصغير لم يكن قد أصيب الا بخدش فى كتفه اليسرى
من أثر السقوط .
قال روبيان :

— لا شىء . على كل حال لا تتركوه يخرج الى الشارع هكذا بعد
الآن . فانه لا يزال صغيرا ...

أجاب الاب بقوله :

— شكرا ياسيدى . ولكن اين قبعتك ؟

فلاحظ روبيان انه قد أضاع قبعته . غير أن صبيا يرتدى
اسملا بالية كان قد التقطها ، وهو الآن يقف على باب المخزن
ينتظر أن يستطيع ردها الى أصحابها . فأعطاه روبيان بضعة نقود
مكافأة له ، وذلك أمر لم يخطر ببال الصبى حين مضى يلتقط القبعة
لأنه لم يفعل ما فعل الا ليكون له نصيب من المجد فى الحادثة . ومع
ذلك قبل المكافأة مسرورا ، ولعل ذلك كان أول علم له بضمن الاعمال
الخير .

قال الاب :

— ولكن انتظر ... انت مجروح ؟

كان على يد روبيان قليل من الدم . لقد جرحت راحة يده ،
لكن الجرح يسير لم يشعر به الا فى تلك اللحظة . فهرعت أم
الطفل تبحث عن ماء ومنشفة رغم احتجاجات روبيان الذى قال
ان الامر بسيط لا يستحق هذا العناء كله . وسرعان ما عادت المرأة
تحمل الماء ، وفيما هى تغسل له يده ، مضى زوجها الى الصيدلية
المجاورة يشتري شيئا من المرهم . حتى اذا عولجت اليد بالمرهم
ربطها روبيان بمنديل . ونظفت المرأة قبعته بالفرشاة . وحين
ذهب ، أفرقته المرأة وزوجها بوابل من عبارات الشكر لأنه أنقذ
حياة ابنهما . أما الناس الآخرون الذين كانوا على الباب وفى
الشارع فقد أحاطوا به كأنهم اكليل غار .

دخل روبيان مكتب كاماشو ، فسأله هذا :
- ما لديك ؟

فقص عليه روبيان الحادثة التي وقعت في شارع أجودا . فاذا بالمحامى يفرقه بسيل من الاسئلة عن الطفل وأبويه ورقم المسكن ، الخ . لكن روبيان قطع الاستجواب قطعاً حاسماً . فسأله صاحبه :
- ألا تعرف اسم الطفل على الأقل ؟

- سمعتهم ينادونه ديولندو . ولكن دعنا من هذه السفاسف .
لقد جئت لاشتراك في جريدتك . وصلني منها اليوم عدد ، وأحب ان أسهم في ...

فأجابه كاماشو بأنه لاداعى الى الاشتراك... فالجريدة من ناحية الاشتراكات تسير سيرا حسناً . وإنما تعوزها الادوات الطباعية . ويجب التوسع فيما تنشره أيضاً . يجب ان نكثر من المواد ، وأن نزيد من عنايتنا بالانباء ، وكذلك بالتنوعات وأخبار البورصة والمرفأ . ويجب اصدار صفحة تضم رواية مترجمة عن لغة أجنبية ، الخ . وعلى كل حال ، فلا الاعلانات ولا الدعاية تعوز الجريدة ، ولعل روبيان أدرك ذلك .

- طبعاً . .

- لقد تم جمع رأس المال كله تقريباً . يجب ان يكون هناك عشرة اشخاص ، يوجد منهم الآن ثمانية . أنا وسبعة آخرون . لم يبق إلا ان نجد شخصين أيضاً ، فمتى انضم اليها شخصان آخران اجتمع لنا رأس المال كاملاً .

تساءل روبيان بينه وبين نفسه : « ترى ما هو المبلغ المطلوب ؟ »
ان كاماشو صامت الآن ، يقرع حافة مكتبه بموسى ، ويلقى هلى روبيان من حين الى حين نظرة مختلسة . وروبيان يطوف ببصره على الحجرة ، ان اثاثها قليل . بضعة ملفات على منضدة صغيرة الى جانب المحامى ، ورف ملء بالكتب : مؤلفات لوبون ، وبيريرا اى سوزا ، ودالوز ، ومجموعة قوانين ، وأخيراً صورة معلقة بالخائط تجاه المكتب .

قال كاماشو وهو يشير الى الصورة بأصبعه :

- هل عرفت صاحب الصورة ؟

- لا ...

— بل أنت تعرفه . أنعم النظر .
— لم أعرفه . . . حقا لا أعرفه . أهو تونس ماشادو ؟
فقال النائب السابق وقد ظهر في وجهه الحزن :
— لا . . . مستحيل أن تجد صورة جيدة لتونس ماشادو .
صحيح أن هناك صورة مطبوعة له ، لكنني لا أجدها جيدة . أن
هذه الصورة هي صورة المركيز .
— مركيز بارباسينا ؟

— مركيز بارانا . المركيز العظيم . صديقي الحميم ، لقد حاول
أن يجمع الأحزاب ، لذلك انضمت اليه . لكنه مات قبل الاوان ،
ومات معه العمل الذي شرع فيه . على أنه لو حاول اليوم أن
يتبع تلك السياسة نفسها لوجدني أعارضة . نعم ، لقد انتهى عهد
المصالحة ، واليوم حرب لا هوادة فيها . يجب علينا أن نقضى عليهم
قضاء مبرما . اقرأ جريدة « الخفير » . انها رفيقة النضال .
سترسل الى بيتك .

— لا . . .

— لماذا ؟

خفض روبيان عينيه حين رأى تكشيرة كاماشو المتسائلة . ثم قال :
— لقد عزمت أمرى . أريد أن أعاون أصدقائي . ألتقى الجريدة
مجانا ؟ ! . .

— قلت لك أن كل شيء يسير سيرا حسنا من ناحية الاشتراكات .
— صحيح . . . لكنك قلت لى أيضا انكم فى حاجة الى شخصين
آخرين لاكمال رأس المال .
— الى شخصين . نحن الآن ثمانية .
— وما مقدار رأس المال ؟
— رأس المال خمسون قونتا ، على كل شخص خمسة .
— عدنى مسهما بخمسة قونتا .

فشكره كاماشو باسم المبادئ ، وقال انه كان ينوى أن يدعو
الى الانضمام اليهم ، فذلك حق اكتسبه روبيان بإيمانه واخلاصه
وحبه للقضايا العامة . . . أما وانه انضم اليهم من تلقاء ذاته ، فلم
يبق لكاماشو الا أن يعتذر اليه عن انه لم يدعه الى الانضمام قبل
الآن . وأطلعته المحامي بعد ذلك على قائمة المكتتبين وعلى رأسهم
هو نفسه . ألم يقدم الجريدة والادوات والاشتراكات وعمله على
نحو بطولى حقا ؟ وأراد أن يستدرك ، ولكنه كرر يقول بغير تواضع

كاذب : عمل بطولى حقا . لو قال غير ذلك لكذب . لقد كان منذ طفولته يشحق الافاعى ، وغدت هذه العادة ملازمة له . انه يريد أن يقاتل ، ولسوف يموت وهو فى القتال ، ولسوف يكفن بالعلم الوطنى .

٦١

وانصرف روبيان . وفيما هو يجتاز الممر التقى بسيدة فارعة الطول ترتدى ملابس سوداء ، وتسمع لمشيئها هههه حريز وقرقعة زجاج . فلما هم روبيان بهبوط السلم سمع صوت كاماشو يصيح بصوت أعلى من صوته المؤلف :
- أوه ... سيدتى البارونة !

فتوقف على الدرجة الاولى . واخذت البارونة تتكلم بصوت بلورى . ان الموضوع موضوع دعوى . بارونة . ولكن لابد لروبيان أن يتابع بهبوطه شاء أم أبى . وها هو ذا ينزل السلم ببطء حتى لا يظهر عليه انه وقف ينصت للحديث . ان عطرا غريبا لطيفا يتموج فى الهواء ... هو العطر الذى خلفته البارونة وراءها . شئ يطبش له اللب . انها بارونة . واجتاز الباب الخارجى اخيرا ، فرأى مركبة واقفة . كان الوصيف منتصبا بقامته على الرصيف ، والحوذى قاعدا فى مكانه ينظر الى الناس وهم يمرون . ان الرجلين كئيهما يرتديان الملابس الرسمية . أى غرابة فى هذا كله ؟ لا غرابة مطلقا . انها سيدة تحمل لقبا ، سيدة غنية معطرة ، لعلها لا ترفع دعوى الا قتلا للوقت . الشئ الغريب فى حالة روبيان الخاصة هو احساسه ، دون أن يدري لماذا ، بأنه لا يزال ذلك المعلم الصغير المسكين ببلده بارباسينا .

٦٢

وفى الشارع التقى بصوفيا تصحبها سيدة متقدمة فى السن وأمرأة شابة . لكنه لم يكذب يلقى نظرة على المرأتين المجهولتين ، فعيناه لاتريان الا صوفيا ، وتخطبا دقيقة أو دقيقتين فى شئ من الحرج ، ثم تابع كل منهما طريقه . وقد وقف روبيان بعد قليل ينظر وراءه ، لكن النساء الثلاث كن يتابعن سيرهن دون أن يلتفتن .
قال روبيان لنفسه بعد الغداء : « اذهب اتيوم الى هناك ؟ » .

وفكر طويلا ، لكنه لم يستطع أن ينتهى الى اتخاذ قرار . فهو تارة يقول نعم ، وتارة يقول لا . لقد وجد سلوكها غريبا ، لكنه تذكر أيضا انها تبسمت له . . صحيح ان تبسمها كان قليلا ، لكنها تبسمت على كل حال . قال لنفسه : اذا جاءت أول عربية من اليمين ذهبت ، واذا جاءت من الشمال لم اذهب . وقعد على المقعد في وسط الصالون ليحسن مراقبة الشارع . وما هى الا لحظات حتى ظهر « طنبر » آت من الشمال . حسم الامر ، لن يذهب اذن الى سانتا تيريزا . لكن اللاشعور رد عليه : صحيح ان عليه أن يتقيد بالشرط الذى حدده بنفسه ، ولكن « الطنبر » ليس عربية ، وانما درج الناس على أن يسموا بهذا الاسم انواعا أخرى من المركبات . وفي هذه اللحظة وصلت من اليمين عربات كثيرة كانت عائدة من جنازة . وذهب روبيان الى سانتا تيريزا .

٦٣

مدت صوفيا يدها اليه في لطف دون أى اثر من آثار الحقد . والسيدتان اللتان كانتا تسيران معها منذ قليل في الشارع هما الآن في البيت بملايس المنزل . وتم التعارف . أما الشابة فهى ابنة خالتها ، وأما المتقدمة فى السن فهى خالتها . . باعثة تلك الرسالة التى سببت سقوط ساعى البريد فى الحديقة . ان اسمها دونا ماريا أوجوستا . وهى تملك أرضا صغيرة فى الريف وعددا من العبيد ، وعليها بضعة ديون . فذلك كل ما تركه لها زوجها عدا الحشرات . والفتاة تدعى ماريا بنديكتا ، وهو اسم قالت انه لا يعجبها كثيرا لانه من أسماء العجائز ، لكن الام ردت عليها بقولها ان العجائز كن صبايا فى زمانهن ، وان ما يحكى عن التناسب بين الاسماء وأصحابها لا وجود له الا فى خيال الشعراء وكتاب الروايات . ان اسم ماريا بنديكتا هو اسم جدتها بنت لويز فاسكونسلوس نائب الملك ، بنته المعمودية ، فماذا تريد خيرا من هذا ؟

قصص ذلك كله على روبيان ، دون أن يبدو على ماريا بنديكتا انها ترتاب فيه . ومن أجل أن تسوى صوفيا الأمور ، أو لسبب آخر أسرع تضيف أن أقبح الاسماء يصبح جميلا ، وعلى هذا يكون اسم ماريا بنديكتا ساحرا فاتنا .

وختمت كلامها بأن التفتت الى روبيان تسأله :

- أليس هذا رأيك ؟
فقلت ماريا بنديكتا وهى تضحك :
- كفى مزاحا يا ابنة خالتي .

ولكن من حقنا أن نعتقد أن الخالة وروبيان لم يفهم أحد منهما ملك الحدة ، فالخالة قد أخذ يغلبها النعاس ، وروبيان كان يلعب كلبا صغيرا أسود العينين أهدي صغيرا الى صوفيا . انه حيوان نحيل ، كثير الحركة ، علق في رقبتة جرس . ولكن لم يسمع وروبيان ازاء الحاح صوفيا الا أن يجيب بالموافقة ، رغم انه لم يعرف الامر الذى يدور عليه السؤال . وزعلت ماريا بنديكتا . والحق أنها لم تكن على حظ عظيم من الجمال ، ولا ينبغي أن نسألها ابتسامة مغرية ولا نظرة فاتنة . لكنها تمتاز بالانطلاق في غير تكلف . وليس فيها شيء مما في بنات الريف من خراقة ، ثم ان بها رشاقة فطرية تعوضها مما قد يعوز ملابسها من الانسجام .

لقد ولدت بالريف وهى تحب الريف . والارض التى يمتلكها أهلها بالريف قريبة جدا . انها فى ايجواسو . فكانت تأتى الى ريو من حين الى حين لقضاء بضعة أيام ، لكنها ما ان تمكث بها ثمان وأربعين ساعة حتى ينفد صبرها وحتى تشتد رغبتها فى العودة الى منزلها بالريف . ولم تكن على جانب كبير من الثقافة . فقد علموها القراءة والكتابة ، وشيئا من دروس الدين والخياطة ، ولا شيء غير ذلك . وفى الآونة الأخيرة « كانت وقتئذ فى التاسعة عشرة من عمرها » ألحت صوفيا أشد الإلحاح على ضرورة تعلمها العزف على البيانو ، فوافقت الخالة على ذلك ، فجاءت ماريا الى ابنة خالتها ققضت عندها ... ثمانية عشر يوما . لقد استحالت عليها أن تمكث مدة أطول من هذه المدة . كانت فى بعدها عن أمها تخس بحزن شديد وكآبة ممضة ... فما لبثت أن عادت الى الريف تاركة أستاذها مشدوها مبهوتا . ذلك أنه قد وجد منذ الدروس الأولى أن تلميذته تملك موهبة قوية لتعلم الموسيقى .
- آ... لا شك أبدا فى أنها موهوبة جدا .

وقد ضحكت ماريا بنديكتا كثيرا حين نقلت اليها صوفيا رأى أستاذها فيها ، وأصبحت منذ ذلك الحين لا تنظر اليه نظرة جد . حتى لقد أخذت تضحك فى بعض الأحيان ضحكا قويا أثناء الدرس . فكانت صوفيا تقطب حاجبيها من قبيل التأنيب ، كان الرجل المسكين يسأل عما حدث ، ثم يأخذ يعلل هذا الضحك من تلقاء

نفسه قائلا لعلها ذكرى من ذكريات الصبا راودت خاطر الفتاة .
ثم يستأنف الدرس . لكن ماريًا بنديكتا لم تتعلم آخر الامر لا
العزف على البيانو ، ولا الكلام باللغة الفرنسية ، وهو النقص
الثانى الذى كانت صوفيا ترى انه لا يغتفر . أما دونًا ماريًا أوجوستا
فانها لم تفهم شيئًا من انزعاج ابنة اختها لهذا الامر . فلم تعلم
الفرنسية ؟ وأجابتها ابنة اختها بقولها ان تعلم الفرنسية أمر لابد
منه لإجادة الحديث ، وللقيام برحلات ، ولقراءة رواية . . . فكانت
الخالة تجيبها بقولها :

— لقد كنت سعيدة دائما دون أن أتعلم الفرنسية . وما أهل
الريف الذين يتكلمون لغتهم القروية بأكثر شقاء من سكان المدن .
حتى لقد أضافت في ذات يوم قولها :

— ولن يعوزها المحبون بسبب جهلها الفرنسية . وفي وسعها أن
تتزوج . . . لقد قلت لها ان فى وسعها أن تتزوج متى أرادت ، وإننى
قد تزوجت أنا أيضا . ان فى وسعها أن تدعى وحيدة فى الريف .
أموت كما تموت بهيمة هرمة .
— ماما .

— ما الذى يحزنك ؟ سترين حين تخطبين . لسوف تسافرين
مع الخطيب وتهجرينى . اليك ماريًا جوزة ، اليس هذا ما فعلته ؟
انها تعيش فوق ، فى ولاية سيارا (١)
قالت صوفيا :

— لكن زوجها قاضى صلح .

— قاضى صلح ، أو قاضى حرب . . . سيان عندى . . . المهم
ان العجوز مزروعة فى مكانها . . . تزوجى ياماريًا بنديكتا ، تزوجى .
أسرعى . حين أموت فساكون الى جوار ربى . لن يكون معى
أولادى ، وإنما تكون معى السيدة العذراء ، أمنا جميعا . تزوجى ،
هيا تزوجى .

كان هذا النقيض كله يهدف الى غاية واضحة محددة ، هى ان
تصرف ماريًا بنديكتا عن الزواج باثارة شفقتها . واذا لم تصرفها
عن الزواج صرفا تاما فلا أقل من أن تؤجله ما استطاعت تأجيله .
لا اظن ان دونًا ماريًا أوجوستا قد اعترفت بهذه الخطيئة يوما .
لسكاهنها ، ولعلها لم تكن تدرك انها ترتكب خطيئة ، فما ذلك عندها
الا ثمرة أنانية مردها الى الشيخوخة والمرض . لقد ظلت دونًا

(١) ولاية بالشمال الشرقى من البرازيل (المترجم)

ماريا أوجوستا تحاط بالحب والعبادة طوال حياتها . كانت أمها تعشقها عشقا ، وبقي زوجها الى آخر يوم يحبها كما أحبها اول يوم . فلما مات هذان الشخصان نقلت الى ابنتيها ما كانت تشعر به من ظمأ الى الحب . وقد أفلتت منها احدى بنتيها حين تزوجت ، فزواج الثانية يهددها اذن بوحدة رهيبة . وهى لذلك تفعل كل ما تستطيع أن تفعله لتحول دون وقوع هذه الكارثة .

٦٤

كانت زيارة روبيان قصيرة . فما ان دقت الساعة التاسعة حتى نهض يستأذن بالانصراف ، وكان يتوقع أن تستمعه صوفيا وأن تطلب إليه ألا يذهب قبل مجيء كرستيانو الذى ينتظر وصوله من لحظة لأخرى . كان يتوقع على الاقل أن تقول له بحركة مفاجئة : اتصرف منذ الآن ؟ ولكن صوفيا ضنت حتى بهذا . . . واكتفت بأن مدت اليه يدها فى شيء من ذهول . على انها كانت طبيعية جدا معه طوال مدة الزيارة ، فليس يبدو عليها أنها تحمل له أى حقد . . . لكن عينيها لم تكونا ناعستين كما كانتا من قبل . فكأنه لم يحدث بينهما شيء مما حدث ، بل كأن ذكرى فاكهة الفراولة وضوء القمر قد زالت . كان روبيان يشعر بضيق وخرج ، فلا يدرى ماذا يقول ، ولم تكن صوفيا كذلك . فقد كانت تعرف ماذا تريد أن تقول حق المعرفة ، وكانت اذا لزم الامر تنظر اليه وجها لوجه هادئة كل الهدوء .

تمتم يقول وهو يحمل بيده قبعته وعصاه :
- تحيتى لكرستيانو .

- شكرا . لقد ذهب يزور أحد الاصدقاء . ولكن يخيل الى اننى أسمع وقع خطاه . لاشك فى انه هو .

ولم يكن ذلك كرستيانو بل كارلوس ماريا . وأدهش روبيان ، أن يرى كارلوس ماريا هنا ، لكنه لم يلبث أن قدر أن وجود السيدتين الاخرين هو السبب فى مجيئه . . ربما كان أحد اقربائهما .

قال روبيان لكارلوس ماريا الذى قعد الى جانب دونا ماريا أوجوستا :

- كنت خارجا لحظة وصلت أنت !
فقال كارلوس ماريا وهو ينظر الى صورة صوفيا :

— آه ...

وشيعت صوفيا روبيان حتى الباب ، وقالت له ان زوجها سيؤسفه حتما انه لم يكن بالبيت ، لكن الزيارة التي ذهب ليقوم بها هي من الزيارات التي لا يمكن ارجاؤها.. زيارة تتصل بأعمال.. وسيذهب اليه كرستيانو معتذرا .

فأجاب روبيان :

— وفيم الاعتذار ؟

وأراد أن يضيف شيئا آخر ، لكن قبضة يد صوفيا وانحناءاتها في احترام مودعة اياه ، اشارتا اليه ان ينصرف ، فانحنى هو أيضا . وفيما كان يجتاز الحديقة سمع صوت كارلوس ماريا يقول في الصالون :

— اننى أحتج على زوجك ياسيدتى . انه رجل فاسد الذوق جدا .

فتوقف روبيان .

قالت صوفيا :

— لماذا ؟

فتابع كارلوس ماريا كلامه يقول :

— بسبب صورتك هذه التي وضعتها في الصالون . فأنت في الواقع أجمل منك في هذه اللوحة ، أجمل كثيرا... قارن ياسيداتى.

٦٥

حين عاد روبيان الى بيته وتذكر كلمات كارلوس ماريا قال لنفسه : « يا لهذه البساطة التي قال بها ذلك كله !.. ينقد الصورة من أجل أن يمدح صاحبة الصورة . والصورة مع ذلك تشبه صاحبته شبا كبيرا .. »

٦٦

في صباح الغد ، بينما كان روبيان في سريره ، ارتجف فجأة . ذلك ان جريدة « الخفير » كانت أول جريدة فتحتها ، فقرأ فيها المقالة الافتتاحية ، ومقالة الأحد المراسلين ، وبعض الاخبار ، ثم وقع بصره فجأة على اسمه .

— ما هذا ؟

نعم انه اسمه ، مطبوعا بلون أحمر قان ممتدا على الصفحة بكاملها . والمناسبة هي الحادثة التي وقعت أمس في شارع أجودا . وبعد الدهشة الاولى شعر روبيان باستياء شديد . يا لها من فكرة بشعة أن ينشر المرء على هذه الصورة جانبا من حياة الناس الخاصة . لاسيما اذا عرفه من حديث جرى بين صديقين . وأبى أن يمضي في القراءة ، فهو يعرف ما تشتمل عليه المقالة ، لذلك رمى الجريدة ليتناول غيرها . لكنه كان - وا أسفاه - قد فقد هدوءه كله ، وأصبح لا يستطيع أن يركز انتباهه فيما يقرأ ، فهو ينط بعض الاسطر أو لا يدرك معناها أو هو يصل الى آخر العمود فيتساءل : كيف وصل الى آخره !

حتى اذا نهض عن سريره جلس على مقعد كبير الى جانب السرير وعاد يتناول جريدة « الخفير » . وانصب نظره على النبا . انه يحتل أكثر من عمود . « أكثر من عمود لأمر تافه هذه التفاهة كلها ! » . كذلك قال لنفسه . ومن أجل أن يعرف كيف استطاع كاماشو أن يدبج كل هذا الكلام حول الموضوع أخذ يقرأ المقالة قراءة سريعة ، وهو غاضب من هذه النعوت التي نعت بها الكاتب ومن هذا الوصف الدرامي للحادث . قال بصوت عال :

— أستحق ذلك ! لسوف يعلمنى هذا أن أصون لسانى !

واستحم وارتدى ثيابه ومشط شعره ، لكنه لم يستطع أن ينسى أقوال الجريدة . أصبح يحس بأن كاتب المقالة قد راعاه حقا بنشر نبا هذا الحادث الذى يعده هو تافها غير ذى بال ، وراعاة خاصة بما أسبغ على الحادث من خطورة حتى لكأنه أمر سياسى مثقل بالنتائج الخطيرة . وحين جلس روبيان الى المائدة لتناول طعام الافطار عاد فتناول الجريدة ، فقرأ الانباء الاخرى ، وقرأ قائمة التعيينات الحكومية ، وقرأ قصة جريمة وقعت في جارانينونس ، وقرأ التنبؤات الجوية ، الى أن وقع بصره مرة أخرى على المقالة المستنكرة بما يشبه القصد ، فأخذ يقرأها الآن في تمهل . حتى اذا أنهى قراءتها ، اعترف بأنه لا يستطيع على كل حال أن يشك في صدق كاتبها واخلاصه . أما مبالغات الاسلوب فلعلها ترجع الى ان قصة الحادث قد أثرت في نفس كاماشو تأثيرا بلغ من القوة أنه أفقده القصد والاعتدال . ذلك أمر لاشك فيه . . وتذكر روبيان دخوله الى مكتب النائب السابق ، وتذكر كيف قص عليه الحادث ، ثم

عادت به الذاكرة أيضا الى الوراء ، فلاح له الحادث نفسه مرة أخرى . انه الآن وقد جلس جلسة مريحة في حجرة عمله يعيش المشهد من جديد : الطفل ، العربية ، الخيل ، عويل الام ، الوثبة التي وثبها بدافع قوة لا تقاوم ... انه لا يزال يجهل كيف حدث ما حدث ... لكان حجابا قد أسدل على عينيه عندئذ فجأة ... انه ارتدى على الطفل والخيل وقد صمت أذناه وعميت عيناه لا يبالي الخطر الذي تعرض له هو نفسه ... وكان يمكن جدا ان يبقى هناك وقد قلبته الخيل وهشمته العجلات ميتا أو جريحا ... وهبه جرح فقط ... أليست هذه هي الحقيقة ؟ ليس في وسع المرء الا ان يعترف بأن اللحظة كانت حرجة ... والدليل على ذلك ان الام والجيران جميعا ...

وخرج روبيان من تأملاته فقرأ المقالة مرة أخرى . أما انها قد كتبت كتابة جيدة ، فهذا ما لاشك فيه . وأعاد قراءة بضع فقرات وهو يشعر بكثير من الرضا . لكان هذا الشيطان قد شهد الحادث بنفسه ... ياله من وصف حي ! ما أرشق هذا الاسلوب ! صحيح انه بالغ في وصف بعض الوقائع - وهذا يرجع بلا ريب الى سوء الذاكرة - لكن هذه المبالغة نفسها لا تمنعها الاسماع . وشعر روبيان بشيء من الزهو وهو يرى اسمه يتكرر مرارا كثيرة : « صديقنا ، صديقنا الفد ، صديقنا الشجاع .. » .

وعند الغداء ضحك روبيان من نفسه . انه يرى الآن ان استيائه في الصباح لم يكن له ما يسوغه . اى غرابة في أن يطلع كاماشو قراءه على حادث وقع فعلا ، حادث شائق ، مؤثر ، حادث لا يقع مثله كثيرا ؟ وحين خرج ، استقبله الناس بالتهنئة عدة مرات ، حتى ان فريتاس سماه سان فنسان دويول . فكان يبتسم ويشكر ويتواضع قائلا : أمر لا يستحق الذكر . صاح أحدهم : - لا يستحق الذكر ؟ أننا في حاجة الى كثير من هذه الامور التي لا تستحق الذكر ! لقد انقذت حياة طفل !

وأخذ روبيان يقتنع ببطولته شيئا فشيئا ، وظل يصفى ويبتسم . وقص الحادثة أيضا على عدد من المستطلعين أرادوا أن يسمعوها نباحا من فم صاحبها نفسه . ورد بعض المستمعين بسرد قصص كانوا هم أبطالها . فهذا أنقذ حياة رجل ، وذلك أنقذ صببة كانت تستحم في غدير باسيو فأوشكت أن تفرق ... ثم رويت حكايات انتحار أمكن تفاديه بتدخل المنقذ الذي يروى القصة ، اذ انتزع المسدس من بين

يدى البائس الشقى ، وحمله على أن يحلف انه ... وهكذا .
 كشماع الشمس الذى يسقط على البيض فيفقس ، جاء هذا المجدد
 الجديد الحار ، مجد روبيان ، ففجر على حين فجأة كل تلك الطائفة
 الكبيرة من المآثر التى كانت الى ذلك الحين مجهولة . وظهر
 لصاحبنا حساد أيضا ، ومن هؤلاء الحساد من لم يسبق له به
 معرفة ، لكنهم غاروا منه لا لشيء الا لانهم سمعوا المديح يكن
 له . وذهب روبيان انى كاماشو يشكر له مقالته ، ولم ينس أن
 يعتب عليه بعض العتب ، لانه أفشى ما أفضى به اليه . لكن هذا
 العتب كان ضعيفا حتى لكأنه تمتمة بأطراف الشفاه . ومضى بعد
 ذلك يشتري عددا من نسخ « الخفير » ، ليرسلها الى أصدقائه
 بيارباسينا . وما من جريدة أخرى أشارت الى النبأ ، لكن روبيان
 عمل بنصيحة فريتاس ، فأعاد نشر الخبر فى ركن « بريد القراء »
 من « جريدة التجارة » .

٦٧

قبلت ماريا بنديكتا أخيرا أن تتعلم الفرنسية والبيانو . لقد ظلت
 ابنة خالتها تلح عليها فى ذلك كل لحظة خلال أربعة أيام ، حتى لقد
 بلغت من البراعة فى اللجاجة ان دونا ماريا أوجوستا قروت أن تعجل
 العودة الى الريف مخافة أن تنتهى ابنتها الى الانصياع . والحق
 ان ماريا قاومت كثيرا ، فكانت تقول ان هذه أمور زائدة ، وان
 فتاة الريف لا تحتاج أبدا الى فنون المدن هذه . ولكن كارلوس
 ماريا كان فى ذات مساء هناك ، فطلب الى ماريا بنديكتا أن تعزف
 شيئا ، فاحمر وجه ماريا احمرارا شديدا ، لكن صوفيا انقذت
 الموقف بكذبة فقالت :

— لا تسألها هذا . انها لم تعزف مرة واحدة منذ وصولها
 وهى تقول انها لا تعزف فى هذه الايام الا لأهل الريف .
 فقال الشاب ملحا :

— هبينا من أهل الريف .

ومن حسن الحظ انه لم يلبث أن انتقل الى موضوع آخر ، فجعل
 يتحدث عن الحفلة الراقصة التى أقامتها بارونة بيوهى « وهى تلك
 البارونة التى صادفها روبيان فى مكتب كاماشو » ، فقال انها حفلة
 رائعة ... آه ... رائعة حقا ... نعم ، وأضاف ان البارونة
 تقدره تقديرا كبيرا .

وفي الغداة صرحت ماريا بنديكتا لابنة خالتها انها مستعدة لتعلم البيانو والفرنسية والكمان ، وحتى الروسية اذا ارادت . ولكن بقي أن تقتنع الام . فلما علمت الام بعزم ابنتها رفعت ذراعيها نحو السماء وصاحت : ماذا ؟ تتعلم الفرنسية ؟ تتعلم البيانو ؟ مستحيل .. والا فلن تكون ماريا بنديكتا ابنتى ... وفي وسعها عندئذ أن تعزف على البيانو وأن تغنى ، وأن تتكلم بلفة الرطنطو وباللغة الحثية أو بلفة الشيطان . لعل الشيطان يأخذهم جميعا في ذات يوم . لكن باليا استطاع أن يسمعها صوت العقل وأن يردها الى الصواب . قال لها ان هذه الدراسات ، مهما تكن نافلة في نظرها ، فهي الحد الأدنى من الثقافة الواجبة لفتاة عصرية .

فقاطعته دونا ماريا أوجوستا تقول :
- ولكننى ربيت ابنتى فى الريف وللريف .

- للريف ؟ من ذا الذى يعرف لى شىء يربى المرء أولاده ؟ لقد كان والدى يهيئنى لأن أكون كاهنا ، ومن أجل هذا تعلمت بعض مبادئ اللاتينية . انك لن تعيشى أبد الدهر ، ثم ان حالتك المالية اقرب الى الارتباك ، ومن الممكن جدا أن تصبح ماريا بنديكتا وتمسى فاذا هى لا تملك شيئا البتة !.. البتة ؟.. لا .. فاننا ما دمنا احياء سنقاسمها كل ما نملك .. ولكن اليس من الخير أن يكون المرء بعيد النظر وأن يتبصر فى العواقب ؟ انها تستطيع فى المستقبل اذا فقدتنا جميعا ، أن تعيش فى بحبوحه من مجرد تعليم الفرنسية والبيانو . فيكفى أن يكون فى قوسها هذان الوتران حتى تضمن لنفسها مركزا افضل . وهى جميلة ، كما كنت أنت جميلة فى زمانك ، وهى تنعم أيضا بمزايا خلقية عظيمة . فمن الممكن أن تجد زوجا ذا يسار . أنت لا تعلمين ان فى ذهنى منذ الآن شخصا أريده لها ، شخصا رصينا جادا .

- ها . اذن ستتعلم الفرنسية والبيانو وفن الحب ؟

- فن الحب ؟ ماذا تقصدين بهذا الكلام ؟ أنا لم أزد على أن أشرت الى رأى شخصى ، الى مشروع تراءى لى انه قد يحقق سعادتها وسعادة أمها ... كان فى ذهنى .. ولكن حسبى هذا .. ياخالتي أوجوستا .

وقد ظهر فى وجه باليا من الزعل ما حمل الخالة على ابدال لهجتها المرة بلهجة جافة ، دون أن ترضخ . غير ان الليل حمل اليها النصيح . أن علمها بحالتها المالية ، وأملها فى أن يكون لها

صهر ثرى قد فعلا فى اقناعها ما لم تفعله أى حجة من الحجج .
ذلك أن الشباب الممتازين فى الريف انما يصاهرون الاسر الكبيرة
التي تملك أطيانا وتنعم بثناء وطيد . وانتهت بعد يومين الى اتفاق
وهو أن تمكث ماريا بنديكتا عند ابنة خالتها ، وأن تذهب كلتاها
الى الريف من حين الى حين ، وأن تأتى الخالة الى المدينة فى بعض
الاحيان لرؤيتهما . حتى لقد قال باليا انه سيحاول متى سنحت
الظروف المواتية ، أن يصفى أعمال السيدة العجوز بالريف ، وأن
يجيء بها الى العاصمة لتستقر فيها استقرارا نهائيا . لكن دونما
ماريا هزت رأسها حين سمعت هذا الكلام .

لا تحسبوا ان الامور كلها قد جرت على هذا النحو السهل الذى
وصفته . فالحق انه كان هنالك ارتباك وعذاب وأسف وتمرد من
جانب ماريا بنديكتا . وبعد عودة الام الى أرضها فى الريف بثمانية
عشر يوما أرادت ماريا بنديكتا أن تزورها ، فصحبته صوفيا اليها
ومكثتا هنالك أسبوعا . وبعد شهرين جاءت الأم الى ريو تقضى فيها
بضعة أيام . واستطاعت صوفيا بكثير من الحنكة والدراية أن تعود
ابنة خالتها على متع المدينة شيئا فشيئا . المسارح والزيارات
والنزهات والحفلات والاثواب الانيقة والقبعات الجميلة والجواهر
وما الى ذلك . لئن كانت ماريا بنديكتا قوية الشخصية فهى لا تعدم
أن تكون امرأة . لذلك أحبت هذه الطرائف كلها . غير انها لم تتخل
عن اقتناعها الراسخ بأنها تستطيع ، متى شاءت ، أن تحطم جميع
هذه الروابط الواهنة وأن تعود الى الريف . وكانت فى بعض الاحيان
ترى الريف فى منامها أو تراه فى أحلام اليقظة . وفى ابان الحفلات
الراقصة الاولى ، لم يكن هيجان السهرة هو الذى يملأ قلبها حين
تعود الى البيت . وانما كان يملؤه الحنين الى ايجواسو . وكان هذا
الحنين يزداد فى بعض ساعات النهار حين يرين على الشارع وفى
البيت هدوء كامل . ذلك ان خيالها يطير عندئذ الى شرفة المنزل
القديم التى ألفت أن تشرب فيها القهوة الى جانب أمها . وكانت
عندئذ تتذكر العبيد والاثاث القديم والخفين الجميلين اللذين أهداهما
اليها عرابها - وهو مالك من أثرياء المالكين فى سان جوان دلرى
- واللذين لا يزالان هناك ، لأن صوفيا لم تسمح لها بأن تحملهما
معهما الى ريو .

وكان أستاذ البيانو وأستاذ الفرنسية يجيدان مهنتهما .
واستطاعت صوفيا أن تفهمهما سرا ان ابنة خالتها متألمة من أنها

تدرس وهى فى هذه السن ، وسألتها أن يلتزما الصمت الكامل فى شأن هذه الدروس . فوعدها بذلك . واكتفى أستاذ البيانو بأن قص على بعض زملائه قصة هذا الرجاء الذى تقدمت به إليه صوفيا ، فضحكوا من ذلك ضحكا كثيرا ، وراح كل منهم يقص بعض النوادر عن زبائنه . ومهما يكن من أمر ، فان ماريّا بنديكتا قد بلغت من سهولة التعلم ومن العناد فى الأكباب على الدراسة أن ابنة خالتها نفسها كانت ترى من حين إلى حين أن من اللازم أن تقطع عليها عملها لتقول لها :

— ارتاحى قليلا يا ابنتى !

فتجيبها الفتاة ضاحكة :

— بل يجب أن أدارك الوقت الذى فات !

ومن أجل أن تحملها صوفيا على الراحة كانت تنظم لها عندئذ نزاهات مرتجلة ، فتارة تزوران حيا من أحياء المدينة ، وتارة تزوران حيا آخر . وكانت ماريّا بنديكتا لا تضيع وقتها سدى أثناء ذلك ، فهى فى بعض الشوارع تقرأ الإعلانات الفرنسية وتسال ابنة خالتها عن معانى الكلمات التى تجهل معانيها . لكن ابنة خالتها كانت فى بعض الأحيان لا تفوقها علما بمعانى هذه الكلمات ، لأن مفرداتها مقصورة على شئون الأزياء ، وأحاديث الصالونات لا تعداها .

على أن ماريّا بنديكتا كانت تتقدم بخطا سريعة لا فى الفرنسية والبيانو فحسب ، بل فى التلاؤم مع الوسط الجديد تلاؤما سهلا لم يكن فى الحسابان . حتى لقد أصبحت تنافس صوفيا رغم ما لصوفيا من روح خاصة تسبغ على جميع قسماتها وعلى جميع حركاتها فتنة تنفرد بها . حتى لقد أخذ الناس ينظرون إلى ماريّا بنديكتا ويلاحظونها إلى جانب ابنة خالتها رغم ما بينهما من اختلاف ، بل أن صوفيا التى كانت تمدح الفتاة فى كل مكان ، أصبحت الآن تلتزم الصمت حين تمتدح الفتاة أمامها ، ولكن دون أن تنقص من قيمتها طبعاً . وكانت ماريّا بنديكتا تجيد الحديث ، لكنها إذا صمتت طال صمتها ، فتلك « لحظات وجومها » على حد تعبيرها . وكانت ترقص رقصة التقابل بغير حماسة ، وذلك أمر مستحسن فى هذا النوع من السلوى ، وكانت تهوى النظر إلى الناس وهم يدورون فى زوبعة الفالس أو البولكا . وقد ظنت صوفيا أن الخجل هو الذى يمنعها من رقص الفالس أو البولكا ، فأرادت أن تعلمها

هاتين الرقصتين في البيت بحيث لا يراها الا كرستيانو عازفا لهما
على البيانو ، لكن ماريا بنديكتا كانت ترفض ذلك دائما .
قالت لها صوفيا ذات مرة :
- هذا آخر آثار توحشك القروى !

لكن ماريا بنديكتا ابتسمت ابتسامة بلغت من الغرابة ان صوفيا
لم تلح . كانت هذه الابتسامة لا تدل على غضب ولا على أسف
ولا على احتقار . احتقار ؟ وفيه الاحتقار ؟ ومع ذلك فلا شك
ان تلك الابتسامة كانت تبدو هابطة من عل ، ولاشك أيضا في ان صوفيا
كانت ترقص الفالس والبولكا بحماسة ، وانها لا تضارعها امرأة
في حسن الاستناد الى كتف فارسها . ركارلوس ماريا الذي لا يكاد
يرقص أبدا ، كان لا يرقص الفالس الا مع صوفيا ، وكان يقول انه
يقبل أن يراقصها دورة أو دورتين فحسب . لكن ماريا لاحظت
في ذات مساء أنهما رقصا طوال ربع ساعة .

٦٨

لقد عدت ماريا بنديكتا الدقائق الخمس عشرة على ساعة روبيان
الذي كان جالسا الى جانبها . سألته عن الساعة مرتين : مرة عند
بدء الرقص ومرة عند نهايته . وقد مالت الفتاة على الساعة لترى
بنفسها عقرب الدقائق .

سألها روبيان :

- أنت نعسة ؟

فنظرت اليه ماريا بنديكتا خلسة ، فأدركت من هدوء وجهه ان
سؤاله لا يشتمل على أى سخر . فأجابته بقولها :

- لا ... ولو أرادت ابنة خالتي أن تعود الى البيت مبكرة
لسألتني ذلك .

- آه ... لا ... لن تعود مبكرة وهي لا تستطيع الآن أن
تتعلل بصعود سانتا تيريزا ، فبيتها قريب من هنا كل القرب .

والواقع انهما كليهما تقيمان الآن في شارع فلانجو ، والحفلة
الراقصة مقامة في شارع آركوس .

يجب أن أذكر لكم ان ثمانية أشهر قد انقضت الآن على بداية
الفصل السابق ، وان أمورا كثيرة قد وقعت أثناء هذه المدة . ان
روبيان هو الآن شريك زوج صوفيا في محل للاستيراد يقع في شارع

الفندق ، ويحمل اسم « باليا وشركاه » . ذلك هو المشروع الذي أراد كرستيانو أن يعرضه على صاحبه في ذلك المساء الذي التقى فيه بالدكتور كاماشو ببيت بوتافوجو . وقد تردد روبيسان مدة طويلة قبل أن يشارك في المشروع رغم أن كرستيانو قد صور له عملا مضمون النتائج . لقد طلب اليه أن يدفع مبلغا كبيرا من المال . وهو امرؤ لا يفهم شيئا من شئون التجارة ، ولا يحب أن يعنى بها أئنة . أضف الى ذلك أن نفقاته الشخصية كانت وحدها ضخمة ، وإن ما يملكه من مال كان في حاجة الى نظام صارم في التوفير وقرر ألا يصرف الا في الوجوه التي ينبغي لرب أسرة أن يصرف ماله فيها ، ثم ان المشروع الذي عرض عليه كان يبدو له غامضا أشد الغموض ، لأنه لم يستطع أن يفهم تلك الحسابات المعقدة التي قدمها باليا ، ولا ما أوضحه من تقديرات الأرباح وقوائم الاسعار وجداول الرسوم الجمركية . ومن حسن الحظ أن الشروح الشفهية كانت تفنى قليلا عن الاضابير الغامضة . وكان باليا يذكر لصاحبه أمورا هائلة كثيرة ، وينصحه بانتهاز الفرصة لتشغيل ماله من أجل مضاعفته . . أما اذا كان لا يثق بصاحبه فذلك أمر آخر . ولن يكون على باليا عندئذ الا أن يشترك في ذلك المشروع مع جون روبرت الذي كان في الماضي شريكا في محل «لنكشون» الذي تأسس عام ١٨٤٤ ثم عاد رئيسه الآن الى انجلترا اذ أصبح عضوا في مجلس النواب .

لم يقبل روبيسان المشروع فورا ، وإنما طلب امهاله خمسة أيام . لقد كان يحس أنه حين يخلو الى نفسه يكون أكثر حرية . لكن الحرية لم تزده في هذه المرة الا ارتباكا وحيرة . حسب المال الذي أنفقه الى الآن ، وقدر ما سبق أن ضيعه من الثروة الذي أورثه أباه الفيلسوف . وكان كونكاس بوربا راقدا في تلك اللحظة في غرفة صاحبنا ، فاذا هو يرفع رأسه مصادفة ويأخذ يحدق الى مولاة . فارتعش روبيسان . أنه لم يستطع في يوم من الايام أن يمحوا من ذهنه محوا تاما أن روح كونكاس بوربا الآخر يمكن أن تسكن في جسم الكلب . حتى لقد رأى في عيني الكلب هذه المرة معنى اللوم . ثم ضحك روبيسان . هذه سخافة . هل يمكن أن يكون الكلب رجلا ؟ ومع ذلك خفض يده على غير شعور ، وأخذ يدلك أذني الكلب كمن يريد أن يستميله اليه .

وبعد استعراض الاسباب التي تدعو الى الرفض جاء دور الاسباب

التي تدعو الى القبول . ألا يمكن أن يكون ذلك المشروع مربحا ؟ ألا يمكن أن يضاعف ثروته حقا ؟ يضاف الى ذلك ان هذا مركز وجيه ، حتى لقد يعود عليه بفوائد كبيرة عند الانتخاب . اذا أراد يوما أن يرشح نفسه لمجلس النواب كما فعل الرئيس السابق لمحل ولكنسون . وهناك سبب آخر أقوى . انه يخشى اغصاب باليا اذا هو رفض الاشتراك في المشروع ، ويخشى أن يظهر بمظهر من لا يريد أن يعهد اليه بالمال مع ان باليا قد رد اليه منذ بضعة أيام جزءا من دينه عليه ، ووعد به برد الباقي بعد شهرين .

لم يكن أى سبب من هذه الاسباب ذريعة يكتفى وراءها سبب آخر ، وانما هي عرضت لذهنه من تلقاء نفسها . ولم تنبثق صورية صوفيا في خياله الا آخر الامر ، رغم انها ظلت طوال تلك المدة ثاوية في اللاشعور . انها أحد الاسباب القصوى لما قرره ، لا بل هي السبب الوحيد الذي لا يعترف به . وهز روبيان رأسه كمن يريد أن يطرد الصورة من رأسه ، ونهض . وصوفيا لا تعوزها الحيلة ، فها هي ذى تعود الى لا شعور بطلنا فتعتصم به ، ولما كانت تحترم حق كل انسان في الحرية تركت له أن يقرر طائعا مختارا انه سيشترك في المشروع الذي عرضه عليه كرسيتيانو شريطة أن تتوفر له بعض الضمانات . وهكذا تأسست الشركة التجارية ، وهكذا أسبغ روبيان على زيارته الدائمة مظهرا مشروعا .

قالت ماريا بنديكتا بعد بضع ثوان من الصمت :

— ألا ترى ياسيد روبيان ان ابنة خالتي جميلة جدا ؟

— أوافقك كل الموافقة ، دون أن يقدح هذا فيما لك أنت من مزايا .

— جميلة وحسنة القوام .

ووافق روبيان كذلك راضيا . وراحا يتابعان بنظراتهما الراقصين اللذين يتموجان الآن في الصالون على أنغام الفالس . ان صوفيا فائنة . كانت ترتدى ثوبا أزرق قاتما ، عارى النحر كثيرا « للسبب الذي سبق أن بسطناه في الفصل ٣٥ » . ان ذراعيها السافرتين البضتين اللتين يتلامع عليهما بريق الذهب تؤلفان مع كتفيها وصدرها مجموعة متسقة رائعة ، وأن جسمها ينسجم مع أضواء الصالون انسجاما طبيعيا جميلا . وكان يزين رأسها تاج من اللؤلؤ الاصطناعي ، لكنه يبلغ من جودة التقليد انه يتسق كل الاتساق

مع اللؤلؤتين الطبيعيتين اللتين تزينان أذنيها واللتين كان قد أهداهما إليها روبيان .

ولم يكن كارلوس ماريا الى جانبها بالرجل الدميم فهو كما سبق ان ذكرنا رجل حسن القوام ، ولا تزال له تلك النظرة الهادئة التي عرفناها فيه على مائدة روبيان ، وليس يتصف بما يتصف به شاب غيره من سلوك متكلف ومن حركات تتصنع الاحترام ، بل كل ما فيه يوحى بنوع من الجلال الهادئ اللطيف الكريم . ومع ذلك ، لئن كان واضحا من النظرة الاولى انه اذ يراقص صاحبه انما يتفضل عليها ، لقد كان واضحا انه كان مزهوا بمراقبة أجمل سيدة في هذه السهرة . وهذان الشعوران لا يتناقضان ، بل يلتقيان في ذلك الاحساس العميق الذي يتميز به كارلوس ماريا ألا وهو رضاه عن نفسه واعجابه بها . وعلى ذلك كان وجود صوفيا في نظره عبادة ترفعها اليه إحدى المؤنات . لقد كان كارلوس ماريا لا يدهش لشيء . فلو استيقظ ذات صباح فرأى نفسه امبراطورا ، لما استغرب الا تأخر الوزراء عن المثل بين يديه لتهنئته .

قالت صوفيا :

سأرتاح قليلا .

فسألها مراقصها :

— أتعبت أم ... مللت ؟

فقالت :

— بل تعبت فقط ...

واستاء كارلوس ماريا من سؤاله الذي يشتمل على الظن الآخر ، فأسرع يبعد هذا الظن قائلا :

— طبعاً ، ولماذا تملين ؟ لكنني اظن انك تستطيعين أن تبدلي لي هذه التضحية ، وهي أن تستمرى في الرقص قليلا . خمس دقائق ؟

— خمس دقائق

— ولا دقيقة زيادة ؟ أما أنا ففي وسعي أن أستمع الى الابد .

خفضت صوفيا رأسها . فاضاف كارلوس يقول :

— معك أنت طبعاً .

وظلت صوفيا تحقق الى الارض ، دون أن تجيب ، ودون أن توافق ، وحتى دون أن تشكر . ربما لم يكن ذلك منه الا ملاطفة ، وفي العادة ان ترد المرأة على الملاطفة بشكر ... وهي لم تسمعه

يتكلم على هذا النحو لأول مرة ، حتى لقد سبق أن صرح لها ذات يوم ، منذ مدة طويلة ، بأنها تستحق أن تكون في الصف الأول بين جميع نساء الأرض . وأعقب ذلك صمت دام ستة أشهر : أربعة قضتها في بتروبوليس وشهرين آخرين لم يظهر خلالها قط . أنه لم يستأنف زيارته لها إلا منذ مدة قصيرة ، فعاد يقول لها تلك المدايح نفسها ، سواء على أفراد أم على مشاهد من الناس . واستمر برقصان ، لكنهما يلتزمان الآن صمتا كاملا . وأخيرا قطع هو الصمت قائلا : أن البحر في الليلة الفائتة كان يلطم الشاطئ في حنق أمام بيت صوفيا . فسأله :
- هل مررت هناك ؟

- كنت هناك . كنت ذاهبا الى جهة « الكاتيتي » ، وكان الوقت متأخرا ، فخطر لي أن أنزل حتى شاطئ فلانجو . وكانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة ساعة . أما أنت فأراهن اننى لم أخطر لك على بال . وكنت في أثناء ذلك أكاد اسمع تردد أنفاسك .

حاولت صوفيا أن تبتسم لكن كارلوس ماريا أردف يقول :

- كان البحر يلطم الشاطئ لظما قويا ... هذا صحيح ... لكن قلبي كان لا يقل عن البحر قوة خفقان ... مع فارق واحد هو أن البحر غبى تتلاطم أمواجه دون أن يعرف لماذا ، أما قلبي فيعلم حق العلم أنه يخفق لك أنت .
غمغمت صوفيا :

- أوه ...

أكان ذلك دهشة ؟ أكان استياء ؟ أكان ذعرا ؟ تلك أسئلة تعرض دفعة واحدة . وأحسب ان المرأة الشابة نفسها . ما كان لها أن تستطيع الاجابة عنها في وضوح ، من فرط ذهولها حين سمعت تصريح الشاب . ومن المحقق على كل حال انها لم تكذب كلامه . ولا أستطيع أن أزيد على هذا إلا أن غمغمتها كانت من الضعف والاختناق بحيث لم يكذب يسمعا . أما هو فقد ظل أمام الناس ساكنا كأن عليه قناعا ، فلم يعبر عن أى انفعال ، لا قبل التصريح ولا أثناءه ولا بعده ، حتى لقد احتفظ على أطراف شففيه بتلك الابتسامة الساخرة المعهودة فيه حين يهزأ بأحد الناس ، كأنما هو قد أطلق نكتة لازمة . ومع ذلك كانت عيون كثير من النساء تتجسس على وجه صوفيا وحركاتها وأوضاعها ونظرتها المنكسة الى الأرض

في عناء . وقال لها :

- وجهك يدل على الاضطراب ، فأخفيه بالمروحة .

فاذا بصوفيا تأخذ بتحريك المروحة على غير شعور ، ورفعت عندئذ رأسها ، فأدركت انها محط أنظار الناس جميعا ، فامتفع لونها . الدقائق تجرى سريعة كالثواني . لقد انقضت الدقائق الخمس التي حدداها . . . انقضت منذ مدة طويلة . . . وأتت الدقيقة الثالثة عشرة . . . ووراءها تقفز دقيقة أخرى ، فأخرى . . . قالت صوفيا لفارسها انها تريد أن تجلس ، فقال لها :

- أوصلك ثم انسحب .

فأجابته بسرعة :

- بل تبقى . . .

ثم أضافت مستدركة :

- الحفلة ناجحة جدا .

- نعم . . . وأريد أن احتفظ منها بأجمل ذكرى . كل ما سأسمعه

من كلام سيكون أشبه بنقيق الضفادع بعد تفريد طائر جميل ،

طائر كالطيور التي عندك في البيت . أين تريد أن أتركك ؟

- الى جانب ابنة خالتي .

٦٩

أخلى لها روبيان مكانه ، ومشى يرافقه كارلوس ماريا . اجتاز كارلوس الصالون ومضى الى الحجرة الصغيرة التي تقع عند المدخل وتقوم مقام غرفة لخلع المعاطف . كان في هذه الحجرة عشرة رجال يتحدثون ، وكان روبيان ، حتى قبل الوصول الى هذه الحجرة ، قد أمسك بذراع كارلوس ماريا في غير كلفة ليسأله أمرا ما . والحق انه كان لا يحفل بهذا الامر كثيرا ، وانما كان يريد أن يؤخر الشاب قليلا رجاء أن يحاول النفاذ الى ما يكن من نيات . لقد بدأ يعتقد ان الظن الذي يعذبه منذ زمن طويل قد يكون جائزا بل صادقا ، خاصة بعد هذه المحادثة الطويلة ، وبعد موقفها هي منه .

كان كارلوس ماريا لايعرف شيئا عن الهوى القوي الذي يعصف بقلب « الميناسي » روبيان ، هذا الهوى المكتوم المكبوت الذي كان صاحبنا لايرتجى منه الا ما قد تجود به عليه المصادفة ، مكتفيا باليسير اليسير ، وهو ان يرى حبيبته لا أكثر ، مسهد

الليالى رغم ذلك ، دافعا من ماله كل ما يطلبه منه الزوج لأعماله التجارية ... ويجب أن نذكر انه لم يكن يغار من الزوج فعلاقه الزوجين الخالصة لم تثر في نفسه كرها لسيد صوفيا ومولاها الشرعى في يوم من الايام ، ومرت الشهور تلو الشهور لا تغير عواطف روبيان ، ولا تطفى آماله . اما أن يظهر له منافس غير الزوج فذلك ما أذهله ، فاذا هو يشعر بالفيرة لأول مرة .

قال كارلوس ماريا وهو يلتفت :
- ماذا ؟

ودخل في الوقت نفسه الى تلك الحجرة التى كان الرجال العشرة يناقشون فيها أمور السياسة - كدت أنسى أن أقول ان الحفلة الراقصة قد أقيمت في منزل كاماشو لمناسبة عيد ميلاد زوجته . فلما وصل صاحبنا كان الحديث عاما ، وكانوا يتكلمون جميعا في آن واحد الآن الموضوع واحد . زوبعة من الافكار من كل جنس ونوع ... وأخيرا استطاع أحدهم - وهو من أصحاب الراى - أن يسيطر على الحلبة ، فساد الصمت بضع لحظات ، وأخذ الآخرون ينصتون وهم يدخنون . قال صاحب الراى :

- فى وسعهم أن يفعلوا ما شاءوا ، لكن القصاص الادبى لا مفر منه . وستدفع الاحزاب ديونها مع الفوائد كاملة غير منقوصة الى آخر جيل . ان المبادئ لا تموت ، وان الاحزاب التى تنسى هذه الحقيقة تنتهى الى الوحل والمذلة .

وكان هناك رجل آخر شبه أصلع ، لا يؤمن بالقصاص الادبى ، أخذ يشرح رايه .. لكن رجلا ثالثا لم يلبث أن أشار الى طرد بعض الجبابة العاميين ، فاذا العقول التى ضلت قليلا في متاهات العقيدة تسترجع نشاطها بسرعة : ان هؤلاء الجبابة لا يؤخذ عليهم شيء غير آرائهم ، وان صرفهم لا يسوغه ان يكون الدين حلوا محلهم اكفاء ... فهؤلاء أحدهم متهم باختلاس ... وآخر هو صهر رجل اسمه ماركز قد أطلق رصاص مسدسه على رئيس مقاطعة سان جوزيه دوس كامبوس ... وما قولكم في العقداء الجدد ؟ الصيد الحقيقى للمشائق .

سأل روبيان صاحبه كارلوس ماريا حين رآه يأخذ معطفه :
- أنت ذاهب ؟

- نعم . لقد نعست . هلا ساعدتنى في ادخال هذا الكم ؟
اقد نعست .

— لكنك تبكر في الذهاب . ابق . ان صديقنا كاماشو لا يحب ان يرى الفرسان ينصرفون . من ذا الذى يراقص الفتيات بعدك ؟
فأجاب كارلوس ماريا ، وهو يبتسم ، بأنه لا يميل الى الرقص كثيرا ، وانه راقص صوفيا لانها تحسن الفالس حقا ، فلولا ذلك لما رقص . وقد نعس الآن فهو يؤثر سريره على جوقة الموسيقيين . قال ذلك ومد اليه يده فى تعاضم ، فصافحه روبيان وهو لا يزال غارقا فى شكوكه .

انه لا يعرف كيف يفكر . لماذا يدعها فى منتصف الحفلة بدلا من ان ينتظرها ليشيعها حتى عربتها ، كما فعل فى المرات السابقة ؟ اهل روبيان مخطيء اذن فى ظنونه وأخذ يفكر ، فتذكر ليلة سانتا تيريزا يوم تجرأ فصارح المرأة الشابة بعواطفه ، وتناول يدها الجميلة ، يدها الناعمة الرقيقة لقد قطع عليهما الماجور يومئذ خلوتهما . لكن لماذا لم يستأنف مصارحته ؟ انها لم يبد عليها الغضب وزوجها لم يلاحظ شيئا وعاد روبيان يتصور ان كارلوس ماريا ربما كان غريمه ، وملا عليه هذا التصور شعاب ذهنه . صحيح انه انصرف لنعاسه ، ولكن ما تعليل وضعها ازاءه ؟ وأخذ روبيان يذهب الى باب الصالون حينما ليرى صوفيا ، ثم يمضى يعتصم بركن من الاركان او يقترب من مائدة اللعب حينما آخر . انه قلق ، مضطرب .

٧٠

حين عادت صوفيا الى بيتها ، وأخذت تفض شعرها ، تحدثت عن السهرة حديثها عن سهرة مملة . كانت تتشاءب ، وقالت انها تشعر بألم فى قدمها . ولم يؤيد باليا رأيها ، بل قال ربما كانت هى المتعبة ، راذا كانت تشعر بألم فى قدمها فمرد ذلك الى انها قد أفرطت فى الرقص . فأجابته بأنها لو لم ترقص لماتت ضجرا . واستمرت تنزع دبائيس شعرها ، وتضعها فى آنية من البللور واحدا بعد واحد . وكان شعرها يتدلى على كتفيها اللذين لا يغللها الا قميص ناعم من نسيج الكتان . وكان باليا وراءها ، فاذا هو يقول على حين فجأة : ان كارلوس ماريا يجيد رقص الفالس كثيرا . فارتعشت صوفيا ثم نظرت اليه فى المرأة ، فلاحظت ان وجهه لا يدل الا على هدوء ، فأجابته مؤيدة رأيه قائلة انه يرقص الفالس رفصا لا بأس به حقا

- بل رقصا ممتازا ياسيدتى .
- ها ، نعم ... تمدح الآخرين لعلمك بأن أحدا لا يقدر أن
يحل محلّك . أعرفك حق المعرفة أيها المغرور .
فمد باليا ذراعه وأمسك بذقنها واضطرها الى النظر اليه :
مغرور ؟ لماذا ؟ لماذا أكون مغرورا ؟
- آى ... لاتوجعنى .
كذلك قالت صوفيا متأوهة .

فقبل باليا كتفها ، فابتسمت بغير ضيق وغير صداع ، على خلاف
ما حدث فى تلك الليلة التى انقضت فى سانتا تيريزا حين قصت
على زوجها تمادى روبيان . لاشك ان هواء البحر أدعى الى سلامة
الصحة من «هواء الجبال» .

وفى صباح الغد أيقظها تفريد عصافير المنزل فى وقت مبكر كأنه
يحمل اليها رسالة . وتكاسلت على سريرها ، وأغمضت عينيها ،
تتري رؤية أوضح . ولكن ماذا ترى ؟ لاشك ان هواء شاطئ البحر
أفضل ... وبعد نصف ساعة كانت صوفيا تتكىء على النافذة ،
تأمل الامواج التى تغنى على الشاطئ ، والامواج التى ترتفع بعيدا
ثم تتكسر على مدخل المرفأ . والتهب خيال المرأة الشابة فتساءلت
أليس هذا نوعا من الفالس ترقصه الامواج ؟ وطارت هكذا عابرة
اجنحة خيالها . ثم وجدت نفسها آخر الامر تنظر الى الشارع فى
مواجهة البحر كأنما هى تبحث عن أثر الرجل الذى كان هنالك أول
أمس فى غيب الليل ... أحسب انها استطاعت أن تهتدى أخيرا
الى آثار مروره ، وان كنت لا أحلف على ذلك . ومن المحقق على
كل حال انها قارنت عندئذ بين ما ترى وبين الأقوال التى سمعتها
من الشاب .

« كانت الليلة ساطعة الضوء فمكثت بين بيتك والبحر قرابة
ساعة . أما أنت فأراهن أننى لم أخطر لك على بال . وكنت فى
أثناء ذلك أكاد أسمع تردد أنفاسك . كان البحر يلطم الشاطئ
لطما قويا ... هذا صحيح ... لكن قلبى كان لا يقل عن البحر
قوة خفقان ... مع فارق واحد هو ان البحر غبى تتلاطم أمواجه
من دون أن يعرف لماذا ، أما قلبى فيعلم حق العلم انه يخفق لك
أنت » .

ارتعشت صوفيا وحاولت أن تنسى هذه الكلمات ، لكن
الكلمات كانت تأبى الا أن تتردد : « كانت الليلة ساطعة الضوء »

وبين جملتين شعرت بأن شخصا يضع يده على كتفها . أنه زوجها قد عاد من افطاره وهو الآن ذاهب الى مركز المدينة .
وها هو ذا يودعها في حرارة ، ويوصيها خيرا بماريا بنديكتا التي
استيقظت ممتلئة بالافكار السود .

صاحت صوفيا قائلة :

— استيقظت ؟

فأجابها كرستيانو :

— وجدتتها في قاعة الطعام حين نزلت ، وقد استبدت بها تلك
الرغبة في العودة الى الريف منذ صحت من نومها . لقد رأيت
حلما ... لا أدري ماذا ...

— وجوم جديد ...

قالت صوفيا ذلك ، وبسبب رشيقة خفيفة أصلحت ربطة عنق
زوجها ، ورفعت جيد سترته ، وودع كل منهما الآخر . ونزل باليا
وخرج ، وظلت صوفيا واقفة . على النافذة . وقبل أن يختفى
عند ناصية الشارع التفت الى وراء ، فلوح كل منهما للآخر بيده
على عادتهما .

« كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر قرابة
ساعة ... أما انت فأراهن ... »

وحين استطاعت أن تنتزع نفسها من أحلامها آخر الامر ، كانت
الساعة ، تحت ، تدق التاسعة . فحلفت صوفيا ، وقد غضبت
من نفسها وعذبها ضميرها ، حلفت بأقدس ما عندها ، أنها لن
تفكر في الحادث بعد اليوم أبدا . قالت لنفسها انه حادث تافه
لا يستحق أن تفكر فيه ، وأن غلطتها الوحيدة هي أنها سمحت
للشاب أن يتمادى في وقاحته الى آخر حدودها . لكن عذرها في
هذا أنها لعلها تفادت بذلك وقوع فضيحة رهيبة ، لأن الشاب كان
يمكن ألا يتورع عن مرافقتها الى مقعدها وعن الاستمرار في
مصارحتها على مرأى ومسمع من جميع الناس . وكان ذلك التصريح
ما ينفك يتردد في ذاكرتها بتلك الكلمات نفسها وذلك الصوت

نفسه : « كانت الليلة ساطعة الضوء ، فمكثت بين بيتك والبحر
قراءة ساعة ... »

٧٣

بينما كانت صوفيا تردد لنفسها التصريح الذى سمعته البارحة ،
كان كارلوس ماريا يفتح عينيه ويتمطى ، وقبل أن ينهض من فراشه
ليستحم ويرتدى ملابسه ويمضى فى نزهة على الحصان ، أخذ
يتذكر أحداث الأمس . تلك عادة من عاداته . انه لا يعدم أبدا أن
يقع على حادثة أو كلمة أو أمر يسير أن يتملق غروره . هذه
وقفه يقفها فكره للراحة ... هى مرحلة من الطريق يضع فيها
قدمه على الأرض ليسترد أنفاسه وليشرب على مهل بضع جرعات
من الماء البارد . فاذا لم يجد أى حادثة ترضيه كل الأرضاء ،
أو اذا لم تعد الى ذاكرته إلا الوقائع التى لا ترضى ، لم يسؤه
ذلك ، فحسبه أن يتذكر كلمة قالها هو نفسه ، وحسبه أن يشعر
بأنه عاش ، وأن يستمتع بهذا الشعور ، حتى لا يعد الأمس يوما
صائعا .

وظهرت صوفيا فى ذكرى أحداث البارحة ، بل ظهرت من موكب
هذه الاحداث فى مكان بارز .. وتذوق كارلوس ماريا مرة أخرى
الحديث الذى دار بينه وبين المرأة الشابة . لكنه حين وصل من
استعراضه الى تصريحه بالحب ، امتزج رضاه بشيء من الانزعاج .
ترى ألم يسرف فى الأمر ؟ ألم يورطه هذا فى عهد أو حرج أو التزام ؟
وهب حسنات التصريح تفوق سيئاته ، فان كارلوس ماريا ظل
بتردد بين ما للأمر وما عليه ، فلم يعرف ما هو الشعور الذى
ينبغى أن يستسلم له . وحين تذكر انه قص على صوفيا نزهته
الليلى على شاطئ فلانجوى ، لم يستطع أن يمتنع عن الضحك ،
لأن القصة كلها محض تلفيق . لقد خطر بباله أن يخترع القصة
أثناء الحديث ، فهو لم يذهب الى فلانجوى فى الليل ، ولا راوده
فى لحظة من اللحظات أن يفعل ذلك . وانقطع أخيرا عن الضحك ،
وسرعان ما ندم على هذا الإفراط فى المرح . ان اللجوء الى تلك
الكذبة ينقص قدره فى نظر نفسه . وخطر بباله أن يذكر الحقيقة
نصوفيا فى أول اجتماع يلقاها فيه ، لكنه لم يلبث أن أدرك أن
تصحيح الموشع شر من الموشع نفسه ، وان هناك موشحات كاذبة
لا يعوزها الجمال الشعرى .

واسترد تفاؤله. ورأى بخياله قاعة الرقص، والنساء، والرجال،
والمراوح تحركها أيد نافد صبرها، وإشوارب المشعثة من الحنق.
وشعر بعطر الحسد والاعجاب ينتشر حوله. والحسد حسد
غيره طبعاً.. أما هو فمبراً من هذا العيب. والحسد والاعجاب
اللذان يتخلجان في قلوب الآخرين هما ما يحدث في قراره نفسه أكبر
فرح. أن ملكة الحفلة قد ترامت عليه.. بهذا كان كارلوس ماريّا
يعبر عن التفوق الذي كان يريد أن يخلعه على صوفيا.. مع شعوره
بأن فيها عيباً هاما هو نشأتها وتربيتها، ذلك أنه يرى أن ما تصطنعه
هذه المرأة الشابة من آداب السلوك ليس من فطرتها وإنما هو
مكتسب في وقت متأخر، قبيل زواجها أن لم يكن بعده، وما تزال
آدابها حتى اليوم لا تفوق كثيراً آداب بيتها.

٧٤

وانبثقت في خياله صور نساء أخريات يؤثرن على غيره من الرجال
لجمال حديثه ومفاتيح جسمه. ترى هل هو طامع فيهن جميعاً؟
يستحيل أن نعرف ذلك. لعله طمع في بعضهن، ولكن مما لا شك
فيه أن صحبة كل واحدة منهن كانت تهيب له لذة متجددة دائماً.
أن أخلاق بعضهن فوق كل شبهة، ومع ذلك سرهن أن يجتذبنه
اليهن، فيستمتعن بصحبة الفتى الجميل، دون أن تتعرض فضيلتهن
لأى خطر، مثل المشاهد الذي يتلذذ بفراغ عطيل، لكنه
يخرج من المسرح دون أن يكون عليه أن يلوم نفسه على قتل ديدمونة
فكان جميع النساء يحطن بسريّر كارلوس ماريّا كأكليل من
الازهار. لسن جميعاً في ريعان الصبا، لكن امتياز المظهر يعوض
عن نضارة الشباب. وهذا كارلوس ماريّا يستقبلهن كممثل اله من
آلهة القدماء يستقبل عابداته الجميلات مع قرابينهن جامداً في المرمر
المقدود منه! أن كارلوس ماريّا يميز أصواتهن في وسط الدمدمة
الشاملة، لا يميزها كلها في الحق دفعة واحدة بل يميز ثلاثة منها
أو أربعة في آن واحد.

وكان صوت صوفيا آخر صوت. أنصت إليه كارلوس ماريّا وهو
لا يزال يشعر ببقية من حب، لكنه لا يحس تلك الحماسة التي
ألهمت نفسه أول الأمر، لأن ذكرى النساء الأخريات - وهن يمتزن
جميعاً بمزايا كبيرة - تقلل الآن من شأن المرأة الجديدة التي تم
اقتناصها. على أنه لا يستطيع أن ينكر أنها كانت جذابة جداً،

وانها كانت ترقص الفالس معه رقصا رائعا . أتراه يقع في هواها .
آخر الامر ؟ ها هو ذا يتذكر في هذه اللحظة قصة النزهة التي زعم
انه قام بها على الشاطئ ، فينهض من فراشه مستاء بمعتكر المزاج .
ماذا دهانى حتى لفقت هذه القصة ؟ وعاد يشعر بالرغبة في ذكر
الحقيقة . انه يشعر الآن بذلك شعورا أقرب الى الجد . ويقول
في نفسه « الكذب خليك بالخدم واضرابهم .. »

وبعد نصف ساعة كان كارلوس ماريا يمتطي صهوة حصانه
ويخرج من بيته الواقع في شارع « الانفاليد » : واذا كان يسير في
اتجاه « الكاتيتى » تذكر أن بيت صوفيا يطل على شاطئ فلامنجو ،
فلا عجب أن مال بالزمام قليلا ، فهبط أحد الشوارع العمودية على
البحر ، ليمر أمام بيت المرأة الجميلة التي تحسن رقص الفالس .
لعلها الآن واقفة على النافذة ، ولعله سيراها تحمر قبل أن تحييه .
ذلك كله طاف بخاطر الشاب في بضع ثوان .. حتى لقد عطف
الزمام .. لكن قلبه - لا الحصان - جمع عندئذ متمردا : اليس
يسرع في الجرى وراءها بعض السرعة ؟ ومال بالزمام الى الجهة
الأخرى واستمر في نزهته .

٧٥

ان كارلوس ماريا يجيد ركوب الخيل . والناس الذين يمررن
بذلك المكان أو يكونون على أبواب بيوتهم لا يملون من الاعجاب
بقامة الفتى ، وسهولة حركته ، وجمال وضعه . تبدو عليه وهو
فوق جواده هيئة الامراء ، وهو يستقبل هذا الاعجاب على غموضه
في سماحة « وهذا التساؤل هو الشيء الوحيد الذى يمن به على
العامة » فمتى كان الامر أمر اجلال له رأيته يعد جميع الناس بشرا
عنى حد سواء .

٧٦

- استيقظت ؟ استيقظت ؟
هكذا قالت صوفيا حين وجدت ابنة خالتها تقرأ الصحف .
فانتفضت ماريا بنديكتا ، لكنها لم تلبث أن استردت هدوءها .
لقد نامت نوما مضطربا واستيقظت في ساعة مبكرة . قالت : اننى
لم أخلق لمثل هذه السهرات التي تنتهى في وقت متأخر . فأجابتها
الأخرى على الفور بأن عليها أن تتعود ذلك ، فالحياة في ريو دو

جانيرو ليست كالحياة في الريف حيث ينام الناس مع الدجاج ويستيقظون على صياح الديكة . ثم سألتها عن رأيها في الحفلة الراقصة ، فرفعت ماريًا بنديكتا كتفها في غير مبالاة ، وتمتمت تقول انها حفلة ناجحة جدا . لكن صوتها كان من الانخفاض بحيث ان الكلمات القليلة التي أرادت ان تنطق بها لم تكد تسمع . وفي اثناء ذلك قالت لها صوفيا انها قد رقصت كثيرا الا الفالس والبولكا ، فلماذا لم ترقص الفالس والبولكا أيضا ؟ فرشقت الفتاة ابنة خالتها بنظرة حائقة وقالت :

— لا أحب ذلك ؟

— كيف لا تحبين ذلك ؟ هو الخجل .

— الخجل ؟

— أعني انك لم تتعودي .

— بل أنا لا أحب ان يشدني رجل الى صدره ، وان يجعلني بين ذراعيه ، وان يمضي يطوف بي على هذا النحو أمام جميع الناس . اننى أجد ذلك مؤذيا .

فما أن سمعت صوفيا هذا الكلام حتى اكفهر وجهها فلم تجب بشيء ، وأسرعت تغير موضوع الحديث . أخذت تتكلم عن الريف ، وسألتها هل صحيح انها راغبة في العودة الى بيتها كما قال كريستيانو . فأجابتها ماريًا بنديكتا في قوة بينما هي تقلب الجرائد على غير هدى :

— نعم . اننى لا أطيق ان أعيش بعيدة عن أمي .

— ولكن لماذا ؟ ألسنت سعيدة معنا ؟

فلم تجب ماريًا بنديكتا بشيء ، بل كزت شفيتها وأخذت تجيل نظرها في إحدى الصحف ، كأنها تبحث عن شيء ما . كان واضحا انها مضطربة قلقة . وأصرت صوفيا على ان تعرف أسباب هذا التبدل المفاجيء ، وأمسكت يديها ، فوجدتها باردتين .

قالت لها أخيرا :

— يجب أن تتزوجي . وعندى لك خطيب .

الخطيب هو روبيان . لقد كان باليا يريد أن يصل الى هذه النتيجة . انه يريد أن يزوج قريبته لشريكه . فبذلك يظل كل شيء في داخل الاسرة . هذا ما كان يقوله باليا لامراته . وقررت زوجته أن تتولى الامر بنفسها ، وقد سنحت الآن فرصة الوفاء بوعددها . ان في قبضة يدها خطيبا لماريا بنديكتا .

سألتها ماريا :

— من هو ؟

— واحد .

هل تصدقون ان صوفيا لم تجرؤ أن تنطق باسم روبيان ؟ . لقد قالت لزوجها مرة انها حدثت ماريا بنديكتا في الامر مع ان شيئا من ذلك لم يحدث . وها هي ذى الآن تريد أن تقدم اقتراحها فعلا ، فيأبى الاسم أن يخرج من فمها . انه لغريب حقا من هذه المرأة ، التى لا تشعر نحو روبيان بأى حب ، أن ترفض تقديمه لابنة خالتها . لكن الطبيعة قادرة على كل شيء ياسيدى العزيز . ان الطبيعة التى خلقت غيرة عطيل ، وخلقت غيرة فارس جريو ، استطاعت كذلك أن تخلق هذه الغيرة الاخرى ، غيرة امرأة تأبى أن تتخلى عن رجل لا تريد أن يكون لها .

كررت ماريا بنديكتا سؤالها :

— ولكن من هو ؟

فأجابتها صوفيا :

— سأقول لك فيما بعد ، دعينى الآن أرتب الامور .

وانتقلت الى موضوع آخر .

فتفكرت هيئة ماريا بنديكتا . ان ابتسامة تعبر عن الفرح والامل تضىء الآن وجهها . وان عينيها تفيضان بمعانى الشكر ، حتى لكأنهما تريدان أن تقولاً شيئا ما ، شيئا غامضا لا يستطيع أحد أن يسمعه بل أن يفهمه . لقد رقصت ابنة خالتها فى الليلة البارحة كثيرا مع كارلوس ماريا ، فلعل الرقص لم يكن الا حجة . ان ماريا بنديكتا مقتنعة الآن بأنها هى الدافع الوحيد الى هذه الخلوة الطويلة بين كارلوس ماريا وبين ابنة خالتها . . . لقد تحدثا طويلا بين الرقصات ، ولا شك ان الحديث كان يدور عليها هى ، لأن ابنة خالتها تنوى أن تزوجها منه ، لكنها طلبت اليها أن تدع لها تدبير الامور . ربما كان كارلوس ماريا يراها دميمة أو ثقيلة الظل . ولكن ما دامت ابنة خالتها ستدبر الامور ! . . ذلك كل ما كان يقرأ فى عيني الفتاة الملتمعتين .

٧٧

ذلك عن الفتاة ، اما روبيان فانه لم يتخل عن شكوكه بمثل هذه السهولة . وقد قرر أن يتحدث الى كارلوس ماريا ، حتى لقد

ذهب الى شارع « الانفاليد » في اليوم التالى ثلاث مرات . لكنه لم يجده ، فقير رايه ، ولزم بيته بضعة أيام لا يخرج ، الى أن انتزعه من عزلته المأجور سيكورا ، اذ جاء يبلغه أنه يقيم الآن في شارع « ٢ كانون الاول - ديسمبر » . وقد أعجب المأجور أعجاباً شديداً بالبيت المترف الذى يسكنه صاحبنا ، وبما يضمه من زخرف وتحف ومذهبات وستائر وما الى ذلك . واتخذ من ذلك مناسبة للافاضة فى حديث طويل عن أثاث قديم لا يزال يحفظ ذكره . . . ثم توقف عن الكلام فجأة ليقول لروبيان أنه يجده حزينا مكتئبا المزاج ، وان هذا طبيعى الآن ثمة شيئاً يعوزه :

— صحيح أنك سعيد ، لكن هذا البيت يعوزه امرأة يجب أن تتزوج . . . تزوج ثم قل لى بعد ذلك هل أنا على حق !

فتذكر روبيان السهرة التى قضاهما فى سانتا تيريزا ، السهرة التى دار فيها ذلك الحديث بينه وبين صوفيا ، فأحس برغبة سرى فى ظهره . لكن أقوال المأجور لا تشتمل على شيء من السخر ، ولا تخفى وراءها أى مصلحة . ان ابنته لا تزال على حالها التى تركناها عليها فى الفصل الثامن عشر ، مع فارق واحد هو أنها بلغت الأربعين من سنها . انها الآن فى الأربعين وعانس . لقد بكت فى يوم عيد ميلادها منذ الصباح . لم يزين شعرها بوردة ولا شريط . وما من احتفال . لا شيء الا حديث طويل من أبيها على مائدة الافطار عن طفولتها ، وبضع نوادر عن أمها وجدتها ، وعن القناع الذى لبسته فى حفلة متنكرة ، وعن حفلة ترميد عام ١٨٤٨ ، وعن الدودة الوحيدة التى عاشت فى أحشاء كولونيل يقال له كاودوميرو ، لا شيء الا ركام من الذكريات يمكن أن يقتل الوقت . لكن تونيكما لم تصغ الى حديثه الا قليلاً لأنها كانت غارقة فى أفكارها ، وكانت تذوق منذ الآن تلك المرارة الرهيبة ، مرارة العزلة الروحية التى ستعيش فيها ، أسفة أشد الاسف فى الوقت نفسه على ما بذلت من جهود فى سبيل العثور على زوج . أربعون عاماً . لقد آن أوان التوقف .

لكن المأجور لم يكن فى رأسه شيء من هذا كله ، وكان صادقاً كل الصدق : كان يجد أن بيت روبيان ليس فيه روح . وكرر يقول وهو يستأذن بالانصراف :

— تزوج ثم قل لى بعد ذلك هل أنا على حق !

وما أن خرج الماجور حتى ارتفع صوت بهذا السؤال :
- ولم لا ؟

فنظر روبيان حوله مذعورا فلم يجد الا الكلب ساكنا ينظر اليه . لقد كان من السخف بمكان أن يظن السؤال صادرا عن كونكاس بوربا - أو قل عن كونكاس بوربا الآخر المتقمص جسم الكلب - لذلك ابتسم صاحبنا في احتقار ، لكنه في الوقت نفسه كرر الحركة التي وصفناها في الفصل التاسع والستين ، فمد يده وأخذ يحك أذنى الكلب وعنقه في حنان ، لاعتقاده ان من شأن هذا ان يرضى الراحل اذا صح رغم كل شيء انه متقمص جسم الكلب هكذا ازدوج بطلنا ، ولكن أمام نفسه من غير جمهور يراه !

غير ان الصوت كرر يقول : « ولم لا ؟ » واستمر روبيان يفكر . نعم ، لماذا لا يتزوج ؟ لعل ذلك ان يخلصه من هذا الهوى الذي يفتريه شيئا فشيئا بلا أمل ولا عزاء . ثم ان الزواج باب يطل على المجهول . نعم ، يجب أن يتزوج ، أن يتزوج بسرعة ، أن يعرف كيف يتزوج .

كان قريبا من مدخل الحديقة حين أخذت هذه الفكرة تشغله . ثم عاد الى داخل البيت ، بعد أن صعد درجات المصطبة وفتح الباب ، وهو لا يعي شيئا البتة . وفي اللحظة التي أغلق فيها الباب ردته الى الواقع وثبة كونكاس بوربا الذي كان يرافقه . أين الماجور ؟ وأراد أن ينزل مرة أخرى ليجده ، لكنه لم يلبث أن تذكر انه قد شيعه حتى الشارع منذ لحظة . لقد فعلت ساءا كل شيء . قادتاه وحدهما ، فما اصطدم بشيء ولا ضل السبيل ، من أجل أن تبيحا لرأسه أن ينصرف الى تأمله انصرافا أكمل . مرحى للساقين الطيبتين ! الساقين العزيزتين ! ما عسى يفعل الفكر لولاهما ؟

يا للساقين العظيمتين ! لقد ظلتا تقودانه حتى أوصلتاه الى الاربكة ، وتمددتا معه في رفق ، بينما استمر فكره يتعمق في فكرة الزواج هذه . الزواج وسيلة للهرب من صوفيا . وربما كان أكثر من ذلك أيضا ...

نعم ، ربما كان أيضا وسيلة لأن تسترد حياته وحدثها التي فقدتها بتغير البيئة والثروة . غير أن هذا الرأي لم يأت من فكره حقا ، ولا من ساقيه ، وإنما أثاره شيء آخر لم يستطع أن يميزه تميزا حسنا ولا تميزا سيئا ، شأنه في ذلك شأن العنكبوت . ماذا يعرف العنكبوت عن موزارت ؟ لا شيء . والعنكبوت مع ذلك يصفى إلى نشيد من أناشيد الموسيقى الكبير مسرورا . والقط الذي لم يقرأ يوما الفيلسوف « كنت » ، ربما كان حيوانا متفلسفا . الحق أن الزواج قد يكون هو الخيط الذي يتبع له أن يسترد ما افتقده من شعور بالوحدة . أن روبيان يشعر الآن بكل ما تشتمل عليه حياته من تفكك . حتى أن أصدقاءه الذين يحبهم كثيرا ويتملقونه كثيرا يسبغون على حياته طابع الرحلة . . رحلة يتغير فيها اللسان دائما بتغير البلد ، فهو التركية تارة ، وهو الإسبانية أخرى ، وهكذا دواليك . . . وان صوفيا لتسهم في خلق هذه الحال . انها متغيرة أشد التغير ، متبدلة أشد التبدل . فالأيام تمضي تلو الأيام وصاحبنا لا يسعد على وجهه ، ولا تخيب آماله على وجهه . كان روبيان لا يعمل شيئا . ومن أجل أزجاء الوقت وملء ساعات الفراغ الطويلة كان يحضر جلسات محكمة التمييز أو مجلس النواب ، ويشهد الاستعراضات العسكرية ، ويقوم بنزهات طويلة ، حتى إذا جاء المساء قام بزيارات لا فائدة منها أو ذهب إلى المسرح دون أن يجنى من ذلك أية متعة . وكان بيته بما يسوده من ترف باهر وبما يتموج في هوائه من أحلام . لا يزال ادعى مكان إلى راحة باله وهدوء فكره .

وقد أخذ منذ قليل يملا جزءا كبيرا من وقته بالقراءة . فكان يقرأ روايات ، لكنه لا يقرأ إلا الروايات التاريخية التي كتبها الكسندر دوما أو الروايات المعاصرة التي ألفها فوييه ، على أنه كان يقرأ روايات فوييه في صعوبة لأنه لا يعرف الفرنسية معرفة كافية . أما روايات الكسندر دوما فمن حسن الحظ أن هنالك ترجمات لها . وكان مع ذلك يجازف فيقرأ كتباً أخرى ، إذا كانت الأحداث التي تقص هذه الكتب تجري هي أيضا في جو مجتمع أرستقراطي ملكي فكانت مشاهد بلاط فرنسا التي يتخيلها الكسندر دوما المدهش ويصف مواكب نبلائها المسايقين المغامرين ، وكذلك مجافل الكونتيسات والادواق الذين يصورهم فوييه أشبه بنباتات مرهقة تعيش في بيوت من زجاج ، وكذلك تلك الاحاديث المتعالية أو

الفكرة ، البارعة على كل حال ، التي يديرونها جميعا ، كان ذلك كله يفقده الاحساس بالزمن . وكان في جميع الاحيان تقريبا يدع الكتاب يسقط من يده آخر الامر ، ويظل شارد الفكر غائم العينين . فلعل مركزا من الزمان القديم يقص عليه عندئذ طرفا من الماضي .



حلم بالحفلة قبل ان يحلم بالخطيبة . ولم يمتلئ رأسه في ذلك اليوم وفي الايام التي أعقبته الا بالبذخ والابهة والعربات - هذا اذا أمكن أن يوجد عربات من تلك العربات القديمة الفخمة التي رأى صورها في نقوش الكتب العتيقة !.. يا لها من عربات عظيمة رائعة ! وأقوى لذة كان يشعر بها هي أن يذهب في أيام الاعياد ينتظر الامبراطور على باب القصر ليرى وصول الحاشية الامبراطورية ومركبة صاحب الجلالة خاصة . يا لها من مركبة ! ما هذه الابعاد ! ما هذه النوايض ! ما هذه الالوان اللطيفة العريقة ! ان الخيول التي تجر المركبة ثمانية أو عشرة ، والجوذي الذي يقودها وقور وقار البابا ... وتأتي بعدها عربات أخرى ، أقل عظمة منها طبعاً ، لكنها تبلغ من الفخامة مع ذلك ما يكفي لاثارته اعجابا بها واعظاما لها . لقد كان في وسعه أن يستعمل لزواجه واحدة من تلك المركبات ، أو مركبة أصغر منها ، لولا ان المجتمع قد تساوى كله في استعمال العربية الحديثة المتدلة . لا بأس . سيركب العربية الحديثة . وها هو ذا يراها مزدانة الجوف بأبهى حلة . كيف تكون هذه الحلة ! أنه لا يعرف الآن ذلك معرفة تامة ، لكنها ستكون من نسيج غير شائع ، من شأنه أن يسبح عليها طابع الندرة . وستجرها جياد نادرة . وسيرتدي الجوذي ملابس مرصعة بالذهب ... ملابس لم ير الناس مثلاً من قبل . وسيكون المدعوون جميعاً من عليه القوم ، سيكون بينهم قادة كبار ودبلوماسيون وأعضاء من مجلس الشيوخ ، ووزير أو وزيران ، وكثير من رجال الاعمال . وسيكون بينهم سيدات ، سيدات من الطبقة الراقية . وأخذ روبيان يذكر أسماءهن . ها هو ذا يراهن مقبلات ، وقد وقف في أعلى سلم القصر يرمق بطرفه نهاية السجادة الكبيرة الصاعدة اليه . وها هن أولاء يجتزن الدهليز ثم يصعدن الدرجات بأحذيتهن الصغيرة المصنوعة من الدمقس .. ان عددن في أول الامر قليل ... ثم يزداد العدد ويزداد . العربات تصل تلو العربات ... ثم يصل

الكونت والكونتيسة أونتيل ... ان الكونت رجل وسيم الوجه ،
والكونتيسة سيدة على جانب عظيم من الرقى . ويقول له الكونت
عند وصوله : « ها نحن أولاء قد جئنا ايها الصديق العزيز » :
وتقول الكونتيسة : « حفلتك رائعة حقاً ياسيد روبيان » .
وفجأة يصل سفير البابا ... ها ... نعم ... لقد نسي روبيان
ان سفير البابا هو الذى سيزوجهما . ها هو ذا يجرى . هذان
هما جورباه البنفسجيان ... وعيناه الواسعتان النابوليتان . انه
يتحدث حديثاً حاراً مع وزير روسيا . ان أجمل أعناق المدينة تتألق
الآن تحت أضواء الثريات المصنوعة من الكرستال والذهب ،
فبعضها قائم ، وبعضها مائل على المراوح تنفتح وتنطوي بغير انقطاع .
وهناك النجوم المتألثة على اكتاف رجال الجيش ، وهناك الاكاليل
الجميلة تزين رءوس النساء . وتعزف الجوقة الموسيقية رقصة
فالس . فتمضى أذرع الرجال المستديرة فى أناقة ورشاقة ، تبحث
عن الأذرع العارية التى تلبس قفازات تصل الى المرفق . ويأخذ
الرجال والنساء يدورون فى القاعة أزواجا أزواجا : خمسة أزواج ،
عشرة ، اثني عشر ، عشرين ... ويكون العشاء رائعاً أيضاً .
كرستال من بوهيميا ، وأطباق من هنجاريا ، وخزف من سيفر ،
وخدم أتيقون يرتدون جميعاً ملابس عليها شارة هى الحرف الاول
من اسم روبيان .

٨١

هذه الاحلام كلها كانت تذهب وتجيء فى رأس روبيان . ترى 'ى
ساحر بروسير (١) خفى أحال الجزيرة المبتدلة جنة عجيبة « هيا
يا آريل ، جىء برفاقتك الى هنا لأطلع هذين الزوجين على بعض
معجزاتي » . ان الكلمات هى كلمات الملهاة ، لكن الجزيرة لم
تكن هى نفسها ، لا الجزيرة نفسها ولا الجنة . لم تكن الجزيرة الا
رأس صاحبنا ، ولم تكن الجنة آلهة ولا شعرا ، بل بشرا ونثرا .
نسكنها حافلة مع ذلك بآيات الجلال . يجب ألا ننسى ان بروسير
الذى جاء ذكره عند شكسبير هو دوق ميلان ، ولعل هذا سبب
وجوده فى جزيرة صاحبنا .

والواقع ان الخطيبات اللاتي كن يظهرن الى جانب روبيان فى
مواكب هذه الاحلام التى تدور على عرسه كن جميعاً فتيات ذوات

(١) أحد أبطال شكسبير فى ملهامة « العاصفة » (الترجم)

اللقاب ، وكانت أسماؤهن جميعا من أكثر أسماء الطبقة الارستقراطية في بلادنا رنينا ورواجا . واليكم تعليل ذلك : لقد عثر روبيان منذ بضعة أسابيع على مفكرة من وضع ليمرت ، فلما قلب صفحاتها وقع على فصل الألقاب . ولئن كان روبيان يعرف عددا من هذه الألقاب ، لقد كان بعيدا عن معرفتها كلها . واشتري المفكرة ، وأخذ يقرأها ثم يعيد قراءتها من أول سطر الى آخر سطر ، من المراكز الى البارونات ، ثم يعود القهقري فيردد الاسماء التي يجدها جميلة . ويحفظ كثيرا منها عن ظهر قلب ، ويتناول في بعض الأحيان قلبا وورقة ، فيختار لقباً حديثاً أو قديماً ، ثم يكتبه عدة مرات متتالية كأنه صاحبه وكأنه يوقع به على ورقة :

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

مركيز بارباسينا

ويظل يفعل ذلك الى آخر الصفحة ، مقيرا خطه مرة بعد مرة ، فهو تارة بأحرف كبيرة وتارة بأحرف صغيرة ، وهو تارة مائل الى شمال ، وتارة قائم تماما : كان يكتب على جميع الاشكال الممكنة . حتى اذا انتهى ، تناول الورقة وراح يقارن بين التواقيع ، ثم ترك الورقة وغرق في أحلام عميقة . هذا هو السبب في أن خطيباته اللاتي يصورهن له الخيال كن من طبقة الاشراف . لكن أسوأ ما في الأمر أن قسماتهن جميعا كانت هي قسمات صوفيا . قد يشبهن في أول الأمر جارة له أو فتاة رآها أمس في الشارع . وقد يكن في أول الأمر نحيفات أو بدينات . لكنهن ما يلبثن أن يتغيرين ، فإذا هن يسمن أو ينحطن ، وإذا وجوههن تصبح الى ذلك الوجه المشرق ، وجه صوفيا الجميلة ، وقد اتقدت عيناها أو هدأتا . إلا يمكن إذن أن يفلت منها في يوم من الايام ولو تزوج ؟ وخطرت بباله ذات مرة فكرة موت باليا . كان ذلك في يوم من الايام عند خروجه من بيتها ، بعد أن قالت له أمورا كثيرة رائعة لكنها غامضة . لقد غرق روبيان عندئذ في سعادة كبيرة ، لكنه لم يلبث أن منع نفسه من ذلك متطيرا . وبعد بضعة أيام عاد يفكر في مشروع زواجه تفكيرا نهائيا ، الآن صوفيا غيرت موقفها منه مرة أخرى . إلا أن باليا نفسه هو الذي كان ينتزعه من أحلام الزواج مرة بعد مرة .

— أنت مشغول هذا المساء ؟

— لا ...

— اذن اليك هذه البطاقة للأوبرا ، شرفة رقم ٨ ، الصف الاول على الشمال . وكان يصل قبل الاوان لينتظرهما وليقدم لصوفيا ذراعه . فاذا كانت رائقة المزاج كانت السهرة رائعة ، أما اذا لم تكن كذلك كانت السهرة عذابا كعذاب الشهداء على حد تعبيره الذي قاله يوما للكلب :

— كانت سهرة الامس عذابا كعذاب الشهداء يا صديقي المسكين .
فنبج الكلب يجيبه :

— تزوج وستقول لى بعد ذلك هل كنت على حق .

فأجابه وهو يمسك بقائمتيه من امام ويضعهما على ركبتيه :

— نعم يا صديقي المسكين . أنت على حق . أنت فى حاجة الى صديقة طيبة توليك من العناية ما لا تستطيع او ما لا اعرف . اما زلت يا كوتكاس بوربا تذكر صاحبنا كوتكاس بوربا ؟ ما كان اطيبه وأعظمه من صديق . لقد كنت أحبه كل الحب أنا أيضا ، وكانت صداقتنا قوية . لو كان حيا لشهد زواجى ، ولشرب الانخاب — أو لشرب نخب العروسين على الاقل — ولصنعت له من أجل ذلك قدحا من ذهب وماس .. ما أعظمك يا كوتكاس بوربا ! ..
كان عقل روبيان يشارف الهاوية .

٨٢

وذاث يوم خرج من بيته أبكر مما اعتاد ، وكان لايعرف ابن يقضى أول النهار ، فعزم على الذهاب الى المخزن الذى يملكه هو وباليا . لقد انقضى أسبوع لم يذهب خلاله الى فلامنجو ، لأن صوفيا كانت تعاني نوبة من نوبات فتورها فى معاملته . فلما وصل الى المخزن رأى كرستيانو يرتدى ثياب الحداد . ذلك ان خالة امراته ، دونا ماريا أوجوستا ، قد توفيت فى بيتها بالريف . وقد وصل نبا وفاتها أمس الاول فى ساعة متأخرة من النهار :

— أهى أم تلك الفتاة ؟

— هى نفسها .

وتكلم باليا عن المتوفاة فى حنان طافح ، ثم قص على صاحبه ما تعانيه ماريا بنديكتا من حزن شديد قائلا : ان منظرها مؤلم حقا .

وسأله لماذا لا يأتي في هذا المساء نفسه الى فلامنجو ليساعدهما في التسمية عنها ؟ فوعده روبيان بالمجيء .

- تعال . . انك بمجيئك تقدم لنا معونة . والفتاة المسكينة تستحق هذه المعونة . انها فتاة ممتازة حقا ، أنت تعرف ذلك . انها على جانب عظيم من التربية الحسنة ، بل من التربية الصارمة اما من ناحية المزايا الاجتماعية ، فلئن لم تفرس فيها منذ الطفولة ، فقد تداركت ما فاتها من وقت في سرعة مذهلة بمعونة صوفيا . ويا لها من ربة بيت ! حقا ايها الصديق العزيز . . لا أظن ان من الممكن ان نجد في سنها فتاة اكمل منها . ستبقى الآن معنا . ان لها اختا متزوجة من قاضي صلح في سيارا ، ولها كذلك عراب في سان جوان داري كانت المرحومة لا تثنى تشيئذ بفضائله . ولست أظن انه سيطلب التحاق ماريا بنديكتا به ، وهبه فعل ، فلن ادعها تسافر . هي الآن لنا . لن ننفصل عنها لمجرد ان عرابها يريد ان ينزلها في وصيته . وختم باليا كلامه ، وهو ينفض بأصبعه بعض الغبار عن ياقة روبيان ، ختم قائلا : ستبقى هنا .

شكره روبيان . واذا كانا في المكتب ، أى في آخر المخزن ، نظر روبيان من خلال قضبان الحاجز ، فرأى رزما من البضاعة تدخل المخزن ، فسأل ما هذه الرزم ؟ فأجابه باليا بأنها قماش من قطن انجليزى . فردد في غير مبالاة :
- قماش من قطن انجليزى ؟
قال له باليا :

- بالمناسبة ، هل علمت ان محل موارس وكونيا قد أخذ يسدد جميع ديونه كاملة ؟

وكان روبيان لا يعرف من الامر شيئا ، ولا يعرف ان هناك محلا يملكه هذان الشريكان ، ولا يعرف هل لهما او ليس لهما ديون عليه . فلم يزد على ان اصفى الى النبا مظهرا سروره به ، ثم تهيأ للانصراف . لكن شريكه استمهل به بضع لحظات . ان وجه شريكه يعبر الآن عن فرح شديد ، حتى لكأنه لم يفقد احدا من أسرته وعاد يتكلم عن ماريا بنديكتا فقال انه ينوى ان يزوجها وانها ليست من أولئك الفتيات اللاتي يستجبن لأول شاب أنيق ، أو اللاتي يركبن رءوسهن . انها على جانب عظيم من حصافة الراى ، وتستحق زوجا ممتازا ، تستحق شخصا جادا كثير الجهد . .
- صحيح .

فدمدم شريكه فجأة يقول :
- اسمع . لا تعجب لما سأقوله لك . اعتقد انك أنت الرجل
الذى سيتزوجها .

فأجاب روبيان مبهورا :
- أنا ؟ لا .. لا ..
وأضاف يقول فورا للتخفيف من وطأة الصراحة في رفضه :
- أنا واثق انها فتاة كاملة من جميع النواحي . ولكننى ..
الآن .. لا أنوى أن أتزوج ...

- لا يقول أحد أن تتزوج غدا أو بعد غد . والزواج أمر لا يرتجل
ارتجالا . ما أريد أن أقوله هو اننى أحس انك ستتزوجها . وأنت
تعرف ما هى تلك الاحساسات التى تتنبأ بالمستقبل . ألم تحدثك
صوفيا أبدا عن احساسى بهذا الامر ؟

- أبدا .
- غريب . يخيّل الى انها ذكرت لى انها حدثتك فى الامر مرة
أو مرتين .
- جائز . أنا كثير الذهول .. ولكن فى أى أمر حدثتنى ؟ فى
مشروع زواجى من هذه الفتاة ؟

- بل فى أمر هذا الاحساس الذى يخالجنى . ولكن حسبنا الآن
هذا . ولنندع للزمن أن يفعل فعله .

- الى اللقاء .
- الى اللقاء . تعال هذا المساء فى وقت مبكر .

٨٣

« اذن لقد كانت صوفيا تريد أن تزوجنى » كذلك اخذ روبيان
يفكر عند خروجه من المخزن . تلك طبعا أسرع وسيلة للتخلص
منى . تريد أن تزوجنى ، أن تجعلنى قريبا من أقربائها . وقطع
روبيان جزءا كبيرا من الشارع قبل أن يصل الى الافتراض الآخر
الثانى : لعلها لم تنس ، وانما كذبت على زوجها عامدة حتى تحول
دون تحقق هذا المشروع . فاذا صح هذا ، فالموقف مختلف كل
الاختلاف . وبدا له هذا التعليل منطقيا . واستمر يسير فى طريقه
وقد استرد هدوءه .

لكن الزمان يبدو طويلا جدا حين لا يدري المرء ماذا يعمل، وان استطاع أن يبلغ من الهدوء مبلغا كبيرا . أن تحرق روبيان الى خلول المساء من أجل أن يذهب الى قلامنجو كان يشعره بأن الساعات ليس لها نهاية . أن الوقت مبكر ، انه أبكر من أن يعمل صاحبنا أى شيء ، أبكر من أن يذهب الى شارع أوفيدور أو يعود الى بوتافوجو . وكان الدكتور كاماشو في فاسوراس يدافع عن أحد المتهمين أمام محكمة الجنايات . وليس هناك أى تسليّة عامة منتظرة ، فلا احتفال في مكان ولا وعظ في كنيسة . لا شيء ، لا شيء على وجه الاطلاق . وأخذ روبيان يضرب في الشوارع على غير هدى من فرط سأمه وملله ، يقرأ اللافتات تارة ويتوقف تارة أخرى ليراقب اتفه حادث يقع لعربة من العربات . كيف لم يشعر بمثل هذا السأم يوما في ميناس ؟ وظل اللفز بلا جواب . . ان المرء يجد في ريو دي جانيرو من التسلّيات ما لا يجد مثله في ميناس ، وكثيرا ما تسلي روبيان في هذه المدينة فعلا ، غير انه يعاني مع ذلك هنا هذه الساعات من الضجر الثقيل .

من حسن الحظ ان لهؤلاء الذين لا يدرون ماذا يعملون ربا يسعفهم . فها هو ذا روبيان يتذكر أن فريتاس « انكم تعرفون فريتاس ، ذلك الرجل الفرّح دائما » مريض بمرض خطير . فاستوقف روبيان عربة وذهب يعود في بيته الواقع على شاطئ فورموزا . وظل يتحدث مع المريض قرابة ساعتين . لكن المريض قام أخيرا . فاستأذن روبيان أمه بالانصراف حتى اذا وصل الى الباب قال لها قبل أن يمضي :

— لابد انك في حاجة الى بعض المال .

واذ عضت السيدة العجوز على شفيتها وغضت طرفها ، اردف يقول :

— ليس هذا عارا . لئن كان العسر محزنا ليس هو بالعار قط . وأحب أن تقبلي مني هذا المبلغ الذي سأتركه لك من أجل أن نواجهي به بعض النفقات ، وستردونه الى في ذات يوم حين تقدرين أن تردوه .

وكان قد فتح محفظته وأخرج منها سنت ورقات نقدية كل واحدة منها بعشرين ألف رايش ، فطواها ووضعها في يد السيدة العجوز .

ثم فتح الباب وخرج . فبلفت العجوز من الدهشة درجة لم يخطر
ببالها معها أن تشكر له صنيعه . فلما سمعت صوت العربية وهي
تتحرك هزعت الى النافذة . لكن الرجل الذي أحسن اليها كان
قد غاب .

٨٥

ثم ذلك كله عفوا ، حتى ان روبيان لم يتسع وقته للتفكير فيه
إلا بعد أن استأنفت العربية سيرها . ويظهر أنه رفع عندئذ ستارة
النافذة الصغيرة لينظر الى خلف . لكن العجوز كانت وقتئذ ترجع
الى داخل البيت ، فلم يلمح الا ذراعها . وشعر روبيان بكل
السعادة التي يشعر بها أمرؤ حين يدرك أنه صحيح الجسم معافى .
وأسند ظهره الى مقعده ، وزفر زفرة عميقة من شعوره بالراحة ،
ونظر الى الشاطئ ثم مال الى أمام لأنه لم يستطع أن يرى
الشاطئ تماما حين مجيئه .

قال له الحوذى وهو سعيد كل السعادة بهذا الزبون الطيب الذي
وفق اليه :

— أيعجب هذا سيادتك ؟

— كثيرا .

— أما جئت الى هنا من قبل ؟

— أحسب اننى جئت ، ولكن منذ زمان بعيد ، فى أول رحلة
قمت بها الى ريو دو جانيرو . ذلك اننى من ميناس ... هل
لك أن تقف قليلا ؟

فأوقف الحوذى حصانه ، فترل روبيان ، وأمر الحوذى أن يسير
بالعربة على سرعة خطاه .

ان هذه البقع الكبيرة من الخضرة التي تنبجس من المياء على
مقربة من روبيان تشكل منظرا رائعا حقا . وما أقربها من الشارع !
لقد أراد روبيان أن يتأملها عن كثب ، حتى أصبح لايبالى الشمس .
فبنى المريض وأم المريض وقال لنفسه : لو كان البحر كله على هذه
الشاكلة قد نثرت فيه الاراضى والنباتات نثرا ، لكان ذلك يستحق
الابحار . وغير بعيد من هذا المنظر ، على مسافة خطوات ، كان
يرى شاطئ لازاروس وشاطئ سان كرسثوفان .
تمتم روبيان يقول :

— برايا فرموزا (١) اسم على مسمى .
غير أن الشاطيء يتغير الآن وجهه . فابتداء من ساكودو الفيريس
يجد المرء بيوتا مبنية على جهة البحر . ومن حين الى حين تحل
محل الابنية قوارب قد ارتفعت أشرعتها في الهواء وغطست في
الوحل أو التراب . ولمح روبيان على مقربة من هذه القوارب أطفالا
حفاة الاقدام يرتدون قمصانا ، قد أخذوا يلعبون حول رجل منبطح
على بطنه رافع إحدى ساقيه في الهواء . والأطفال يضحكون جميعا ،
غير أن واحدا منهم يضحك أكثر من سائرهم ، لأنه كان يعجز عن
رد ساق الرجل الى الأرض . أنه طفل صغير في الثالثة من عمره ،
يتشبث بالساق مستعينا ، وينزلها شيئا فشيئا حتى لتكاد تلامس
الأرض ، لكن الرجل لا يلبث عندئذ أن يتحرك فاذا هو يرفع
الساق والطفل كليهما .

تلبث روبيان بمكانه بضع لحظات يراقبهم فلما لاحظ الصبي أن
هناك من يراقبه ضاعف جهوده ، لكنه فقد عندئذ انطلاقه على
طبيعته . وتوقف الصبية الآخرون عن اللعب ، وهم أكبر منه
سنا ، وأخذوا يتفرسون في روبيان . لكن روبيان لا يميز شيئا .
أنه يرى كل شيء فيما يشبه الضباب . وظل يسير مدة طويلة ،
فقطع ساكو دو الفيريس ، وقطع جامبوا ، وتوقف قليلا أمام المقبرة
الانجليزية ذات القبور القديمة المغروسة في الرابية ، ووصل أخيرا
الى حي ساوودى . وهناك رأى شوارع ضيقة ، وأخرى منحدرية ،
وبيوتا متجمعة على سفوح التلال أو على قممها ، وأزقة صغيرة .
ومنازل قديمة جدا — يرجع عهد بعضها الى العصر الملكي — منازل
متأكلة ، مبقعة ، مترنجة ، قد جعلها تقادم الزمن سوداء لكنها
تعج بالحياة . . . فائثار هذا كله في نفسه الشعور بالحنين . . . الحنين
الى الأسماك البالية ، والحياة الكادحة الصعبة . . . الهادئة مع
ذلك كل الهدوء . غير أن هذا الشعور لم يدم الا قليلا . ولم يلبث
السخر الذي في نفسه أن فعل فعله : أنه لجميل جدا أن يتخلص
المرء من الفقر .

٨٦

وصل روبيان الى آخر شارع ساوودى . أنه يهيم الآن على وجهه
حائر العينين ، لا يلوى على شيء . ومرت قربه امرأة لم تكن جميلة

(١) يعنى هذا الاسم «الشاطيء الجميل» (المترجم)

ولا أنيقة ، يدل ظاهرها على انها فقيرة ، لكن جميع قسماتها تشع منها النضارة . اعلمها في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهي تمسك طفلا من يده . تعثر الطفل بين ساقى روبيان فقالت المرأة الشابة وهي تشده :

— ما هذه الحركات أيها الفبي ؟

ومال روبيان الى الصبي يساعده ، فقالت وهي تبتسم :

— شكرا جزيلا .

ثم حيته . فرفع روبيان قبعته وابتسم لها كذلك . ومرة أخرى استولت على نفسه الرغبة في أن تكون له أسرة . « تزوج ، ثم قل لى هل أنا على حق ! » . ووقف ونظر الى خلف ، فرأى المرأة الشابة تبتعد بخطا سريعة ، بينما الطفل تضطرب ساقاه الصغيرتان الى جانبها ليلحق بها . وتمهل صاحبنا في سيره وأخذ يفكر في النساء اللاتي يمكن أن يعزفن معه انشودة الزواج بأيد أربع على موسيقى كلاسيكية جادة اذا كان هنالك شيء من ذلك . وفكر حتى في ابنة الماجور التي لا تعرف الا بضع رقصات من رقص المازوركا . لكنه سمع على حين فجأة ترجع صوت القيثارة ، قيثارة الخطيئة تنقر عليها أصابع صوفيا ، وبدا له صوت هذه القيثارة رائعا ، فتبدد بذلك كل صفاء مشروعه الأول... لكنه أصر بعض الإصرار ، وحاول أن يرتد الى الموسيقى الأخرى ، فطفق يفكر من جديد في المرأة الشابة التي لقيها في شارع ساوودي ، وفي حركاتها الحلوة الرشيقة ، وفي الصبي الصغير الذي كانت تمسك بيده .

٨٧

وحين رأى العربية تذكر مريض برايا فورموزا . فتنهده وقال :

— مسكين يافريتاس !

وسرعان ما تذكر المال الذي تركه لأم المريض ، فرأى انه أحسن صنعا . وحين خطر بباله انه ربما كان قد أعطى العجوز ورقة أو ورقتين زيادة على ما كان ينبغي له أن يعطيها ، أسف على انه تصور هذا التصور ، ومن أجل أن يتخلص من هذه الفكرة التي راودت ذهنه تخلصا كاملا ، صاح بصوت عال :

— يالها من عجوز مسكينة ، يالها من عجوز مسكينة !

واذ راودته هذه الفكرة مرة أخرى ، هرع نحو العربية ، فصعد إليها ، وجلس ، ثم أخذ يكلم الحوذى هرباً من أفكاره :

« نزهة طويلة . حقا انه لمكان جميل هنا ، وانه لمكان عجيب أيضا ، بشواطئه وشوارعه التي تختلف كل الاختلاف عن الاحياء الأخرى . اننى أحب هذا كثيرا ، ويجب ان أتردد الى هذا المكان كثيرا

فابتسم الحوذى ابتسامة بلغت من الفراسة ان روبيان ظل منها متحيراً أشد التحيرة . انه لايعرف ماذا كان فى كلامه من أمر يشير الضحك . أترأه استعمل كلمة يمكن أن يساء فهمها فى ريو دو جانيرو ؟ لكنه كرر لنفسه الجملة بكاملها فلم يكتشف فيها شيئاً من ذلك . ان جميع الكلمات التى تضمها الجملة هى من الكلمات الرائجة استعمالها . ومع ذلك ظل الحوذى يبتسم ، وظل وجهه على تلك الحال نفسها يعبر عن مزيج من الاحترام والمكر معا ، وأوشك روبيان أن يسأله عن السبب الذى يحمله على هذا ، لكنه أمسك فى الوقت المناسب ، اذ تولى الآخر استئناف الحديث ، قال :

« سيادتك تحب اذن هذا الحى كثيرا . اسمح لي ألا أصدق هذا الكلام . وعليك الا تزعل ، فلست أريد أن أؤذى شعورك ، وما أنا بالرجل الذى يغضب زبونا رضىا مثلك . لكننى لا أصدق حقا ان الحى هو الذى يعجبك .

فسأله روبيان مجازفاً :

« وماذا ؟

فهز الحوذى رأسه ذات اليمين وذات الشمال ، وظل يقول انه لا يصدق شيئاً من هذا الكلام ، لا لأن الحى غير جدير بالاعجاب بل لأنه من الواضح ان روبيان يعرف هذا الحى من قبل حق المعرفة . فعاد صاحبنا يكرر ما قاله له فى المرة الاولى ، ذاكرا أنه لم يعد الى هذا الحى بعد رحلته الاولى الى ريو دو جانيرو منذ زمان طويل ، وانه لم يحتفظ بأى ذكرى عنه . ولكن الحوذى ظل يضحك ، فكلما ازداد زبونه جزماً وقطعاً فى كلامه ، ازداد هو أصراراً ، حتى أصبح يعبر عن قوله « لا » بحركات من يده ورأسه وشفتيه ... وختم قائلاً :

« أنا أعرف هذا الامر . ليست عيناي فى جيبى . لعل سيادتك تظن اننى لم لاحظ كيف نظرت الى المرأة الشابة التى مرت منذ

هنيهة ؟ ان هذا وحده يدل على ان لك حسا مرهفا وانك تحب...
تملق هذا الكلام غرور روبيان ، فابتسم ابتسامة خفيفة ،
لكنه لم يلبث ان استدرك سائلا :

— أى امرأة شابة ؟

فأجابه الرجل :

— ألم أقل لك ؟ سيادتك متحفظ جدا ، وحسنا تصنع على كل
حال . لكننى امرؤ متكتم . ليتك تعرف كم مرة عملت هذه
العربة فى أمثال هذه الروحات والغدوات .. ومنذ مدة قصيرة
أقلت شابا وسيما أنيق الهندام .. شابا من طراز عال .. وكان
الامر امر نساء طبعاً .. ذلك يلاحظ من أول وهلة .
فقاطعه روبيان قائلا :

— ولكننى ...

أصبح روبيان لا يستطيع أن يحافظ على هدوئه . ان الظن الذى
يسبر عنه الحوذى لا يسوءه .. والحوذى يتصور أن صاحبنا
لا يزال يريد أن يخفى مفامرة ..
أردف يقول :

— اسمع . اننى أعرف ما أقول حق المعرفة . مثلك كمثل ذلك
الشاب الذى يسكن فى شارع الانفاليد .. تماما .. وفى وسع
سيادتك أن تكون مطمئنا كل الاطمئنان الى اننى لن أقول شيئا ،
ولن أفشو سرا . وتلك أمور لا شأن لى بها على كل حال . لكنك
لا تستطيع أن تحملنى على الاعتقاد بأن رجلا من الرجال يمشى من
برايا فورموزا الى هنا على الاقدام للذة المشى ، مع أن هناك عربة
تحت تصرفه ! لقد ذهبت سيادتك الى الموعد المضروب ، ولكن
الشخص الذى أردت لقاءه لم يجرىء ...

— أى شخص ؟ لقد ذهبت أعود مريضا هو صديق لى يوشك
أن يموت .

كرر الرجل يقول :

— تماما كذلك الشاب الذى يقطن شارع الانفاليد . لقد ذهب
هو الى خياطة زوجته ، كما لو كان متزوجا !

سأله روبيان وقد لاحظ اسم الشارع فى هذه اللحظة :

— شارع الانفاليد .

فأجاب الحوذى :

— لا أستطيع أن أزيد شيئا على ما قلت . لقد كان آتيا من

شارع الانفاليد .. شاب له شاربان ، وعينان واسعتان ، بل واسعتان جدا . لو كنت امرأة لعشقته أنا أيضا ... أما هي فلا أدري من أين كانت آتية ، ولو عرفت ذلك ما قلته .. كل ما أعلم انها كانت جميلة جدا !

واذ رأى ان زبونه يصفى الى كلامه محمقا تابع يقول :

- آه ... سيادتك لا تستطيع ان تتصور ... لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ... جميلة الجسم ، قد حجبت نصف وجهها بوشاح . فتاة جميلة حقا . الفقراء يستطيعون ان يقدروا الجمال كما يقدره غيرهم . دمدم روبيان يقول :

- ولكن ماذا حدث ؟

- ماذا حدث ؟ وصل كسيادتك على عربتي هذه ، ثم نزل ودخل بيتا نوافذه محكمة الاغلاق ، قائلا انه ذاهب الى خياطة زوجته . واذ لم اكن قد سألته شيئا ، واذ كان طوال الطريق صامتا غارقا في أفكاره ، أدركت ما بنفسه . وربما كانت هذه هي الحقيقة من جهة أخرى ، ذلك ان هناك خياطة تقطن شارع الهارموني حقا ... الهارموني ؟

- لا ... طيب . تكاد سيادتك تنتزع مني سرى . فلنبدل الموضوع ولن أقول بعد الآن شيئا .

وكان روبيان ينظر الى الرجل مذهولا ، وصمت هذا دقيقتين أو ثلاث دقائق ، ثم لم يلبث ان أردف يقول :

- ثم انه ليس هناك أمور كثيرة أضيفها على ما ذكرت . لقد دخل الرجل ومكثت أنا أنتظره . وبعد نصف ساعة لمحت هناك بعيدا طيف امرأة . فقدرت على الفور الى أين هي ذاهبة . وسرعان ما صدق ظني . فقد اقتربت ثم اقتربت وهي تنظر خلصة الى جميع الجهات ، فلما مرت أمام البيت لم أقل لها شيئا ، ولم تكن هي الأخرى في حاجة الى أن تفرع الجرس وانما حدث ما يحدث في الحكايات الخرافية : انفتح الباب من تلقاء نفسه ، فأنسلت الى داخل البيت . أتظن اني أجهل هذه الامور ؟ وكيف تريد سيادتك لمثلي أن يربح قرشا من هنا وقرشا من هناك زيادة بغير هذا ؟ ان ما يدره العداد لا يكاد يطعم صاحبه . فلا بد من اللجوء الى مثل هذه الوسائل الصغيرة .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني



روايات الله

مجلة شهرية لنشر القصص العالمية

الغلاف بريشة
الفنان جمال قطب

الفيلسوف

أم الكلب؟

كونكاس بوربا

الجزء الثاني



ماشادو دوايسيس



الدكتور سامي الدروبي

دار الفلال

حدث روبيان نفسه وهو في بيته بملابسه السود قائلا : لا .. لا .. يستحيل أن تكون هي .

انه منذ عودته لم ينقطع عن التفكير في القصة التي حكها له الحوذي . وقد حاول أن يطرد هذه القصة من ذهنه ، بترتيب أوراقه ، أو بالقراءة ، أو بصفق أصابعه بفيه أن يرى تواب كونكاس بوربا ، لكن الصورة ظلت تطارده . قال له عقله ان هناك كثيرا من أطيايف النساء الرشيقا ، ولا برهان على أن طيف المرأة الذي لاح للحوذي في شارع الهارموني هو طيف المرأة الشابة . لكن الطمأنينة التي حملها هذا التفكير الى قلبه لم تدم طويلا . فسرعان ما خفض رأسه وعاد يطلق خياله غامضا وراء شخص - ليس الا صوفيا نفسها - يسير ثم يدخل على حين غرة في بيت لم يلبث أن أغلق بابه فورا ... وفجأة بلغت الصورة من شدة الوضوح في ذهنه انها جعلته يحدق الى الحائط ، كأن باب البيت الذي يقع في شارع الهارموني مائل الآن أمامه . وجرت بقية التصورات بعد ذلك في رأسه كما يلي : ها هو ذا يقرع الباب ، ثم يدخل ، ثم يشب الى عنق الخياطة ، ويجبرها على أن تقول الحقيقة اذا هي أرادت ألا تموت . فاذا بالمرأة المسكينة تعترف له بكل شيء ازاء هذا التهديد ، ثم تقوده الى حيث يرى السيدة . فاذا هي غير صوفيا . وشعر روبيان بخجل من نفسه حين تاب الى رشده :

« لا ... لا ... يستحيل أن تكون هي .. »

وارتدى صدرته ، ومضى يعقد أزرارها أمام نافذة تطل على الفسحة الخلفية . كان عمود من النمل يمر في هذه اللحظة على قاعدة النافذة . وما أكثر ما رأى هذا المشهد من قبل . لكنه تناول في هذا اليوم منشقة ضرب بها النمل ضربتين دون أن يدري لماذا ، فقتل منه عددا كبيرا . لعل واحدة من النمل لاحت له « لا طويلة ولا قصيرة ، جميلة الجسم » . وما هي الا لحظة حتى ندم على ما بدر منه . ما شأن النمل وما هي علاقته بشكوكه ؟ ومن

— اجلس هنا ..

وجلست معه . لقد كانت رائعة في ذلك المساء ! ان كلماتها التى تتخللها ابتسامة ودية عفة ، كانت رصينة ورقيقة معا . حدثته عن خالتها وابنة خالتها ، وعن الجو والخدم والحفلات ، وعن نقصان الماء ، وعن طائفة كبيرة من الامور كانت تكتسى في فمها قيمة عظيمة سواء اكانت في حد ذاتها تافهة أم لا . وكان روبيان يصفى اليها مسحورا . ومن أجل أن تشغل نفسها كانت تخطط في الوقت نفسه بعض الستائر ، وكلما حانت لحظة من صمت ألتهم روبيان بعينه يديها الرشيقتين اللتين تبدوان كأنهما تلعبان بالابرة لعبا .

سألته صوفيا :

— هل تعلم اننى بسبيل تشكيل لجنة من السيدات ؟

— أجهل ذلك . وما غاية هذه اللجنة ؟

— ألم تسمع نبأ ذلك الوباء الذى اجتاح مدينة بولاية ألجواس ؟

أجابته بذلك ثم ذكرت انها قد بلغت من الحزن لهذا الامر انها قررت على الفور أن تنظم جمعية من السيدات لجمع التبرعات . وقد جاء موت خالتها فقطع المساعى الاولى التى بذلتها في هذا السبيل ، لكنها ستستأنف العمل فور الانتهاء من القداس التذكارى الذى سيتم في نهاية الاسبوع الاول من الحداد . وسألته رايه في الامر . فقال :

— يخيل الى ان الفكرة جيدة جدا . اليس في اللجنة رجال ؟

— بل سيدات فقط ..

ثم ختمت كلامها بقولها ضاحكة :

— الرجال يقدمون مالا ..

وسرعان ما قرر روبيان بينه وبين نفسه أن يكتب بمبلغ كبير حتى يحض أولئك الذين يكتبون بعده على أن يكونوا كراما أسخياء . ان كل ما قصته صوفيا كان هو الحقيقة بعينها . ولكن من المؤكد أيضا ان انشاء اللجنة سيذيع صيتها وسيساعد على الارتقاء درجة في سلم المجتمع . ومن أجل ذلك كانت السيدات اللاتي اختارتهن أعضاء في اللجنة لا ينتمين الى الحلقة المألوفة من صلات صوفيا . حتى انه لم يكن بينهم الا واحدة اعتادت أن تحيها . وبوساطة أرملة لمع نجمها في المجتمع فيما بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٥٠ ، فاحتفظت برهافة ذلك العهد والحنين اليه ، ظفرت صوفيا بأشراك جميع أولئك السيدات في عملها الخيرى وأصبحت منذ ذلك الحين

لا تستطيع أن تفكر في أمر غير هذا الأمر . فإذا بدت في بعض الاحيان نائمة على كرسيها الهزاز عند المساء ، لم تكن في حقيقة الامر نائمة ، وانما هي قد أغمضت عينيها لتزداد قدرة على تخيل نفسها بين رفيقاتها في اللجنة وهن جميعا من عيون السيدات . فمن السهل على القارئ والحالة هذه أن يفهم السبب الذي من أجله كان هذا الموضوع مركز الحديث بين صوفيا وروبيان . ومع ذلك كانت صوفيا تهتم بصديقها من حين الى حين . فتسأله عن معنى هذه الغيبات الطويلة ؟ كيف تنقضي ثمانية أيام ، وعشرة أيام ، وخمسة عشر يوما ، وأكثر من ذلك في بعض الاحيان ، دون أن يزورها ؟ وقد أجابها روبیان بأن عليها ألا تتصور وراء غيابه سببا خاصا ، ولكنه حين قال ذلك ظهر عليه من شدة الانفعال ما جعل احدي الخياطتين تلكر الاخرى بقدمها . ومنذ تلك اللحظة أصبحت هاتان المرأتان - حتى حين يسود الصمت لحظة ويتخلل تلك اللحظة رنين الأبر وصرير المقصات وحفيف قطع القماش الذي يمزق - لا تحولان بصرهما من صاحبا الذي لا يكف من جهته عن التحديق الى ربة البيت في عناد واصرار .

وفي اثناء ذلك جاء من يقول ان هناك شخصا جاء معزيا ، وهو رجل يعمل مديرا لأحد المصارف . وقد أبلغ باليا نبأ قدومه ، فنزل يستقبله . واستأذنت صوفيا صاحبها بالغياب عنه بضع لحظات ، ومضت الى ماريا بنديكتا .

٩٢

حين بقي روبیان مع المرأتين أخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، ولكن دون أن يحدث كبير ضجة ، حتى لا يزعج أحدا . ان بعض عبارات باليا كانت تصل الى الصالون : « على كل حال ، في وسعكم أن تثقوا ... » ، « ليست ادارة المصارف لعبة من لعب الاطفال ... » ، وكان مدير البنك لا يقول كبير شيء ، وانما كان يتكلم بلهجة جافة وصوت خافت ..

وها هي ذى احدي الخياطتين تطوى الثوب الذي بين يديها ، وترتب قطع القماش والمقصات وبكرات الخيطان في تعجل شديد ، انها تأخرت وانها ذاهبة .

- انتظري دقيقة يا دوندون .. انا أيضا ذاهبة ..

— لا ... لا ... لا أستطيع . كم الساعة ياسيدى ، من فضلك ؟

أجابها روبيان :

— الثامنة والنصف ..

— رباه كم تأخرت !

ولكى يقول روبيان شيئا ما سألها لماذا لا تنتظر قليلا كما تطلب إليها رفيقتها ؟ فأجابته فى احترام :

— لا أستطيع أن أنتظر .. أتعرف أين تسكن رفيقتى ؟ انها تسكن فى شارع باسيو .. أما أنا فيجب أن أسير حتى شارع الهارمونى . والطريق من هنا الى هناك طويلة ..

٩٣

وما هى الا لحظة حتى نزلت صوفيا ، فاذا هى تجد روبيان قد تبدل تبدا كاملا وأصبح زائف النظر فسألتها عما به ، فأجابها بأن شيئا من الصداع قد ألم به ولا شيء غير ذلك . ومضت دوندون . واستأذن مدير المصرف بالانصراف ، فشكر له باللباس لطفه ، وقال ان زيارته شرف عظيم له . أين هى قبعتك ؟ ووجد القبعة . وأعطاه المعطف كذلك . واذا بدا على المدير انه لا يزال يبحث عن شيء ما ، سألته كريستيانو أهى العصا ؟ فأجابها المدير : — لا ياسيدى . هى المظلة . أظنها هذه . نعم هى هذه . الى اللقاء ..

فقال له باليا :

— أكرر شكرى . شكرا جزيلا . ضع قبعتك ، فالحجوة رطب ، وليس بيننا تكلف . شكرا . شكرا جزيلا ..

قال ذلك وهو ينحنى له نصفين ، ويصافحه بكلتا يديه .

فلما عاد الى داخل البيت هبط الى شريكه الذى كان يصير على الانصراف . فانضم الى صوفيا يسأله أن يمكث قليلا ، ونصحه أن يحتسى قدحا من الشاي ، فيشفى من الصداع فورا . ولكن روبيان رفض . قالت له المرأة الشابة وهى تصافحه :

— ان بك برودة كبيرة وبرودة الثلج ، فلماذا لا تنتظر قليلا .. لا شيء أنفع من ماء المليسة ، سأتيك بشيء منه ..

فأوقفها روبيان قائلا لا داعى الى ذلك ، فهو يعرف هذا النوع من التوعك ولا يشفيه منه الا النوم . وأراد باليا أن يرسل من يحضر

له عربة . لكن روبيان أجابه بأن هواء الليل قد ينفعه ، وانه واجد عربات عند « الكاتيتى » على كل حال .

٩٤

«سوف أدركها قبل الكاتيتى» . كذلك قال روبيان لنفسه وهو يصعد شارع « البرنس » . . .
لقد قدر ان الخياطة سلكت هذا الطريق . ولمح بعض القامات فى كل جهة من جهات الشارع من بعيد . وبدأ له ان احداها قامة امرأة . فقال لنفسه : « لاشك انها هى » ، وأخذ فى السير . لقد كان مضطربا أشد الاضطراب ، كما تقدرون ذلك : شارع انهارمونى ، خياطة ، سيدة ، أبواب تفتح ثم تغلق . فليس يدهشنا ، والحالة هذه ، أن نراه يصدم فى تعجله سيدا كان يمشى الهوينى خافض الرأس . لقد صدم الرجل ، حتى انه لم يعتذر اليه ، بل أسرع مزيدا من الاسراع اذا رأى المرأة تسير هى أيضا سيرا سريعا جدا .

٩٥

ان الرجل الذى صدمه روبيان لم يكد يلحظ ذلك . لقد كان يسير غارقا فى أفكاره ، لكنه مفتبط منشرج الصدر خالى البال من كل هم ومن كل قلق . انه مدير المصرف الذى زار باليا معزيا . لقد شعر بالصدمة ، لكنه لم يحفل بها قط ، بل سوى معطفه ، وعاد الى تفكيره ، وتابع طريقه هادئا .

ويحسن أن نذكر فى تعليل عدم اكترائه بالصدمة انه قد عانى خلال ساعة واحدة من هذا اليوم ألوانا من الانفعال متعارضة أشد التعارض . لقد ذهب أول الامر الى بيت وزير من الوزراء يلتبس منه لأحد اخوته أمرا من الامور . وكان الوزير قد فرغ من غدائه فجلس يدخل هادئا لا ينبس بكلمة . فعرض عليه مدير المصرف الامر عرضا مضطربا أشد الاضطراب مكررا ومعيدا قوله ، مغفلا بعض الاشياء ، منتقلا من جملة الى أخرى بغير صلة ظاهرة . ومن أجل أن يكون فى وضعه ما يدل على الاحتشام والتوقير ، جلس جلسة غير مريحة ، وقد جمدت شفتاه تبسما فى احترام ، وراح يصطنع التحيات تلو التحيات فى خضوع ومذلة ويعتذر . . وقد طرح عليه الوزير عندئذ بعض الاسئلة ، فأجاب اجابة طويلة بل اجابة

مسرفة في الطول ، وأنهى كلامه بتسليم الوزير مذكرة في الامر . ثم نهض ، وشكر ، وصافح الوزير ، ومشى ، فشيعه الوزير حتى الشرفة ، وهناك انحنى مرتين ، مرة بعلم ووعى وذلك في أعلى انسلم ، ومرة بغير وعى وذلك في الحديقة تحت ، حيث لم يجد أمامه وزيرا بل بابا من زجاج ومصباحا للشرفة . ولم يلبث أن دس رأسه في قبعته ومضى . لقد خرج عندئذ شاعرا بالمذلة حائقا على نفسه ، لا لعدم بلوغه غايته فحسب ، بل لما اضطر الى اصطناعه من مجاملات ، والى تقديمه من اعتذارات ، والى اتخاذ من وضع مهين ، ولسائر تلك السلسلة من أعمال التذلل التي قام بها دون أن يجنى منها في آخر الامر أى ثمرة . وعلى هذه الحال من الشعور حتى وصل الى بيت باليا .

لكن نفسه استردت هدوءها خلال عشر دقائق ، نتيجة لتحيات الاحترام التي غمره بها رب البيت ، ولدأبه على هز رأسه تأييدا ، ولتبسمه الدائم ، ناهيك عن الشاي ولفائف السيجار التي قدمها اليه . لقد اصطنع المدير عندئذ القسوة والاستعلاء والترفع ، ولم ينبس بكلمة ، حتى لقد كشر أنفه احتقارا حين عرض عليه باليا رأيا من الآراء ، فأسرع هذا مسلما بسخافة الفكرة التي دارت في خلدته . وقد قلد المدير الحركات البطيئة التي رآها في الوزير ، حتى اذا انصرف كان رب البيت لا مدير المصرف هو الذي ينحنى انحناء قويا .

فلما صار في الشارع كان قد تبدل رجلا آخر . فهذا هو السبب في مشيته الهادئة التي تفيض ثقة ، وفيما يرين على قلبه من طمأنينة ، حتى تلقى صدمة روبيان في غير مبالاة . كان وهو يتذوق مذلة كرستيانو أمامه ، ينسى شيئا بعد شيء مذلته أمام الوزير .

حين وصل روبيان الى « الكاتيتي » كانت الخياطة تتحدث مع رجل ينتظرها هنالك ، ثم لم يلبث الاثنان أن مضيا معا الى جهة جلوريا ، وقد تشابكت ذراعاهما كأنهما زوج وزوجة . أهما متزوجان ؟ أم هما صديقان لا أكثر ؟ وغابا عن نظر روبيان عند أول عطفة . فتلبث روبيان بالمكان ساكنا لا يتحرك وهو يتذكر مرة أخرى أقوال الحوذي ، والباب ، والشاب ذا الشاربين ، والسيدة الجميلة القوام ، وشارع الهارموني ... شارع الهارموني ... نعم لقد قالت : شارع الهارموني ...

رقد روبيان في سريره متأخرا ، بعد أن لبث واقفا على النافذة

مدة طويلة ، والسيجار بين شفتيه ، وهو غارق في تأمل لانهاية له ، يحاول أن يجد تعليلا لهذا الامر كله . لاشك ان دوندون هي الشخص الثالث في قصة الحب هذه ، لايمكن أن يكون الامر غير ذلك . لقد كان في نظرتها تكتّم وتخف . كذلك فكر روبيان ..

سأعود غدا ، سأبكر في الخروج من البيت فانتظرها عند ناصية الشارع . سوف أعطيها مائة ألف قرش ، مائتي ألف ، خمسمائة ألف ... لكنها ستعترف بكل شيء ..

فلما بلغ منه التعب مبلغه ، نظر الى السماء . هذا هو صليب الجنوب .. آه ... ليتها وافقت على أن تنظر معه الى صليب الجنوب . اذن لتغير كل شيء بالنسبة الى الاثنين كليهما . ولاح له ان مواكب النجوم تؤيد ما ذهب اليه ظنه فهي تلتمع التماعا غير مألوف . وأخذ روبيان يتأملها وهو يتخيل ألف مشهد ومشهد من مشاهد الحب - حالما بما كان يمكن أن يقع . حتى اذا سئم قلبه هذا الفرام الوهمي ، تذكر فجأة ان صليب الجنوب ليس كوكبا وحسب ، وانما هو كذلك وسام شرف (١)

وسارت أفكاره عندئذ في طريق أخرى . ان اتخاذ صليب الجنوب وساما قوميا يسعى اليه الناس هذا السعى كله فكرة عبقرية . وتذكر انه رآه قبل ذلك على صدور من خدموا الدولة . انه لزينة جميلة ، زينة نادرة بوجه خاص . وهتف يقول :
- عظيم ..

وكانت الساعة تشارف الثانية حين ترك النافذة . أغلق النافذة ومضى يرقد في سريره . ولم يلبث أن نام . واستيقظ في الفداة على صوت الخادم الاسباني يحمل اليه رسالة ..

٩٦

استيقظ روبيان منتفضا ، وجلس في سريره دون أن ينتبه للخط الذي على الظرف ، وفض البطاقة وقرا :

« قلنا أمس أشد القلق بعد ذهابك . لا يستطيع كرسنيانو أن يعودك الآن ، لأنه صحا من نومه متأخرا . وعليه أن يذهب الى مفتش الجمرك . طمئنا عن صحتك . تحيات ماريا بنديكتا وتحيات صديقتك الشاكرة

« صوفيا »

(١) هو الوسام الامبراطوري « صليب الجنوب » .

— قل لحامل الرسالة أن ينتظر ..
وبعد عشرين دقيقة أعطى العبد الذى حمل الرسالة جوابها .
ان روبيان هو الذى أعطاه الجواب . وسأله عن صحة السيدتين ،
فقال له انهما بخير ، فناوله بضعة نقود قائلا له : اذا احتاج يوما
الى شىء من المال فما عليه الا أن يجيئه فى المساء ، فدهش الصبى
وحملق ، ووعد روبيان بتنفيذ كل ما يريده منه . قال له روبيان
فى حنان :

— الى اللقاء ..
ولبت ساكتا بينما أخذ حامل الرسالة يهبط درجات المدخل ،
حتى اذا أوشك أن يجتاز الحديقة كلها سمع صوتا يصيح به :
— انتظر ...

فعاد أدراجه ليحيب النداء . وكان روبيان قد هبط الدرجات
من جهته ، فاتجه الشخصان كل منهما نحو الآخر ، فلما التقيا
توقفا دون أن يقول أحد منهما شيئا . وانقضت دقيقتان طويلتان
لم يفتح روبيان خلاهما فمه . وأخيرا لم يزد على أن سأله عن
صحة السيدتين ، وهو السؤال الذى طرحه عليه منذ هنيهة ، فلم
يكن على الصبى الا أن يؤكد له ما قاله من قبل .

وأجال روبيان طرفه فى الحديقة . ان الورد وأزهار المرجريت
تفيض جمالا ونضارة ، وان القرنفل قد أخذت تتفتح أكمامه . وثمر
أزهار أخرى ، ثمة بنفسج ونباتات متسلقة ، فكأن هذا العالم
الصغير كله يحدق الى روبيان بعين خفية صائحا به :
— أيها القلب المريض ... اطفئ نار رغبتك ... اقطفنا
وارسلنا ...

قال روبيان :
— طيب . بلغ السيدتين تحياتي . ولا تنس ما قلته لك . اذا
احتجت الى ، فجيء الى . ألم تضع الرسالة ؟
— لا ... لا ... هي ذى ياسيدى ..
— خير لك أن تضعها فى جيبك ، ولكن حاذر أن تدعكها !
قال الصبى وهو يرتب الرسالة :
— لن ادعكها ياسيدى .. لاتخف !

في جيبى ثوبه . انه ينظر الى الازهار . أى ضير في ان يبعث ببعضها ؟ هى هدية معتادة ، لا بل هى هدية يكاد يكون ملزما بإهدائها . أما ينبغى له أن يرد اللطف بمثله ؟ لقد أخطأ إذ امتنع عن ارسال بعض الازهار . وهرع الى الباب ، لكن الصبى كان قد بعد . وخطر ببال روبيان عندئذ ان ظروف الحداد تستبعد هذا النوع من الهدايا ، فهدأت هذه الفكرة خاطره .

واستأنف تجواله في الحديقة ، فاذا هو يرى على الارض رسالة قرب صخرة ، فانحنى وتناول الرسالة ونظر في العنوان... انه « خطها » ، انه ذلك الخط الفريد الذى لا يكتب مثله غيرها . ومن أجل أن يزداد يقينا قارنه بخط البطاقة التى تلقاها منذ قليل . بخط واحد بعينه . أما اسم المرسل اليه فليس الا اسم الشيطان : كارلوس ماريا .

قال لنفسه بعد بضع دقائق : « حقا . ان الصبى الذى حمل الرسالة الى كان يحمل هذه الرسالة أيضا ، وسقطت منه » .

وبعد أن قلب الرسالة على جميع وجوها تساءل ماعسى أن يكون مضمونها . آه... مضمونها . ما عسى أن يكون المكتوب في باطن هذه الورقة المجرمة ؟

هو الفسق والعهر ، وربما لغة الاثم والجنون كلها ملخصة في بضعة أسطر . ونظر الى الرسالة في الضوء ليرى هل يستطيع أن يقرأ منها كلمة أو كلمتين ، لكن الورق كثيف ، ولا يمكن أن يشف من شيء ، فلما خطر بباله على حين فجأة ان حامل الرسالة قد يدرك بعد قليل انه فقد الرسالة فيعود أدراجه باحثا عنها ، أسرع يضعها في جيبه وهرع الى البيت .

حتى اذا دخل أخرجها وعاد يتأملها . ان يديه تترددان مترجحتين ترجح ضميره . انه اذا فض الرسالة عرف كل شيء . واذا قراها ثم أحرقها لم يطلع أحد على نصها ، واستطاع هو أن يستقر على حال بدلا من أن يظل قلقا أمام هذا الركام من الفظائع... ليست هذه الالفاظ من اختراعى أيها القارئ الصديق ، وانما هى الفاظه نفسها . فهو الذى كان يطلق هذه الشتائم ويطلق غيرها أيضا ، بينما هو جالس في وسط الصالون ساكنا محذقا الى السجادة التى تمثل رجلا تركيا مسترخيا واضعا غليونه في فمه ومسرحا بصره التائه نحو البوسفور... نعم ، لاشك انه البوسفور...
— يا للرسالة الملعونة !

كذلك همهم يقول بصوت أصم ، مرددا عبارة سمعها قبل بضعة أسابيع في المسرح . أن هذه الجملة الصغيرة التي كان قد نسيها إلى تلك اللحظة ، تعبر وحدها عن التشابه الروحي بين المشهد والمشاهد .

وتضاعفت رغبته في فض الرسالة . ليس عليه من أجل ذلك إلا أن يقوم بحركة يسيرة . ما من أحد يستطيع أن يراه ، فاللوحات المعلقة في الحائط هادئة لا تبالى ، والتركي الذي تمثله في السجادة لا يزال يدخن وينظر إلى البوسفور . لكن صاحبنا ظل مع ذلك يشعر بوساوس تردعه عن فض الرسالة . صحيح أنه وجد الرسالة في حديقته ، لكن الرسالة ليست له ، وإنما هي للشخص الآخر . إنها أشبه بمال وقع بين يديه ، أفليس من واجبه أن يرد المال إلى صاحبه ؟ وأعاد الرسالة إلى جيبه وهو يحس بالحسرة . وتساءل هل يبعث الرسالة إلى الشخص الموجهة إليه أم يردها إلى صوفيا ؟ ثم استقر رأيه أخيرا على الحل الثاني ، لأنه ربما أتاح له أن يقرأ الحقيقة في وجه المرأة الشابة . قال لنفسه : « سأقول لها أنني وجدت رسالة ، وقبل أن أعطيها إياها سأرى في وجهها شيء خائف أم لا . أتراها يشحب لونها ؟ سأهددها عندئذ ، وسأحدثها عن شارع الهارموني . وسأحلف لها أنني على استعداد لأن أنفق ثلاثمائة قونت ، بل ثمانمائة ، بل ألفا ، بل ألفين ، بل ثلاثة آلاف إذا اقتضى الأمر ، من أجل خنق هذا الشخص الحقير »

٩٨

لم يصل أحد من رواد البيت لتناول طعام الغداء . انتظر روبيان نحو عشر دقائق ، حتى لقد أرسل خادما إلى الباب ليرى هل ظهر أحد . لم يظهر أحد . . . فكان لابد له من أن يعزم على تناول طعامه وحده .

كان روبيان ، بوجه عام ، لا يطيق وجبات الطعام من غير ضيوف . لقد بلغ من تعود حديث أصدقائه وملاحظاتهم ونكاتهم وما كانوا يحيطونه به أيضا من مظاهر الاحترام ، أنه إذا طعم وحده فكأنه لم يطعم شيئا . لكنه كان في ذلك اليوم أشبه بشاول ينتظر داود قادرا على أن يطرد الروح الخبيث الذي تسلط عليه . حتى لقد أمسى ممثليا حقدا على حامل الرسالة الذي تركها تسقط منه . لقد كان من الأفضل له أن يجهل كل شيء . ثم أخذ يتردد مرة أخرى :

أيرد الرسالة أم يحتفظ بها ؟ كان روبيان يخشى أن يعرف الحقيقة .
ويمكن أن تقول أن رغبته في المعرفة لم تكن في آخر الامر الا الأمل
في أن يكشف أن ليس ثمة شيء .

وظهر داود أخيرا ، بين تناول الجبن وشرب القهوة ، ظهر في
صورة الدكتور كاماشو ، الذي رجع من فاسوراس في الليلة البارحة ؟
وكداود الذي حدثت عنه التوراة ، كان مع الدكتور كاماشو حمار
محمل خبزا ، وجرة خمر ، وماعز . لقد ترك أحد نواب مينا
مصابا بمرض خطير ، وبدأ يعد العدة لترشيح روبيان بالكتابة الى
مختلف شخصيات تلك الولاية . ذلك ما قصه كاماشو على روبيان
منذ أولى جرعات القهوة .

— أنا أرشح ؟

— إذا لم ترشح أنت ، فمن عسى يرشح ؟
وأوضح له كاماشو أنه لا يمكن أن يكون هنالك من يفضلته مرشحا .
الم يقدم خدمات كبيرة حين كان بمينا ؟
— بعض الخدمات ، نعم . .

— أما الخدمات التي قدمتها هنا فلها شأن كبير خاص . ألم
تساعدني في دعم الجريدة التي تنطق بلسان المبادئ ؟ ألم تتلق
معي الضربات التي كملت لي ، ناهيك عن التضحيات التي تقوم بها
جميعا من الناحية المالية ؟ لقد تم الامر ، وليس لك أن تحتج .
سأعمل كل ما في وسعي من أجلك . ذلك كل ما أريد أن أقوله
لك . ثم انك بذلك تحل خلافنا .
— أي خلاف ؟

— الخلاف الذي قد يحدث بين الدكتور هرمنجلدو ، من كاتاس
التاس ، والكولونيل روموالد ، إذ يقال انهما سـسـيرشـحـان
نفسيهما إذا شفر مكان ، ومن شأن هذا أن يشتت أصوات الناخبين .
— طبعا . ولكن ماذا إذا أصرا . . .

— أعتقد انهما لن يصرا متى جعلت زعماء الحزب يؤكدون لهما
هذا القرار ، أن من الأشياء التي رموني بها أنني لست مفوضا
لحسم الامر ، فاعترفت بأن هذا صحيح في هذه الحالة التي لم
تكن في الحسبان ، ولكنني أضفت أنني أتمتع بثقة زعمائي كاملة ،
وأن زعمائي سيؤيدونني ولا ريب . عليك أن تعد الامر منتهيا .
ماذا تظن ؟ أتظن أنني أبذل هنا كل ما أبذل من وقت ومال وموهبة
ثم لا أستطيع أن أنفع صديقا قدم كل هذه البراهين على إخلاصه

للمبادئ ؟ لا ... لا ... لا بد من أن يصفوا الى ويؤيدوا اقتراحى .
تأثر روبيان ، فطرح عددا من الاسئلة عن الصراع الذى سيقوم ،
وعن النصر الذى سيعقب الصراع . هل من الضرورى أن نقدر
النفقات منذ الآن ؟ أترانا فى حاجة الى كتاب توصية ؟ الى تقديم
طلب ؟ كيف يكون فى وسعنا أن نطلع على حالة المريض ؟ الخ ...
فُجاب كاماشو عن الاسئلة جميعها ، ولكنه أوصى صاحبه كذلك
بكثير من الحذر ، قائلا : رب أمر يسير فى ميدان السياسة يبدل
مجرى حملة من الحملات ويكتب النصر للخصم . وهبك لم تخرج
من المعركة منتصرا ، فانك ستخرج منها رابحا ، لأن اسمك
سيسجل فى الحوليات الانتخابية ، وتلك سابقة لها قيمتها . وختم
كلامه بقوله :

— عليك بالثبات والصبر !

ثم لم يلبث أن اضاف :

— وهل أنا نفسى الا مثال للصبر والثبات ؟ ان منطقى واقعة بين
ايدى طائفة من قطاع الطرق . نعم من قطاع الطرق ، فليس لهؤلاء
البديارو اسم غير هذا الاسم . وأكثر من ذلك « أقول لك هذا على
ألم وأرجو أن يظل سرا مكتوما بيننا » ان لى أصدقاء يتآمرون على
أناسا طامحين ليس لهم ضمير يردعهم . فهم يحاولون أن يخرجونى
ليحلوا محلى ... يا لهم من أوغاد ! آه ياعزيزى روبيان ... ان
حكايات السياسة هذه تشبه عذاب سيدنا يسوع المسيح ... ليس
ينقصها شيء ، لا المريد المرتد ولا المريد الخائن . تاج الشوك ،
والصفعات ، وخشبة التعذيب ، ثم الموت على صليب الافكار بمسامير
الحسد والغيبة والنميمة وتكران الجميل ...

وهذه العبارة التى وافت قريحته من حرارة الحديث ، لاحت
له جديزة بأن يكتب فيها مقالاته ، فثبتها فى ذاكرته ، ثم سجلها
بعد ذلك على ورقة قبل أن يأوى الى فراشه . أما فى تلك اللحظة ،
بينما كان يردد هذه العبارة فى ذهنه ليثبتها فى ذاكرته ، قال له
روبيان ان هذه لحظة انفعال عصبى لا أكثر ، وان عهده به اراه
فادر دائما على الشروع فى أعمال كبيرة ... وما ينبغى له أن يخشى
هؤلاء المنافقين ...

— أخشى هؤلاء المنافقين ؟ طبعاً لا ... انى امرؤ لا يخاف حتى
الفيلان ان كان للفيلان وجود . انى أقف لهم ثابت القدم رابط
الجاش . وليحذروا منا حين نصل الى الحكم . لسوف يدفعون

التمن يومئذ غاليا . اسمع ما أقوله لك . في السياسة لا شيء يفتقر
ولا شيء ينسى . ما يفعله المرء يدفع ثمنه ..

ثم أردف يقول وهو يتسم :
- صدقني : ان الانتقام لذة ... لذة رائعة . اذا حسبت
حسنات السياسة وسيئاتها غلبت الحسنات السيئات آخر الامر .
صحيح ان هناك أناسا ينكرون الجميل ، ولكن المرء يستطيع أن
يعاقبهم : يعزلهم ، يسجنهم أو يطاردهم ..

وكان روبيان يصفى خاضعا مفتونا . ان احساسا بالقوة كان
يشع من كاماشو ، وكانت عيناه تقدحان شررا . وكانت اللعنات
تنبجس من فمه كلعنات أشعيا ، حتى لكأن المرء يرى أكالييل
النصر تتلألأ فوق جبينه منذ الآن . فكان كل اشارة من اشاراته
رمز ، وكأنه وهو يفتح ذراعيه بحركة متعاطمة ، يعرض برنامجا
بكامله . كان يسكر أملا .. وكان في سكره فرح . وفي لحظة من
اللحظات وقف أمام روبيان وقال :

- اسمع أيها النائب العزيز . حاول ان تلقى خطابا تطلب فيه
اغلاق باب المناقشة : « سيدى الرئيس .. » هيا ردد معى « سيدى
الرئيس ، أبيع لنفسي أن أطلب اليكم .. »

فقاطعه روبيان بنهوضه على حين فجأة . لقد عراه نوع من
الدوار . وها هو ذا يرى نفسه داخلا على مجلس النواب الأداء
القسم والنواب قيام . ان رعشة تسرى في جسمه . ومشيته
متردة . لكنه يجتاز القاعة رغم كل شيء ، ويصعد سدة الرئاسة ،
ويحلف اليمين التقليدية . لعل صوته كان يرتجف قليلا في تلك
اللحظة ..

٩٩

كان روبيان على تلك الحالة النفسية حين نعى اليه فريتاس .
فسكب دمعة حزن ، خلسة . وتكفل بنفقات الدفن . وفي الاصيل
من الغد شيع الراحل الى المقبرة وقد أرادت أم صديقه حين رآته
يدخل الصالون ، أن تركع عند قدميه . لكن روبيان شدها اليه
من ذراعيها في الوقت المناسب فحال بينها وبين الركوع ، فكان
لهذه الحركة من بطلنا وقع كبير في نفوس الحاضرين جميعا . وجاءه
أحدهم فصافحه ، ثم قاده الى ركن من الاركان ، وأخذ يروى له
بصوت خافت انه صرف من الخدمة منذ بضعة أيام بغير حق ،

عمل ظالم مرده الى المؤامرات ...
- هم وكر أوباش . اعذرني اذا استعملت هذه اللفظة .

وحانت ساعة الجنازة . فأخذت الأم تودع فقيدها وداعا يمزق القلب . قبلات وانتحابات وصيحات .. في آن واحد معا . ولم نستطع النساء أن ينتزعنها من هناك . فالتجأن الى رجلين ، فاضطر الرجلان الى استعمال القوة . كانت تصرخ وتصر على أن تعود الى جثمان ابنها : ابني ، ابني المسكين .

وتابع الرجل المصروف من الخدمة يقول :
- فضيحة . ويظهر ان عملهم هذا لم يرض عنه الوزير . ولكنك تعرف كيف تجري الامور ، فمن أجل ألا يزعل المدير ...

- بم بم بم ...
كذلك كانت تدوى أصوات المطارق حين أخذوا يسلمون التابوت . واستجاب روبيان للطلب الذي تقدموا به اليه ، وهو أن يمسك أحد حبال الفطاء الذي يغطي التابوت ، فترك الرجل المصروف من الخدمة لشأنه . وكان هنالك في الخارج عدد من المتسكعين المتفرجين . وعلى النوافذ جيران يحنون على الشارع بعضهم فوق بعض ، وقد امتلأت أعينهم بذلك الفضول الذي يوقظه الموت في نفوس الاحياء . ويجب أن نذكر انه كانت هنالك أيضا « مركبة » روبيان الفخمة التي تختلف كل الاختلاف عن العربات الاخرى . لقد كان الناس يتحدثون من قبل عن هذا الصديق ، صديق المتوفى ، فجاء حضوره الآن مصدقا لما كان يدور على الألسن من شائعات . وأصبح الراحل محاطا بشيء من الاعتبار .

وفي المقبرة لم يكتف روبيان بأن يهيل على التابوت أول حفنة من التراب ، استجابة لرجاء جميع الناس ، وإنما لبث بعد ذلك منتظرا ، الى أن انتهى الحفارون من ردم الحفرة بمجارفهم الكثيرة ردما تاما . وكانت عيناه مخضلتين . حتى اذا انتهى كل شيء ، مضى وقد أحاط به سائر الحاضرين . وعند باب المقبرة مد قبعته بحركة واسعة ذات اليمين وذات الشمال ، محيا جميع الرؤوس المكشوفة المطأطئة . ولما صعد الى مركبته ، سمع هذه الكلمات تقال بصوت خافت :

- يظهر انه عضو بمجلس الشيوخ ، أو قاض من قضاة محكمة الاستئناف ، أو شيء من هذا القبيل .
لقد هبط الليل بينما كان روبيان راجعا الى بيته يفكر في ذلك

المسكين الذى دفنه منذ قليل . وها هو ذا يلتقى فى شارع سان كريستافون بمركبة أخرى يتبعها جنديان على صهوتى جواديهما . وتجمل أحد الوزراء فى طريقه الى مقابلة الامبراطور . مد روبيان رأسه من باب مركبته ، ثم عاد يدخله ، وليث لحظة يصفى الى رقع خطوات الجوادين . انها خطوات موقعة واضحة كل الوضوح رغم الضجة الناشئة عن وقع حوافر الخيول الاخرى . وبلغ تنبه ذهن صاحبنا من القوة انه ظل يسمع وقع هذه الخطوات رغم ان المسافة بينه وبين الموكب قد أصبحت أكبر من أن يصل اليه الصوت فى الواقع . . . تك . . . تك . . . تك . . .

♦♦ ١

بعد وفاة دونا ماريا أوجوستا بأسبوع أقيم لها القداس التذكارى المعتاد فى كنيسة سان فرنسيسكو دو باولا . وقد حضر روبيان القداس ، ورأى هنالك ماريا . ولم يكن فى حاجة الى أكثر من ذلك حتى يستعجل رد الرسالة . فما هى الا ثلاثة أيام حتى وضع الرسالة فى جيبه وهرع الى فلانجو . كانت الساعة الثانية بعد الظهر . لقد ذهبت ماريا بنديكتا ترد الزيارة للجيران الذين واسوها فى خلال الايام الاولى من حزنها . وصوفيا وحيدة فى البيت تهم أن تخرج .

قالت له وهى تدموه الى الجلوس :

— لابس ، سابقى ، أو اخرج فيما بعد .

فأجابها روبيان بأنه لن يؤخرها كثيرا ، وانه لم يجيء الا ليرد اليها ورقة .

— اجلس على كل حال . فى وسع المرء أن يرد ورقة وهو جالس .

كانت صوفيا من الجمال بحيث تردد روبيان فى أن يقول لها الكلمات القاسية التى هياها . كانت رائعة فى ملابس الحداد كأن ثوبها قالب أخاط بجسمها احاطة القفاز الاسود باليد . انها الآن جالسة ، ويمكن أن يرى المرء قدميها وحذاءيها الصغيرين المسطحين وجوربيها الحريري ، وهى كلها أشياء تطلب العفو والرحمة ، أما السيف الذى فى داخل الفم — وهذا هو التعبير الذى استعمله كاتب قديم فى وصف النفس — فكان يبدو عاجزا كل العجز عن أن يجرح أى انسان . بالعكس . . بل كأن يبدو نقيا نقاء البلور . .

وأوشك روبيان أن يضعف ، لكن الكلمات الأولى التى فاه بها
لا تسمح له بالتراجع .

قالت صوفيا :

— ما هى الورقة ؟

فأجابها متجلدا :

— هى ورقة أظنها خطيرة . ألا تتذكرين أو تعلمين أنك أضعت
رسالة ؟

— لا ...

— هل تكتبين رسائل فى كثير من الأحيان ؟

— فى بعض الأحيان . ولكننى لا أتذكر اننى كتبت شيئا على
جانب كبير من الخطورة . أرنى ..

كانت عينا روبيان تائهتين . فلم يقل شيئا ولم يفعل شيئا .
ونفض كمن يريد أن يخرج . ولكنه لم يخرج . وبعد بضع لحظات
من الصمت والقلق أردف يقول فى غير غضب :

— ليس سرا لديك اننى أحبك . أنت تعرفين ذلك ولا تطرديننى .
ولكنك فى الوقت نفسه لا تستجيبين لعواطفى ، وتكتفين بآثارى
بهذا الموقف الذى تقفينه منى . لم أنس بعد سهرتنا فى سانتا تيريزا ،
ولا رحلتنا فى القطار حين كنا جالسين نحن الاثنين وبيننا زوجك .
أتذكرين ؟ ان تلك الرحلة قد سببت شقائى . فممنذ ذلك اليوم
سلبت قلبى . أنت خبيثة . أنت كأفعى . ماذا صنعت لك ؟ اما
الا تحبيننى فذلك أمر أقبله ، ولكن لماذا لم تزيحى عن مينى
غشاوة الضلال فورا .

قاطعت صوفيا تقول وهى تنهض وتنظر الى جهة الباب :

— اسكت . هذا شخص قادم .

ولم يصل أحد . لكن كان يمكن أن يسمع كلام روبيان ، لأن
روبيان كان يزداد حماسة أثناء حديثه وكان يرفع لهجته شيئا بعد
شيء . وها هو ذا يرفع صوته الآن أكثر من ذى قبل . انه لا يرفع
الآن من أجل أن يربح قضية ، وانما هو يفرغ ما فى قلبه لا أكثر
من ذلك ولا أقل . صاح يقول :

— لا يهمنى أن يسمع كلامى أحد . فى وسع الناس أن يسمعونى .
سأقول لك الآن كل ما بنفسى ، وستطرديننى بعد ذلك وينتهى كل
شيء ... لا ... ليس يحق لأحد أن يعذب انسانا هذا التعذيب .
— اسكت ، استحلفك بالرب .

— أى رب ؟ اصفى الى التتمة ، لأننى قررت ألا أبقى فى نفسى شيئاً .

واشتد قلق صوفيا ، وكانت تخشى حقاً أن يسمع أحد الخدم كلام روبيان فرفعت يدها وكمت بها فمه . فلما لامست هذه اليد المعبودة شفّتيه عقل لسانه . فسحبت صوفيا يدها وتهيأت للخروج من الصالون . ولكنها ما أن وصلت الى الباب حتى وقفت . وكان روبيان قد مضى الى النافذة ليروح عن نفسه ، ويسترد هدوءه .

١٠١

لبثت صوفيا تتسمع بضع ثوان ، ثم رجعت الى الصالون ، ومضت مع خشخشة تنانيرها تجلس على أريكة الاطلس الازرق النى اشتروها منذ مدة قصيرة . والتفت روبيان فراها تهز رأسها هزة تأنيب . وقبل أن يفتح فاه بكلمة وضعت أصبعها على فمها متوسلة إليه أن يلزم الصمت ، ثم أومأت اليه بيدها أن يقترب ، فأطاعها . قالت :

— اجلس .. اجلس على هذا الكرسي .

فلما جلس أردفت تقول :

— جميع الاسباب تدعونى الى أن أغضب منك ، لكننى لن أفعل ، لعلمى بأنك طيب القلب ، ولأننى أدرك أنك صادق . فاذا ندمت على ما قلته لى ، صفحت عنك .

قالت صوفيا ذلك وضربت بمروحتها الجهة اليمنى من ثوبها لتسوى ثنية من ثناياه ، وحركت أساورها البللورية السوداء ورفعت ذراعيها ثم تركتهما تسقطان على ركبتيهما ، وأخذت تنتظر جواب روبيان وهى تطوى مروحتها ثم تنشرها ، فاذا بروبيان يهز رأسه متمنعا على خلاف ما كانت تتوقع . قال :

— لست أرى ما يوجب أن أندم ، وانى لأوثر الا تصفحى عنى . ومهما يكن من أمر فانى لن أنساك أبداً ، شئت ذلك أم لم تشأئيه . فى وسعى أن أكذب ، ولكن علام الكذب ؟ أنت التى لم تكونى صادقة ، أنت التى غررت بى ...

أنهضت صوفيا جذعها .

— . . . لا تفضبنى . . . لست أريد أن أهينك ، ولكن اسمحى لى أن أقول لك أنك أنت التى غررت بى فى غير رحمة

السة . أن تحبى زوجك ، فهذا أمر أقبه ، وقد غفرته لك .
أما أن ...

قالت صوفيا :

- أما ماذا ؟

فوضع روبيان يده في جيبه فأخرج الرسالة ومدها اليها . فلما
رأت صوفيا اسم كارلوس ماريا امتقع لونها امتقاعا شديدا .
ولاحظ روبيان شحوبها ، لكنها ما لبثت أن سيطرت على نفسها ،
وسأله ماذا تعنى هذه الرسالة ؟

- هي رسالة منك .

- نعم ، هي منى .

وتابعت تقول فى هدوء .

- ولكن ما الذى أقوله فى هذه الرسالة ؟ ثم من أعطاك إياها ؟

وهم روبيان أن يشرح ، لكنه قدر أن ما قاله حتى الآن كاف ،
تحياتها لينصرف .

قالت صوفيا مبهوتة :

- من فضلك ... فض هذه الرسالة بنفسك .

- لم يبق لى هنا ما عمله .

- لا تذهب ، فض الرسالة ، هذه هى . اقرأها كلها .

كذلك تابعت المرأة الشابة كلامها وهى تمسك به من كفه .

لكن روبيان شد ذراعه بعنفه ومضى يتناول قبعته ، ثم خرج .

ولم تجرؤ صوفيا أن تغادر الصالون ، خوفا من الخدم .

١٠٢

خلال اللحظات الاولى التى اعقبت ذلك ، ظلت صوفيا فى حالة
عصبية لم تسمح لها حتى بالتفكير فى الرسالة . وأخيرا تناولتها
فقلبتها ثم قلبتها وهى لا تستطيع أن تحزر مضمونها . لكنها ،
بعد أن استردت كل هدوئها ، تذكرت شيئا فشيئا أن الرسالة
تشتمل على منشور « لجنة الألاجواس » ومزقت الظرف فإذا هو
المنشور حقا . ترى كيف وقعت هذه الورقة بين يديه ؟ ومن أين
جاءته هذه الشكوك ؟ هل صورتها من تلقاء نفسه ، أم أن أحدا
صورها له ؟ هل هنالك سعايات ؟ ومضت الى الصبى الاسود الذى
كلف بحمل المنشور الى كارلوس ماريا ، فسأله هل أوصل

الرسالة ، فعرفت منه الحقيقة ، وهى انه حين وصل الى شارع الانفاليد ، لم يجد الرسالة فى جيبه ، فكتم الامر عن سيدته خوفا منها .

وعادت صوفيا الى الصالون وقد عدلت عن الخروج . ووضعت الرسالة والظرف ناحية من أجل أن تظهر روبيان عليهما ، فبرى بأم عينه أن ليس فى الامر شيء . ثم خطر ببالها انه قد يحسب أن الورقة قد أبدلت ، فدمدمت تقول : « لعنة الله » ، وراحت تذرع الغرفة جيئة وذهابا .

وأخذ سيل من الذكريات يغزو ذهن صوفيا . وتسمرت أمامها صورة كارلوس ماريا ، بعينه اللتين تشبهان عيني طيف ، طيف محبوب ومكروه فى آن واحد . وأرادت صوفيا أن تطرده ، لكنها لم تظهر بذلك ، فهو يرافقها عن يمينها وعن شمالها ، ولا يفقد شيئا من رجولته القوية ، ولا من تعاليه الماكر . وهى تراه فى بعض الاحيان منحنيا ينطق بتلك الكلمات التى سمعتها منه أثناء احدى حفلات الرقص ، تلك الكلمات التى سببت للمرأة الشابة ساعات طويلة من الارق وأياما كثيرة من الأمل ، ثم انتهت الى انضياح فى غياهب الوهم . أن صوفيا لم تستطع أن تفهم فى يوم من الايام اخفاق هذه المفامرة . ومع ذلك فقد كان يبدو أن كارلوس ماريا يحبها حقا ، وما من أحد أكرهه على أن يكشفها بمواطفه تلك المكاشفة الجريئة ، ولا على أن يقف تحت النافذة فى ظلمة الليل ، كما ذكر لها ذلك . وتذكرت أيضا اجتماعات أخرى به ، وكلمات عابرة مختلصة ، ونظرات حارة طويلة ، فلم تستطع أن تدرك كيف أن هذا الهوى العنيف كله لم يؤد فى آخر الامر الى شيء . ربما كان السبب فى ذلك أن الرجل لم يكن يحمل لها فى يوم من الايام حبا ، وأن الامر لا يعدو أن يكون عبثا أو أن يكون وسيلة يتحقق بها كارلوس ماريا مما له على النساء من سلطان الاغراء . أنه لم يكن الا رجلا مغرورا بنفسه ، وانسانا مستهترا تافها .

وماذا يعنيه آخر الامر من هذا السر ؟ ان كارلوس ماريا رجل تافه كل التفاهة . وقد أصبح لا يوقظ فى نفسها الا الاشمئزاز والاحتقار . وراحت تضحك أخيرا على كارلوس ماريا ، وهى تحس أن ضميرها يعذبها من تفكيرها فيه ، واستمرت تحوم حول هذا الموضوع زمنا طويلا رافعة عينها الى السماء كالملاك ، منتقمة من

ذلك الإبله - أنها تسميه الآن بالإبله .. ولكن ليست تولى هذا الامر أكثر مما يستحقه من اهتمام ؟ والتفتت أفكارها عندئذ ، في غضب ، نحو روبيان الذى أخرج مثل هذا الرجل من ظلمة النسيان بحكاية المنشور هذه ... ثم عادت الى تأملاتها الاولى ، انى كلمات كارلوس ماريا : اذا كان جميع الناس يرونها جميلة ، فلماذا لا يراها جميلة وهو الذى تجرأ أن يصرح لها بذلك ؟ آه .. لعلها كانت تستطيع أن تجعله يركع على قدميها لو لم تظهر له تلك المذلة كلها ، ولو لم تتأثر بمدائح ذلك التأثير كله .

وفجأة سمعت الخادمة التى كانت فى الحجرة المجاورة قرعة شيء ينكسر ، فهرعت الى الصالون فرأت سيدتها واقفة هناك وحدها ، قالت صوفيا :

- لا شيء ..

- خيل الى اننى سمعت ...

- هو هذا التمثال الصغير قد سقط ، الى حطامه .

صاحت الخادم :

- الصينى !

- انه تمثال من القيشانى يمثل رجلا صينيا . تمثال برىء مسكين يوضع عادة فى أعلى أحد الرفوف . وقد وجدته صوفيا بين أصابعها ، لا تدري كيف ، ولا متى ، فلما تذكرت مذلتها التى ارتضتها لنفسها ، لم تستطع أن تكبح جماح غضبها من نفسها ، فرمت التمثال الصغير على الأرض . يا للتمثال المسكين ! .. لم ينفعه انه كان من قيشانى ولا ان باليا هو الذى أهدها اليها .

- ولكن كيف أمكن ياسيدتى أن ...

- اذهبنى !

تذكرت صوفيا موقفها من كارلوس ماريا ، تذكرت ما استطاع أن ينتزعه منها من رضوخ سهل ، وتذكرت ما كانت تقابله به من صفح ، وما كانت ترشقه به من نظرات ، وتذكرت كيف كانت تدع له يدها فى سهولة .. نعم ، ذلك هو الامر ... لقد ترامت عليه فاستهان بها .

ثم تبدلت مشاعرها . ترى الا ينبغى البحث عن سبب آخر مختلف عن ذلك ؟ وراحت صوفيا تنبش ذاكرتها عسى أن تقع على سبب لذلك الهجران . هل بدرت منها حركة فيها فتور أو جفاء ؟ هل بدر منها شيء من الإهمال ؟ فتذكرت انها فى ذات يوم لم تجرؤ

أن تستقبله وهي وحيدة فأمرت أن يقال له انها ليست في الدار .
نعم ، من الجائز جدا أن يكون هذا هو السبب . ان كارلوس مارييا
رجل ذو كبرياء تجرحه أى اهانة . لقد عرف انهم كذبوا عليه ..
ذلك هو السبب الحقيقي .

١٠٣

الفصل ١٠٦ ، أو قل الفصل الذى يتساءل فيه القارىء
حائرا : كيف يتفق حزن صوفيا هذا والقصة التى رواها الحوذى؟
ولعله يسأل : أياكون موعد شارع الهارموني ، وصوفيا ، وكارلوس
ماريا ، وحكاية ذلك الحب العارم الآثم ، أياكون ذلك كله أراجيف؟
نعم ، انه أراجيف ، لكنها أراجيف لفقها القارىء وروبيان ، لا
ذلك الحوذى المسكين الذى لم يذكر أى اسم من الاسماء ، ولا
قص حكاية واقعة . وذلك ما كان فى وسعك ، أيها القارىء ، أن
تدركه لو أنك تأنيت فى قراءة الاسطر التى ولدت شكوك روبيان .
نعم يا صديقى العزيز .. عليك أن تتساءل بنفسك : هل يمكن أن
تكون تلك القصة كلها صادقة ؟ هل كان لرجل ذاهب الى مغامرة
من هذا القبيل أن يوقف عربته أمام البيت الذى يلقي فيه عشيقته؟
انه لو فعل ذلك لكان أشبه بمن يأتى بشاهد الى مكان الجريمة .
ان بين السماء والارض من الطرق أكثر مما تتخيل فلسفتك ...
أليس هناك طرق تقطع ذلك الطريق ويمكن أن تنتظر فيها العربة ؟
— صحيح .. وقد أعوز الحوذى ها هنا شيء من الخيال . ولكن
ما الفائدة التى يجنيها من تلفيق هذه القصة ؟

لقد قاد الحوذى روبيان الى منزل مكث فيه صاحبنا قرابة ساعتين
دون أن يصرفه . ثم رآه يخرج من البيت ويركب العربة ثم ينزل
منها فوراً ليمشى على قدميه طالبا اليه أن يتبعه . فخلص من ذلك
انه أمام زبون غريب الاطوار . ولكنه لم يخطر بباله حتى تلك
اللحظة أن يلفق شيئا . فاذا بامرأة معها صبي صغير — وهي المرأة
الشابة التى ذكرنا انه رآها فى شارع ساودى — تمر ، فيرمقها
صاحبنا بتلك النظرة العاطفية الحزينة ، فقدّر الحوذى عندئذ ان
الرجل ليس متلافا فحسب ، وانما هو كذلك فاسق ، فأخذ يحدثه
عن الغزوات التى تخيل اسنادها اليه . ولئن ذكر شارع الهارموني ،
فما ذلك الا لقربه من الحى الذى جاء منه . ولئن قال انه قاد
رجلا من شارع الانفاليد فلعل ذلك راجع الى انه قد أركب رجلا

من ذلك المكان فعلا بالامس - وربما كان هذا الرجل هو كارلوس ماريا نفسه - أو لعله راجع الى ان موقف عريته هو في ذلك المكان . المهم انه التقط ظرفا من شأته أن يجسد قصته ، تماما كما نتخذ من ذكريات النهار مادة ننسج منها أحلام الليل . وليس جميع الحوذين بقادرين على أن يخترعوا حكايات ، وجسبه فضلا انه استطاع أن يبنى من قطع واقعية شيئا متماسكا .

ولم يبق الا تلك المصادفة التي جعلت إحدى الخياطتين تقيم في شارع الهارموني . وهذه مصادفة حقا . لكن الخياطة هي المسؤولة عن ذلك . فلم يكن ليعز عليها أن تجد لنفسها مسكنا في مركز المدينة لو شئت أن تترك زوجها ومهنتها . لكن هذين الشيئين هما اللذان كانت تحرص عليهما فوق حرصها على أي شيء في هذا العالم . ولم يكن هذا على كل حال بالسبب الكافي لأن أسقط تلك الاسطر أو أن أختتم الكتاب .

١٠٤

اما خواطر صوفيا فليس فيها شيء كثير يحتاج الى تعليل . الا تطابق الواقع مطابقة دقيقة ؟ لاريب ان كارلوس ماريا لم يستجب لآمالها الاولى ، ولا استجاب للآمال التي راودتها بعد ذلك - نعم لقد راودتها بعد ذلك آمال أخرى ، وان لم يكن فيها من الحماسة والثقة ما كان في الاولى - وقد رأينا ان صوفيا قد أرجعت هذا الامر الى ثلاثة أسباب متتالية ومختلفة ، لأنها لم تستطع أن نجد تعليلا واحدا صادقا . غير ان هنالك سببا رابعا لعله هو السبب الصحيح ، لم يخطر ببال صوفيا ، وهو أن يكون نبت في قلب كارلوس ماريا حب جديد أحال كل ما سبقه تافها في نظره .

١٠٥

انقطع روبيان عن الذهاب الى فلانجو بضعة أشهر . ويجب الاعتراف بأن تنفيذ هذا القرار لم يكن بالامر السهل . لقد كلفه كثيرا من التردد وكثيرا من عذاب الضمير . حتى انه خرج من بيته غير مرة عازما على أن يزور صوفيا وأن يسألها الصفح عنه . ثم تصفح ؟ ليس يدرى . انه في حاجة الى الصفح وكفى ! لكن ذكرى كارلوس ماريا كانت تصده في كل مرة عن أنفاذ ما عزم عليه . وجاءت لحظة أصبح فيها الزمان الذي انقضى على آخر زيارة له هو

الذى يصده . ألا يكون مستغربا حقا أن يجيء ذات يوم الى ربة الدار يطلب العفو من عينيها الجميلتين كما يفعل ولد ضال ؟ اكسه كان يذهب الى مخزن باليا من حين الى حين . وبعد انقضاء خمسة أسابيع على هذه الحال أخذ باليا يعاتبه ويلومه على طول غيابه حتى لقد سأله بعد شهرين هل هو ممتنع عن زيارتهم عامدا . فأجابه روبيان بقوله :

— بل أشغالى كثيرة . ان مسائل السياسة هذه لا تدع للناس دقيقة من راحة . لكنى آت اليكم يوم الأحد .

تهيأت صوفيا لاستقباله . وقد وطنت نفسها على أن تنتهز الفرصة لتشرح له أمر الرسالة شرحا مشفوعا بالايمان المفلظة ، حتى يدرك أنها لا تخشى من ذكر الحقيقة شيئا . لكن ما عزمت عليه ذهب سدى . لأن روبيان لم يظهر ، وانقضى أحد آخر . وانقضت آحاد أخرى... وأرسلت اليه صوفيا مع ذلك ذات يوم قسيمة تبرع للألاجواس ، فاكتب بخمسة قوننات .

قال له شريكه حين ذهب روبيان الى المخزن يحمل اليه الورقة :

— هذا كثير ..

فأجابه روبيان :

— لن أكتب بأقل من ذلك ..

— أبيع لنفسي أن ألفت نظرك الى أنك تستطيع أن تبرع بكثير دون أن تبرع بهذا المبلغ كله . هل تظن أنه لا يشترك في هذا التبرع الا ثلاثة أشخاص أو أربعة ؟ ان اناسا كثيرين قد أرسلت اليهم اليوم قسيمة كالقسيمة التى أرسلت اليك ، حتى ان المرء ليرى هذه القسائم فى واجهات الحوانيت بميدان « التجارة » ... فليكن تبرعك بمبلغ أصغر .

— كيف أستطيع ذلك ، لقد كتبت الرقم .

— من السهل جدا أن تغير الرقم ٥ فتجعله ٣ ، وثلاثة فوننات مبلغ عظيم . صحيح ان هنالك مبالغ أكبر ، لكن أصحابها لا يستطيعون أن يتبرعوا بأقل منها بحكم مراكزهم أو ثرواتهم . ان بومفين مثلا قد اكتب بعشرة قوننات .

فلم يستطع روبيان أن يكبح ضحكة صغيرة ساخرة انطلقت منه ، وهز رأسه ، ولم ينزل عن قونناته الخمسة . ولو صحح لوضع وراء الرقم ٥ رقم ١ ، حتى يصبح المبلغ خمسة عشر قوننا ، فيزيد تبرعه على المبلغ الذى اكتب به بومفين .

وأردف باليا يقول :

- في طاقتك أن تبرع بخمسة قونتات ، بعشرة قونتات ،
بخمسة عشر قونتا . لكن رأس مالك يحتاج الى شيء من حسن
التدبير ، وأنت تبعثه حقا ... لاحظ أن إنتاجه قد قل منذ الآن ،

لقد كانت أموال روبيان مودعة عند باليا في الصندوق الحديدي
بالمخزن « أسهم ، ريع أملاك ، الخ » . كان باليا هو الذى يقبض
الأرباح والإيرادات ، ويقبض أجور المنازل الثلاثة التى حملة على
شرائها بثمن بخس منذ زمن ، واتضح أن ريعها كبير . وكان يملك
كذلك أنواعا كثيرة من قطع النقد الذهبى ، لأن روبيان كان مولعا
بجمعها من أجل التمتع بتأملها . وقد أصبح باليا أدري بمجموع
الأموال التى تتألف منها هذه الثروة من صاحبها نفسه ، وكان
يرى ما يصيبها من نقص فى غير انقطاع . فآلح يقول : ان ثلاثة
قونتات كافية . ومما يبرهن على إخلاصه أنه زوج مؤسسية
اللجنة . لكن روبيان أصر على أن تبرع بالقونتات الخمسة ،
حتى لقد انتهز الفرصة فسأل صاحبه عشرة قونتات أخرى ، لأنه
فى حاجة اليها ، فأخذ باليا يحك رأسه ، وقال بعد بضع لحظات :

- معذرة . فيم حاجتك الى عشرة قونتات ؟ ألسنت توقن أنك
ستضيعها ، أو أنك ستخاطر بها على أقل تقدير ؟

ولكن روبيان هزأ باعتراض باليا قاجلا :

- لو كنت أوقن أننى سأضيعها لما جئت أطلبها . وفى الأمر بعض
المخاطرة ما فى ذلك شك ، لكن من لم يخاطر بشيء لم يفز بشيء .
اننى فى حاجة اليها الأمر من الأمور ، أو قل لثلاثة أمور : اثنان
منها قرضان مضمونان ، وهما لا يتجاوزان قونتا ونصفا على كل
حال ، والثالث مشروع يكلف ثمانية قونتات ونصفا ... لماذا تهز
رأسك وأنت لا تعرف شيئا عن هذا المشروع .

- طبعاً . لو سألتنى نصيحتى وحدثتنى عن المشروع وعن
الأشخاص ، لاستطعت أن أعرف هل لك أن تخاطر أو لا . ولكننى
أخشى أن يؤدى هذا كله الى ضياع مالك ، هل تذكر أسهم
تلك الشركة التى كان اسمها « اتحاد رؤوس الأموال الشريفة » ؟
لقد قلت لك يومئذ ان هذا الاسم الفخم لا يدل الا على ان الفاية منه
هى التفرير بالناس وتشغيل عدد ممن لا يصلحون لشيء . لكنك
لم تشأ أن تصدقنى ، فرأيت بنفسك ما حدث . هبطت قيمة
الاسهم الى أدنى درجة ، ولم يبق فى هذا الفصل إيرادات لها .

— ما عليك اذن الا أن تبيع هذه الاسهم . بعها . يكفيني أن استرد رأس مالي . أو خذ القوننات العشرة من صندوق محلنا . سأتى الى هنا مرة أخرى ان شئت . أو أرسل المبلغ الى بيوتافوجو . واذا كنت تؤثر رهن بعض الاسهم ، فافعل .

فقاطعه باليا يقول فى صرامة :

— لا ... لا ... لن أفعل شيئا من هذا . لن أعطيك عشرة قوننات . لن أخضع لك فى كل أمر بعد الآن . ان من واجبى أن أقاوم . قروض مضمونة ! ليتنى أعرف أصحاب هذه القروض ؟ ألا تلاحظ أنهم يقترضون مالك ، ثم لا يردونه اليك أبدا ؟ أشخاص لا يستحيون أن يتعشوا كل مساء فى بيت دائنهم ، مثل كورديرو الذى رأيتك عنده . لا أدري هل الآخرون مدينون لك بمال أيضا ، لكن ليس يدهشنى أن يكونوا كذلك . أرى أن الكيل قد طفق . وما فاتحتك فى الأمر على هذا النحو الا لأننى صديقك . ولن تستطيع أن تقول ذات يوم اننى لم أحذر فى الوقت الذى ينفع فيه التحذير . من أى مورد تعيش فى المستقبل اذا أنت أتلفت كل ما تملك ؟ ان محلنا يمكن أن يفلس ...

— لا ... لا ...

— بلى . كل انسان يمكن أن يفلس . لقد شهدت بنفسى افلاس سوتو ، صاحب المصارف ، عام ١٨٦٤ .

كان روبيان يجيل فى خاطره آراء شريكه ، لأنه يجدها صائبة أو سديدة ، بل لأنه يراها فى صورتها الخشنة بعض الخشونة ، صادرة عن نية حسنة . فشكر لباليا نصائحه من صميم قلبه ، لكنه لم يأخذ بها ، فهو يصر اصرارا مطلقا على أن يعطيه صاحبه عشرة قوننات . ، غير انه وعده بأن يكون فى المستقبل أشد حذرا ، وأبعد عن الاستجابة للرجاء والتوسل . ثم اليس يملك من المال ما يفيض ؟ فقال له باليا مصححا :

— ما يفيض ، ربما ... أما ما يوهب فلا ...

ثم أردف يقول :

— لقد فات الوقت اليوم . وسأتىك بالقوننات العشرة غدا . ولكن لماذا لا تجيء الى بيتنا فى فلاننجو فتأخذها بنفسك ؟ ماذا صنعنا بك حتى تقاطعنا هذه المقاطعة ؟ أو ماذا صنعنا هما بك ؟ اذ يظهر ان الخلاف بينك وبينهما ما دمت أراك هنا . ما الذى حدث حتى تعاقبهما هذا العقاب ؟

كذلك تابع باليا كلامه ضاحكا .

فحول روبيان نظرتة . كانت كلمات باليا تبدو له مشتملة على شيء من السخر . انه يهزأ به كما لو كان على علم بكل شيء ، فلما عاد ينظر اليه رأى في وجهه ذلك السؤال نفسه ، فأجابه بقوله :
- لم تصنعا بي شيئا . وسأجىء اليكم في غد مساء .
- تعال على العشاء ..
- على العشاء لا أستطيع ، لأن عندي أصدقاء . لكننى سأجىء بعد العشاء .

وأضاف يقول وهو يحاول أن يضحك :

- لا تعاقبهما ، فانهما لم تصنعا لى شيئا .

قال باليا بينه وبين نفسه عندما خرج شريكه « لاشك ان أحدا قد تسلط عليه ... أحدا يفار من صداقتنا ، فهو ... ومن الجائز أيضا أن تكون صوفيا قد دبرت له مكيدة لتبعده عن البيت »
وظهر روبيان مرة أخرى على الباب . انه لم يكد يصل الى ركن الشارع حتى رجع أدراجه ليقول لصاحبه انه سيجىء يأخذ المال من المخزن لحاجته اليه في وقت مبكر ، ولكنه سيزورهم في المساء . انه في حاجة الى المال قبل الساعة الثانية بعد الظهر .

١٠٦

في تلك الليلة حلم روبيان بصوفيا وماريا بنديكتا . رآهما في أرض خلاء لا ترتديان الا تنورة وقد تعرى ظهراهما تماما ، وأخذ زوج صوفيا يجلدتهما في غير رحمة بسوط ذى ستة سيوز ينتهى كل منها بدبوس ، وذلك معاقبة لهما ، فالدم ينزف من جسميهما . واللحم يتمزق ويسقط على الأرض ، وهما تعولان وتستغفران وتتلويان من فرط الألم . فاذا سألتنى الآن عن السبب الذى من أجله كانت صوفيا هى الامبراطورة أوجينا وكانت ماريا بنديكتا إحدى وصيفاتها لم أستطع أن أجيبك جوابا دقيقا . وقدما صاحبت إحدى شخصيات دالفارس دى آزيفيدو : « كذلك هي الاحلام ، نعم ، كذلك هي الاحلام يا بانسيروزو » . على اننى ، شخصا ، أفضل رأى الشيخ بولونيوس الذى قال بعد أن سمع خطابا مطولا هاذا طويلا من هاملت : « انه منسجم حتى في هذيانه » فعندى ان في هذا الخلط بين صوفيا والامبراطورة أوجينا شيئا

من الاتساق ، وكذلك فيما نحن قاصوه عليك الآن مما سيبدو
أشد غرابة أيضا .

فما أن رأى روبيان هذا المشهد حتى أوقف العقاب مستاء ،
وأمر بشنق باليا وأنهاض الضحيتين . وقد قبلت أحدهما ، وهى
صوفيا ، أن تتركب العربية المكشوفة التى كانت تنتظر روبيان ،
ومضت العربية بهما كليهما خبيا ، أما هى فكانت نضرة مفنجا كأنها
لم تصب بشيء ، وأما هو فكانت تلوح فى وجهه معانى الانتصار
والسيطرة . والعربة كان يجرها فى أول الامر حصانان ، لكن
الحصانين أصبحا ثمانية ، أصبحا أربعة أزواج جميلة متوافقة .
والشوارع والنوافذ سوداء من كثرة ازدحام الناس ، والازهار
تهطل عليهما كالطر المذرار ، والاهازيج تنطلق من كل حذب
وصوب ... ويشعر روبيان انه الامبراطور نابليون الثالث .
والكلب فى العربة أيضا ، الى جانب صوفيا .

ولم يقف هذا الحلم عند حد ، ولم يحدث ما يكدره . ويفتح
روبيان عينيه على حين فجأة . أهو برغوث قرصه ؟ شيء من هذا
القبيل على كل حال . « كذلك هى الاحلام يا بانسيروزو » . لكننى
اعود فأقول اننى أوتر ما قاله بولونيوس : « انه منسجم حتى
فى هذيانه » .

١٠٧

أعطى روبيان القرضين ، وحقق المشروع . فأما المشروع فكان
مساهمة فى شركة يقال لها « شركة تحسين الاقلاع والرسو فى
ميناء رينو دى جانيرو » ، وأما القرضان فكان أحدهما سدادا لدين
متأخر على جريدة « الخفير » ، دين مستعجل تتوقف الجريدة عن
الصدور ان لم يدفع ...

قال كاماشو جين ذهب اليه روبيان بالمال :

— عظيم . وشكرا جزيلا . تصور ان أمرا تافها كهذا كان يمكن
أن يخنق بسببه صوت جريدتنا الناطقة بلساننا . هذه أشواق
المهنة ويا للأسف ! ان الشعب لم يثق ، فهو لا يعرف أولئك الذين
يعملون من أجله ، ولا يدعمهم ، أولئك الذين يخوضون المعركة كل
يوم دفاعا عن حرياته الدستورية . تخيل اننا لو لم نملك هذا
المبلغ لفقدنا كل شيء ، ولعاد كل منا الى شئونه الصغيرة ،
ولحرمت المبادئ ممن يدافع عنها دفاعا صادقا .

فقال روبيان محتجاً :

— لن يحدث هذا أبداً !

— أنت على حق . وسنضع الجهود . وستكون جريدة « الخفير » مثل أنتى التى تتحدث عنها الاسطورة ما أن تلامس الأرض مرة حتى تنهض أشد بأساً وأقوى شكيمة مما كانت !

قال كاماشو هذا ثم نظر فى رزمة الاوراق النقدية . هى قونت ومائتا ألف كروزيرو ، أليس كذلك ؟ سأل هذا السؤال ثم وضع الاوراق فى جيب سترته . واستمر يقول انهما يستطيعان الآن أن يطمئنا ، فقد هبت الريح تدفع الجريدة الى الامام . ان كاماشو يسكر فى بعض الاصلاحات المادية . حتى لقد مضى الى أبعد من ذلك فقال :

— علينا أن نهىء برنامجاً ، وأن نستثير همم رفاقنا فى العقيدة ، وأن نهاجمهم اذا اقتضى الامر . كيف ؟

— كيف ؟ بأن نهاجمهم . . لا أقصد أن نهاجمهم ، وانما أقصد أن نقومهم ! واضح ان جريدة الحزب قد أسرفت فى الرخاوة بعض الاسراف . واذا كنت أسميها جريدة الحزب ، فلأن جريدتنا هى جريدة افكار الحزب . هل تدرك الفرق ؟

— نعم نعم !

— أقول ان الجريدة توشك أن تصبح رخوة بعض الرخاوة ! قال ذلك وهو يقبض بأصابعه على سيجار قبل أن يشعله . وتابع كلامه :

— فيجب اذن أن نلج على المبادئ ، ولكن بصراحة ونبل ، مقتصرين على قول الحقيقة . ثق ان الزعماء فى حاجة الى أن يسمعوا الحقيقة من أفواه أصدقائهم ، من أفواه انصارهم . أنا لم أكن فى يوم من الايام عدو المصالحة بين الاحزاب ، حتى لقد ناضلت فى سبيل تحقيق هذا الهدف . ولكن المصالحة يجب ألا تعنى الوقوع فى حبال الخديعة . اليك هذا المثال من منطقى : ان جماعة بنيارو لا يفوزون بتأييد الحكومة الا من أجل طردى . ورفاقنا فى المبدأ ، بدلا من أن يحاربوا هؤلاء الناس لأن الحكومة تدعمهم ، هل تعرف ماذا يعملون ؟ انهم يدعمون جماعة بنيارو . — لا بد ان لجماعة بنيارو هؤلاء شيئا من النفوذ .

قال كاماشو وهو يفلق اغلاقا عنيفا علبة الكبريت التي كان بسبيل فتحها :

— ليس لهم أى نفوذ . واحد منهم مجرم مشهور . وآخر كان صبي خلاف . ثم انتسب ، والحق يقال ، الى كلية رسييف ... اعتقد ان ذلك كان فى عام ١٨٥٥ ، عقب موت عرابه الذى ترك له بعض الاموال . ان حياته لفضيحة من الفضائح . انه ماكاد يحصل على الاجازة حتى دخل المجلس الاقليمى ! رجل أبله ! لو صدق اننى بابا لصدق انه مجاز من الجامعة !

وتفاهما على التغيرات السياسية التى يجب ادخالها على انجريدة . وذكر كاماشو صاحبه روبيان بأن ترشيحه للانتخابات لم يخفق الا بسبب معارضة زعماء الحزب .. بسبب معارضة بعض زعماء الحزب « هكذا استدرك مصححا » . فأيده روبيان . وذلك ما سبق أن عرفه من صديقه فى حينه . وقد أضربت هذه الذكرى ما كان يشعر به من غيظ لهذا الاخفاق . لقد كان يمكن بل كان يجب أن يدخل المجلس النيابى . وهؤلاء الافراد هم الذين لم يشاءوا ذلك . قال روبيان بينه وبين نفسه : ولكن سيرون فى يوم من الايام نتيجة ما جنوا من اثم وسينديون على ما صنعوا . لسوف يذهلون ولسوف يجنون من الغيرة يوم يرونه نائبا ، عضوا فى مجلس الشيوخ ، وزيرا . كان خيال صاحبنا متى أوراه صديقه ، يقدف على الفور نارا ولهبا ، وينبفى ألا نرى فى ذلك ، على كل حال ، بغضا ولا حسدا ، يجب ألا نرى فيه إلا طموحا بريئا ، واطمئنا.انا هادئا الى الامجاد الباهرة التى تنتظره . وقد أسعد كاماشو أن يراه متفقا معه فى رأى . قال :

— الناس جميعا يرون هذا الرأى . وأظن ان أصدقاءنا لن يؤذيهـم بعض التهديد .

وفى ذلك المساء نفسه تلا على روبيان المقالة التى يناشد فيها الحزب ألا يؤخذ بالمناورات الغدارة التى تقوم بها الحكومة اذ تدعم فى بعض الاقاليم اناسا فاسدين لا قيمة لهم . وهذه هى الخاتمة التى يختم بها كاماشو مقالته .

« ان الاحزاب يجب أن تكون موحدة الصفوف خاضعة للنظام . وهناك من يزعم — « وما أعجبه من زعم » ! (١) — ان هذا النظام وهذا الاتحاد يجب ألا يبلغا حد ازدياد المنافع التى تسقط من بين

(١) باللاتينية فى الاصل .

أيدى خصومنا ، « ولشد ما يضحك ذلك » (١) ! من ذا الذى يستطيع أن يكفر هذا الكفر دون أن يرتعش من ذلك جسمه كله . وهب الامر كذلك ، هب المعارضة استطاعت مرة أن تغمض عينيها عن فساد الحكومة فيما يتصل بخرق القوانين واستغلال السلطة وعن كل هذا التفسخ وكل هذه المغالطات . ان مثل هذه الحالات التى يجب من جهة أخرى أن تكون حالات استثنائية ، لا يمكن أن تكون مقبولة الا حين يكون المراد تشجيع العناصر الطيبة لا السيئة . ان فى جميع الاحزاب خونة مكرين . ومن مصلحة خصومنا ان يرونا نضعف لقاء تأييد يوهب للفئة الفاسدة من الحزب . هذه هى الحقيقة . ونكرانها يؤدى بنا الى حرب داخلية ، أى الى تمزق فى روح البلاد نفسها . ولكن لا .. ان الافكار السديدة لا تموت . انها راية العدالة . لسوف يطرد الباعة من الهيكل ، ولا يبقى الا المؤمنون والاطهار ، أولئك الذين يغلبون المبادئ على المصالح التافهة ، المحلية ، الزائلة . ان جميع الذين لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حربا عوانا عليهم . « ذلك قدر محتوم » (٢) .

١٠٨

حبذ روبيان المقالة فى حرارة . وقال انها رائعة ، ولكن لعابها ليست عنيفة عنفا كافيا ، فكلمة « الباعة » مثلا جيدة ، ولكن اذا قيل « الباعة الاوباش » كان ذلك أجود . قال كاماشو :

— « الباعة الاوباش » ؟ هناك عيب واحد فى قولنا « الباعة الاوباش » هو تكرر حرف الباء فى الكلمتين . باعة أوبا .. باعة أوباش . الا تجد ان هذا لا يقع فى الاذن وقعا جميلا ؟
— ولكنك أتيت قبل ذلك بكلمتين يتردد فيهما حرف واحد :

— بل « الويل للمغلوب » هذه جملة لاتينية ! لعنا نستطيع أن نضع جملة أخرى . نستطيع أن نقول مثلا « التجار الاوباش » .
— « التجار الاوباش » ... لابأس ...

— صحيح ، لكن كلمة « تجار » ليس فيها من القوة ما فى كلمة « باعة » .

(١) باللاتينية فى الاصل .

(٢) باللاتينية فى الاصل .

— لماذا لا تدع اذن كلمة الباعة في محلها . ان عبارة « الباعة الاوباش » عبارة قوية . ولن يلاحظ أحد حكاية تكرار الباء هذه في الكلمتين . أنا مثلاً لا يلفت نظري هذا النوع من الامور أبداً . اننى أحب ما هو عنيف « الباعة الاوباش » !

كرر كماشو يقول بصوت خافت :

— الباعة الاوباش ، الباعة الاوباش . ان العبارة أجود . الباعة الاوباش . موافق .

وقد قال هذه الكلمة الاخيرة وهو يصحح النص ، ثم أعاد القراءة . « لسوف يطرد الباعة الاوباش من الهيكل ، ولا يبقى إلا المؤمنون والاطهار ، أولئك الذين يغلبون المبادئ على المصالح التافهة المحلية الزائلة . ان جميع الذين لا يكونون على هذه الشاكلة سيجدوننا حرباً عواناً عليهم . ذلك قدر محتوم . »

قال روبيان وهو يشعر بعض الشعور بأنه كاتب المقال :
— عظيم ...

— أعجبتك ؟ هناك أناس يرون أن أسلوبى قد احتفظ بالنضارة التى كانت له منذ أيام الدراسة . قد يكون هذا صحيحاً ، لسبب أدري ، وشعورى على كل حال هو اننى لم أتغير . يجب أن أكون قاسياً ، يجب أن تكون قساةً .

الآن أريد أن أكون قد اتبعت في هذا الكتاب الطريقة التى اتبعها كثير من المؤلفين — وهم جميعاً من الاقدمين — والتى قوامها شرح مضمون فصل من الفصول بعنوانه : « كيف وقع الامر الفلانى على هذا النحو أو على ذاك » . فتلك هى الطريقة التى اتبعها برنادرين ريبرو وكثير غيره من صفوة الكتاب . وحسبى أن أذكر من بين الكتب الاجنبية ، دون أن أرجع الى سرفانتس أو حتى الى رابليه ، مؤلفات فيلدنج وسمولت التى يمكن أن يقرأ كثير من فصولها بالنظر فى عناوينها . تناول مثلاً كتاب توم جونس ، الجزء الرابع ، الفصل الاول ، تجد هذا العنوان : « خمس صفحات من الورق » . الامر واضح ، بسيط ، لا يخدع أحداً . هى خمس صفحات لا أكثر من ذلك ولا أقل . فالذين لا يحبون أن يقرأوها لا يقرأونها ، والذين يحبون ذلك يقرأونها ، ومن أجل هؤلاء أنما يختتم المؤلف هذا الفصل فى لطف قائلاً : « الآن ننتقل الى الفصل اتالى من غير تمهيد » .

فلو كانت هذه الطريقة هي المتبعة في كتابي هذا ايها القارئ العزيز لكان العنوان التالي يشرح كل شيء : « كيف ان روبيان وقد سره التصحيح الذي أدخله على المقالة أخذ ينشئ ويجتر كثير من العبارات حتى انتهى من ذلك الى انه كتب جميع المؤلفات التي سبق له أن قراها » .

لعل بعض القراء لا يكتفون بهذا الكلام ، ويريدون تحليلا كاملا لهذا التطور الذي تم في ذهن بطلنا . ولكن هلا قدروا ان الصفحات الخمس التي كتبها فيلدنج لا تكفي لهذا الغرض ؟ ان ثمة هوذا تفصل بين الجملة الاولى التي شارك روبيان في كتابتها وبين انتحاله لنفسه جميع المؤلفات التي سبق أن قراها . ومن المحقق ان أصعب شيء لقيه هو الوثوب من تلك الجملة الى الكتاب الاول ، ثم سارت الامور بعد ذلك سيرا سهلا... ولكن التحليل سيظل طويلا مسرفا في الطول وسيظل مملا كثير الاملال ، حتى على هذه الصورة . وخير لنا أن ندع هذا كله والا نتذكر الا شيئا واحدا : هو ان روبيان عد نفسه خلال بضع دقائق كاتب عدد كبير من المؤلفات التي كتبها غيره .

ولكني أتساءل في مقابل ذلك هل الفصل التالي يمكن أن يلخص كله في عنوانه وحده .

حافظ روبيان على قراره في ألا يرى صوفيا بعد ذلك . انه علي الاقل لم يذهب الى فلامنجو . لكنه رآها ذات يوم تمر في عربة مع سيدة من سيدات لجنة الالاجواس ، فحنت رأسها وهي تبسم ابتسامة حلوة وتلوح بيدها محيية ، فرد التحية برفع قبعته ، وشعر بشيء من الانفعال لكنه لم يتسمر في مكانه محققا انها كما كان يتفق له ذلك في السابق ، وانما اكتفى بالقاء نظرة على العربة وهي تتابع سيرها . وتابع سنيره هو أيضا ، وحاول أن يفسر لنفسه ، وهو يفكر في أمر الرسالة ، هذه التحية الودية التي حيتها بها ملوحة بيدها ، هذه التحية الودية الخالية من أي تخرج ومن

أى حقد ، كأن لم يكن بينهما شيء . ترى هل مرد هذه البشاشة التى لم يكن يتوقعها من صوفيا ، الى تبعاتها كعضو من أعضاء النجفة ، وإلى وجود رفيقتها معها ؟ ولكن روبيان لم يخطر بباله هذا الفرض . وإنما تساءل : « أأكون مجردة من الكرامة الى هذا الحد ؟ ألا تتذكر تلك الرسالة التى وقعت عليها والتى كانت موجهة الى ذلك المتحذلق الذى يقطن شارع الانفاليد ؟ ألا ان هذا لكثير ! ألا انه لأسراف ! لكنها تتحداه ، لكنها تريد أن تقول له انها غير عابثة ، وانها ستكتب ما تشاء من رسائل . حسنا . لتكتب ما تشاء من رسائل . ولكن فلتكلف نفسها نفقة ارسالها بالبريد مضمونة ... وهى نفقة ليست بالباهظة كثيرا ... »

ورأى نفسه لاذع النكتة فأخذ يضحك . وكان من شأن هذا ، بالإضافة الى تحية كبيرة حياه بها رجل أثناء مروره ، أن محا من نفسه كل المرارة التى ولدتها فيه هذه الذكريات . ففسى الامر كله ، وأصبح لا يفكر الا فى القضية التى كان ذاهبا من أجلها الى « مصرف البرازيل » .

فلما وصل الى المصرف التقى بشريكه الذى كان خارجا منه . قال روبيان :

— أظن اننى لمحت دونا صوفيا منذ لحظة ..
— أين ؟

— فى شارع أوريف . كانت فى عربة مع سيدة أخرى لا أعرفها .
وانت كيف حالك ؟

قال باليا دون أن يجيب عن سؤال صاحبه :

— رأيته ولم تتذكر شيئا ؟ ألم تتذكر ان عيد ميلادها يقع بعد غد فى يوم الاربعاء ؟ لست أسألك أن تجيء على العشاء ، فما بى من جراءة على ذلك ، ولو سألتك أن تجيء لكنت أدعوك الى ضجر . غير ان احتساء قدح من الشاي ينتهى فى لحظة . فهل لك أن تجود على بهذه السعادة ؟

فلم يجب روبيان على الفور . لكنه قال أخيرا :

— سأجىء على العشاء . يوم الاربعاء ؟ ثق اننى سأجىء . يجب أن أعترف بأننى كنت ناسيا . ولكن هناك أشياء كثيرة تشغلنى . هل لك أن تنتظرنى فى المخزن ؟ سأجىء بعد نصف ساعة .

ووصل قبل انقضاء نصف الساعة ، طالبا من باليا أن ينقده قونتين . وقد أصبح باليا لا يعارض فى تبذيرات شريكه . ولئن

كان يقول له كلمة من الكلمات من حين الى حين بهدوء ، لقد
نقده المال هذه المرة في غير اكتراث . واشترى روبيان قبل ان
يعود الى بيته قطعة من الماس ، أرسلها الى صوفيا في يوم الاربعاء
مع بطاقة ضمنها تهنئة ببضع كلمات ..

وكانت صوفيا في مخدعها تنتعل حذاءيها حين حملت اليها الخادمة
هديته . انها ثالث هدية تتلقاها في هذا اليوم . وانتظرت الخادمة
ان تفض سيدتها الصرة لترى ما فيها هي أيضا . فلما فضت
صوفيا الصرة ورأت الجوهرة الرائعة لبشت مبهورة . فص جميل
جدا من الماس في وسط عقد . لقد كانت تتوقع ان تكون الهدية
جميلة ، لكنها منذ وقوع الحوادث الاخيرة أصبح يصعب عليها
ان تتصور ان يكون كريما هذا الكرم كله ، وأخذ قلبها يخفق .
- ألا يزال حاملها هناك ؟

- بل مضى . ما أروعها ياسيدتى !

واغلقت صوفيا العلبة ، وأكملت انتعال حذاءيها وظلت جالسة
وحدها زمنا تفكر في الماضي . ثم نهضت وهى تقول لنفسها :

- لاشك في ان هذا الرجل يعبدنى عبادة !

وقررت ان ترتدى ملابسها ، لكنها خطرت أمام المرأة فتوقفت
ببضع لحظات أخرى . لم تكن تحب شيئا كما تحب ان تتأمل
نفسها في المرأة ، وأن تقف معجبة تنظر الى تقاطيع جسمها الرائعة ،
الى ذراعيها العاريتين ، وحتى الى عينيها اللتين تسطعان سطوعا
فويا من اعجابها بنفسها . انها تحتفل في هذه الايام ببلوغها السنة
التاسعة والعشرين من عمرها ، فتري انها لا تقل جمالا عن جمالها
في الخامسة والعشرين . ولم تكن في ذلك على خطأ . ووضعت
مندها وأحكمت ربطه ، فأتاحت لصدرها ان يبرز بروزا أخذا .
وخطر لها عندئذ ان تجرب العقد لترى هل يناسبها ، فتناولته ،
فطوقت به جيدها . رائع ! وأدارت رأسها من اليمين الى الشمال ،
ثم من الشمال الى اليمين ، واقتربت ثم ابتعدت ، وتصنعت بعض
اللامح ونشرت في المخدع مزيدا من النور . انه لا يزال رائعا !
وتأكدت ان قفل العقد سليم ، فاحتفظت بالعقد على جيدها ،
وكررت تقول :

- هذا الرجل يعبدنى عبادة !

قال روبيان لنفسه وهو ذاهب الى العشاء في فلامنجو : قد

يكون هناك . ولكنى أستبمد أن يكون قد قدم هدية أجمل
من هديتى !

وكان كارلوس ماريّا هنالك حقاً ، يتحدث مع احدى سيدات
لجنة الألاجواس ، ومع ماريّا بنديكتا . ولم يكن عدد المدعوين كبيراً ،
وكانوا منتقنين انتقاء . فلا الضابط سيكويرا ، ولا ابنته ، ولا أحد
من الأشخاص الذين عرفهم روبيان أثناء العشاء بسانتا تيريزا ،
كانوا هناك ، بل بضع سيدات من لجنة الألاجواس ، ومدير أحد
المصارف « هو المدير الذى زار الوزير » وزوجته وبناته ، وشخصية
أخرى من شخصيات المصارف ، وتاجر انجليزى ، ونائب ، وقاض
من قضاة محكمة التمييز ، واحد مستشارى مجلس الدولة ،
وعدد من رجال الاعمال . . ويكاد يقتصر الحفل على هؤلاء .

ورغم ان صوفيا كانت ذلك المساء فى قمة مجدها ، فقد نسبت
مسائر الحاضرين حين لمحت روبيان يدخل الصالون ويتقدم نحوها .
لقد رأت فى وجهه غير ما عهدت أن ترى فيه من معانٍ ، ورأت
مشيته مشية رجل واثق بنفسه ، ورأت رأسه مرفوعاً : رأت
على نقيض ما كان عليه من خراقة وخجل ، سواء أكان مرد ذلك
الى انه تبدل فعلاً ، أم الى انها لم تره منذ زمن . وصافحته
صوفيا بقوة وهى تدمدم شاكرة . حتى اذا قاموا الى المائدة ،
دعته الى الجلوس قربها ، وأجلست على الطرف الآخر رئيسة
اللجنة . وكان روبيان ينظر الى كل شىء نظرة من يشعر انه أعلى
من غيره : لم تبهره قيمة المدعوين ، ولا فخامة الجو الذى يسيطر
على القاعة ولا الترف المبسوط على المائدة : لا شىء من ذلك كله
بهره . وحتى ما كانت تبذله له صوفيا من اهتمام كبير وانتباه خاص
لم يسكره رغم انه سره . ولم يزد ذلك صوفيا الا اهتماماً به
ورعاية له ، وكانت عينها تغمرانه بلطف خاص . وبحث روبيان
بنظره عن كارلوس ماريّا فرأى انه لا يزال هناك ، بين السيدتين
اللتين كان يتحدث اليهما منذ برهة فى الصالون ، وهما ماريّا
بنديكتا وعضو لجنة الألاجواس . ولاحظ صاحبنا ان كارلوس ماريّا
كان لا يعنى الا بهما ، ولا يتبادل وصوفيا نظرة .

قال بينه وبين نفسه : « لعلهما يخفيان لبعتهما ! »

وخيل اليه حين نهض جميع الناس عن المائدة انهما تراشقا
نظرة ، لكنه لم يثق بهذا كل الثقة ، لما حدث عندئذ من جلبة .
ذلك كل ما استطاع أن يلاحظه . وأسرعت صوفيا تتناول ذراعه ،

وقالت له وهي تسير معه :

— انتظرتك طوال الوقت منذ ذلك اليوم المشهود ، ولكنك لم تعد بعده أبدا . وكان من حقى مع ذلك أن أصر على رؤيتك لأستطيع أن أشرح لك موقفى . سنتحدث فى هذا الامر بعد ذلك .

ولم يلبث روبيان أن مضى الى غرفة التدخين . فأصغى هنالك الى الحديث دون أن يقول كلمة واحدة ، وقد بدا عليه الدهول . حتى اذا انصرف جميع الضيوف لبث وحده جالسا على أريكة من الجلد ، وقد خلا رأسه من أى فكرة . كان خياله وحده هو الذى يعمل ، بل كان هذا الخيال نفسه يعمل فى شىء من التشاغل والكسل . . ربما كان ذلك لأنه أفرط فى الطعام ! انه يسمع أصوات ضيوف السهرة يصلون ، والبيت يمتلئ شىئا بعد شىء ، وضجة الحديث تقوى وتشتد ، وهو لا يخرج من أحلامه . حتى صوت البيانو الذى قطع جميع الاصوات الأخرى ، لم يرده الى الأرض . الا ان حفحة حرير فى الغرفة أنهضته واثبا على حين فجأة ، فارتد الى الواقع ارتدادا كاملا . قالت صوفيا .

— ها . . . انت هنا . . . انك تعتصم فى هذا المكان تجنبا للضجر . الا تريد حتى سماع الموسيقى الجميلة ؟ ظننت انك انصرفت ، وكنت بسبيل البحث عنك .

ولما كانت لا تريد أن تضع دقيقة من الوقت ، راحت تقص عليه دون أى تمهيد ما تعرفه من أمر الرسالة التى عثر عليها فى حديقة بيته ، وذكرته بأنها طلبت اليه أن يفض الرسالة بنفسه وان يقرأها ، من قبل أن تفضها هى . أى برهان كان يمكنها ان تقدمه دليلا على براءتها أقوى من هذا البرهان ؟ وكانت تتكلم بسرعة ، وقد ظهر فى وجهها الجد والوقار كما ظهر فيه التأثير والانفعال . حتى لقد اخضلت عينها فى لحظة من اللحظات ، فجففتها ، ولكنهما ظلتا حمراوين . فأمسك روبيان بيدها ورأى دمعة أخيرة — دمعة صغيرة — تنحدر على خدها وتصل الى ركن فمها . فحلف لها عندئذ انه يصدق كل ما قالت له ، نعم حلف لها ! ولكن فيم تبكى ؟ وجففت صوفيا عينيها مرة أخرى ، ومدت اليه يدها وهي تفيض شكرا ، وقالت :

— الى اللقاء القريب . .

كانت الموسيقى لا تزال تصدح . فقال لها روبيان ان أحدا لن يأتى فيزعجهما ما داموا يستمعون الى الموسيقى ، فأجابته بقولها :

- ولكننى لا أستطيع أن أغيب مدة طويلة . وهناك أوامر
يجب أن أصدرها . الى اللقاء القريب .

فقال روبيان ملحا :

- أرجوك ، اسمعى ..

فوقفت صوفيا ، فقال لها :

- اسمعى ، دعينى أقل لك ، ربما لآخر مرة ..

- لآخر مرة ؟

- من يدري ؟ هذا جائز جدا . ليس يعنينى كثيرا هذا الرجل
وما يفعله ، ولكن قد التقي به هنا ، ولست أحب أن أتشاجر معه .

- لسوف نلتقى به هنا فى جميع الايام . ألم يلفك كرستيانو
النبا الى الآن ؟ انه سيتزوج ماريا بنديكتا .

فتراجع روبيان خطوة الى الوراء .

وأردفت صوفيا تقول :

- نعم سيتزوجان . نبا مفاجيء ولا شك ، لأنه لم يكن فى
الحسابان ، فاما انهما كانا يحسنان اخفاء ما عقدا عليه النية ، واما
ان حبهما نزل على قلبيهما مفاجئا كنزول الصاعقة وكيف كان الامر
فهما على وشك الزواج . لقد روت لى ماريا بنديكتا قصة طويلة
بهذا الصدد ، واكد لى شخص آخر صدق هذه الرواية . والامر
واحد على كل حال ، هو انهما قد أعجب كل منهما بالآخر ، وصارح
كل منهما الآخر . وسيتزوجان قريبا . ولقد قال له كرستيانو حين
حدثه فى الامر ، ان الموافقة متوسطة بى انا .. كما لو كنت أمها !
وقد وافقت فورا ، وكل ما أتمناه لهما هو أن يسعدا . والمرء
يحس انه فتى طيب ، وهى فتاة فذة ما فى ذلك ريب ، فكيف
لا يسعدان ؟ انه لزواج موفق . لقد ورث هو عن أبويه ثروة
كبيرة ، وماريا بنديكتا لا تملك شيئا البتة ، لكننى هذبتها وثقتها
كما تعلم . لاشك أنك تذكر انها حين جاءت الينا كانت أشبه
بحيوان متوحش : كانت لا تعرف شيئا على الإطلاق . وأنا التى
هذبتها وثقتها . ومهما يكن من أمر ، فهذا ما يحدث اليوم ، ولا
شك فى ان خالتى تستحقه ، ولا شك فى ان ماريا تستحقه أيضا .
ذلك هو الموضوع ، سيتزوجان قريبا جدا . ألم تلاحظ اليوم انهما
ظلا معا لم يفترقا لحظة واحدة ؟ اننا لم نعلن الامر رسميا حتى
الآن . لكن أصدقاء الاسرة قد يكونون على علم به .

الحديث طويل من شخص كان مستعجلا ذلك الاستعجال كله .

ولم تلاحظ صوفيا ذلك الا متأخرة بعض التأخر . قالت لروبيان
وهي توصيه أن يذهب الى الصالون : الى اللقاء بعد لحظة .
كان البيانو قد صمت وكانت تسمع ضجة خفيفة من تصفيق
وحدث .

١١٢

سيتزوجان ؟ اذن فكيف أمكن أن ...؟ ماريا بنديكتا ... ان
ماريا بنديكتا هي التي تتزوج كارلوس ماريا ... أدرك روبيان كل
شيء الآن . اذن لم يكن الامر كله الا خطأ والتباسا . ما ظن انه
حدث مع شخص قد حدث مع شخص آخر . هكذا يمكن أن يصل
المرء الى القيبة بل الى الجريمة ..

تلك هي الافكار التي دارت في رأس روبيان اثناء اتجاهه الى
قاعة الطعام حيث كان حشيم البيت يمدون مائدة الليل . وتابع يقول
وهو يذرع الفرفة جيئة وذهابا :

— هه ... لقد كان باليا يريد أن يزوجني ماريا بنديكتا ، دون
أن يدور بخلده ان القدر يهييء لها خطيبا آخر . هو فتى جميل .
عمر خير منها على كل حال . ان ماريا بنديكتا لاوجود لها أو لا يكاد
يكون لها وجود اذا قيسست بصوفيا . ولكن الحب هذا شأنه .
سيتزوجان ، سيتزوجان قريبا ... أترأه يكون زواجا فخما ؟
ربما ! يخيل الى ان باليا يعيش الآن في بحبوحة أوسع ... وألقى
روبيان في الوقت نفسه نظرة على الاثاث ، وأطباق القيشاني ،
وأواني البللور ، والستائر .. آ .. نعم .. سيكون زواجا فخما .
ثم ان الخطيب غنى ...

وفكر روبيان بعد ذلك في المركبة التي سيحتاج اليها في هذه
المناسبة ، وفي الخيول التي يجب أن تجرها . وتذكر انه رأى منذ
بضعة أيام في الانجنيو فليو حصانين رائعين يبهران الابصار .
فقرر أن يوصى على حصانين آخرين شبيهين بهما تماما ، مهما يكن
الثمن . ويجب عليه كذلك أن يقدم هدية الى الخطيبة . وبينما كان
يفكر فيها رآها تدخل قاعة الطعام . قالت له :

— أين ابنة خالتي صوفيا ؟

— لا أدري . كانت هنا منذ قليل .

ولما رآها تهم أن تعود أدراجها رجاها أن تبقى دقيقة وألا تفضب
فوقفت ماريا بنديكتا تنتظر ، فلم يلبث أن قدم لها تهانيه دون تردد

انه يعلم انها على وشك الزواج . فاحمرت ماريًا بنديكتا حتى
اصبحت بلون القرمز ، ودمدمت ترجوه ألا يذكر لأحد عن هذا
الامر شيئاً . ولم يكن ثمة أحد من الخدم ، فتناول روبيان يدها
وشد عليها بكتلتا يديه . قال :
- أنا من أهل البيت . وانك لتستحقين أن تسعدى ، وأرجو
لك أن تسعدى .

فوجئت ماريًا بنديكتا قليلا ، وسحبت يدها . لكنها أخذت
تبتسم في الوقت نفسه حتى لا تؤذى شعوره . ولم يكن هو في
حاجة الى هذا ، فقد كان مفتونا ومسحورا . نحن نعلم ان الفتاة
لم تكن بالجميلة . غير انها كانت في ذلك المساء فاتنة . قد بدلتها
السعادة . لكأن الطبيعة قد صبت فيها فجأة كل ما عندها من
فتنة . وتابع روبيان يقول مبتسما هو أيضا :

- ابنة خالتك هي التي أبلغتني النبأ ، وسألتني أن أكتب الامر .
لن أسره الى أحد قبل أن يصبح رسميا . وأى ضرر في أن أتحدث
به اليك . انك لفتاة طيبة ، وانك لتستحقين كل خير . لماذا تفضين
طرفك . ليس الزواج عيبا . ارفعى رأسك وتبسمي .

فرفعت ماريًا بنديكتا اليه عينين تشع منهما السعادة .
قال روبيان محبداً :

- نعم هكذا . أى ضرر في أن يسر المرء بأموره الى صديق .
اسمح لي أن أقول لك الحقيقة كلها . أعتقد انك ستكوبين
سعيدة ، ولكنني أعتقد انه سيكون أسعد أيضا . لا ؟ سترين أن
هذه هي الحقيقة . سيقول لك عواطفه بنفسه ، فاذا صدقتك
القول ستضطرين الى الاعتراف بأن نبوءاتي كانت صحيحة . أعرف
انه ليس هناك موازين توزن بها العواطف ، لكن الذى أريد أن
أقوله هو انك مخلوقة تبالغين من النبل والجمال أن... هيا اذهبي ،
اذهبي حالا ، والا تابعت أقول الحقيقة كلها حتى تحمرى احمرارا
شديداً ..

وكانت ماريًا بنديكتا تحمر فعلا من شدة فرحها بكلمات روبيان .
ان مشروعها قد فاز بالموافقة اللازمة من أهل البيت ، ولكن
لا شيء عدا ذلك . وحتى كارلوس ماريًا لم يظهر لها كثيرا من
ال عاطفة : لقد كان يحبها في شيء من التحفظ . كان يحدثها عن
السعادة الزوجية حديثه عن حق يناله من القدر ، حق هو من
طبيعة الاشياء ... وينبغي أن نذكر أيضا انه لم يكن في حاجة الى

أن يعاملها غير هذه المعاملة من أجل أن تعيده أكثر من أى شيء فى هذا العالم . وطلب إليها روبيان مرة أخرى أن تذهب ، وظل ينظر إليها كأنها ابنته . ورآها تبتعد وهو على هذه الحال ، لتجتاز الغرفة وتختفى من أحد أبوابها . أنها خفيفة الحركة فرحة ، تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه منذ برهة . ولم يتمالك روبيان أن هتف :
— مخلوقة طيبة جميلة !

١١٣

ان قصة زواج ماريّا بنديكتا قصة قصيرة . وهى تستحق أن تروى رغم أن صوفيا تجدها مبتذلة . يجب أن نسلم قبل كل شيء بأنه ما كان ليتم زواج لولا وباء الألاجواس . وهذا ما يمكن أن نستخلص منه أن الكوارث مفيدة ، بل ضرورية . ولا تعوزنا الامثلة على ذلك . حسبى اليوم أن أروى هذه القصة القصيرة التى سمعتها فى طفولتى والتى سأنقلها فى سطرين : فى يوم من الايام كان كوخ يحترق على حافة طريق . وعلى مقربة منه قعدت صاحبة الكوخ على الارض « وهى عجوز فقيرة » تندب حظها وتبكي بدموع ساخنة . وفى اثناء ذلك مر رجل سكران ، فرأى الحريق ورأى المرأة ، فسألها : هل البيت الذى يحترق بيتها . فقالت له :
— هو بيتى ياسيدى ، وهو كل ما أملك فى هذه الحياة الدنيا .
— فهل تسمحين لى اذن أن أشعل منه سيجارى ..

لاشك فى ان الكاهن الذى روى لى هذه القصة قد رتب النص الاصلى ، اذ ليس من الضروري ان يكون المرء ثملا حتى يشعل سيجاره من شقاء الناس . الله درك يا أب شاجاس ! « كان اسم الكاهن الاب شاجاس » . الله درك يا أب شاجاس ، يا من علمتنى هذه الفكرة المفزية سنين طوالا ، وهى ان المرء لايمكن أن يستغل شقاء غيره وهو مالك جميع قواه .. ناهيك عما برهن عليه هذا السكير من احترام لحق التملك حتى انه لم يجرؤ على اشعال سيجاره من الانقاض الا باذن صريح من صاحبته . اليس هذا كله افكارا مفزية حقا ؟ الله درك يا أب شاجاس ، الله درك !

١١٤

والآن ، وداعا ايها الاب شاجاس . لنعد الى قصة الزواج . اما ان كارلوس ماريّا قد أعجب ماريّا بنديكتا ، فذلك ما فهمناه ، أو

حزرناه' على الاقل ، منذ الحفلة الراقصة التى أقيمت فى شارع الاركوس ، والتى رقصت صوفيا خلالها معه رقصة طويلة ، فأبنا الفتاة تنهياً للعودة الى الريف فى الغداة . لقد هدأتها ابنة خالتها يومئذ ، قائلة انها بسبيل العثور على خطيب لها . فقدرت ماريا بنديكتا انه راقص الليلة البارحة ، وأخذت تنتظر فى صبر . ولم تفض بسرها الى صوفيا ، أولا من قبيل الحياء والخفر ، وثانيا من أجل ألا تفسد على ابنة خالتها لذة احداث المفاجأة بالكشف عن اسم الشخص . ثم انها اذا أفضت بسرها حالا كان يمكن أن تفتى حماسة الشخص الآخر ، وبذلك تعرض جميع أحلامها للدمار . ومهما يكن من أمر ، فانه لا ينبغي لنا أن نطيل الكلام فى هذه النقطة ، فما هذا كله فى آخر الامر الا حسابات صغيرة تقوم فى ذهن فتاة شبت فى قلبها نار الحب !

وجاء وباء الالاجواس . وجندت صوفيا لجنتها . وكان من آثار ذلك أن اتسعت علاقات أسرة باليا اتساعا كبيرا . وقد دخلت ماريا بنديكتا نفسها عضوا فى احدى اللجان الفرعية ، وبذلك عرفت جميع السيدات الاخريات ، ولكنها حظيت بتقدير احداهن خاصة وهى دونا فرناندا ، زوجة أحد النواب . ودونا فرناندا لم تتجاوز الثلاثين من عمرها الا قليلا ، وهى سيدة تفيض صحة وجذلا وانطلاقا ، ولدت بمدينة بورتو أليجى ، وتزوجت شابا من الالاجواس يحمل شهادة الليسانس ، وقد أصبح زوجها بعد ذلك نائبا عن مقاطعة أخرى ، وهو الآن بسبيله الى أن يصبح وزيرا فيما تقول الاشاعات . وقد أدخلت دونا فرناندا فى اللجنة بحجة أن زوجها يرجع أصله الى الالاجواس . ولم يندم أحد على ادخالها فى اللجنة ، لأنها كانت تطلب التبرع من الناس بلهجة الامر ، ولا تعاني من عقدة الخجل ، ولا تطيق أن يقابلها أحد برفض ! وكان كارلوس ماريا ابن عم هذه السيدة ، فلما وصلت الى ريو دى جانيرو جاء اليها يزورها ، فرأى انها ازدادت جمالا على جمانها سنة ١٨٦٥ - وهى السنة التى رآها فيها أول مرة - ولعله لم يخطئ . واستنتج من ذلك أن مناخ الجنوب يقوى الجسم ويضاعف المفاتن الطبيعية ، حتى لقد علل نفسه بأن يمضى الى الجنوب يقضى فيه أواخر أيامه . قالت له :

- تعال الى هناك ، وسأظفر بتزويجك . اننى أعرف فتاة من بيلوتاس هى فى الحق جوهرة ثمينة ، ولا تريد أن تتزوج الا شابا من ريو .

— تريد أن تتزوجنى طبعاً !
— تريد أن تتزوج شاباً من ريو واسع العينين . واعلم اننى لست
بمسبيل المزاح ، انها فتاة جنوبية فذة حقاً . انظر ، هذه صورتها !
وفتحت دوناً فرناندا محفظة للصور ، فأرته صورة الفتاة .
قال :

— ليست دميمة !
— فقط ؟
— بل هى أيضاً جميلة !
— يا ابن عمى ، ما أكثر اظهارك للاشمئزاز !
فابتسم كارلوس ماريّا دون أن يجيب . ان هذا التعبير لم يعجبه .
وأراد أن يغير موضوع الحديث ، لكن دوناً فرناندا عادت تتكلم
عن زواج صديقتها . فهى تنظر الى الصورة وتشرحها ، وتسبغ
عليها شكلاً ولوناً ، واصفة عيني الفتاة وشعرها وبشرة وجهها .
ثم تحدثت قليلاً عن تاريخ حياة سونورا . هذا هو اسم الفتاة .
ان الكاهن الذى عمدها قد تردد فى تسميتها بهذا الاسم ، رغم
ما كان يحظى به أبو الطفلة من احترام ، وهو أحد أغنياء المالكين
بالمنطقة ، لكنه رضى لهم أخيراً . على أساس ان فضائل الطفلة
قد تؤدى الى أن يدرج اسمها فى عداد القديسين .

قال كارلوس ماريّا :
— تعتقدان ان اسمها سيدرج فى عداد القديسين ؟
— اذا هى تزوجتك !
— هذا لا يدل على شيء . فلو تزوجت الشيطان لاصبحت
قديسة بالاستشهاد . القديسة سونورا : ليس هذا الاسم قبيحاً ،
وهو يعنى ما يعنيه ، القديسة سونورا . ومهما يكن من أمر يا ابنة
العم ...

فقاطعتة تقول :
— اسكت ... انت زنديق ...
ثم أردفت تقول وهى تخبىء محفظة الصور :
— اذن لم تحب صديقتى الجنوبية ؟
— لم أقل ذلك . ولكن دعينى هادئاً فى عزوبتى . ألا يكون
المرء بذلك فى منتصف الطريق الى الجنة ؟
فانفجرت دوناً فرناندا ضاحكة وقالت :
— رحماك يارب ! هل تظن حقاً انك ذاهب الى الجنة يوماً ؟

— أنا فيها منذ عشرين دقيقة . هل يشبه هذا الصالون الهادئ ،
الطيب الذى يبدو بعيدا كل البعد عن جمهرة الناس فى الخارج ،
إلا بالجنة ؟ اننا نستطيع هنا أن نتحدث فى هدوء دون أن نسمع
تجديف الناس ، ودون أن يكون علينا احتمال تلك العقول العوجاء ،
المتلآة بالسل وداء الخنازير ، تلك العقول التى لا تطاق ، تلك
العقول التى هى خير ما يصور الجحيم . هنا الجنة ، أو ركن من
الجنة على الأقل . وما دام هذا الركن يتسع لنا ، فهو والانهاية
سيان . اننا نتحدث عن القديسة سونورا ، والقديس كاراوس
ماريا ، والقديسة فرناندا التى قررت أن تزوج الفتيات ، لتختلف
قليلا عن القديس جونزالو . فأين توجد جنة كهذه الجنة ؟

قالت دونا فرناندا :

— فى بيلوتاس .

فقال متنهدا وهو يمد ساقيه ويرفع بصره نحو ثريا الصالون :

— بيلوتاس بعيدة جدا .

— على كل حال ، هذه هجمتى الاولى . وستلاحق هجماتى الى

أن ترضخ لى .

فابتسم كارلوس ماريا ونظر الى عهى ضفيرة الحرير التى عقدتها
حول رقبتها فى اهمال . ترى هل ألقى هذه النظرة ليتأمل العينين
أو ليعجب برشاقة الجسم ؟ ولاحظ مرة أخرى أن ابنة عمه امرأة
جميلة حقا . وحضه هذا الجمال ، من غير أن يشعر ، على أن
يرفع نظره الى أعلى قليلا ، لكن الاحترام حمله على أن يحول
عينيه بسرعة . وليست الصداقة وحدها هى التى دفعته الى اطالة
زيارته فى هذا البيت والى تكرارها : لقد كان كارلوس ماريا يحب
محادثة النساء بقدر ما يكره محادثة الرجال عامة . فهو يرى أن
الرجال متعاضمون وعاميون ومملون وثقيلون وتافهون وغليظون
وسخيفون . . . أما النساء فلهن عاميات ولا متعجرفات ولا مملات .
وليس يجردهن من فتنتهن أن يكون بهن شىء من العجب والزهو ،
بالعكس . . . أن بعض العيوب الثانوية تحتل فيهن أكثر مما تحتل
فى الرجال . زد على ذلك أن لهن كل ما لجنسهن من حلاوة
وعذوبة . وكان كارلوس ماريا يرى أن أكثرهن تفاهة لا تخلو من
شىء . فاذا خلا بعضهن من الملاحه حقا قال انهن رجال .

وفى أثناء ذلك كانت الصلات بين دونا فرناندا وماريا بنديكتة

تتوثق يوما بعد يوم . وكانت الفتاة تجتاز فى تلك الآونة أزمة .

فهي الى ما تتصف به طبيعتها من حياء تظهر عليها الآن علامات حزن واضحة . وكان الاختلاف بين المرأتين - سواء من ناحية الطبع أم من ناحية المركز - هو بعينه ما يقرب بينهما . ان 'دونا فرناندا' امرأة تفيض حبا للناس وعطفا عليهم . كانت تحب الضعفاء والحزائيين ، لشعورها بأن عليها أن تعيد اليهم المرح والشجاعة . ويعزو الناس اليها أعمالا كثيرة من أعمال البر والتضحية .

سألت صديقتها الشابة ذات يوم :
- ولكن ماذا بك ؟ أنك لا تضحكين أبدا ، ولا تغيب عن وجهك امارات التفكير ، وعيناك تائهتان دائما في أحلامك ...
- ليس بي شيء ، هذه طبيعتي ...

قالت ماريا ذلك مبتسمة ، وقد بدا عليها انها لا تبسّم ، من قبيل التلطف . ثم أشارت كذلك الى فقد أمها قائلة أن ذلك أحد أسباب كآبتها . فأخذت دونا فرناندا منذ ذلك الحين تصطحبها حيثما تذهب ، وتدعوها الى العشاء ، وتخصها بمكان في شرفتها حين تمضي الى المسرح ، الخ .. فبفضل ذلك ، وبفضل طبعها المرح أيضا ، استطاعت أن تطرد من ذهن الفتاة الافكار السود التي استولت عليها . وسرعان ماجعلتهما العادة والمودة صديقتين حميمتين . لكن ماريا بنديكتا ظلت تكتم سرها في صدرها .

قالت دونا فرناندا ذات يوم لنفسها : « مهما يكن هذا السر . فأعتقد أن خير شيء هو أن أزوجهها كارلوس ماريا . وفي وسعي سونورا أن تنتظر .. »

فقالت لها بعد يومين في بيتها الصغير بماتا كافالوس :
- يجب أن تتزوجي ..

كانت ماريا بنديكتا البارحة بصحبة صديقتها في المسرح ، فرافقتها بعد المسرح الى منزلها وقضت ليلتها عندها .

- لا تنتفضي ، يجب أن تتزوجي وستتزوجين . اننى أهم أن أقول لك هذا منذ يومين ، لكن هذه الامور اذا قيلت في الصالون أو في الشارع لا يكون لها ما ينبغي أن يكون لها من قوة الوقع ولا كذلك في البيت . فاذا كنت تحسين أنك قادرة على أن ترافقينى في جولة صغيرة على الراية ، وتبنا كل شيء . هل توافقين ؟
- ولكن الجو حار ...

- هذا أقرب الى الشعر يا عزيزتى ! الا أنك لمن مدينة ريو حقا !.. افى عروقكم دم أم ماء ، يا هؤلاء ؟ لنبق أذن على هذا

المقعد . اجلسى وسأجلس الى جانبك . اننى مستعدة لكل شيء .
ستتزوجين أو تموتين ، ولا وسط . لا تجيبي . لست سعيدة
« قالت ذلك وهى تغير لهجتها » اننى أدرك أنك لا تحبين الحياة ،
رغم كل ما أفعل . تعالى الى هنا . حدثينى بصراحة . هل تحملين
عاطفة لشخص معين ؟ اذا كنت تحملين عاطفة لشخص معين ،
فاذكرى لى اسمه ، وأنا أبعث فى طلبه حالا .

— لا شيء من هذا ..

— عظيم ! ذلك يسهل الامور تماما . لسنا فى حاجة الى أن نضع
على قلبك لافتة كتب عليها : « للإيجار » . عندي مستأجر ممتاز .

فالتفت ماريا بنديكتا اليها الفتاة تامة ، وقد ففرت فاهها
وحملت عينيها . لا يدرى المرء هل سبب لها هذا العرض خوفا
أو املا . واذا لم تستطع دونا فرناندا أن تدرك الرغبة الحقيقية
التي تعتمل فى نفس الفتاة ، تناولت يدها وطلبت اليها أن تكاشفها
بكل شيء ، فلا شك فى انها تحب أحدا ، فذلك أمر واضح ، يرى
فى عينيها ، وينبغى لها أن تعترف به . وراحت دونا فرناندا تلح
وتتضرع ، وقالت انها ستأمرها بالاعتراف اذا لزم ذلك . ولكن
يد ماريا بنديكتا كانت تبرد ثم تبرد شيئا بعد شيء ، وبدأ على
عينيها أنهما مسمرتان الى الارض . وظلت السيدتان كلتاها صامتتين
خلال لحظات .

كررت دونا فرناندا تقول :

— هيا تكلمى !

— ليس عندي ما أقوله ...

فاظهرت دونا فرناندا بأشارات عريضة انها تصدق قولها ،
وكانت فى كل مرة تزداد اقترابا منها ، الى أن حضنتها آخر الامر
وقالت لها بصوت خافت جدا ان عليها أن تنظر اليها نظرتها الى
أم ، وراحت تقبلها من وجهها وأذنيها ورقبتها ، ووضعت رأسها
على كتفها وهى تدغنها باليد الأخرى : « أريد أن أعرف كل
شيء ، كل شيء » . اذا كان حبيب قلبها فى القمر ، فلتجىء لها
به من القمر ... لتبعثن فى طلبه حيث يكون ، الا أن يكون فى
المقبرة . ولكن اذا كان فى المقبرة ، فستجد لها عريسا آخر يفوق
الأول وينسيها اياه فى مدى بضعة أيام . وكانت ماريا بنديكتا تصفى
الى هذا الكلام مضطربة أشد الاضطراب ، خائفة القلب أشد
الخفوق . انها لا تعرف كيف تملص من هذا الموقف ، فهى

مستعدة لأن تفضي بسرها . ولكنها لا تزال تلزم الصمت كأن عليها
أن تدافع عن حياتها وخبرها .

انها لا تنكر ولا تعترف . ولكن لما كانت ترتعد من شدة
الانفعال وكانت في الوقت نفسه لا تبسم البتة ، كان من السهل
على المرء أن يحزر جزءا من الحقيقة .
- أنت اذن لا تعدينى صديقة لك ، أنت لا تثقين بى ! يجب
عليك أن تعاملينى كما تعامل البنت أمها .

وظلت ماريا بنديكتا تقاوم بعض المقاومة ، لكنها استنفدت
طاقاتها كلها فأصبحت تشعر أن عليها أن تبوح بشيء ما . وأصفت
اليها دونا فرناندا منفعلة أشد الانفعال . كان شعاع من الشمس
قد قبل حواف المقعد ، ثم لم يلبث أن امتد الى أقدامها ، ثم الى
أطراف ثدييها ، حتى بلغ ركبتيها . ولكنها لم تشعر به . لقد
شغلها الحب عن كل شيء . وافتتنت دونا فرناندا افتتانا غريبا
بقصة ماريا بنديكتا . أن هذا الحب الذى يحرق الفتاة حرقا ،
لا يعرفه أحد ، ولا يشارك فيه المحبوب ، ولا يتصوره ، وهو يتغير
الآن شيئا فشيئا ليستحيل الى عبادة محضة . كانت ماريا فى أول
الامر اذا رأت الرجل الذى تحبه تعاني حالتين نفسييتين مختلفتين
كل الاختلاف : أن ما تحسه لأول وهلة لا تستطيع أن تحدده تحديدا
واضحا ، فهي مفتونة ذاهلة اللب معا ، يخفق قلبها خفقانا قويا ،
وتشعر انها توشك أن يغمى عليها . ثم تأخذ تتأمله ، وتلك هى
المرحلة الثانية ، ولا يبقى لها الا هذا : أن تتأمله . ولقد بكت
كثيرا ، وقضت ليالى لا نهاية لها تفكر فيه وحده . لقد دفعت ثمن
مطامحها الجنونية غاليا ! ولكن لا شيء يمكن أن ينتزع من ذهنها
انه خير الرجال جميعا ، وانه يشبه أن يكون الها يستحق منها
العبادة ولو لم يعبا بها .

فلما صمتت ماريا بنديكتا صمتا تاما ، قالت لها دونا فرناندا :

- حسنا . لننتقل الآن الى الامر الجوهري ، وهو الا تظلى
تتألمين فى غير طائل . ياعزيزتى ، ان حبك انسانا غير مكترث بك
ضرب من الشعر ، لا اكثر . . فدعى عنك الشعر ! انك لم تظفرى
فى هذه القضية بغير الخسران . لأنه سيتزوج امرأة أخرى ، ثم
تمضى السنون ، ويمضى هواك معها ، وتستيقظين ذات يوم فاذا
انت بلا حب ولا زوج . ثم من هو ذلك الانسان الذى قلبه من حجر؟
قالت ماريا بنديكتا وهى تنهض :

- لن أقول من هو !
فقلت دونافرناندا وهى تمسك بقبضتيها وتجلسها على ركبتيهما :
- طيب . لا تقولى : المسألة الوحيدة هى أن تتزوجى : وما
دام زواجك به مستحيلا . فلتتزوجى غيره .
- لا ... لا ... لن أتزوج .
- لن تتزوجى أحدا غيره ؟

- حتى هو لن أتزوجه ... لا أدرى ... اننى أحبه كما أحب الله
كذلك قالت مارييا بنديكتا بعد بضع لحظات .
فأجابت دونافرناندا :
- أيتها العذراء ! إلا أن هذا لكفر ... بل هو يا صغيرة كفران
اثنان . فمن جهة أولى يجب ألا يحب المرء أحدا كما يحب الله ،
ومن جهة ثانية فإن أى زوج ، ولو كان سيئا ، خير من أجمل الاحلام

١١٥

« أى زوج ، ولو كان سيئا ، خير من أجمل الاحلام » .
هذه الحكمة ليست رومانسية كثيرا . واحتجت مارييا بنديكتا .
ليس الحلم خيرا من البكاء ؟ أن للحلم نهاية ، أما الزوج السيئ فقد
يعمر طويلا .

قالت مارييا بنديكتا تختم كلامها :
- أنت تقولين هذا الآن الله أعطاك ملاكا ... ها هو ذا يصل !
- لا تقلقى . سيكون لك ملاكك أيضا . بل اننى الأعرف ملاكا
رائعا أخبرته لك . أنت تعلمين أن الملائكة ليست بعيدا جدا عنى .
ومن بعيد رآها تيوفيلو ، زوج دونافرناندا ، فأقبل عليهما .
وكانت بيده خريدة مدعوكة . وبدون أن يحيى الضيفة اتجه بالكلام
الى امرأته ، فقال لها وهو يكرز أسنانه :

- هل تريدان أن تعلمى ماذا صنعوا لى يا نانا ؟ أن خطابى الذى
القيته بتاريخه قد نشر اليوم . فانظرى فى هذه الجملة . لقد
قلت فى خطابى : فى حالة الريب عليك بالامتناع ، فبذلك ينصح
الحكماء . فقلبوا الجملة هكذا : فى حالة الدين عليك بالامتناع ...
حقا أن هذا لا يطاق . لاحظى أن الموضوع الذى كان يدور عليه
الكلام هو موضوع اعتمادات لوزارة البحرية ، وقد قيل أثناء
المناقشة . أن النفقات كانت باهظة . فمن الجائز إذن أن يبدو ذلك

غلاظة وسفاهة منى فكأننى أدعو الى الاختلاس ناصحا بالامتناع عن
الدفع . هذا محال على كل حال !
- ولكن ألم تقرأ تجارب المطبعة ؟

- قرأتها ، غير ان كاتب الشيء أعجز الناس عن قراءته قراءة
سحيحة . « فى حالة الدين عليك بالامتناع » .
كذلك تابع يقرأ وهو يحدق الى الجريدة . ثم أضاف يقول بنبرة
أعلى :
- ولكن هذا لا يمكن أن ...

كان الرجل منصعقا . انه انسان ينعم بمواهب جمّة ، ويمتاز
بكثير من الجهد والحماسة فى العمل . غير ان أكبر المشاريع
وأعوص المشكلات ، وأخطر المعارك وأعمق الثورات ، والشمس
والقمر والنجوم والحيوانات وجميع أجيال البشر ، كل ذلك
لاساوى الآن فى خطورة الشأن عنده ما يساويه ابدال كلمة الريب
بكلمة الدين . وكانت ماريا بنديكتا تنظر اليه ولا تفهم . كانت تظن
انها تعاني أشد ألم فى العالم . وها هى ذى ترى ألما لا يقل عن
ألما ، بل يزيد . الحزن البكاوى الذى تشعر به فتاة ، ألا يساوى
أكثر من غلظة مطبعية ؟ ولم ينتبه تيوفيلو الى وجودها الا فى
تلك اللحظة ، فمد اليها يده مصافحا . كانت الفتاة فى مثل الثلج
برودة . ما من أحد يستطيع أن يصطنع برودة اليدين . اذن فهى
تتألم حقا . وبعد بضـع لحظات رمى الجريدة على الارض فى
غضب ، ومضى .

قالت له امرأته وهى تنهض :

- ولكن فى امكانك ، يا تيوفيلو ، أن تنشر تصحيحا فى الغد .

فلم يزد تيوفيلو على أن رفع كتفيه يائسا دون أن يلتفت .
وركضت امرأته ورائه . وبهتت صديقتها وتبعته . فلم يبق هنالك
الا المقعد ، خلا الآن من وجودهم وراح يستقبل وحده أشعة
الشمس غير مكترث بالعواطف ولا بالخطب . وقادت دونا فرناندا
زوجها الى حجرة صغيرة ، واستطاعت هنالك أن تغريه بالقبلات
عن الضربة التى رماه بها الحظ فلما حان موعد الغداء بدأ يبتسم ،
ولو ابتسامة شاحبة بعض الشحوب . ومن أجل أن تصرفه زوجته
عن أفكاره ، بسطت له مشروعها الخاص بزواج ماريا بنديكتا قائلة
انه من الضرورى أن تتزوج نائبا من النواب ، اذا كان فى المجلس
نائب أعزب ، بغض النظر عن آرائه ، يستوى أن يكون من حزب

الحكومة أو من المعارضة أو من الجهتين كلتيهما ، أو ألا يكون من
أى حزب البتة . فانما المهم أن يكون زوجا وكفى . واستطاعت أن
تسوق حول هذا الموضوع ملاحظات حية فكهة أمضت الوقت
وانست ذكرى الخطأ المطبعى . يالها من مخلوقة طيبة نقية ! .
وأدرك تيوفيلو نية امرأته ، فاسترد صفاء مزاجه شيئا بعد
شيء ، ووافقها على أن زواج ماريلا بنديكتا أمر مناسب .

قالت دونا فرناندا وهى تنظر الى صديقتها :
- شـر ما فى الامر انها تحب شخصا ولا تريد أن تبوح باسمه .
فقاطعها زوجها وهو يمسح فمه :
- لا داعى الى أن تبوح باسمه ، فواضح جدا ان الشخص الذى
تحبه انما هو ابن عمك !

١١٦

فى يوم الاحد التالى ذهبت دونا فرناندا الى كنيسة سـانـتو
انطونيو دوس بدبرس . فلما انتهت الصلاة رأت ابن عمها يخرج
من بين جمهور المصلين - الذين كانوا يلاطفون بعضهم بعضا أو
ينحنون أمام المذبح - رآته هو نفسه منتصباً كحرف الالف ،
مرتديا ثياب تقشف . ومد اليها يده وهو يتسم ، فبادرته
بالسؤال مبهوتة :

- هل كنت فى الصلاة أنت أيضا ؟

- نعم ...

هل تصلى دائما ؟

- دائما ، لا ... ولكننى أصلى غالبا ...

- بصراحة ... لم أكن أتوقع مثل هذا التقى منك ! والرجال
عامّة يستخفون بالدين . أن تيوفيلو لا يضع قدميه فى الكنيسة
أندا ، اللهم الا من أجل تعמיד الاولاد . أنت اذن تقوم بواجباتك
الدينية ؟

- لا أستطيع أن أجيب اجابة قاطعة . غير اننى أحتقر تلك العادة
الرخيصة التى تجرى مجرى الزى ، أعنى تسفيه الدين . ولكن
دعينا من هذا الموضوع ، فما جئت الى هنا للاعتراف بل للصلاة .
سأصحبك الى بيتك ، فان دعوتنى الى الغداء قبلت ، الا ان
ترغبى فى تناول طعام الغداء بمنزلى .. هل تعلمين اننى أقطن فى
هذا الشارع ؟

قالت دونا فرناندا :

— لو أستطعت لذهبت من تلقاء نفسي أزف إليك نيا يصعب شرحه بكلمتين .

فأجابها كارلوس ماريا على باب الكنيسة وهو يقدم لها ذراعه :
— فلنمش اذن على مهل .

وأردف يسألها بعد بضع خطوات :

— أهو نيا هام ؟

— هام ورائع !

— سوف ترين ان الله بواسع رحمته سيأخذ عزيزنا تيوفيلو تاركا في هذه الحياة الدنيا أجمل أرملة . دعيك من هذا العناد يا ابنة العم . . . هاتي ذراعك . والآن ، ما هو النيا ؟ أراهن عني ان فتاة بيلوتاس قد وصلت !

— لن أحدثك في الامر الا اذا حلفت انك ستصفي الى جادا . . .

— سأصفي اليك جادا . . .

فاعترفت له دونا فرناندا بأنها أصبحت تتردد في أمر زواجه من بنت منطقتها . ذلك انها لا تريد أن يتعذب ضميرها بعد أن اكتشفت أن هناك فتاة تحترق هياما به . فابتسم كارلوس ماريا ، وتهيا للمزاح ، لكن النيا شغل باله مع ذلك . هيناما ؟ « هياما » ، تولها ! » كذلك قالت دونا فرناندا ، لكنها أضافت ان هذا التعبير ربما كان لا يصدق صدقا كاملا على العواطف التي أصبحت تشعر بها الفتاة الآن . ذلك ان هذه العواطف قد صارت الى نوع من العبادة الهادئة الضامنة . لقد بكت من أجله ليالي وليالي .

وردت دونا فرناندا على مسامع ابن عمها كل ما أفضت به اليها ماريا بنديكتا . ولم يبق الا أن تذكر له اسم الفتاة . وأراد كارلوس ماريا أن يعرف الاسم . لكنها رفضت أن تبوح به ، قائلة انها لا تستطيع أن تكشف عنه ، فعلام تمتعه بمعرفة اسم الفتاة التي تحبه في حين أن قلبه لا يحقق بمثل ما يخفق به قلبها ؟ ان الافضل أن يظل جاهلا باسم هذه الفتاة . ثم ان الفتاة قد كفت الآن عن البكاء ، وتبددت مطامعها ، وزالت أوهامها ، وفقدت كل أمل في أن يحبها ، واستحالت بمضي الزمن الى عبادة . . . ولكنها عابدة لا نظير لها . . . فهي لا تطمع حتى في أن يسمعها معبودها ولا في أن يلقي عليها نظرة عطف .

— ابنة العم ، أنت . . .

— أنا ماذا ؟

قال كارلوس ماريا أخيرا ان المحامية أهل للقضية التى تترافع فيها ، فاذا صبح ان الفتاة تعيده هذه العبادة كلها ، فمن العدل ومن طبيعة الامور أن تهتم بها ابنة عمه هذا الاهتمام الحار كله . ولكن لماذا الامتناع عن ذكر اسمها ؟

— لن أذكر لك اسمها الآن ... ربما ذكرته لك فى يوم من الايام . ولكنك أصبحت تعرف لماذا يصعب على أن أزوجك من فتاة مدينتى بعد أن علمت أن هناك فتاة تحبك هذا الحب الموله كله . على أن هذه الفتاة المولها قد لا تتألم لما مبرحا اذا أنت تزوجت . نعم ، أنا أعلم أن هذا لا يعقل . ولكننى أعرفها : اننى لعلى يقين من انها تستطيع أن تبارك غريمتها متى عرفت أنك سعيد !

قال كارلوس ماريا بعد بضع خطوات وهو يحدق الى الارض : — ليس هذا من الرومانسية فحسب ، بل هو من الصوفية أيضا . وليست الصوفية من هذا العصر ! أعندك حقا براهين على أن عواطفها هى هذه ؟

— عندى ... هذا هو بيتك ، اليس كذلك ؟

قالت دونا فرناندا هذا وهى تقف .

— نعم ...

— عمارة جميلة ... ويبدو انها متينة ..

— متينة جدا ..

— نافذة ، اثنتان ، ثلاث ، أربع ... سبع نوافذ . هل يحتل الصالون الواجبة كلها ؟ هذا خير ما يرجى لأقامة حفلة راقصة . وأضافت تقول وهى تتابع سيرها :

— لو كان لى بيت أوسع الأقيمت حفلة راقصة قبل أن أسافر الى ريو جراندى (١) . اننى أحب الحفلات حبا شديدا . والحق أن طفلى لا يرهقانى بالعمل . بالمناسبة ، أحب ادخال لوبو فى المدرسة ، فأين أجد مدرسة جيدة ؟

كان كارلوس ماريا يفكر فى العبادة المجهولة . ان ذهنه بعيد ، بعيد جدا عن التعليم والمدارس ... ما أبدع أن يحس المرء بأنه إله معبود ، على الطريقة الانجيلية ، سرا ، فى حجرة مقفلة مرتين ، لا على مرأى من جميع الناس كما فى كنائس اليهود . « وأبوك الذى

(١) هى ريو جراندى دوسول ، إحدى ولايات البرازيل ، فى أقصى الجنوب

يرى كل شيء ، حتى أخفى ما عندك ، سيكافئك » ! نعم ...
لست سوف يكافئها اذا عرف اسمها . أتراها متزوجة ؟ لا ...
مستحيل ... لو كانت متزوجة لما أقضت بسرها الى أحد . أتراها
أرملة أم عازبة ؟ الأرجح انها عازبة ... كل شيء يشير الى ذلك .
أين تراها تحبس نفسها لتعبده ، لتفكر فيه ، لتبكي من أجله ،
لتباركه ؟ أصبح الآن لا يرغب تلك الرغبة كلها في أن يعرف اسمها ،
ولكنه يريد على كل حال أن يعرف المكان الذي تنزوي فيه .
كررت دونا فرناندا تسأله :

— ترى أين أجد مدرسة جيدة ؟

— مدرسة ؟ لا أدري . اننى أفكر فى المجهولة . لعلك تقدرين
أن شخصا يعبدنى هذه العبادة الصامتة ، من غير أمل ، يستحق
أن أفكر فيه . أهى طويلة أم قصيرة ؟
— هى ماريا بنديكتا .

وقف كارلوس ماريا مبهورا .

— ماريا بنديكتا ؟ مستحيل ... لقد تحدثت اليها كثيرا فما
لاحظت شيئا خاصا . وكنت أجد دائما انها فاترة . لاشك ان ثمة
خطأ . هل ذكرت لك اسمى ؟

— لم تذكره ، رغم توسلى . لقد اعترفت بالعبادة ، لكنها لم
تشأ أن تسمى المعبود . ويالها من عبادة ! لك أن تعتر بأنك محبوب
أكثر من أى انسان . لمن هذا البيت ؟

— من عادتك يا ابنة العم أن تضخمى الامور . قد لا يكون هذا
الحب هوى قويا كالذى تصفين . محبوب أكثر من أى انسان ؟ ثم
كيف عرفت اننى انا المحبوب ؟

— تيوفيلو أول من اكتشف ذلك . وحين أعلنه أمامها احمرت
احمرارا شديدا حتى صارت بلون شقائق النعمان ، ولقد زعمت
لى بعدئذ ان هذا غير صحيح ولكنها لم تعد الى البيت منذ
ذلك اليوم .

تلك هى نقطة البداية فى قصة حبها . شعر كارلوس ماريا بكثير
من الاعتزاز لهذا الحب الصامت ، واستحال تحامله على الفتاة الى
عطف . وازداد اختلافه اليها . وأصبح اضطراب الفتاة ومخاوفها
وفرحها وتواضعها ومواقفها التى تشبه أن تكون مواقف ضراعة ،
أصبحت جميع هذه الاعمال والعواطف التى هى بمثابة عبادة للرجل ،
تملؤه ارتياحا . وتعلمون كيف انتهت الرواية ! لقد رأيتموهما معا

فى عيد ميلاد صوفيا . . . صوفيا التى كان يسمعها قبل ذلك كلمات عذبة كل انعدوبة ! ولكن هذا شأن الرجال : هم أشبه بالماء الذى يجرى والنسيم الذى يهب .

١١٧

قال روبيان لنفسه : « هذا أحسن ! فليتزوج » . وبين المساء الذى علم فيه بالنبا واليوم الذى تم فيه الزواج ، رأى صوفيا تنظر الى كارلوس . ماريا عدة مرات نظرات مريبة بعض الشيء ، ولكن كارلوس ماريا ما لبث أن أجاب على هذه النظرات من قبيل التأدب ، فاستخلص روبيان من ذلك ان الامر لا يعدو أن يكون مصادفة . ثم انه لا يزال يذكر الدمعة التى سكبتها صوفيا لحظة شرحت له قصة الرسالة كاملة فى مساء عيد ميلادها .

يا لتلك الدمعة التى لم تكن مؤلمة ! ايتها الدمعة التى كنت كافية لاقتناع واحد من الرجال ، لعلك تظلين سرا لا يفهم بالنسبة الى رجال آخرين . كذلك هو العالم ! ليس أمرا هاما ألا تكون هاتان العينان معتادتى البكاء ، ولا أن تبدو تلك السهرة حاضرة على كل شىء الا الحزن . . حسب روبيان انه رأى انسكاب الدمعة . . علم ان ثقة روبيان لم تنشأ عن انسكاب الدمعة فحسب ، وانما نشأت كذلك عن موقف صوفيا منه منذ ذلك الحين : انها لم تكن فى يوم من الايام محتفية به هذا الاحتفاء كله ولا لطيفة فى معاملته هذا اللطف كله . لكانها نادمة على اساءتها اليه ، فهى تحب أن تتدارك ما فرط منها ، سواء أكان مرد ذلك الى انها شعرت نحوه بعاطفة متأخرة ، أم الى مغامرتها هى . هنالك آثام تبقى فى حيز القوة ، ولا يقتربها المرء أبدا . . هنالك « أوبرات » تظل غافية فى رءوس بعض الموسيقيين تنتظر أولى موازين الالهام . .

١١٨

ردد روبيان يقول : « يسعدنى ان يتزوج ! » واحتفل بالزواج بعد أقل من ثلاثة أسابيع . وفى صبيحة اليوم المضروب فتح كارلوس ماريا عينه بشىء من الدهشة : أهو الذى يتزوج ؟ نعم ، ولا يجوز الشك فى ذلك . ونظر الى نفسه فى المرآة . . انه هو ! وتذكر الايام الاخيرة المنصرمة ، وتذكر كيف جرت

الاحداث مسرعة ، وتذكر العاطفة الصادقة التى يحملها لخطيبته
والسعادة الكاملة التى سيهبها لها .

وهذه الفكرة الاخيرة ، خاصة ، ولدت فى نفسه رضا قويا كبيرا .
ولم تتركه هذه الخواطر خلال النزهة المعتادة التى قام بها على
صهوة جواده . لقد قرر أن يمضى من جهة انجنيو فليو . ومع انه
ألف أن تتابعه جمهرة من نظرات الاعجاب فى نزحته ، فقد لاحظ
أن وجود الناس فى ذلك اليوم كانت تعبر عن معنى خاص ، هو
المعنى الذى يناسب النبأ العظيم ، نبأ زواجه . وحتى شجيرات
احدى المزارع لم تنس حين مر بها أن تفضى اليه بأمر كثيرة ، مع
انها كانت قبل وصوله ساكنة كل السكون ، أمور قد ترددها عقول
خفيفة الى النسيم الذى هب ، أما الحكماء فيدركون قورا انها
لغة الاعراس تتكلمها الشجيرات . والعصافير كانت تثب من جهة
الى أخرى وهى تفرد انشودة غزل . وهذان زوجان من الفراش .
وأنتم تعلمون أن اليابانيين قد عدوا الفراش رمزا للوفاء بعد أن
لاحظوا أن الفراش لا يكاد يتنقل من زهرة الى أخرى إلا أزواجا .
أقول هذان زوجان من الفراش أصفران مرجان ، يتبعان الحصان
مدة طويلة ، ويتواثبان هنا وهناك فوق السياج الذى يحف بالطريق .
وهناك الهواء الندى ، والسماء الزرقاء ، والوجوه الفرحة ،
وجوه الرجال الذين يلقاهم كارلوس ماريا فى الطريق جاثمين على
ظهور حميرهم أو مائلين على نوافذ عرباتهم ليتأملوه ! أن من
الصعب عليه أن يعتقد أن جميع هذه الحركات والاضاع من الناس
والحيوانات والاشجار يمكن أن يكون لها معنى آخر غير معنى
التحية تزجىها اليه الطبيعة فى عرسه .

واختفت الفراشات أخيرا فى أحد الادغال الكثيفة من السياج .
وظهرت مزرعة أخرى على حافة الطريق ، مزرعة بلا أشجار، ترى
فى آخرها من خلال بابها الكبير بيتا قديما مهجورا كأن نوافذه
الخمسة التى تطل على شرفته تحدد اليك بعينين محمقتين . كم
من عرس وكم من حفلة تمت وراء هذه النوافذ فى أيام روائها ، فى
أيام جدتها الاخاذة والامل الذى كانت تنشر شذاه !

ولكن لا تظنوا أن الاسى الذى يفوح من هذا المشهد قد بث فى
قلب فارسنا الجميل شيئا من الحزن . بالعكس . . . لقد كان يملك
تلك الموهبة الخاصة الفذة التى تمكنه من أن يعيد الى الانقراض
شبابها وأن يحيا الحياة الاولى للأشياء . حتى لقد أمتعته رؤية

البيت العتيق الخرب الذى يختلف ذلك الاختلاف كله عن الفراشات
النشيطة التى كان يراها منذ برهة . ووقف حصانه ، وتصور
النساء اللاتى لابد انهن دخلن من هذا الباب الواسع : أزمنة
أخرى ، ووجوه أخرى ، وعادات أخرى . . لعل طيوف أولئك
الاشخاص السعداء الذين كانوا يعيشون فى الماضى قد خرجت الآن
من لحودها وجاءت هى الأخرى تحييه وتعبر له بأفواه خفية
لا ترى عما تحمل له من اعجاب شديد . لقد سمع هو أصواتها
على كل حال ، وابتسم من ذلك ارتياحا . غير أن صوتا حادا
انضم عندئذ الى هذا اللحن العذب ، صوت ببغاء كانت سجينه فى
قفص معلق بجدار البيت . . « ببغاء ، ببغاء ، ببغاء الملك ، ببغاء
البرتغال . . . من هناك ؟ كوكو ، حبيبي الجميل كوكو . . غرررر . .
غرررر . . » واختلفت الاطياف واستأنف الحصان سيره . ان
كارلوس ماريا يكره الببغاوات كرها شديدا كما يكره القروود ، وكان
من عادته أن يقول عنها : « تقليدان كاذبان للإنسان » .
سأئل نفسه وهو يتابع طريقه : « هل تنقطع السعادة التى
سأهبها لها مثل هذا الانقطاع ؟ »

واجتازت الشارع عندئذ عصافير تفرد بلفتها ، فكان ذلك كافيا
لرد الامور الى نصابها ! ان هذه اللغة التى لا تشتمل على كلام لغة
مفهومة . انها تعبر عن كثير من الجمال وكثير من الطهارة ، ورأى
كارلوس ماريا انها ترمز اليه : اذا امتلأت نفس امراته اشمئزازا من
الضجة التى تحدثها ببغاوات العالم ، فلسوف يخرجها من هذا
الاشمئزاز بتفريد الطائر الذى يحمله فى داخله ! ألا انها الأفكار من
ذهب يعبر عنها صوت من ذهب ! . . آ . . لسوف يسعددها أكبر
السعادة . وها هو ذا يتصورها منذ الآن راكعة واضعة ذراعيها
على ركبتيه ، دافئة رأسها بين يديه ، محدقة اليه ، وقد زاغت
عينها امتنانا وعبادة وحبا . لسوف تكون أمامه ضارعة كل
الضراعة ، فانية كل الفناء ! . .

١١٩

وتخيلوا ان هذه الصورة الأخيرة قد طافت بخيال خطيبته فى
اللحظة التى راودت فيها خياله . كانت واقفة على نافذة غرفتها
تحقق الى الامواج التى تتلاحق فى بعيد ثم تتكسر على رمال
الشاطئ ، فاذا هى ترى نفسها راكعة عند قدمي زوجها فى مذلة

— كركوعها عند منضدة التناول — من أجل أن تتلقى قربان السعادة .
قالت لنفسها : « آه .. لسوف يسعدني أكبر السعادة ! » .
كانت الخواطر والاقوال مختلفة بعض الاختلاف ، لكن الوقت هو
نفسه ، والوضع هو نفسه .

١٢٠

تزوجا وسافرا الى أوربا بعد ثلاثة أشهر . ولم تبك دونا
فرناندا حين ودعتهما ، بل كانت مشرقة الوجه ، كأنهما عائدان لا
مسافرين . لقد كان فرحها بسعادتهما أقوى من حزنهما لفراقهما !
قالت لماريا بنديكتا ، عند المركب ، مرة أخيرة :
— أنت مسرورة ؟
— جدا . . .

كانت دونا فرناندا تفيض فرحا ، فرحا صافيا بريئا يسطع في
عينها ، بينما كان يصدح في قلبها لحن من تلك الألحان الإيطالية
التي كانت تحبها كثيرا : لعله لحن أغنية لوسيا التي تقول :
O'bell'alma innamorata (١)

أو لعله ذلك المقطع من « حلاق اشبيلية » :

Ecco ridente in cielo (٢)

Spunta la bella aurora.

١٢١

لم تذهب صوفيا الى الميناء . كانت متوعدة فأرسلت زوجها
بنوب عنها . لا تظنوا أن ذلك عن حسرة أو حزن . لقد عرفت
أثناء الزواج كيف تبرهن على كثير من الكتمان ، وعنيت بجهاز
العروس وودعتها . وهي تغمرها بقبلات تمازجها الدموع . أما أن
تذهب الى المركب فقد رأت أن ذلك كثير ! لذلك زعمت أنها
مريضة ، ثم لزمت غرفتها حتى لا يشك أحد في صدق زعمها ،
وتناولت رواية حديثة أهداها اليها روبيان . أن أشياء أخرى كثيرة
في هذه الحجرة تذكرها بروبيان : لعب من جميع الأنواع ، ناهيك
عن الحلوى المخبأة . حتى أن عبارة خاصة همس لها بها ليلة زواج

(١) أيتها النفس الجميلة الودود

(٢) هذا هو الفجر الجميل الباسم .. يظهر في السماء .

ابنة خالتها قد انضمت الآن الى موكب هذه الاشياء الكثيرة التي تذكرها بصاحبنا .. لقد قال لها بصوت خافت في ذلك المساء :
- انت ملكتهم منذ الآن . ولكن انتظري ، فلأجعلنك امبراطورة أيضا .

لم تستطع صوفيا أن تدرك معنى هذه العبارة المستفلة . افترضت في أول الامر انه يريد أن يبهرها بانعظمة تسهلا لاتخاذها خليلة . لكنها لم تلبث أن نبذت هذا التأويل ، لأنه يفترض في روبيان كثيرا من رقاعة المعجب بنفسه . صحيح ان روبيان ليس الآن ذلك الرجل الخجول الآخرق الذي عرفناه في الماضي ، ولكنه مع ذلك ليس معجبا بنفسه هذا الإعجاب كله ، حتى تظن فيه هذا الزهو ! فما معنى تلك العبارة إذن ؟ أترأه أراد أن يقول لها بلغة مجازية ان حبه لها سيزداد ؟ قالت صوفيا لنفسها : كل شيء جائز . وصحيح ان صوفيا لايعوزها المحبون ، حتى لقد سمعت تصریحا بالحب من كارلوس ماريا ، ولعلها سمعت مثل هذا التصريح من غيره فلم يهز ذلك الا غرورها . لكن ذلك كله كان عابرا . ولم يبق على حبه أحد غير روبيان . ولئن كان روبيان يختفي من حين إلى حين عندما يعاني أزمة شكوك ، فان شكوكه كانت تذهب دائما كما جاءت .

حين شرعت صوفيا تستأنف قراءة الرواية في الصفحة التي كانت قد وقفت عندها وقعت عينها على هذه العبارة : « انه ليستحق أن يحب » . فطوت الكتاب ، وأغمضت عينيها ، واسترسلت في تأمل طويل . فلما دخل عليها العبد بعد هنيهة يحمل اليها كأسا من المرقظن سيدته نائمة ، فقفل راجعا على رءوس الاصابع .

١٢٢

في أثناء ذلك الوقت كان روبيان وباليا ينزلان من البساخرة ويركبان القارب الذي سيقلهما الى رصيف فاروكس . انهما مطرقان صامتان . وكان باليا أول من فتح فمه بالكلام ، قال : « انقضى زمن طويل وأنا أريد أن أفتحك في أمر هام يا روبيان .. »

١٢٣

انتفض روبيان . كانت تلك أول مرة يصعد فيها الى باخرة . وكان رأسه لايزال ممتلئا بصخب المرقأ . منظر الناس يدخلون

ويخرجون - ناس من جميع الانواع : برازيليون ، اجانب ،
فرنسيون وانجليز والمان وارجنتينيون ... برج بابل - وخليط
القبعات والحقائب والخيال والمقاعد والنظارات ذات الحمائل ،
والرجال يصعدون أو ينزلون في داخل الباخرة على السلالم ،
والنساء يبكين أو يضحكن ويلقن على ماحولهن نظرات استطلاع ،
والإزهار أو الثمار جاء بها كثير منهن ... هذا كله كان جديدا على
روبيان . ومن بعيد كان يرى الحاجز الذي ستجتازه الباخرة ،
ووراء الحاجز كان يرى البحر الخضم ، والسماء الهابطة الى
الأفق ، والوحدة ... وارتد روبيان على غير علم منه الى الاحلام
العتيقة التي كان يحلمها العالم القديم ، خالقا في ذهنه صورة
« اتلانتيد » خيالية ...

كان روبيان لا يعرف شيئا من مبادئ الجغرافيا ... لذلك كون
لنفسه فكرة غامضة عن البلاد الاخرى ، مسبغا عليها هالة من
سحر . واذ كان لا يكلفه شيئا أن يرحل على هذا النحو ، فقد أبحر
بالخيال زمنا على ظهر المركب الكبير ، دون دوار ، ولا أمواج ،
ولا رياح ، ولا سحب ...

١٢٤

أجاب روبيان بعد بضع ثوان قائلا :

- لي انا ؟

فقال باليا مؤكدا :

- نعم لك انت . كان ينبغي ان افاتحك في هذا الامر منذ زمن
طويل ، غير ان حكايات الزواج ولجنة الالاجوانس وما الى ذلك قد
شغلتنى فلم تتح لى فرصة التحدث اليك ... اما الآن ، قبل
الغداء ... هل تقبل ان تتغدى معى ؟

- نعم ، ولكن ما هو الامر ؟

- امر هام ...

قال ذلك وهو يتناول سيجارة ، ويفضها ، ويخرج تبغها بين
أصابعه ثم يلفه مرة أخرى بورقة ويشعل عود ثقاب . لكن الهواء
يطفىء الشعلة ، فيطلب الى روبيان أن يتفضل بأن يمسك له قبعته
من أجل أن يستطيع اشعال عود آخر . فيطيعه روبيان وقد نفذ
صبره . لعل شريكه قد أطل انتظاره عامدا من أجل أن يجعله
يتصور أسوأ الاحتمالات ، حتى اذا عرف الحقيقة روج ذلك عن

نفسه . سحب كرسيان من سيجارته نفسين ، ثم قال :
- انوى أن أشرع في تصفية عملنا ، لأننى رجيت أن أعين موظفا
بأحد المصارف ، هى وظيفة مدير فى الواقع ، وأعتقد اننى سأقبل .
فتنفس روبيان وقال :

- طبعاً . ولكن هل يجب أن تتم هذه التصفية فوراً ؟
- لا ... ولكن يجب أن تتم فى آخر السنة القادمة ..
- وهل ذلك أمر لابد منه حقاً ؟

- هو بالنسبة الى أمر لابد منه . واو كانت حكاية المصرف
هذه غير مضمونة لما جازفت طبعاً فتركت الفريسة من أجل الظل ..
ولكنها مضمونة تماماً .
- اذن فى نهاية السنة القادمة سنحل الصلات التى تجمعنا ..
- بل قبل ذلك ، فى نهاية هذه السنة .

لم يفهم روبيان . غير أن شريكه أوضح له أن من المفيد أن تحل
الشركة منذ الآن ، ليستطيع أن يصفى المخزن بعد ذلك وحده .
ذلك أن المصرف قد يتقدم انشاؤه قليلاً وقد يتأخر ، ولا داعى الى
أن يجعل صديقه رهناً بهذه الاحتمالات . ومن جهة أخرى لم
يؤكد الدكتور كاماشو أن روبيان سيحتل مقعده فى المجلس النيابى
قريباً وان سقوط الوزارة أمر محقق ؟
وختم كلامه بقوله :

- وكيف كان الامر ، فمن الافضل حل الشركة فى الوقت المناسب
وانت على كل حال لا تعيش من التجارة ، ولئن اشتركت فى هذا
المشروع برأس المال اللازم ، لقد كان فى وسعك أن تستثمره أيضاً
فى مشروع آخر ، أو أن تحتفظ به لا أكثر ولا أقل .
قال روبيان :

- أنا موافق ...

وأردف يقول بعد بضع لحظات :

- ولكن قل لى : هل وراء هذا العرض سبب مخبأ . أهذه
قطيعة ؟ أهى نهاية صداقتنا ؟ كن صريحاً ، وقل لى كل شيء ..
فأجاب باليا :

- ما هذا الكلام العجيب ؟ قطيعة ؟ نهاية صداقتنا ؟ أنت
مجنون ؟ لاشك أن دوار البحر هو الذى جعلك فى هذه الحالة !
أتظن اننى وقد عملت فى سبيلك ما عملت ، وجعلتك صديق
أصدقائى ، وعاملتك معاملة القريب قريبه بل معاملة الاخ اخاه ،

أتظن اننى أقاطعك فجأة من غير سبب ؟ وحتى ماريا بنديكتا كان ينبغي أن تتزوجك أنت لا أن تتزوج كارلوس ماريا ، لولا أنك رفضت.. أنت تعلم ذلك. ان فى وسع المرء أن يقطع إحدى الصلات دون أن يقطع سائر الصلات ، والا كان سخيفا حقا . هل جميع الاصدقاء الذين فى العالم شركاء فى تجارة ؟ فما القول اذن فيمن ليس لهم تجارة ؟

اقتنع روبيان بالحجة ورآها رائعة ، فاحتضن صديقه. وصافحه كريستيان راضيا أعظم الرضا : لسوف يتحرر من شريك قد يوقعه تبذيره المتزايد فى حرج ذات يوم . المشروع سليم دقيق ، ومن السهل أن يعطى روبيان حصته ، باستثناء الديون الشخصية التى اقترضها منه قبل ذلك . ان باليا لا يزال مدينا لصاحبه ببعض الديون التى اعترف بها لزوجته فى ذلك المساء بسانتا تيريزا. ذلك المساء الذى وصفنا حوادثه فى الفصل الخمسين . انه لم يسدد من تلك الديون الا قليلا . ولكن يجب أن نذكر أن روبيان هو الذى كان يتمنع حين يثار هذا الموضوع . وذات يوم أراد باليا أن يجبره على قبول بعض المال سدادا ، فذكر له المثل القديم : « من رد ديونه أغتنى » ، فما كان من روبيان الا أن أجابه مازحة. - امتنع عن الدفع تردد غنى .

فقال باليا وهو يضحك ويرد المال الى جيبه :
- حلوة جدا !

١٢٥

لا مصرف ، ولا وظيفة مدير ، ولا تصفية .. ذلك كله مختلق ! ولكن كيف يستطيع باليا أن يسوغ حل الشركة اذا قال الحقيقة وحدها ؟ لذلك اخترع تلك القصة ، ومما سهل عليه اختراعها انه يحب المصارف حقا ، وانه يحترق شوقا الى اذاعة مصرف من المصارف . والواقع ان حياة هذا الرجل كانت ناجحة كل النجاح ، فمشروعه مزدهر جدا ، ومن الاساليب التى دعت الى الانفصال عن شريكه انه يريد ألا يقاسمه الارباح المقبلة . وكان باليا عدا ذلك يملك «أسهم» من جميع الانواع ، كما يملك سندات ذهبية من قرض أيتابوراهاى ، وقد تولى بالتعاون مع شركة من الشركات الكبرى ، تنفيذ تعهدين لتموين الجيش جنى منهما أرباحا طائلة . حتى لقد اتصل بأحد المهندسين المعماريين من أجل أن يبنى لنفسه قصرا

خاصا .. وكان يحلم حلما غامضا بأن ينال لقب بارون ...

١٢٦

من كان يخطر بباله ان أسرة باليا هذه ستعاملنا هذه المعاملة ؟
فجئنا الآن في نظرهم أقل من لا شيء . لا تحاول أن تدافع عنهم .
— لست أدافع بل أشرح . لابد ان هناك التباسا .
— تحتفل بعيد ميلادها ، وتزوج ابنة خالتها ، ثم لا توجه أى
دعوة إلى الماجور ، الماجور العظيم ، الماجور الذى لا يضارع ،
الماجور العزيز ! .. هذه هى الاسماء التى كانت تنعتنى بها . كنت
لا أضارع ، وكنت عظيما ، وكنت صديقهم القديم ، وكنت أشياء
أخرى لم أعد أتذكرها .. أما الآن فلا شيء .. لا دعوة ، حتى
ولا رسالة شفوية مع صبي من العبيد : « سيدتى تحتفل بعيد
ميلادها أو بزواج ابنة خالتها ، وتبلغكم ان بيتها بيتكم . وترجوكم
أن ترتدوا الملابس الرسمية » . لو دعنا لما ذهبنا . فالحفلات
الرسمية ليست من أجلنا ، ولكننا نكون قد خطرنا ببالها ...
رسالة شفوية على الأقل ، صبي من العبيد ترسله الى الماجور
الذى لا يضارع ...
— بابا !

هكذا قالت تونيكا ، فشجع ذلك روبيان على أن يدافع عن
أسرة باليا دفاعا طويلا . حدث هذا كله فى منزل الماجور الذى أصبح
لا يقطن فى شارع « الثانى من كانون الاول - ديسمبر » ، بل فى
طابق أرضى متواضع بشارع باربونوس . كان روبيان مارا هناك ،
وكان الماجور واقفا الى النافذة فناده . ولم تستطع تونيكا أن
تخرج من الصالون لحظة لتلقى نظرة على نفسها أمام المرأة ، وغاية
ما استطاعت أن تفعله هو امرار أصابعها فى شعرها وترتيب الوشاح
الذى يطوق عنقها وانزال تنورتها قليلا لتخفى حذاءيها العتيقين .
قال روبيان ملحا :

— أقول لابد ان التباسا قد حدث ... ان كل شيء قد انقلب
وأسا على عقب بسبب لجنة الالاجواس هذه !
ققاطعه الماجور سيكويرا قائلا :

— وهذا مثال أحسنت اذ ذكرته . لماذا لم يطلبوا الى ابنتى أن
تشارك فى لجنة الالاجواس هذه ؟ لا ... لا ... اننى منذ زمن
طويل أدرك ما يحدث فى الماضى كانت لا تقام حفلة الا وتدعى اليها .

كنا روح كل شيء . ثم أخذت الامور تتبدل منذ زمن . أصبحوا يستقبلوننا بفتور ، وأصبح الزوج لا يحييني اذا هو استطاع التهرب مني . لقد تبدلت الامور منذ زمن طويل . كانوا في الماضي لا يفعلون شيئا دوننا . . . لماذا تتحدث عن الالتباس ؟ هل تعلم اننى قبل حفلة عيد ميلاد دونا صوفيا بيوم واحد ذهبت أزوره في المخزن لاشتباها في انهم قد لا يدعوننا الى الحفلة ؟ فماذا فعل ؟ لم يفتح فمه بكلمة واحدة ، وتعهد الكتمان . قلت له آخر الامر : « كنا أمس في البيت نتناقش أنا وتونيكا في موعد عيد ميلاد دونا صوفيا ، فكانت هى تقول انه قد مضى ، وكنت أنا أؤكد انه اليوم أو غدا » . فلم يجب ، وتظاهر بالانهماك في حساباته ، ونادى المحاسب يسأله شرح بعض الامور . فأدركت الحيلة ، وكررت كلامى ، فكرر لعبته فانصرفت ! باليا . . . هذا الشقى العاثر . . . يفعل هذا ؟ أصبحوا الآن يتعاطرون بى ويخجلون من صحبتى . فى الماضى كانت الاغنية غير هذه : « ماجور . . . عليك انت أن تقترح شرب النخب » . وكنت أقترح شرب النخب ، الآن لى فى هذه الامور براعة خاصة ! وكنا نلعب كذلك بالورق . اما الآن فقد أخذه جنون العظمة . . . انه لا يعاشر الا اعلية القوم ! آ . . . باطل الاباطيل ! تصور اننى منذ مدة صادفت زوجته مع سيدة أخرى فى مركبة فخمة ! تصور ، صنوفيا فى مركبة فخمة . . . تظاهرت بأنها لا ترانى ، ولكنها حرصت على أن تعرف هل أراها أنا ، وهل امتلأت اعجابا بها ! باطل ! كل شيء باطل على الارض ! من لم يذق القشدة فى حياته يمرغ وجهه بها حين يأكلها أول مرة ! . . .

قال روبيان :

— معذرة . . . ان أعمال الجمعية تتطلب بعض المظاهر !

— نعم ومن أجل هذا لم تدخل ابنتى فى اللجنة . . حتى لا توسخ المركبات الفخمة ! . .

— ثم ان المركبة الفخمة قد تكون للسيدة الاخرى التى معها . فمشى الماجور بضع خطوات ، واضعا يديه وراء ظهره ، ثم وقف أمام روبيان وقال :

— للسيدة الاخرى . . . أو للأب مانديس . بالمناسبة ، كيف حاله ؟ رضى البال طبعاً . . . قاطعته تونيكا قائلة :

— ولكن يا يانا قد لا يكون ثمة شيء البتة . انها لا تزال لطيفة

معى كل اللطف . وحين مرضت فى الشهر الماضى أرسلت عبداً :
تسأل عن صحتى مرتين ...

فصاح أبوها :

أرسلت عبداً ... أرسلت عبداً . ما أعظمه من تفضل ! « يا عبد .
... اذهب الى بيت ذلك العسكرى المتقاعد ، واسأله هل تحسنت
صحة ابنته . لن أذهب الى هناك ، لاننى بسبيل صقل أظافرى ! »
نعم ... انه لتفضل عظيم ! انت يا ابنتى لا تصقلين أظافرك ...
أنت تعملين ! أنت فقيرة يا ابنتى العزيزة ، فقيرة ولكنك شريفة !
قال الماجور ذلك وأخذ يبكى ، ولكنه لم يلبث أن كفكف دموعه .
فجأة ، وتأثرت ابنته تأثراً شديداً ، وانتهت الى الشعور بالمذلة .
هى أيضا . والحقيقة ان الحجرة نفسها كانت تحدث عن فقر هذه
الاسرة أكثر من أى شىء آخر : مقاعد قليلة ، ومنضدة مدورة
متيقة ، وأريكة بالية ، وعلى الجدارين صورتان منقوشتان محاطتان
باطار اسود ، احدهما تمثل الماجور عام ١٨٥٧ ، والثانية مشتراه
من شارع السنيور دوس باسوس وتمثل فيرونيز بالبندقية .
لكن المرء يشعر بعمل تونيكافى كل موضع من الحجرة : الاثاث
يلتصع نظافة ، وعلى المنضدة فطاء مطرز من صنعها ، وعلى الاركة
مخدة . ومن الخطأ أن يقال ان تونيكافى لا تصقل أظافرها . فلئن
لم يكن عندها مسحوق ولا جلدا شاموا ، فقد كانت تستعوض عن
ذلك كل صباح بحك أظافرها على قطعة صغيرة من القماش .

١٢٧

أظهر لهما روبيان مودة كبيرة ، وكف عن الدفاع عن أسرة باليا .
حتى لا يحزن الماجور كثيرا . واستأذن بالانصراف بعد ذلك بقليل .
واعدا أن يجيء اليهم « ذات يوم » ليتعشى معهم ، دون أن يدعى
الى هذا . فقال له الماجور :

— عشاء فقراء . ليتك تبنينا بمجيئك قبل حين اذا استطعت .

— لا أريد وليمة . سأجىء فى أول يوم يخطر ببالى أن أجىء فيه .

قال ذلك واستأذن بالانصراف . وشيعته تونيكافى حتى السلم ، لكنها
لم تمض الى أبعد من ذلك بسبب حذاءيها العتيقين ، ثم وقفت
الى النافذة لتراه وهو يخرج .

حتى اذا انعطف روبيان عند ناصية شارع مانجيراس ، رجعت
تونيكا ومضت نحو أبيها الذي كان قد تمدد على الارىكة بعيد قراءة
كتابه القديم « سان كلير الجزر أو المنفيون في جزيرة البارا » .
انها أول رواية قرأها ، ويزيد عمر النسخة التي عنده منها على
عشرين عاما ، وهي كل مكتبة الاب وابنته . فتح سيكويرا الجزء
الأول وأخذ ينظر في بداية الفصل الثاني . كان يحفظ هذه البداية
عن ظهر القلب ، ولكنه يجد لها الآن بسبب كروبه الحديثة مذاقا
خاصا : « صاح سان كلير يقول : اترعوا أقداحكم ، ولنفرغها في
أجوافنا دفعة واحدة . هذا هو النخب الذي أقترحه : نخب
المضطهدين من خيار الناس وشجعانهم ، نخب القصاص الذي سينال
مضطهديهم . فرفعوا أقداحهم جميعا في اثر سان كلير ... »
- في رأيي يا أبت أن تشتري غدا علب طعام محفوظ من سمك
وبسلي وغير ذلك ، حتى اذا جاء للعشاء يوما لم يكن علينا إلا أن
نضعها فوق النار لتسخن ، فنستطيع بذلك أن نقدم له عشاء أجود .
- ولكن ليس معي إلا ثمن فستانك .
- فستانى ! سنشتريه في الشهر التالى أو الشهر الذى بعده .
سأنتظر .

- واذا لم نجد فستانا بمثل هذا الثمن في ذلك الوقت ؟
- سنجد حتما . سأنتظر يا أبت !

انتهز هذه الفرصة لأقول لكم - وذلك ما لم أستطعه حتى
الآن لأن الفصول قد تدافعت تدافعا أثناء الكتابة - أن دائرة علاقات
روبيان كانت قد اتسعت اتساعا كبيرا في أثناء ذلك . لقد وصله
كاماشو بعدد كبير من رجال السياسة ، ووصلته لجنة الألاجواس
بعدد من السيدات ، ووصلته المصارف والشركات بشخصيات من
رجال الأعمال والمال ، ووصلته المسارح بروادها ، وصله شبّار
أوفيدور بجمهرة من الناس ، حتى صار اسمه وشخصه معروفين .
فمتى رأى الناس لحية وشاربين طويلين ، وردنجوتا محكما وصدرا
مريضا وعصا من قرن الكركدن ، متى رأوا هذا كله على مشية
واثقة مهيمنة ، قالوا على الفور انه روبيان - ثرى مينا .

حتى لقد أصبحوا يحيطونه بأسطورة . فهم يقولون أنه تلميذ
فيلسوف كبير أورثه ثروة طائلة تقدر بألفين ، بثلاثة آلاف ، بخمسة
آلاف من القونتات . وكان بعضهم يستغرب أن الرجل لا يتكلم في
الفلسفة ، ولكن الأسطورة كانت تعلل هذا الصمت بأنه من المنهج
الفلسفى الذى يلتزمه الاستاذ ، وقوام هذا المنهج ألا يعلم هذه
الفلسفة إلا لأصحاب النيات الطيبة . ولكن أين تلاميذه ؟ انهم
يذهبون الى بيته كل يوم ، وقد يذهبون مرتين فى اليوم : صبيحة
ومساء . فهذا هو الاسم الذى أصبح الناس يطلقونه على الأكلين
الشاربين فى بيت روبيان . أما انهم تلاميذ فلا ، وأما انهم من
أصحاب النيات الطيبة ، فنعم . . . ان لهم من النيات الطيبة
ما يفيض عنهم ويزيد . . . كانوا يصرخون من الجوع وهم فى انتظار
« أمفريون » مضيفهم ، ثم يصفون الى خطبه صامتين وقد علت
البسمة شفاههم . حتى لقد قام نوع من التنافس بين القدماء منهم
والجدد ، وهو تنافس كان القدماء يقوونه بظهورهم أمام الجدد
بمظهر فيه الكثير من التيه والتفاخر . انهم أقرب الى رب البيت
مودة ، يأمرؤن الخدم ويطلبون السيجار وينتقلون الى الحجرات
الخلفية ويصفرون فى غير تخرج ، وهلم جرا . . . الا ان العادة قد
أدت بهم أخيرا الى أن يحتمل بعضهم بعضا ، وكانوا مجتمعين على
تمجيد فضائل رب البيت . ولم يلبث الجدد أن أصبحوا هم أيضا
مدينين له بمال ، سواء أكان الدين نقدا أم كان كفالة أو ضمانا
يسدها روبيان خفية . . حتى لا يشعروا بفضاضة !

وكانوا مجتمعين على تدليل الكلب كونكاس بوربا . فهم يصفقون
بأصابعهم ليثب ، حتى أن بعضهم يقبله من رأسه . واستطاع بارع
منهم أن يقعد على ركبتيه وهم جلوس الى المائدة ليطعمه كسرات
من الخبز .

قال روبيان محتجا فى أول مرة :

— لا . . . هذا لا . . .

فأجاب الضيف سائلا :

— أى خير فى هذا ؟ ليس ثمة غريب . . .

ففكر روبيان لحظة ثم قال :

— ان فى داخل هذا الكلب انسانا عظيما .

فأكمل الضيف يقول وهو يجيل نظره فى الجدد ليظهر لهم مدى
ما بينه وبين روبيان من علاقات وثيقة :

— الفيلسوف ، كوتكاس بوربا الآخر .
لكنه لم يستطع أن يحتكر لنفسه هذه الميزة ، لان جميع
« القدماء » رددوا عندئذ يقولون :
— صحيح ، الفيلسوف .

وراح روبيان يشرح للجدد هذه الاشارة الى الفيلسوف ويوضح
لهم السبب الذى من أجله يطلقون هذا الاسم على الكلب . ووصفه
لهم كوتكاس بوربا « المرحوم » بأنه رجل من أعظم رجال زمانه ،
وانه يفوق جميع معاصريه . فيلسوف عظيم ، قلب عظيم ،
صديق عظيم ...
وصاح روبيان يقول بعد لحظة من صمت وهو ينقر على المائدة:
بأصابعه :

— لو كان حيا لجعلته وزيرا .

فهتف أحد الضيوف يقول من غير اقتناع ، بل من باب القيام
بالواجب :
— آ ... طبعاً .

ولم يكن أحد من هؤلاء الناس يعرف شيئاً عن التضحيات التى
كان يرتضيها روبيان في سبيلهم . لقد كان يرفض حضور حفلات
العشاء ويرفض الاشتراك في النزوات ، ويقطع الاحاديث الممتعة ،
في سبيل أن يعود الى البيت مسرعاً ليتعشى معهم . غير انه استطاع
ذات يوم أن يوفق بين الامور ، فقال ان على الخدم أن يقدموا
العشاء لاصدقائه اذا لم يعد هو الى البيت في الساعة السادسة
تماماً . وقد أثار هذا احتجاجات كثيرة . قالوا : لا ... مستحيل
... انهم مستعدون للانتظار حتى السابعة أو الثامنة اذا اقتضى
الامر ، فلا لذة في عشاء لا يشاركه فيه ...
فقال روبيان :

— ولكن قد لا أعود أبداً ..

وكذلك كان . ولم يفت الضيوف أن يضبطوا ساعاتهم على ساعة
بيت بوتافوجو . فكانوا متى أذفت الساعة السادسة يجلسون
جميعاً الى المائدة . وقد حدث في اليومين الاولين شيء من التردد
طبعاً . ولكن الاوامر التى صدرت الى الخدم كانت صريحة:
صارمة . وكان روبيان يصل في بعض الاحيان بعد السادسة بقليل .
فتقوم عندئذ قهقهات ونكات ولذعات ... فهذا يقول انه أراد أن
ينتظر ، ولكن الآخرين .. فاذا بالآخرين يهبون الى تكذيبه .

ويقولون ان صاحبهم هذا هو الذي حملهم على البدء بالعشاء ، وانه كان قد بلغ من فرط الجوع انه أجهز على المائدة فلم يبق الا على الصحن . وكان روبيان يضحك معهم جميعا ...

١٣٠

ان أكتب فصلا لا لشيء الا أن أقول ان ضيوف روبيان كانوا في أول الامر أثناء غيابه يدخلون من سيجاره بعد العشاء ، فذلك شيء قد يبدو تافها حتى لأكثر الناس تعلقا بالأمور اليسيرة . لكن أصحاب الشأن سيقولون لكم ان هذا الامر التفصيلي هام ولو بدا في الظاهر خليقا بأن يهمل .

ففي ذات مساء خطر ببال واحد من أقدم رواد البيت أن يمضي الى حجرة مكتب روبيان . وكان قد مضى الى هذه الحجرة مرأت كثيرة من قبل . ففيها كانت علب السيجار - لا أربع علب أو خمس ، بل عشرون أو ثلاثون علبة ، من أصناف شتى وحجوم مختلفة - وكان عدد كبير من هذه العلب مفتوحا . أشعل الخادم «الاسباني» الثور . وتبع سائر الضيوف الضيف الأول . واختار كل منهم سيجاره . والذين كانوا لا يعرفون الحجرة قبل ذلك ، أعجبوا بالاثاث الذي فيها ، وهو اثاث جميل أحسن ترتيبه . وكانت هناك منضدة من خشب الابانوس فازت باعجابهم جميعا : قطعة متينة قاسية ، رائعة النسب . غير ان هناك شيئا جديدا كان ينتظرهم جميعا : تمثالان من المرمر وضعا في أعلى المنضدة أحدهما لنابوليون الأول ، والآخر لنابوليون الثالث .

- متى وضع هذان التمثالان هنا ؟

فقال الخادم :

- ظهرا هذا اليوم .

انهما تمثالان عظيمان . الى جانب نظرة النسر التي هي نظرة العلم ، هناك نظرة ابن الاخ الحاملة التائهة في الغموض ، وذكر الخادم ان سيده بعد أن تلقى التمثالين ووضعهما في هذا المكان ظل مدة طويلة يتأملهما معجبا ، وبلغ من استغراقه في تأملهما أن الخادم نظر هو أيضا اليهما ، لكنه لم يشاركه إعجابه بهما . قال الخادم وهو يقوم بحركة مسرحية :

- لا يعجبني هذان الشخصان (١)

(١) بالاسبانية في الاصل (المترجم)

كان روبيان يرمى الآداب رعاية كبيرة . وكان الناشر الذى ينشر كتابا مصدرا باهداء اليه يضمن أن يبيع منه مائتى أو ثلاثمائة نسخة على الأقل . وغرق روبيان فى ركام من صكوك الشرف التى نهديها اليه الجمعيات الادبية والموسيقية والدينية وغيرها . وكان عضوا فى جماعة كاثوليكية وعضوا فى جماعة بروتستانتية فى آن واحد ، لأنه لم يتذكر انتسابه الى أولاهما حين عرض عليه أن ينتمى الى الأخرى . وكان ما يعمل به هو على كل حال أن يدفع الاشتراكات الشهرية الى الجمعيتين كليهما . وقد اشترك أيضا فى جرائد لا يقرأها . وعلى هذه الصورة علم ذات يوم من الجاني حين دفع له اشتراكه فى الجريدة عن ستة أشهر أن الجريدة حكومية ، فما كان منه الا أن شتم الرجل ...

غير أن الرجل لم يعبأ بالشتيمة ، وأخذ قيمة الاشتراك فى آخر الأمر . واذ كان يملك موهبة الملاحظة التى يملكها جباة المال فى العادة ، دمدم يقول وهو فى الشارع :
— هذا رجل يحتقر الجريدة ويدفع اشتراكها مع ذلك ، فكم من رجل يعبدها عبادة ولا يدفع شيئا البتة .

ولكن — يا للحظ ويا للعدالة الطبيعية ! — لئن كانت تبذيرات صاحبنا داء لا علاج له ، فهناك الآن ما يعوض عنها . لقد أنتهى العهد الذى كان فيه روبيان يقضى وقته كسلان خالى الدهن من أى فكرة ! ولئن أعوزته الأفكار ، أن رأسه ليفيض الآن بالاخيلة . كان قبل ذلك يعيش بالآخرين أكثر مما يعيش بنفسه ، فلا يتأذى له تحقيق توازنه الداخلى ، فى ساعات من الفراغ تبدو له طويلة لاتنتهى ... أما الآن فان كل شيء قد أخذ يتبدل ، وأصبح للخيال فى نفسه أكبر نصيب . صار يستطيع الآن أن يقضى صبيحة بكاملها جالسا فى مخزن برناردو دون أن يبدو له الوقت طويلا ، ودون أن يرى أن شارع أوفيدور الضيق يسد أمامه الأفق . أن رؤى لذيذة — كتلك التى تتصل برؤى عرسه « الفصل ٨١ » — رؤى

تتنازعه فيها العظمة والمتعة ، تهدد الآن روحه من جديد . وكان يراه الناس في مثل تلك اللحظات يشب من كرسيه على حين فجأة مرات كثيرة ويمضى الى الباب لينعم النظر الى أحد المارة . أهو يعرفه ؟ أم هو أحد يشبه الشخص الذى كان يراه بخياله ؟ تلك أسئلة أكثر من أن يجيب عنها فصل واحد . وحسبى أن أقول الآن انه هرع ذات مرة الى الباب دون أن يكون ثمة مار به . وقد أدرك هو نفسه انه واهم ، وعاد الى الداخل فاشتري لعبة من البرونز لابنة كاماشو التى يحتفل اليوم بعيد ميلادها والتى ستتزوج قريباً ، ثم انصرف .

١٣٤

وصوفيا ؟ هذا هو السؤال الذى تطرحه القارئة التى نفذ صبرها ، كما كان أورجون يسأل : وطرطوف ؟ ولكن الجواب أيتها العزيزة هو نفسه : انها هى أيضا تأكل وتنام كما تشاء ، وهذا لا يمنعها طبعاً من أن تخب متى أرادت أن تخب . وإذا كانت هذه الملاحظة الأخيرة هى السبب الخفى الذى دفعك الى طرح هذا السؤال ، فاسمحي لى أن أقول لك انك لا تحسنين الكتمان ، وأنا امرؤ لا أفهم شخصياً الا مع المتحفظين من الناس . . .

أعود فأقول انها تأكل وتنام كما تشاء . وقد قامت بأعمال لجنة الألاجواس خير قيام ، وأثنت عليها الصحافة ثناء عاطراً ، حتى أن جريدة « الخفير » قد خلعت عليها لقب « ملاك المواساة » . ولكن يجب ألا يقع فى ظنك ان هذا اللقب قد ملأها فرحاً ، رغم ما فيه من مديح . اذ قدرت أنه حين ينسب اليها وحدها الفضل فيما تحقق من عمل ، فقد يؤدى ذلك الى ابداء صديقاتها الجديدات فتفقد فى يوم واحد ما عملت له خلال شهور طويلة ، وهذا هو السبب فى أن الجريدة نفسها نشرت فى عددها التالى مقالا جديداً ينعت جميع سيدات اللجنة بأنهن « نجوم من أرفع طراز » ، ويصفه أسهام كل منهن فى العمل المشترك ويمجده أعظم التمجيد .

ولم تحتفظ أسرة باليا بعد انتهاء أعمال اللجنة بجميع العلاقات التى عقدتها ، غير أن علاقات كثيرة منها قد توطدت وترسخت ، ولم يكن من الصعب على صوفيا طبعاً أن تجعلها ثابتة بما تملك من موهبة . كان زوجها هو الذى يرتكب الخطأ فى هذا ، اذ يسرف فى الظهور بمظهر الرجل الورش الطافح حركة ، فيدل على انه يرى

هؤلاء الناس يغمرونه بلطف وكرم وعطف يوشك الا يستحقه .
ولم يفت صوفيا ان تزجى اليه النقد والنصح ضاحكة من أجل ان
تصلح الامر ، فهي تقول له مثلا : « كنت اليوم لا تطاق ، لكأنك
واحد من الخدم . . » أو تقول له : « كرستيانو ، حاول ان تراقب
نفسك عندما نستقبل الزائرين . تجنب ان تخرج عيناك من رأسك ،
وان تثب من جهة الى جهة كطفل أعطى حلوى » .

وكان باليا يتكر ويتعلل ويحاول ان يسوغ سلوكه ، لكنه كان
يعترف في آخر الامر دائما بأنها على حق ، وبأن عليه ألا يشعر
الآخرين بكونه أدنى منهم . يجب ان يكون كيسا ولطيفا ، ولكن
لا أكثر من ذلك . . . - تماما . ولكن يجب ان تتحاشى الافراط
والتفريط كليهما . يجب ألا تصبح فظا شرسا . . .

فكان باليا يمثل الدورين في آن واحد ، فهو في اول الامر فظ
فاتر ، يوشك ان يكون متعجرفا . لكنه ما يلبث ان يسترد
حماسته المعتادة شيئا بعد شيء ، سواء اكان ذلك عن تفكير أم لا ،
وما يلبث في الوقت نفسه ان يسترد مبالفته وانطلاقات صوته على
حسب الاحوال . غير ان صوفيا كانت تصلح الموقف لحسن الحظ ،
بما تملك من قدرة على الملاحظة والمحاكاة . ان الضرورة والمواهب
الطبيعية سرعان ما أكسبتها ما لم يمن به عليها محتد كريم أو ثراء
عظيم - وكان من حظها انها في ذلك العمر المتوسط الذي يجعل
صاحبه محبوبا من الفتيات اللاتي هن في العشرين ومن النساء
اللاتي هن في الاربعين . كانت محبة الى هؤلاء السيدات فهن
يعبدنها عبادة ، وكان عدد كبير منهن يفرقها بالمديح . وعلى هذا
النحو استطاعت صاحبتنا ان تخلق حول نفسها جوا جديدا ،
شيئا بعد شيء . فقطعت علاقات الاسرة بجميع الاصدقاء القدامى ،
رغم ان قطع بعض هذه العلاقات ولا سيما الحميمة منها لم يكن
بالامر السهل . لكن صوفيا كانت تتمتع الى اقصى حد بتلك
الموهبة التي تمكن صاحبها من ان يستقبل في غير حرارة ، وأن يصفى
بنير اهتمام ، وأن يودع على غير أسف . فاذا بأولئك المساكين
المتواضعين ، أولئك الاصدقاء الذين ليس لهم شأن يذكر ، أولئك
الاشخاص الذين لا يحسنون اصطناع الآداب الراقية وأرتداء الملابس
الانيقة وتعاطي التسلية الرفيعة ، أولئك الذين لاتدل عاداتهم الا
على التأخر والبساطة ، كل هؤلاء أخذوا يختفون واحدا بعد
واحد . . كانت تتصرف مع الرجال ذلك التصرف الذي وصفه

الماجور ، حين صادفته وهى راكبة عربتها ... » يجب أن نذكر هنا ان العربية كانت عربتها حقا . والفرق الوحيد أنها أصبحت تمتنع حتى عن اللقاء نظرة خاطفة على الناس لتتأكد من أنهم رأوها . لقد انقضى العهد الذى كانت لا تزال تسمح فيه لنفسها بذلك . أنها الآن تشيح بوجهها فى قسوة ، فتستبعد بحركة حاسمة كل تردد ، وتجبر أصدقاءها القدامى على ألا يحيوها .

١٣٥

أراد روبيان أن يتوسط للماجور ، لكن صوفيا صدته ، وظهر على وجهها من الضجر ما جعل صاحبنا يؤثر أن يسألها ألا يزال الاتفاق قائما على أن يذهبوا صباح الغد فى نزهة الى توجوكا . فقالت صوفيا :

— حدثت كرستيانو فى أمر هذه النزهة ، فذكر انه على موعد من مواعيد العمل فى الغد ، وان الافضل أرجاء القيام بالنزهة الى يوم الاحد القادم .

أردف روبيان يقول بعد هنيهة :

— فلنذهب نحن الاثنين . أن فى وسعنا أن نرحل فى ساعة مبكرة ، فنقوم بالنزهة ، ونتغدى هناك ، ثم نعود فى الساعة الثالثة أو الرابعة .

فنظرت اليه صوفيا وفى عينيها من الرغبة فى الموافقة على اقتراحه ما جعل روبيان يقول دون أن ينتظر جوابها :

— اتفقنا إذن .. سنذهب !

— لا !

— كيف لا ؟

وكرر سؤاله مرة أخرى ، لأن صوفيا لم تعقب على رفضها بأى شرح . وكان السبب الذى يدفعها الى الرفض واضحا مع ذلك ، واضطرت بسبب الحاحه أن تشرح له أن زوجها قد يقتدى بهما فيرجىء مواعده من أجل أن يرافقهما ، وهى لا تحب أن تزعجه فى أعماله . إلا يمكنهما أن ينتظرا ثمانية أيام ؟

وكانت نظرات صوفيا ترافق هذا الشرح باقتناع وتوافق يعادلان توافق أصوات البوق مع الصلاة الربانية . نعم لقد كانت تحب أن تذهب فى نزهة مع روبيان فى صباح الغد : وهى ذى تتصور نفسها فوق صهوة جوادها تجرى به خبيا تارة ، وعدوا تارة

أخرى ، وتقف على الطريق من حين إلى حين ، منتصبه القامة على ظهر حصانها ، متقدة الوجه حماسة ولذة ، لا تشعر بشيء من كآبة ولا تفرق في أحلام باطلة ... حتى اذا بلغت القمة نزلت عن حصانها ووقفت وحيدة بين السماء العالية والمدينة البعيدة ... ثم مالت على الحصان ومرت بيدها على لبتة ، وأصفت الى روبيان يمتدح جسارتها وحذقها ... بل كأني بها تشعر منذ الآن بقبلة تلامس نقرتها .

١٣٦

وما دمننا بصدد الكلام عن الخيل فمن المناسب أن نذكر أن خيال صوفيا قد أصبح الآن أشبه شيء بحصان جامح وثاب قادر على أن يقطع التلال والغابات في غير ارتباك ... أن هذا التشبيه لا يصلح لأي ظرف غير هذا الظرف . ولكنه هنا خير تشبيه . الا يذكر الحصان بالجموح والقوة والعدو ؟ الا يذكر في الوقت نفسه بالهدوء الذي يتميز به حين يعدو الى اسطبله على الطريق المستقيم ؟

١٣٧

قال روبيان وقد لاحظ بريق عيني صوفيا :
- اتفقنا . نذهب غدا !

ولكن الحصان كان قد عاد من جولته الخيالية المجنونة متعبا ، فهو الآن في اسطبله ناعس وسنان . كانت صوفيا قد تبذلت ، فالدوار الذي عصف برأسها منذ دقائق ، والجولة الجامحة التي تخيلتها ، واللذة التي منت بها نفسها صاعدة معه في طريق توجوكا ، كل ذلك قد اختفى الآن ... واذا قال لها روبيان انه سيستأذن زوجها في قيامهما بهذه النزهة ، أجابته بلهجة وانية :
- أنت مجنون ؟ فلندع هذا الى يوم الاحد القادم !

ثم ثبتت نظرها على قطعة القماش التي كانت تطرزها وتسميها « تسلية » ... بينما راح روبيان يطوف ببصره على ركن صغير بأئس من حديقة تمتد أمام حجرة المكتب التي كانا فيها . وكما استمرت صوفيا ، وهي جالسة عند طرف النافذة ، تعمل محرقة أصابعها بمزونة ورشاقة وخفة فكذلك راح خيال روبيان يخلق حفلة

امبراطورية من الوردتين المبتذلتين اللتين كانتا في ركن الحديقة ،
حتى نسي الحجرة والمرأة في آخر الامر ونسى معهما نفسه .
لا اعرف على وجه اليقين كم مضى من الوقت وهما صامتان هذا
الصمت كله ، غريبان أحدهما عن الآخر هذه الغرابة كلها . ثم لم
يعودا الى الواقع الا عندما جاءتهما اخدى الخادمت بالقهوة . فلما
فرغ روبيان من احتساء قهوته ، مد لحيته وأخرج ساعته واستأذن
بالانصراف . وكانت صوفيا تنتظر انصرافه بصبر نافذ ، فسرهما
كثيرا ان يهم بتوديعها ، لكنها أخفت سرورها وراء اصطناع التعجب
الكاذب قائلة :

— الآن ؟

فأجابها :

— نعم ! ان شخصا ينتظرني قبل الساعة الرابعة . هل الفيت
النزهة اذن ؟ طيب ... سألفي طلب الخيل . ولكن هل اكيد
اننا سنقوم بالنزهة يوم الاحد القادم ؟

— اكيد ، اكيد ، لا . ولكن اظن اننا سنقوم بها يوم الاحد
القادم . انت تعلم ان زوجي رجل الموانع والحوائل .

وشيخته صوفيا الى الباب ، ومدت اليه يدها في غير اكتراث ،
وأجابت مبتسمة عن كلمة عابرة لا قيمة لها ، ثم عادت الى الحجرة
الصغيرة التي كانت فيها ، وجلست عند طرف النافذة نفسها .
ولكنها لم تستأنف شغلها فورا ، وانما وضعت ساقا على ساق
دون أن تنسى بحكم العادة أن تشد تنورتها الى أسفل ، وألقت
نظرة على الحديقة التي أتاحت وردتها لصاحبنا أن يتخيل مشهدا
امبراطوريا ، فلم تر صوفيا فيهما أكثر من زهرتين خرساوين . ومع
ذلك فقد حدثت اليهما بضع لحظات ، ثم عادت الى «تسليتها» ،
فاشتغلت قليلا ، ثم لم تلبث أن توقفت عن العمل واضعة يديها
فوق ركبتها ، وعادت الى الشغل بعد قليل ثم تركته مرة أخرى ،
وهبت واقفة ، فرمت كعب الخيطان والمكوك في سلة صغيرة من
الخيزران كانت تضع فيها أدوات « شغلها » . ان السلة هدية من
روبيان .

— رجل مضجر ! ممل !

كذلك قالت صوفيا ، ثم مضت تستند الى النافذة المظلة على ذلك
الطرف من الحديقة الذي كانت فيه الوردتان المبتذلتان تدبلان . ان
الورد حين يكون نضرا لا يحفل كثيرا او لا يحفل البتة بما في نفوس

الناس من أنواع الغضب . لكنه حين يذبل يتفنن في إيلام قلب الإنسان . وأغلب ظنى أن مرد هذه العادة إلى قصر عمره . لقد كتب أحدهم يقول : « البستاني خالد في نظر الورد » . وهل من وسيلة إلى الاستخفاف بهذا الوجود الخالد غير الاستهزاء ؟ « أمضى أنا وتبقى أنت . أما أنا فلم أزد على أننى تفتحت وعطرت وأرضيت النساء والفتيات وكنت رسالة حب وزينت أعراس الرجال أو فنيت فوق غصنى . ما مستنى يد ولا رأتنى عين إلا فى إعجاب وحنان . وأما أنت ، أيها الخالد ، فشأنك شأن آخر . أنت تغضب ، وتتألم ، وتبكى ، وتحزن . ان خلودك لايساوى دقيقة واحدة من دقائقى » .

لذلك ، حين وصلت صوفيا إلى النافذة المطلة على الحديقة ، أخذت الوردتان تضحكان وهما تنشران أوراقهما . قالت احداهما : أحسنت .. أحسنت .. أحسنتا ... ثم أضافت :

— من حقل أن تغضبى أيتها المخلوقة الجميلة ، ولكن يجب ألا تغضبى منه بل من نفسك . ما قيمته هو ؟ انه رجل مسكين لا فتنة له ولا سحر . قد يكون صديقا طيبا ، وقد يكون كريما ، لكنه منفر ، ليس كذلك ؟ وانت ، أنت التى يغازلك كثيرون غيره ، أى شيطان يحضك على أن تصيحى بسبعك إلى هذا التافه ؟ غضى طرفك مدلة أيتها المخلوقة الرائعة ، فأنت أنت سبب ما تشكين من داء . تحلفين أنك ستنسرين هذا الرجل ، ثم لا تفعلين شيئا ! البتة . وهل أنت فى حاجة إلى نسيانه ؟ ليس يكفيك أن تنظري إليه ، وأن تسمى كلامه ، حتى تحتقره ؟ انه لا يقول شيئا أيتها المخلوقة الغريبة ، وأنت ...

فقاطعتها الوردة الثانية تقول بصوت هادئ ساخر :

— فى هذا شيء من المبالغة . انه يقول شيئا ما ، بل انه يكرر ما يقول منذ زمن طويل : لا ينسى أبدا ، ولا يتبدل قط . انه ثابت ، ولا يزال الأمل يملأ قلبه رغم حزنه . ان حياته الغرامية كلها شبيهة بنزهة تيجوكا التى سمعنا حديثها منذ قليل « تؤجل إلى الأحد القادم ! » . قليلا من الرحمة على الأقل ! شيئا من الشفقة يا صوفيا ، يا ذات القلب الطيب ! وإذا كان عليك أن تحبى أحدا غير زوجك ، فأحبيه ، أحبيه هو ، هو الذى يحبك ، ويكتم حبه هذا الكتمان كله . تشجعى ، واندمنى على هذا الموقف الذى وقفته منذ برهة . ما اساءته ؟ هل ذنبه أنك جميلة ؟ وإذا كان ثمة

ذنب ، فليس ذنب السلة ، على كل حال ، ولا ذنب كيب الخيطان ،
ولا ذنب المكوك الذى أرسلت الخادم لشرائه . أنت شريرة
يا صوفيا ، أنت ظالمة ...

١٣٨

وكانت صوفيا تصفى وتصفى ... وسألت نباتات أخرى ، ولكن
هذه النباتات الأخرى لم تجبها بغير ما قالتها لها الوردتان ... هناك
مصادفات عجيبة من هذا النوع ... ان من يعرف أسرار الحياة
يعرف ان جدارا ومقعدا وسجادة ومظلة يمكن أن تزخر بالأفكار
والعواطف حين تزخر نحن بهذه الأفكار والعواطف ، وان تبادل الآراء
بين البشر والأشياء ظاهرة من ألطف ظواهر الحياة على هذه الأرض .
يقول تعبير برتغالى « تحدث فلان مع أزواره » . قد يبدو هذا
التعبير مجازا من المجازات لا أكثر ، ولكنه فى الواقع ملئ بالمعنى ،
ملئ بمعنى عياني واقعى . ان الأزار تستجيب لنا على نحو ما
نستجيب لها ، فى وقت واحد ، ويتألف منها مجلس كمجلس
الشيوخ ، مجلس مناسب قليل التكاليف ، يقترع دائما بالاجماع
على اقرار ما نعرض عليه من اقتراحات .

١٣٩

تمت رحلة تيجوكا . ولم يقع فيها الا حادث سقوط ، لحظة
نزلوا عن خيولهم . لم يسقط روبيان ، ولا باليا ، ولكن زوجة
باليا - لا أدري ماذا راود ذهنها من أفكار - أخذت تضرب حصانها
بالسوط حائقة ، فخاف الحصان فرماها الى الأرض . وقد سقطت
فى خفة ورشاقة . لقد كانت رشيقة رائعة وهى فى ثوبها الامازونى ،
وكانت خليفة بأن تغرى الشيطان نفسه ... لو رآها عطيل على
هذه الحال لما فاته أن يهتف قائلا : « أيتها المقاتلة الجميلة » . أما
روبيان فقد اكتفى بأن دمدم يقول لها فى أول الرحلة : « أنت
ملاك ! » .

١٤٠

- اشعر بألم فى ركبتي .
كذلك قالت صوفيا حين عادت الى البيت ، وكانت من جهة

اخرى تعرج طوال الوقت . قال لها زوجها :
- أريني !

فلما وصلت الى غرفتها ، وضعت قدمها على مقعد صغير ،
وأطلعت زوجها على الركبة الموجعة . كانت الركبة قد تورمت قليلا
- قليلا جدا - وكانت صوفيا تأخذ بالتأوه اذا مست ركبتها ،
ومن أجل ألا يسبب لها باليا مزيدا من الألم اكتفى بأن لامس
بشفتيه موضع الوجع .

سأله صوفيا :

- ألم أكن في وضع غير لائق حين سقطت ؟
- لا ... ثم ان ثوبك طويل جدا ... لم تكدرى الا طرفه
القدم . صدقيني . لم يحدث شيء ذو بال ..
- أتخلف ؟

- ما أكثر ارتياك يا صوفيا ! أحلف لك بأقدس شيء ، بضياء
الشمس ، بسيدنا يسوع المسيح . هل اقتنعت الآن ؟
وكانت صوفيا تستر ركبتها .

- أريني مرة أخرى . أظن ان الصدمة بسيطة . ضعى على
ركبتك قليلا من المرهم . أرسلنى من يسأل الصيدلى عن أحسن
مرهم ؟

قالت وهى تحاول أن تخفض ثوبها :

- طيب .. طيب .. دعنى أذهب لأخلع ثيابى !

ولكن باليا أخذ يطوف ببصره فى باقى ساق صوفيا الى الموضع
الذى يختفى تحت الحذاء . الحق إن هذه الساق التى كان جوربها
الحريرى يزيد فى ظهور جمالها ، كانت آية من آيات الطبيعة ...
وراح باليا ، على سبيل المزاح ، يسأل امرأته هل تشعر بألم هنا أو
بألم هناك أو هنالك أيضا ، مشيرا الى الموضع بيده التى كانت
تهبط شيئا بعد شيء . « انها لو كشفت عن أى جزء من هذه الآيات
حين سقطت ، لبهرت الاشجار والسماء جميعا » . كذلك قال باليا ،
بينما كانت صوفيا تخفض تنورتها وتسحب قدمها عن المقعد .
فأجابته قائلة :

- جائز . ولكن الاشجار والسماء لم تكن وحدها ، بل
كانت هنالك عينا روبيان أيضا .
- صحيح ... روبيان ! انه لم يردد على مسامعك سخافات .
كتلك التى قالها فى سانتا تيريزا ، أليس كذلك ؟

— أبدا . ولكن هل تحلف حقا يا كريستيانو ؟

— أنت تريد أن أعزز إيماني بشيء أقدمه ! لقد حلفت لك بالله فما أكتفيت . فهأنذا أحلف بك أنت . هل اقتنعت الآن ؟

خرج كريستيانو أخيرا من غرفة امرأته ، واتجه إلى غرفته . ان هذا الخفر الوجيل المرتاب يملؤه ارتياحا : لقد برهنت له بذلك على أنها له وحده ، على أنها كلها له وحده . ولما كانت ملكه ، كان لابد له من أن يتصرف تصرف مالك كبير لا يكثرث أى اكتراث بمنظرة عارضة سريعة يلقها أحد الناس على جزء مستتر من مملكته . حتى لقد أسف على أن الحادث لم يكشف إلا عن طرف القدم . . . ليس هذا إلا مخفرا أماميا على حدود المملكة .

ولكن الطلائع الأولى من هذه المملكة ، الطلائع التي تصل إلى الموضع الذي أصيب عند القدم ، ربما كانت أحسن دلالة على كنوز المملكة . . . وبينما كان باليا يفتسل بالصابون ويحك وجهه وعنقه ورأسه فوق أناء كبير من الفضة ، وينظف أسنانه بالفرشاة ، ويتنشق ويتعطر ، كان يحلو له أن يتصور الدهشة والرغبة اللتين كان يمكن أن يشعر بهما ذلك الرجل الوحيد الذي شهد الحادث ، لو أن الحادث قد كشف عن مزيد من . . .

١٤١

وفي هذه الفترة بالذات أغرق روبيان أصحابه جميعا في حيرة ودهشة . فبعد نزهة تيجوكا بيومين « وكنا يومئذ في شهر كانون الثانى — يناير من عام ١٨٧٠ » طلب إلى مزين في شارع أوفيدور أن يرسل إليه في الساعة التاسعة من صباح الغد من يحلق له لحيته . فجاءه في الموعد المضروب رجل فرنسى يقال له لوسيان كان فى الماضى ضابطا . فما أن وصل لوسيان حتى أدخله الخادم إلى مكتب سيده ، عملا بالأوامر التي أصدرها إليه .

— غررررر . . .

كذلك صوت كونكاس بوربا الذى كان قابعا على ركبتى روبيان . وحييا لوسيان رب البيت ، لكن هذا لم ينتبه إليه البتة ، لا ولا سمع فرغرة كونكاس بوربا . كان مستقرا على كرسى طويل — هل يناسب الاحلام شيء أحسن من الاستقرار على كرسى طويل ؟ —

فقاطعه روبيان بقوله :

— تماما ..

ولم يكن قد فهم من كلام الحلاق شيئا . ذلك انه رغم المأامه ببعض مبادئ اللغة الفرنسية ، كان لا يحسن فهمها قراءة فكيف يحسن فهمها حديثا ! ولكنه — وهذا وحده لا يخلو من عجب — لم يخط في جوابه خبط عشواء ، وانما وصلت اليه كلمات الحلاق مديحا أو ثناء .. وأعجب من ذلك انه حين أجاب عنها بالبرتغالية كان يتخيل انه يجيب بالفرنسية .

وعاد يقول :

— تماما . أريد أن أريد الى وجهى هيئته القديمة .

واذ أشار بأصبعه الى تمثال نابوليون الثالث ، أجابه الحلاق بقوله :

— آ . . الامبراطور ! تمثال جميل حقا . نعم نعم ، أثر فنى رائع جدا . هل اشتريته من هنا ياسيدى ، أم استقدمته من باريس ؟ كلا التمثالين رائع . هذا هو الاول ، الكبير . لقد كان عبقرى . وكان بلا خيانة ! آه من الخونة ياسيدى ، ان الخونة لأسوأ من قنابل أورسينى نفسها ..
— أورسينى ! ياله من شقى !
— لقد دفع الثمن غاليا .

— الثمن ، دفعه . ولكن القنابل ولا أورسينى تصمد لنجم رجل عظيم . حين تضع القوة الخفية المسيطرة على مصير الشعب تاج الامبراطورية فوق رأس رجل عظيم ، فما من خيانة تصمد ..
أورسينى ! ياله من غبى !

ولم يلبث الحلاق أن أخذ يقص لحية روبيان ، فلا يدع له الا الشاربين ، والا كثة الشعر الصغيرة التى تميز ذقن نابليون الثالث . وكان كلما أمعن فى قص اللحية ، كال لها المديح وأشاد بجمالها ، قائلا ان قصها تضحية كبيرة يقوم بها روبيان ...

فقاطعه روبيان بقوله :

— أيها الحلاق ، ما أنت الا ثرثار ! لقد قلت لك ماذا أريد . رد الى وجهى القديم ! وانظر الى التمثال يرشدك الى ما يجب أن تفعله .

— طيب ياسيدى . سأتبع تعليماتك ، وسترى ما سيكون من شبه .

وبعد فترة فرغ من اعمال المقص في لجية روبيان ، واخذ يحلق خديه وجزءا من ذقنه . ودامت المهمة زمنا طويلا : فهو يتمهل في الحلق ويقارن به وجه صاحبنا ووجه التمثال ، فيلقى نظرة على وجه الرجل وأخرى على وجه التمثال ، حتى ليتقهقر في بعض الاحيان خطوتين الى وراء ليحسن الرؤية ، ينظر الى هذا ثم ينظر الى ذاك ، ويسأل الرجل ان يلتفت الى هذه الجهة أو تلك ، ويمضى ليرى في التمثال ما يناسب أحد جانبي وجه روبيان .
سأله روبيان :

— هل يسير الامر على ما يرام ؟

فطلب منه الحلاق بإشارة من يده أن يسكت ، وتابع عمله . وعاد يقلم كثة الشعر التي على الدقن ، دون أن يمس الشاربين ، ثم أخذ يمعن في قصها مرة أخرى ، وقد ظهرت في وجهه علامات الجهد والرصانة ، وعلامات الكلال والملل . ما من رغبة في وجه روبيان أو ذقنه ، مهما تكن دقيقة لا ترى ، كان يمكن أن تفلت من أصابعه المرنة الرشيقة ! وكان روبيان يتعب في بعض الاحيان من النظر الى السقف بينما يقوم الحلاق بآخر مراحل عمله ، فيطلب اليه أن يمهل بضعة دقائق ... وفيما هو يستريح ، كان يجس وجهه ، فيشعر بتغير ملمسه .
قال :

— الشاربان ليسا طويلين طولا كافيا ...

— لا يزال على أن أسوى رأسيهما ، لقد جئت بالكواة الصغيرة التي تجعل الشعر من أجل أن أعقفهما فوق الشفة ، وسنعمي بعد ذلك برأسيهما . آه .. انى لأوثر أن أقوم بعشرة أعمال ليس فيها تقليد ، على أن أقوم بعمل واحد من أعمال النسخ .

وانقضت عشر دقائق أخرى قبل أن يفرغ الحلاق من الشاربين والكثة تماما . وانتهى العمل أخيرا . فوثب روبيان من مقعده ، وهرع الى المراة في الحجرة المجاورة . حقا انه الاخ ، أو قل انهما شخص واحد ، أى انه هو نفسه !
— تماما !

كذلك قال وهو يعود من جديد الى حجرة عمله ، حيث كان الحلاق يداعب كوتكاس بوربا بعد أن لم أدواته .

واتجه روبيان الى منضدة الكتابة ، ففتح أحد الادراج ، وأخرج منه ورقة نقدية بمبلغ عشرين ألف رايش ، ومدّها الى الحلاق .

قال الحلاق :
— ليس معى تقود لأرد الباقي ...
فأجاب روبيان وهو يحرك يده فى عظمة :
— ليس عليك أن ترد شيئاً . اقتطع منها ما تدفعه لسيدك ،
واحفظ بالباقي لك أنت .

١٤٣

حين بقى روبيان وحده ، قعد على كرسى ، وأخذ يستعرض
صوراً من أكثر الصور عظمة وفخامة . انه الآن فى بيارتس أو فى
كومبيين ، يصعب تحديد ذلك ... لعله فى كومبيين ... استلم
أزمة الدولة ، واستقبل الوزراء والسفراء ، ورقص ، وتعشى ،
وعمل أشياء أخرى كثيرة كان قد قرأها فى الصحف وبقيت فى
ذاكرته . حتى نباح كوتكاس بوربا لم يستطع أن يوقظه . لقد كان
بعيداً كثير البعد ، عالياً شديد العلو ! لاشك أن كومبيين تقع فى
منتصف الطريق إلى القمر : لاشك انه كان ماضياً إلى القمر !

١٤٤

وحين هبط من القمر سمع نباح الكلب ، وشعر فى الوقت نفسه
ببرودة فى خديه . فهرع إلى المرأة ، ورأى أن تخلص وجهه من
اللحية ليس بالأمر الذى لايناسبه ، وأن يكن الفرق كبيراً بين وجهه
الحليق ووجهه الملتحي . وقد خلص جلساؤه الطفيلون إلى هذه
النتيجة نفسها . قالوا له :

— حقاً لقد أحسنت صنعاً ! وكان يجب أن تفعل هذا منذ زمن
طويل . . . لسنا نقصد أن اللحية الطويلة تجرد وجهك النبيل من أى
شئ . ولكن وجهك مع احتفاظه بنبله ، قد أصبح الآن عصرياً .
— أصبح عصرياً ، نعم .

وذهل الناس فى الخارج هذا الدهول نفسه . واكدوا له صادقين
أن هذا المظهر الجديد يناسبه أكثر من المظهر القديم . غير أن
شخصاً واحداً هو الدكتور كاماشو ، ألقى فى سمعه أنه ليس من
المستحسن عامة أن يغير المرء ملامح وجهه « وأن كان يرى أن
الشاربين وكثة الذقن تناسب صديقه جداً » : ذلك أن الوجه مرآة
النفس ، فعلى الوجه أن يصور ما تمتاز به النفس من صلابة
وثبات . وختم كلامه بقوله :

— لا أقول ما أقوله اشادة بنفسى .. ولكنك ان ترى فى وجهى
اى تبدل فى يوم من الايام . فذلك عندى ضرورة اخلاقية . ان
حياتى التى أضحي بها فى سبيل المبادئ — ذلك اننى لم أحاول
يوما ان أصالح بين المبادئ أو بين الأشخاص — أقول ان حياتى
هذه هى صورة أمينة لوجهى ، والعكس صحيح .

فكان روبيان يصفى الى كلام صديقه فى كثير من الجدد ، وبهز
رأسه مؤيدا : نعم ، هذا صحيح ، ولا يمكن أن يكون الامر غير
ذلك . وشعر عندئذ انه امبراطور الفرنسيين . حتى اذا نزل الى
الشارع عاد الى حقيقته . ان دانتى الذى رأى كثيرا من الامور
العجيبة يؤكد انه شهد فى الجحيم معاقبة نفس فلورنسية التفت
حولها أفعى طولها ستة أقدام وهصرتها حتى أصبح الرائي لا يعرف
اهو أمام شخص واحد أم أمام شخصين . أما روبيان فقد كان اثنين .
ان شخصه وامبراطور الفرنسيين لا يختلطان فيه ، بل يتعاقبان .
حتى ان كلا منهما ينسى الآخر . انه حين يكون روبيان فحسب ،
يكون ذلك الرجل العادى الذى نعرفه . حتى اذا ارتفع الى مقام
امبراطور أصبح امبراطورا فحسب . وكل واحد من الشخصين
مكتف بنفسه كل الاكتفاء ، ولكنه مضاد للآخر .

١٤٥

سألته صوفيا حين جاء الى بيتها فى آخر الاسبوع :

— ما هذا التبدل ؟

فأجابها بقوله :

— جئت أسأل عن ركبتيك ، هل تحسنت ؟

— تحسنت . شكرا .

الوقت هو الثانية بعد الظهر . وكانت صوفيا تنتهى من استعدادها
للخروج حين قالت لها الخادم ان روبيان هناك ، ولكن وجهه قد
بلغ من التبدل ان من يراه يحسبه شخصا آخر . فنزلت صوفيا
لتراه وقد امتلأت فضولا ، فوجدته واقفا فى الصالون ينظر فى
بطاقات الزيارة .

كررت تقول :

— ولكن ما هذا التبدل ؟

فأجابها ، وقد هجره كل شعور امبراطورى ، بأنه قدر ان
الشاربين والكثة الصغيرة أنسب له ، وختم كلامه قائلا :

— أم ترين اننى ازددت دمامة ؟
 — بل ازددت جمالا .
 وقالت صوفيا بينها وبين نفسها انها قد تكون السبب في هذا
 التبدل . وجلست على الارىكة ، وأخذت تلبس قفازيها .
 سألتها روبيان :
 — أنت خارجة ؟
 — نعم ، ولكن العربية لم تصل بعد .
 وأفلت أحد القفازين من يديها . فمال روبيان يريد أن يلتقطه ،
 ومالت هي أيضا ، فأمسكا بالقفاز معا ، واذ أراد كلاهما أن يلتقطه
 اصطدم وجهاهما ولمس أنف روبيان أنف صوفيا ، الا ان شفاههما
 ثم قتلامس ، وظلت اذن حرة طليقة تستطيع أن تضحك ، وهذا
 ما فعله .
 — هل أوجعتك ؟
 — لا ... هل أوجعتك أنا ؟
 واخذا يضحكان من جديد . ولبست صوفيا قفازها . وصدق
 روبيان الى قدم من قدمي صوفيا كان يتحرك في مكر ، الى أن
 جاء الخادم يعلن ان العربية قد وصلت . فنهضا ، وضحكا مرة
 أخرى .

١٤٦

حين خرجت صوفيا ، فتح السائق باب المركبة الفخمة ، في كثير
 من التأدب خافضا قبعته الى تحت . وقدم لها روبيان ذراعه
 ليساعدها على الصعود ، فقبلت أن تتناولها وركبت .
 — والآن ، الى ...

ولم تستطع أن تكمل جملتها . فقد دخل روبيان في اثرها وجلس
 الى جانبها . وأغلق السائق باب العربية ، وتسلق الى مقعده ،
 وتحركت المركبة .

١٤٧

تم ذلك بسرعة كبيرة ارتج معها على صوفيا خلال بضع لحظات .
 ولكنها لم تلبث أن ثابت الى نفسها فقالت :
 — ما هذا ؟ أوقف العربية ياسيد روبيان .

— أوقف العربية ؟ أما قلت لى انك خارجة وانك كنت تنتظرين
العربية ؟

— ما كنت أريد أن أخرج معك . ألا ترى ان . . . أوقف
العربية . . .

وأرادت أن تأمر السائق بالوقوف وقد بلغ بها الارتباك كل
مبلغ . لكن خوفها من حدوث فضيحة هو الذى صدها عن ذلك
فى آخر لحظة . أن المركبة تدخل الآن فى شارع بلادابرنيزا . وطلبت
صوفيا من روبيان مرة أخرى أن يدرك انه ليس من اللائق أن يكونا
معا على هذه الصورة أمام الله وأمام الناس جميعا . . . فاحترم
روبيان وسواسها واقترح اسدال الستائر . . . وقال شارحا :
— لا خير فى أن يرانا الناس معا . ولكن أحدا لن يرانا اذا نحن
أسدلنا الستائر . هل يرضيك هذا ؟

ودن أن ينتظر الجواب ، أسدل ستائر كل جهة من جهات
العربية ، فصارا بذلك وحيدين ، يستطيعان أن يريا المارة من
الداخل ، ولا يستطيع أحد أن يراهما من الخارج . انهما الآن
وحيدان ، وحيدان تماما ، كما كانا يوم صب عليها روبيان ، فى
بيتها ، جام غضبه ، فى مثل هذه الساعة . ولكن المرأة الشابة
كانت فى بيتها طليقة الحركات على الاقل ، أما الآن ، فى هذه العربية
المغلقة ، فهى تتساءل عما عسى يحدث . . .

وفى اثناء ذلك كان روبيان يستقر فى مكانه مرتاحا ولا ينبس
بكلمة .

١٤٨

لطت صوفيا فى زاوية العربية . وكان يمكن أن يفسر ذلك بغرابة
الموقف أو حتى بالخوف وحده ، ولكن الواقع ان هذا الرجل لم
يوقظ فى نفسها يوما كل ما يوقظه الآن من كره أو اشمئزاز . . .

أين الاحلام التى كانت تصوغها قبل أيام قليلة ؟ انكم تذكرون
رحلتهم الى تيجوكا ، وخلوتهم هنالک ، وتذكرون كيف عدت معه
على صهوة جوادها فى الجبل ، وكيف نزلت عن حصانها ، وكيف
سمعت منه كلمات الحب ، بل وكيف شعرت بقبلة طبعها على
ثفرها . أين النظرات الناعسة ، واليدان المتلاصقتان والساقان
المرتعشتان ، والكلمات الرقيقة ، والأذنان المتأهبتان للصفح
سلفا ؟ لقد نسيت صوفيا كل شيء ، واختفى من نفسها كل شيء ،

في هذه اللحظة التي ضمتها العربية وحيدين مهددين بفضيحة . واستمرت الخيل تتقدم وهي تضرب الأرض بحوافرها على إيقاع مطرد ، وتقود العربية طوال شارع بيللا دايرنميرا . ما عساها تفعل حين تصل إلى الكاتيتي ؟ أتصحبه إلى مركز المدينة ؟ وخطر لها عندئذ أن تذهب إلى إحدى صديقاتها : تتركه في العربية ، وتقول للسائق أن يتابع طريقه . ثم تقص على زوجها كل شيء . وفي وسط القلق الشديد أخذت تنبثق في ذهنها على حين فجأة ذكريات لا قيمة لها ، أو ذكريات لا تمت إلى الموقف الراهن بصلة من الصلات : نبأ عن سرقة مجوهرات قرأته في الصحف هذا الصباح ، الأعصار الذي هب البارحة ، شكل قبعة من القبعات ، وما لا أدري أيضا ... لكنها انتهت أخيرا إلى أن استولى على ذهنها خاطر واحد هو هذا التساؤل : ما الذي سيقوله لها روبيان ؟ ولاحظت أنه لا يزال ينظر أمامه صامتا ، وقد أسند ذقته إلى قبضة عضاه . الحق أن هذا الوضع الهاديء الرصين الذي يكاد يعبر عن قلة الاكتراث مناسب له . ولكن لماذا صعد إلى العربية ، وأرادت صوفيا أن تقطع الصمت ، حتى لقد حركت يديها مرتين في اضطراب . انها تكاد تفتاظ من هدوء روبيان ، الذي لا يمكن تفسير فعلته هذه إلا بفراجه القديم القوي . وأخذت تتصور بعد ذلك أنه الآن نادم على ما فعل ، فلم تلبث أن عبرت له عن تصورها ، فما كان منه إلا أن أجابها وهو يلتفت إليها :

— لا أرى أن هناك ما يمكن أن أندم عليه . فحين قلت لي أنه لا يحسن أن يرانا الناس معا على هذه الحال أسدلت الستائر . أنني لم أوافقك على رأيك ولكنني أطعت أوامرك .

فقاطعت صوفيا قائلة :

— وصلنا إلى الكاتيتي . هل تريد أن أنزلك عند بيتك ؟ اننا لا نستطيع أن نمضي معا إلى مركز المدينة .

— نستطيع أن نضرب في الأرض على غير هدى .

— كيف ؟

— نعم ، على غير هدى ، تتابع الخيل تقدمها ، ونتحدث في هدوء دون أن نسمعا أحد ، ودون أن يحزر أحد أن ...

— لا تكلمني هكذا ، ناشدتك الله . دعني . أخرج من هذه العربية .. والا نزلت أنا في هذا المكان نفسه ، وتركتك تتدبر الأمر وحدك . ثم ما الذي تريد أن تقوله لي ؟ تكفى دقائق معدودة ..

انظر .. لقد انعطفنا نحو مركز المدينة .. قل للسائق أن يذهب الى بوتافوجو ، فتنزل عند باب بيتك ...

— لقد خرجت من بيتى مند برهه قصيرة ، وأريد أن أذهب الى مركز المدينة . أى ضير فى ان توصلينى الى هناك ؟ أما اذا كنت تخشين أن يرانا الناس ، فسانزل فى اى مكان ، سانزل عند شاطئ سانتا لوزيا مثلا ، من جهة البحر ..
— الافضل أن تنزل هنا حالا .

— ولكن لماذا لايمكننا ان نمضى حتى مركز المدينة ؟
— لا ، لا ، مستحيل . أناشدك بأقدس ما عندك .. دعنا من الفضائح . ما الذى يجب ان أفعله حتى تستجيب لهذا الرجاء البسيط ؟ هل تريد أن أركع لك ضارعة فى هذه اللحظة ؟

قالت ذلك وأخذت تثنى ركبتها فعلا رغم ضيق المكان ، لكن روبيان أسرع ينهضها ، قائلا لها فى لطف :
— لا .. ليس من الضرورى أن تركعى .

— شكرا . أناشدك الله ، أناشدك بأمك التى فى السماء ..
— لاشك انها فى السماء . لقد كانت امرأة قديسة . الامهات جميعا طيبات . ولكن الذين عرفوا أمى لا يستطيعون إلا أن يصفوها بالقداسة . أمثالها قلة قليلة : كانت ممتازة فى كل شئ . يا لها من ربة بيت ! مثلا : كان يستوى عندها أن يكون الضيوف خمسة أو خمسين . انها تعنى بكل شئ فى اللحظة المناسبة . لقد اشتهرت بهذا ! وكان الخدم ينادونها : « سيدتنا الام » ، لانها كانت فى الحق أما لجميع الناس . نعم ، لاشك انها فى السماء .
قاطعته صوفيا قائلة :

— طيب ، طيب . أناشدك اذن بأمك الا فعلت . أنت موافق ؟
— أفعل ماذا ؟

— تنزل .
— ثم أذهب الى مركز المدينة سيرا على الاقدام ؟ لا ، مستحيل .
حقا انك لغريبة الاطوار . ألم أقل لك انه لايرانا أحد . ثم ان خيلك رائعة . هل تلاحظين مشيتها الجميلة ، الرصينة .. تيك .. تاك .. تيك .. تاك .

وكلت صوفيا من التوصل اليه ، فصمتت ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وابتعدت الى أقصى ركن بالعربة .

قالت لنفسها : « الآن عرفت ماذا أصنع . سأوقف العربة على

باب مخزن كرستياتو . فأقول له كيف دخل هذا الرجل الى العربية وكيف توسلت اليه ان ينزل ، وما الذى أجابنى به . ذلك خير من انزاله سرا في أى شارع » .

وظل روبيان هادئا هدوءه ذاك . وكان من حين الى حين يدير خاتم أصبعه ، وهو خاتم رائع ذو فص كبير من الماس . انه لا ينظر الى صوفيا ، ولا يقول لها شيئا ، ولا يسألها عن شيء . هما الآن أشبه بزوجين يشعران بسأم عميق . وأصبحت صوفيا حائرة في فهم السبب الذى دفعه الى ركوب العربية . لا يمكن أن يكون السبب رغبته في الانتقال الى حيث كان يريد ان يذهب ! لا ولا يمكن أن يكون هو حب الظهور . لقد أسدل الستائر منذ أعلنت له استيائها من أن ترى وحيدة معه . ثم انه لا يلاطفها بكلمة واحدة ، ولا يلمح ما يكنه لها من حب ، ولا يتوسل اليها ولا يتضرع .. انه حقا شخص لا يمكن فهمه ، شخص شاذ غريب !

١٤٩

قال روبيان فجأة :

— صوفيا ..

ثم أردف بعد برهة قصيرة :

— الايام يا صوفيا تمضى ، ولكن ما من رجل ينسى المرأة التى أحبها حقا ، والا كان لا يستحق أن يسمى رجلا . ان حبنا لن ينسى : لن أنساه أنا طبعاً ، ويقىنى انك لن تنسيه أنت . لقد منحتنى يا صوفيا كل شيء ، وعرضت حياتك نفسها للهلاك في سبيل ذلك . صحيح يا جميلتى اننى كنت سأثار لك لو قتلوك ، واذا كان الثأر يفرح الموتى ، فلا شك انك كنت ستشعرين بأعظم لذة . ولكن نجمى قد حمانا لحسن الحظ ، فاستطعنا أن نتحاب دون أن تقوم عقبات ، ودون أن تراق دماء ...

وكانت المرأة الشابة تصفى اليه مشدوهة . وتابع كلامه يقول :
— لا تقلقى ، فلن نفترق . لا ، لا ، لست أفتحك في أمر الفراق . لا تقولى ان فراقنا سيجهز عليك . اننى أعلم انك ستدرفين كل ما في عينيك من دموع اذا افترقنا . ولن أبكى أنا — لاننى لم أجد الى هذا العالم من أجل أن أبكى — ولكن هذا لاينفى أن لوعتى ستكون كبيرة . بل ان الاحزان التى يحبسها المرء في قلبه أشد أيلاما من غيرها . فالدموع تحسن الى صاحبها لانها

تخفف عنه . وانما أقول لك هذا الكلام يا عزيزتى ، لأن علينا أن نلتزم الحذر الذى قد ينسيناه ما يضطرم فى نفسينا من هوى لا يشبع . لقد تعرضنا لمخاطر كثيرة يا صوفيا . واذ أن كلا منا قد خالق للآخر ، فقد يوهمنا ذلك أننا زوجان ، وبهذا نتعرض للمخاطر . اسمعى يا عزيزتى ، اسمعى يا قلب قلبى ... ان الحياة جميلة ! ان الحياة عظيمة ! ان الحياة رائعة ! ولكن ما من كلمة يمكن أن تفصح عن كل ما أشعر به حين أكون معك ؟ هل تذكرين موعداً الاول ؟

قال روبيان هذه الكلمات الاخيرة وهم أن يتناول بذها . لكن صوفيا تراجعت فى الوقت المناسب . لقد اشتدت حيرتها ، وأصبحت لا تفهم من الامر شيئاً ، وأخذت تشعر بخوف . وما انفك صوت روبيان يزداد دويه قوة ، حتى صار من الممكن أن يسمع الحوذى شيئاً من كلامه !.. وفى هذه اللحظة انما راودتها هذه الشبهة : قالت فى نفسها : ربما كان روبيان يقصد أن يسمع الحوذى كلامه ، ليكون التخويف وسيلة للتضييق عليها ، أو ليشهر بها بين الناس . تمنى أن تهجم عليه ، وتمنى أن تستغيث ، وأن تخرج من هذا الموقف بفضيحة . لكن روبيان استأنف يقول بعد برهة قصيرة من صمت :

— أما أنا فأذكر موعداً الاول ذاك ، كأنه كان بالأمس . لقد وصلت على عربة . ليست هى هذه العربة . كانت عربة مستأجرة . ونزلت منها وجلة كل الوجل ، وقد حجبت وجهك بنقاب . كنت ترتعشين ارتعاش ورقة فى مهب الريح ... لكنك لم تلبثي أن لجأت الى ذراعى تعصمين بها . كان على الشمس أن تقف فى ذلك اليوم ، كما وقفت ليسوع ... ومع ذلك بدت لى تلك الساعات ، يا ملاكى ، طويلة طويلة ، لا أدري لماذا ! كان يجب أن تبدو لنا قصيرة ، اليس كذلك ؟ لعل مرد هذا الى أن حبنا كان لا ينضب ، وما زال لا ينضب ، وسيظل لا ينضب ... أما الشمس فسرعان ما اختفت : لقد غابت فى الجهة الثانية من الجبال حين خرجت حبيبتي صوفيا الى الشارع وجلة ، وركبت عربة أخرى . أكانت عربة أخرى أم كانت العربة الاولى نفسها ؟ أحسب انها كانت العربة الاولى نفسها . لا تستطيعين أن تتصورى الحالة التى تركتنى عليها . كنت كالمجنون . قبلت كل ما أصبته بلمس . قبلت حتى عتبة الباب . اظن اننى حدثتك عن هذا كله قبل الآن . عتبة الباب ! واوشكت ،

أوشكت أن أزحف زحفا لأقبل درجات السلم ... لكننى لم أفعل ، بل رجعت الى البيت ، وأوصدت الباب بالمفتاح ، حتى احتفظ بعطرك كله ! كان عطر بنفسج ، اذا صدقت ذاكرتى ...

لا .. يستحيل أن يكون قصد روبيان أن يوهم الحوذى بصدق هذه المغامرة الكاذبة . ان روبيان يتحدث بصوت بلغ من الخفوت والعمق ان صوفيا تكاد لا تسمعه . ولئن عجزت عن سماعه واضحا ، فلقد كانت عن فهم معناه أعجز . ماهذه القصة التى لم تحدث يوما ؟ ولو سمعها سامع مع ذلك لاعتقد انها صادقة من أول كلمة الى آخر كلمة ... فقد كان روبيان يرويها بلهجة تبلغ مبلغا كبيرا من الصدق ، والعاطفة ، والاحتمال ، حتى فى أدق التفاصيل ... وتابع روبيان يكشف عن مكنونات قلبه ، ويدمدم لها بذكريات لم توجد يوما الا فى أحلامه !

هتفت صوفيا آخر الامر تقول :
- ولكن ما معنى هذا المزاح ؟

فلم يجيبها صاحبنا ، لأن رؤيا جديدة قد خطرت عندئذ أمام بصره ، حتى أنه لم يسمع السؤال . تابع كلامه . أخذ يتحدث عن حفلة موسيقية للفنان جوتشالك . كان العازف العظيم يعزف لنا عاطفيا ، وكانا يصفيان اليه معا حين علق شيطان الموسيقى نظر كل منهما بنظر صاحبه ، فاذا بكل ما عدا ذلك يختفى من الوجود عندهما . حتى اذا وقفت الموسيقى ، وانطلق التصفيق ، ارتدا الى الواقع . أسفا ! لقد ارتدا الى الواقع فاذا باليا ينظر اليهما نظرة نمر مفترس ! لقد ظن روبيان فى تلك الليلة أن زوجها سيقتلها .

- سيدى روبيان ! ..

- لا ، لا تنادينى نابوليون ، بل قولى لويس . أنا «لويسك» ، ليس كذلك أيتها المخلوقة الجميلة ؟ أنا «لويسك» ، «لويسك» انت . قولى : يا لويسى ، يا لويسى العزيز . ليتك تعرفين اللذة التى أشعر بها حين أسمعك تنطقين بهذه الكلمة «لويسى» . وانت ، انت صوفياى ، صوفياى الحلوة العذبة ، صوفيا قلبى الفاتنة . ولكن مالنا نضيع هذه اللحظات الثمينة سدى ؟ هلا قلنا أشياء عاطفية ، ولكن بصوت خافت ، خافت جدا ، حتى لا يسمعنا هؤلاء الاوغاد القابعون على المقعد أمامنا ؟ لماذا وجد الحوذىون على هذه الارض ؟ لو كانت العربية تسير من تلقاء نفسها ،

لاستطعنا أن نتحدث كما نشاء ، وأن نمضى على هذه الصورة الى آخر العالم .

وكانا قد أخذنا يقطعان شارع باسيو بوبليكو . ان صوفيا لم تتنبه الى ذلك ، فقد كانت تحقق الى روبيان . ان هذا الهديان لا يمكن أن يكون صادرا عن رجل راغب في تعذيبها ، لا ولا يمكن أن يصدر عن رجل محب للمزاح . انه هديان . نعم انه هديان ، ان فيه لنبرة صدق .. كشخص يرى أو رأى ما يرويه .

قالت المرأة الشابة بينها وبين نفسها : « يجب أن أنزله » . ثم تسلمت بالشجاعة وسألته

— أين نحن ؟ أظن ان قدآن لنا ان نفترق . انظر من هذه الجهة . اين نحن ؟ أحسب انه الدير . نحن اذن في ساحة أجودا . قل للحوذى ان يقف ، او انزل في ساحة كاريوكا اذا كنت تؤثر ذلك . ان زوجي ...

— ساعينه سفيرا . او أعينه عضوا في مجلس الشيوخ . كما يريد . والافضل أن يكون عضوا في مجلس الشيوخ فبذلك تبقىان كلاكما هنا . اذا جعلته سفيرا فلن أوافق على أن تصحبيه .. وهناك السنة السوء .. انك تعرفين المعارضة التى على أن أواجهها ، وتعلمين أنواع الغيبة والنميمة التى يمكن أن يلوكها الناس .. آه من هؤلاء الاشرار ! هل قلت : دبر أجودا ؟ مالك وللدير ؟ أتريدى أن تترهبى ؟

— بل قلت اننا مررنا امام دير أجودا . فهل أتركك في ساحة كاريوكا . أم نذهب الى مخزن زوجي ؟

مرة أخرى بدا لصوفيا ان هذا الحل الثانى افضل ، فهي لايفسخ للحوذى مجال الريب والاشتباه ، وهو يصلح لاقامة البرهان لباليا على براءتها ، حين تروى له كل شيء ، منذ دخل روبيان الى العربية بفتة حتى مشهد الهديان الاخير . ولكن ما سر هذا الهديان ؟ وتصورت انها ربما كانت هي السبب في هذا الهديان ، فجعلها هذا التصور تبسم شفقة ورأفة .

قال روبيان :

— لماذا ؟ سأنزل هنا . ذلك أبعد عن الشبهة . علام نوقظ في نفسه الشكوك ، فنحمله على أن يسئ معاملتك بعد ذلك ؟ صحيح ان في وسعى أن أعاقبه ان هو فعل ، ولكن ذلك لن يحررنى أبدا من عذاب الضمير الذى سأشعر به نتيجة ما سببت لك من اذى .

لا ، لا ، ياملاكى المقدس ! ولكن ثقي اننى قادر على أن أزيل
الهواء من الفضاء اذا هو اجترأ على لمسك لانه يكون هواء سيئا .
انك يا صوفيا لا تعرفين كل ما أملك من قدرة . اعترفى بذلك .

واذ لم تعترف صوفيا بشيء ، أخذ روبيان يشيد بجمالها ، ثم
قدم لها الخاتم الماسى الذى كان فى اصبعه . ولكن صوفيا ، رغم
حبها للمجوهرات ورغم ما كان يضطرم فى نفسها من شوق الى
امتلاك خاتم ذى فص وحيد من الماس ، رفضت هذا العرض فى وجل
قال روبيان :

— اننى أفهم ترددك . ولكن رفضك هذا لن يضيع عليك شيئا .
ذلك انك ستلقين خاتما آخر أجمل من هذا أيضا ، وستلقينه من
يد زوجك . . لسوف أجعلك دوقة . هل سمعت ؟ سوف أخلع
عليه هذا اللقب . ولكننى سأفعل هذا من أجلك انت . دوق . .
دوق ماذا ؟ سأحاول أن أجد له لقبا جميلا . بل أدع لك انت أن
تختارى اللقب الذى تشائين ، لاننى انما أفعل ذلك من أجلك انت ،
لا من أجله هو ، يا وردتى . وليس عليك أن تختارى فورا ، فكرى
فى الامر حين تعودين الى المنزل . واياك والخجل الزائف . ما عليك
الا أن تبلغينى اللقب الذى تؤثرين حتى أبعث بالمرسوم حالا . وفى
وسعك أيضا أن تفعل شيئا آخر : تختارين اللقب وتذكرينه لى
اثناء لقائنا القادم فى المكان المعهود . أريد أن أكون أول من يناديك
دوقة : أيتها الدوقة العزيزة . ثم يصل المرسوم بعد ذلك .
يا دوقة قلبى !

قالت كالتائهة :

— نعم نعم . ولكن فلنقل للسائق أن يذهب بنا الى كرستيانو .
— لا بل أنزل هنا . قف ! قف !

وأزاح روبيان الستائر ، وجاء السائق يفتح له الباب . ومن أجل
أن تجنب صوفيا ذهن السائق أى ارتياب ، طلبت من روبيان مرة
أخرى أن يرافقها حتى مخزن زوجها ، وقالت له أن زوجها يريد
أن يحدثه فى أمر مستعجل . فنظر اليها روبيان بشيء من الدهشة ،
ثم ألقى نظرة على السائق وعلى الشارع ، ورفض أخيرا أن
يستجيب لطلب صوفيا قائلا انه سيذهب اليه فى وقت آخر .

١٥٠

ما ان افترقا حتى قامت فى نفسيهما عواطف متناقضة كل التناقض .

أما روبيان فانه حين أصبح في الشارع التفت ذات اليمين وذات الشمال ، وعاوده الاحساس بالواقع ، وتبدد هذيانه شيئاً فشيئاً . انه يسير ويقف أمام أحد الحوانيت ، ويجتاز الشارع ، ويعترض شخصاً من معارفه يسأله عن الانباء وعن رأيه في الموقف الراهن ، ويحاول على غير شعور أن يطرد ذاته الثانية التي كانت له منذ قليل . وأما صوفيا فقد حدث لها نقيض ذلك . انها بعد أن انقضت لحظات أولى شعرت خلالها بالخوف والذهول ، غرقت في أحلام عميقة . ليتكم تعلمون كم أيقظت تخيلات روبيان في نفسها من حنين حنين الى ماذا ؟ لعله « حنين الى الجنة » ، كما كان يقول الاب برنارديس متحدثاً عن أشواق المسيحى الطيب . وهى فى مثل هذا الامر لا تعوزها الاسماء .

ذلك أمر شائق ، أليس كذلك ؟ لقد راحت صوفيا تستعرض بخيالها العربية العتيقة التي ركبها على عجل وخرجت منها مرتعشة لتصعد خلسة على سلم ينتظرها في أعلاه رجل تمتم لها بأجمل ما في العالم من كلمات الحب ، ثم ردد هذه الكلمات على مسامعها منذ قليل وهو الى جانبها في هذه العربية نفسها . ولكنه لم يكن روبيان . لا يمكن أن يكون روبيان . فمن كان اذن ؟ انها في هذا الامر لا تعوزها الاسماء .

١٥١

لم يلبث نبأ جنون روبيان أن ذاع في الناس . وكان بعضهم يلقاه وهو في غير حالات هذيانه ، فيريد أن يتحقق من صدق الشائعة التي تتناقلها الالسن ، فيسدير الحديث على شئون فرنسا . والامبراطور ، فاذا بصاحبنا روبيان يتردى في هوة الجنون من جديد ، فينفض عنه محدثوه وقد اقتنعوا بصدق الشائعة .

١٥٢

وانقضت بضعة شهور وشبت الحرب الفرنسية البروسية ، فكانت نوبات روبيان تتفاقم شيئاً بعد شيء ، وتتكاثر يوماً بعد يوم . فاذا وصل بريد أوروبا في وقت مبكر ، رأينا روبيان يخرج من بوتافوجو قبل الافطار ويهرع ينتظر الجرائد . كان يشتري جريدة « مراسلات البرتغال » ، ويمضى يقرأها في كارسلير . وأيا كانت الانباء فانه كان يؤولها على انها انتصارات . كان يعد عدد الموتى

والجرحى ، فيجد انه هو المتفوق . سقوط نابليون الثالث ، فهمه على انه وقوع الملك غليوم في الاسر ، وثورة «{ ايلول - سبتمبر » ، فهمها على انها مائدة أولها اليونانيون .

وفي نيته كان ضيوفه المعهودون لا يجسرون أن يبددوا ضلاله ، ولكنهم في الوقت نفسه لا يشاركونه عبثه ، لانهم يستحيون بعضهم من بعض ، فهم يتسممون ويفيرون الحديث . غير ان روبيان قد وقعهم جميعا الى مناصب عسكرية عالية ، فهذا مارشال توريس ، وهذا مارشال بيو ، وهذا مارشال ريبيرو ، وكان لا يفوتهم أن يستجيبوا لألقابهم هذه . ان روبيان لا يراهم الا في ملابسهم العسكرية . وهو يصدر اليهم امره بأن يكتشفوا مواقع العدو أو أن يقوموا بهجوم ، ولكنهم لم يكونوا في حاجة الى الخروج من أجل أن يطيعوا أوامره ، فلقد كان كل شيء يتم في دماغ المضيف .

فاذا ترك روبيان ساحة المعركة وعاد الى مكانه على المائدة ، رأى المائدة مختلفة كل الاختلاف . ورغم ان الادوات الفضية واطباق القيشاني والبللور لم يبق منها شيء فان المائدة تبدو له فخمة فخامة ملكية . انه يرفع الفراريج الفقيرة الهزيلة الى مقام الديكة البرية الكبيرة . واللحوم المفرومة العادية والمتبلات البسيطة الكريهة لها في منخريه أريج الاطعمة اللذيذة الذكية . وكان ضيوفه الطفيليون يرون ما آلت اليه حال المائدة ، ولا يفوتهم أن يعلقوا فيما بينهم على هذا الاهمال أو أن يلفتوا اليه نظر الطباخ . ولكن ماذا يمكن أن يعمل المرء حين يكون داعيه لوكولوس ؟ هذا الى أن المنزل كله ، وقد أفسده الزمن والتهاون « فلم يبق ثمة الا سجاد مبقع واثاث مكسر وستائر رثة . . . » كان لا يبدو لروبيان على حقيقته ، وانما كان يكتسى في نظره مظهرا لا مثيل له من مظاهر الابهة والترفع ! وحتى لغة روبيان قد تغيرت فأصبحت أكثر تقعرا وتصنعا .

وكذلك أفكاره التي غدا بعضها خارقا للمألوف كأفكار صديقه الراحل كوتكاس بوربا : ان تلك النظريات التي لم يفهم منها شيئا حين سمعها في بارباسينا أصبح الآن يرددها في جلاء بل وفي اقتناع ، مستعملا في بعض الاحيان عبارات صاحبه الفيلسوف نفسها . كيف تعمل ترديده أمورا كانت غامضة في ذهنه ذلك الغموض كله ، كيف تعمل علمه بأمور كان يعجز عن فهمها ذلك العجز كله ، بينما كان يبدو ان تلك الالفاظ وتلك النظريات جميعا قد ذرتها الرياح ؟ وكيف كانت هذه الذكريات كلها تختفى حين يعود روبيان الى وعيه ؟

ان الشفقة التى شعرت بها صوفيا نحو روبيان - بعد أن عللت مرضه بحبه لها وهيامه بها - كانت شعورا مخففا معتدلا ، فلا هى بالعطف المحض ولا هى بالانانية الفاضية ، بل هى مزيج من الأمرين معا . حسبها ان تتحاشى تكرار وضع شبيه بالوضع الذى تم فى العربية ، حتى تجرى الأمور كلها على مايرام . ان صوفيا تصفى اليه بانتباه وتتحدث اليه باهتمام حين يكون فى حالات صحوه ، لاسيما وأن مرضه الذى كان يبت فيه كثيرا من الجراحة فى ساعات الهذيان كان يضاعف خجله فى الحالة الطبيعية . وهى لا تبتسم كما يبتسم باليا حين يرتقى روبيان العرش أو حين يقود جيشا . كانت تعتقد انها سبب مرضه ، وهى لذلك تغفر له كل شيء ، فإذا تصورت انه أحبها حقا الى حد الجنون ، جعله هذا التصور فى نظرها مقدسا .

- لماذا لا يعالج ؟ قد يشفى .

كذلك قالت دونا فرناندا ذات مساء ، وكانت قد عرفت روبيان فى منزل أسرة باليا قبل ذلك بسنة . فأجاب باليا بقوله :
- ما أظن الأمر خطيرا : صحيح انه يعانى نوبات من الهذيان ، لكنها نوبات هادئة كما رأيت : تراوده أفكار عظيمة ما تلبث أن تنقضى . لاحظى من جهة أخرى ان كلامه سوى تماما على كل حال ، ربما ... ما رأيك ياسيدى ؟
فاجاب تيوفيلو ، زوج دونا فرناندا ، قائلا ان ذلك ممكن . وأردف يسأل :

- ماذا كان يعمل ، وماذا يعمل الآن ؟

- لا شيء ، لا الآن ولا من قبل ! كان غنيا ، ولكنه كان مبذرا متلافا . وقد عرفناه عند وصوله من ميناس ، وكنا له أشبه بالمرشدين فى ريو دى جانيرو التى لم يكن قد جاءها منذ سنين طويلة . انه رجل شهم . وهو يحيط نفسه دائما بأكبر مظاهر الرخاء والترف ، هل تتذكر ؟ ولكن ما من ثروة الا وتنضب حين يبدد صاحبها رأس ماله . وذلك ما فعله روبيان . أظن انه ام يبق له الآن كبير شيء ...

— ربما كنت تستطيع أن تنقذ له القليل الباقي ، بتعيين نفسك وصيا على أمواله أثناء معالجته ، أنا لست طبيبا ، ولكننى أحسب أن شفاء صديقك يجب ألا يكون مستحيلا .

— لا أقول لا . أن ذلك لخسارة حقا . . . أن له أيادى جمانة على جميع الناس ، وهو لا يفكر الا فى اسداء الخدمات لمن هم فى حاجة اليها . هل تعرف انه أوشك أن يكون نسيبنا ؟ نعم لقد أراد أن يتزوج مارييا بنديكتا . قاطعت دونا فرناندا تقول :

— على ذكر مارييا بنديكتا ، أوشكت أن أنسى اننى أحمل رسالة منها ، يجب أن أطلع عليها زوجتك . لقد تلقيت الرسالة أمس . لابد انكم تعلمون انهما عائدان قريبا . هذه هى الرسالة .

ومدت الرسالة الى صوفيا ، ففضتها هذه فى غير حماسة ، وقرأتها فى ضجر . انها ليست رسالة مبتذلة كتلك التى يرسلها الناس عامة أثناء السفر ، وانما هى رسالة تفضى فيها مارييا بنديكتا بذات نفسها فى ثقة : هى نجوى حميمة كاملة تصدر عن نفس سعيدة تعترف بالجميل . . . أن مارييا تروى المراحل الاخيرة من رحلتها بقليل من الاضطراب ، لان المسافرين هما اللذان يحتلان من الحديث منزلة الصدارة ، ولأن أجمل التحف الفنية التى ابتدعها الانسان أو التى ترى فى الطبيعة لم تكن فى رسالتها شيئا بالقياس الى الاعين التى تراها . رب حادث بسيط وقع فى الفندق أو الشارع يحتل فى الرسالة من المكان والاهتمام أكثر مما يحتل غيره ، لا لشيء الا لأنه فرصة تنتهزها مارييا بنديكتا لإبراز مزايا زوجها ! أن مارييا بنديكتا لا تزال تحب زوجها كما أحبته فى أول يوم ، أن لم يكن أكثر . وفى حاشية بذيل الرسالة تعلن مارييا بنديكتا فى خجل ، انها ستصبح أما ، وتوصى بكتمان هذا الامر .

وطوت صوفيا الرسالة . أن ما تشعر به الآن ليس الضجر بل هو الحسرة ، وذلك لسببين متناقضين . ولكن التناقض من طبيعة الانسان . . . حين تقارن صوفيا بين هذه الرسالة وبين الرسائل التى تلقتها هى من مارييا بنديكتا ، تلاحظ أن حديث مارييا بنديكتا اليها هو حديث شخص الى شخص يعرفه معرفة ولا تربطه به أى صلة عائلية أو عاطفية . ومع ذلك فإن صوفيا لا تتمنى أبدا أن تحدثها مارييا بنديكتا عن هذه السعادة التى تصفها همسا من الطرف الآخر من الاوقيانوس ، هذه السعادة التى تفيض فى ذكر

التفاصيل ، واطلاق النعوت ، وارسال الصيحات ، والتي تفيض
خاصة في ترديد اسم كارلوس ماريا ، وفي الحديث عن عيني كارلوس
ماريا ، وعن كلمات كارلوس ماريا ، وعن ابن كارلوس ماريا أخيرا
ان هذا كله يبدو لها تحديا ، ويكاد يدل على تواطؤ فرناندا في الامر .
لكن صوفيا بارعة تعرف كيف تخفى مشاعرها حين يجب
اخفاؤها ، لذلك كتبت حسرتها وردت رسالة ابنة خالتها الى
صاحبها . وأرادت أن تقول ان هذه الرسالة تدل على ان سعادة
ماريا بنديكتا لا بد أن تكون كاملة كمالها في لحظة السفر ، ولكن
الكلمات وقفت في حلقها ، فتولت دونا فرناندا استخلاص
النتيجة قائلة :

— واضح انها سعيدة .
— اعتقد ذلك ..

١٥٥

لو لم يكن اليوم التالي ممطرا ، فلربما كان مزاج صوفيا مختلفا .
ان الشمس لا توقظ في النفس أفكارا ممتعة دائما ، ولكنها تتيح
للمرء أن يخرج على كل حال ، وتغير الجو يبدل العواطف في كثير
من الاحيان . حين استيقظت صوفيا كان المطر لا يزال ينهمر
مدرارا ، وقد التقت السماء بالبحر من فرط انخفاض الغيوم
وشدة كثافة الضباب .

الضجر يطوف بكل مكان ، ويلف الفضاء كما يلف قلب صوفيا ،
فلا شيء يمكن أن يسلى عينيها ولا أن يسرى عن قلبها . لقد
وضعت صوفيا قلبها في تابوت من خشب الارز ، وسجنت هذا
التابوت في تابوت آخر من رصاص هو هذا الجو الممطر ، وأرادت
أن تعد نفسها ميتة . كانت تجهل ان الموتى يفكرون هم أيضا ،
وان طائفة من المعاني الجديدة تأتي فتحل عندهم محل المعاني
القديمة ، فيأخذون في نقد العالم الذي هجروه ، كالشاهدين
الذين يخرجون من المسرح فيأخذون في نقد التمثيلية التي شهدوها
والممثلين الذين رأوهم . وسرعان ما لاحظت جميلتنا المتوفاة أن
بعض المشاعر وبعض العواطف لا تزال تحيا فيها . ان هذه المشاعر
والعواطف تخطر في ذهنها على غير نظام ، ولكن نقطة بدايتها
واحدة : انها الرسالة التي قرأتها البارحة وذكرى كارلوس ماريا
التي أيقظتها الرسالة في نفس المرأة الشابة .

كانت صوفيا تظن صادقة انها أبعدت من خيالها صورة ذلك الرجل البفيض الى الابد . وها هو ذا الآن يظهر أمامها مرة أخرى ، ويتسم لها ، ويحدق اليها ، ويهمس في أذنها بتلك الكلمات الدعية الانانية ، التي دعاها بها يوما الى رقصة الخيانة الزوجية ثم تركها وحدها في وسط الصالون . وهذه أطيا ف أخرى تظهر لها أيضا : ماريا بنديكتا مثلا . . . هذه التافهة التي نقلتها هي من الريف وخلعت عليها رواء المدنية ، فاذا هي تنسى الآن جميع ما أسبغت عليها من نعم ولا تفتن الا الى مطامحها الصغيرة . ودونا فرناندا أيضا . . . عراة هذا الحب . . . دونا فرناندا التي تعمدت البارحة أن تحمل اليها رسالة ماريا بنديكتا مع الحاشية التي تسر اليها فيها بالنبا . . . ولم يخطر ببال صوفيا أن سرور صديقتها قد يكون هو السبب الذي أنساها أن الرسالة شخصية ، ولا خطر ببالها أن طبع دونا فرناندا لا يسمح بتصور هذا القصد . وهزتها أفكار أخرى وصور أخرى ، ثم عادت تهزها الأفكار الاولى والصور الاولى . وفي زحمة هذا الذهاب والاياب بين الأفكار والصور ، انبثق أمام بصرها مشهد من مشاهد البارحة : نظرة الاعجاب التي رمقها بها زوج دونا فرناندا . يجب أن نذكر انها كانت بالامس في أبهى حلة ، وأن ثوبها كان يبرز جمال صدرها ورشاقة قدها وحسن استدارة خصرها . . . لقد كانت ترتدى ثوبا من حرير بلون القش .

فلما أثنت دونا فرناندا على ثوبها عقب وصولها قالت صوفيا وهي تضحك :

— انه بلون القش ، وقد اخترعت هذا اللون لانه يذكرني بهذا السيد (١) !

ويصعب على المرء أن يخفى سروره بالمديح ، لذلك ابتسم ابتسامته مزهوة وهو يحاول أن يقرأ في وجوه الآخرين ما أحدثه في نفوسهم هذا البرهان الصريح على حب زوجته له . وكان تيوفيليو قد أثنى هو أيضا على ثوب صوفيا ، ولكن كان من الصعب جدا الا ينظر أيضا الى الجسم الذي يلبس الثوب . . . وذلك ما يفسر لها تلك النظرة الطويلة التي رمقها بها عندئذ ، وهي والحق يقال نظرة خالية من الشهوة لم تتكرر الا مرة واحدة ، ومع ذلك فان هذه الذكرى ، ذكرى تلك الحركة المبراة من الاغواء وذلك الاعجاب المنزه من الرغبة ،

(١) يقال للقش باللغة البرتغالية باليا . . . ومن هذا الجنس بين القش واسم باليا نفهم نكتة صوفيا . (المترجم)

هى ما تمثل الآن فى خاطر صوفيا فى هذه اللحظة التى كانت لا تفكر خلالها الا فى خبث صديقتها معها .

كارلوس ماريا ، تيوفيليو... ان صوفيا لا تعوزها الاسماء فى هذا الباب ، كما ذكرت لكم فى الفصل ١٥٤ ، وانبعثت هذه الاسماء فى ذهنها جميعا ، لأن المطر لايزال ينهمر ، ولأن السماء والبحر لايزالان متحدين بضباب واحد . انبعثت هذه الاسماء فى ذهنها جميعا ... وانبثق مع الاسماء أصحاب الاسماء .. بل ان أشخاصا بلا أسماء قد انبثقوا فى خاطرها أيضا : أشخاصا بعيدين ، مجهولين ، لم يروها الا مرة واحدة ، لكنها وقد عزفوا لها نشيد الإعجاب ، تصدقت عليهم بنظرة لطيفة . لماذا لم تحتفظ بواحد من هؤلاء المجهولين الكثر لتصفى اليه مدة أطول ، ولتجعله أغنى ؟ صحيح ان صدقة صغيرة لم تغن أحدا فى يوم من الايام ، ولكن اليس هناك مكافآت أعظم قيمة ؟ ولماذا لم تحتفظ أيضا بواحد من تلك الاسماء الجميلة ، بل المشهورة ، التى تزدحم الآن فى خاطرها ؟ ان هذا السؤال الاخرس يدوى فى عروقتها ، فى أعصابها ، فى دماغها ، لكن شعورا واحدا كان يرد عليه ، هو الشعور بالاضطراب والاستطلاع .

١٥٦

فى اثناء ذلك انقطع هطول المطر لحظة ، واستطاع شعاع من الشمس ان يخترق الضباب لكنه كان أحد تلك الاشعة المحملة بالرطوبة ، الشبيهة بالنظرات المخضلة بالدموع . ظنت صوفيا انها تستطيع أخيرا أن تخرج . انها تتعجل أن تغير افقها ، وان تسير لتنفض عنها خمولها ، وهى تأمل ان تسطع الشمس فتطرد المطر وترين على السماء والارض من جديد . لكن الكوكب الساطع سرعان ما أدرك ان هذه المراة تنوى أن تتخذ مصباحا كمصباح ديوجين ، فقال للشعاع الرطب : عد ، عد الى حضنى أيها الشعاع العنق الفاضل . لا تقدها الى حيث تسوقها شهوتها . فلتعشق اذا رغبت فى ذلك ، ولترد على رسائل غرام اذا هى تلقت رسائل غرام ولم تحرقها . أما أنت يا نور صدرى ، ويا ابن أحشائى ، أنت أيها الشعاع ، يا أخا أشعتى ، فلا تكن لها مصباحا .. « وأطاع الشعاع فالتحق بمركز النار ، وقد دهش بعض الدهشة من مخاوف الشمس التى رأت مع ذلك كثيرا من الامور المألوفة

والخارقة للعادة ، وعادت طبقة السحب كثيفة كما كانت ، بل لقد ازدادت جهامة وظلاما ، واستأنف المطر هطوله غزيرا .

١٥٧

اذننت صوفيا لبقائها في البيت . ان الاضطراب الذي غزا قلبها شبيه بالاضطراب الذي يرين على الجو . ان جميع الصور وجميع الاسماء التي حاصرتها تصب الآن في أمر واحد هو الرغبة في الحب . ومن الانصاف مع ذلك أن تقول انها كانت تحاول ، حين تخرج من هذه الحالات النفسية المبهمة الغامضة ، أن تصرف ذهنها الى أمور أخرى ، تخلصا من تلك الرغبة . غير ان ما يحدث لها عندئذ شبيه بما يحدث لأولئك الذين يغالبون النعاس : فما يكادون يغمضون أعينهم حتى يفتحوها ، وما يكادون يفتحونها حتى يغمضوها . وكفت أخيرا عن تأمل المطر والضباب ، وقامت تقلب صفحات العدد الأخير من « مجلة العالمين » (١) نشدانا للراحة . ان سيدة أنيقة من السيدات التي عرفت صوفيا أيام لجنة اللاجواس ، هي التي سألتها ذات يوم في زحمة أعمال اللجنة هذا السؤال :

— هل تقرئين رواية فوييه في « مجلة العالمين » ؟

فأجبتها صوفيا :

— نعم ، وأراها شائعة جدا . .

والواقع ان صوفيا لم تقرأ الرواية ، حتى لقد كانت لا تعرف هذه المجلة أصلا لكنها أسرعت تطلب من زوجها في الغداة أن يشترك في المجلة ، فقرأت رواية أوكتاف فوييه ، ثم قرأت الروايات التي نشرت بعدها ، وأصبحت تتحدث عن جميع الروايات التي قرأتها أو التي هي بسبيل قراءتها . فبعد أن قلبت ذلك العدد الأخير الذي كان بين يديها ، وتصفححت قصة من القصص ، مضت الى غرفتها واستلقت على سريرها . واذ كانت قد أرقت في الليلة البارحة ، لم تلبث أن غرقت في نوم عميق خلا من الأحلام إلا في النهاية حيث واقاها جثام : رأت نفسها محاطة ببساط من ضباب كضباب ذلك النهار . لكنها في عرض البحر منبطحة على مقدمة قارب ، تكتب بأصبعها على صفحة الماء هذا الاسم : كارلوس منريا . والاحرف تطل منقوشة في الامواج ، حتى ان زبد الاخاديد يهب لها مزيدا من الوضوح ، لا شيء يبعث على الخوف كثيرا حتى

(١) هي مجلة Revue des Deux Mondes الفرنسية (المترجم)

الآن ، اللهم الا ما في هذا الامر من سر . ولكن من المعروف ان الاشياء التى تشتمل على أسرار تبدو فى الاحلام طبيعية . وفجأة ينقشع بساط الضباب ، فاذا بكارلوس ماريا يظهر لعينى صوفيا بشخصه : ها هو ذا يتقدم اليها ، ثم يضمها الى صدره بذراعيه ، ويهمس لها بألف كلمة عاطفية ، كالكلمات التى قالها لها روبيان منذ بضعة أشهر . لكن هذه الكلمات لا تبعث فيها ما بعثته كلمات روبيان من اشمئزاز ، فهى تصفى اليها فرحة ، وتكاد من خشوتها تنقلب الى الوراء كأنها تتخاذل . وليست الآن فى قارب وانما هى فى عربة ، وقد وضعت يدها فى يد نسيبها . وفتنتها أمازيحه المرحية الرائعة . وهذا أيضا ليس فيه ما يفزع . وانما حدث الامر المفزع حين وقفت العربة . فاذا بأشخاص ملثمين يحيطون بالعربة ، فيقتلون الحوذى ، وينزعون الابواب ، ويطعنون كارلوس ماريا ، ويرمون جثته الى الارض ، ثم يجيء واحد منهم كان يبدو انه رئيس العصاة فيقعد فى مكان المتوفى ، ويحسر القناع عن وجهه ويطلب من صوفيا ألا تصرخ مستنجدة ، ويقول لها انه يحبها أكثر مما يحبها الآخر ألف مرة ، ثم يمسك بقبضتها ويطبع على شفتيها قبلة ، لكنها قبلة مبللة بالدم ، قبلة تفوح منها رائحة الدم ... فتطلق صوفيا صرخة مذعورة وتستيقظ . كان زوجها عندئذ الى جانب سريرها . فسألها :

— مالك ؟

فزفرت صوفيا :

— آه ...

وسأله :

— صرخت ، اليس كذلك ؟

فلم يجبها باليا بشيء ، وكان مبهم النظرة يفكر فى بعض الاعمال . وشعرت زوجته عندئذ بخوف : اذا كانت قد تكلمت حقاً ، فمن الجائز أن تكون قد تمتمت بكلام أو اسم هو الاسم الذى كانت تخطه على صفحة الماء . ولم تلبث أن رفعت ذراعيها فألقتهما على كتفى زوجها مشبكة أصابعها وراء نقرته ، ودمدمت تقول له فى نصف فرح ونصف حزن :

— حلمت بأنهم يقتلونك ...

فتأثر باليا تأثراً شديداً . ان شعوره بأنه سبب لها الما ولو فى المنام يملؤه شفقة عليها ، لكنها شفقة مترعة باللذة الى أبعد

الحدود . ترى أى اسم يمكن أن نطلقه على هذه العاطفة الخفية الصادرة من أعماق أعماق نفسه ، هذه العاطفة التى تجعله يتمنى لو تحلم زوجته أحلاما ثقيلة أخرى من هذا النوع ، فتراه يقتل أمامها مرة ثانية ، لتصرخ ذعرا من جديد وقد امتلأت نفسها الما وهلعا ؟

١٥٨

وفى الغد كانت الشمس ساطعة دافئة ، والسما صافية ، والجو طريا . فركبت صوفيا عربتها وخرجت تتنزه وتقوم ببعض الزيارات . انها تستعجل الخلاص من هذا الانحباس فى المنزل ، فكان لمجرد رؤية هذا النهار الجميل تأثير حسن فى نفسها . لقد ارتدت ملابسها وهى تدندن بعض الاغنيات . واستطاعت بشاشة السيدات اللاتى زارتهن فى بيوتهن أو التقت بهن فى شارع أوفيدور ، وضوضاء الطريق وأصدقاء المجتمع وأمازيح الأصدقاء أن تطرد من ذهنها هموم البارحة الى غير رجعة .

١٥٩

هكذا نرى ان ما كان يبدو رغبة مسعورة لم يكن فى حقيقة الامر الا نزوة عارضة . فما هى الا ساعات حتى كانت جميع الافكار السيئة التى هزت صوفيا قد عادت الى الظل . . . فلو سألتنى هار عانت المرأة الشابة شيئا من عذاب الضمير لم أعرف حقا كيف أجيبك . ذلك ان للتقريع درجات أيضا . . . والشعور لا ينتقل من الجدة الى البلى ومن الخوف الى قلة الاكتراث شيئا بعد شيء فى ميدان الاعمال فحسب بل فى خطايا الخيال كذلك . ان خطايا الخيال تخضع لهذه القاعدة نفسها . فاذا أنت تعودت التفكير فى بعض الامور ، فسرعان ما تألفها . فاذا أنت تراها بعد ذلك طبيعية فلا تحاول أن تطردها من ذهنك . ثم ان فى وسع المرأة فى الحالة التى نحن بصددتها أن تجد فى الطهارة الخارجية ملجأ أخلاقيا ، فحسبها انها صانت جسدها تقيا من كل دنس .

١٦٠

حادث واحد خلال ذلك النهار الصافى الساطع أزعج صوفيا ، هو التقاؤها بروبيان . لقد دخلت إحدى المكتبات بشارع أوفيدور

لتشترى رواية ، وفيما هي تنتظر أن يرد لها البائع باقى النقود
رأت صديقنا يدخل المكتبة على حين فجأة . فأسرعت تشيع
بوجهها ، وتنظر الى كتب متضعدة على أحد الرفوف « كتب
تشریح واحصاء » حتى اذا تناولت نقودها ، وضعتها فى حقيبتها
نم هرعت تخرج كالسهم خافضة الرأس ، ومشيت صاعدة فى
الشارع . ولم تسترد هدوءها الا بعد أن خلفت شارع أوريفس
وراءها .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، بينما كانت تهم أن تدخل منزل دونا
فرناندا ، وجدت نفسها وجهها لوجه أمامه فى فناء المنزل . واذا
قدرت انه صاعد الى البيت وطنت نفسها على أن تصعد معه رغم
محاذرتها ، لكن روبيان كان نازلا فتصافحا فى مودة وتمنى كل
منهما على صاحبه أن يراه مرة أخرى فى القريب !

قالت صوفيا لدونا فرناندا بعد أن ذكرت لها لقاءها به فى فناء
المنزل :

— هل يجرى الى هنا كثيرا ؟

فأجبتها دونا فرناندا :

— هى المرة الرابعة أو الخامسة . لكنه نم يهذ الا فى الزيارة
الثانية ، وكان فى المرات الاخرى كما رأيت اليوم هادئا بل بارعا فى
الحديث . غير أن المرء يلاحظ فيه على الدوام شيئا ينم عن
حالته . ألم تلاحظى نظراته الجامدة بعض الجمود ؟ أما عدا هذا
فحديثه طبيعى . صدقى يا دونا صوفيا أن هذا الرجل يمكن أن
يشفى . لماذا لا تحاولين أن تجعلى زوجك يهتم بهذا الامر ؟
— ينوى كرستيانو أن يعرضه على طبيب لفحصه ومعالجته .
لا تقلقى ، فسأتعجل تدبير الامر .

— تحسنين صنعا . يبدو لى انه يحمل لك وللسيد باليا كثيرا
من عاطفة الصداقة .

تساءلت صوفيا بينها وبين نفسها : « أتراه قال عنى اثناء هذيانه
شيئا غير لائق ؟ هل يجب أن أكشف لها عن الحقيقة ؟ » .

ولكنها قررت ألا تكشف لها عن شيء ، لأن كل ما يمكن أن
يقوله روبيان من أمور غير لائقة يمكن أن يعزى الى مرضه .
ووعدت صاحبها بأن تحض زوجها على الاسراع فى معالجة المريض ،
حتى لقد فاتحته بالامر فى ذلك اليوم نفسه بعد الظهر . قال باليا :
« يا لها من مسخرة ! » وسأل زوجته : ما فائدة دونا فرناندا من

اثارة هذا الموضوع مرة أخرى . ولماذا لا تتولى بنفسها معالجته ؟
انه لمن أزعج المزعجات عندي أن أهتم بروبيان وأن أصحبه الى
الطبيب وأن أجمع وأصون ما بقى له من مال - اذا كان قد بقى
له منه شيء - وأن أسمى وصيًّا على أرزاقه كما اقترح ذلك
تيوفيليو ... ذلك كله لا يجلب الا الصداع !

ثم أردف يقول :

- ان على عاتقى من المشاغل والهموم ما يكفينى يا صوفيا . ثم
ما الذى يحدث بعد ذلك ؟ هل نأتى به الى بيتنا ؟ هذه فكرة
لا أستحسنها كثيرا . فأين نضعه اذن ؟ فى مستشفى .. نعم ..
فاذا لم يقبلوه ؟ لن أرسله على كل حال الى برايا فرمليا (١) ..
والمسؤوليات التى تترتب على هذا كله؟ هل وعدت حقا بأن تفاتحينى
فى الامر ؟

أجابت صوفيا وهى تبتسم :

- وعدت .. بل أكدت أنك فاعل . وقد لا يكون الامر على هذه
الدرجة من التعقيد الذى تتصوره .

وألحت صوفيا مزيدا من الالاحاح . لقد تأثرت بعطف دونا
فرناندا تأثرا كبيرا . ووجدت فيه نوعا من الشهامة والنبيل . فقالت
لنفسها : اذا كانت دونا فرناندا تظهر هذا الاهتمام كله بأمره ، دون
أن تكون لها به صلة قوية ، فهل أكون دونها أريحية وكرما ؟ ذلك
أمر لا يليق .

١٦١

وتم كل شيء فى هدوء . استأجر باليا منزلا صغيرا فى شارع
« ابرنسيب » قرب البحر ، وأسكن فيه روبيان مع قليل من الاثاث
ومع صديقه الكلب . وقد قبل روبيان هذا التغير دون استياء ،
حتى لقد تحمس له حين عاوده الهنديان . فتوهم انه فى قصره
بسان كلود . أما أصدقاء منزله ببوتافوجو فلم يرق لهم ذلك بل
استقبلوا النبأ على أنه قرار نفى . لقد كان كل شيء فى المنزل جزءا
من حياتهم : الحديقة والباب والاشجار والدرج والمنظر نفسه ...
كانوا قد حفظوا كل شيء عن ظهر قلب ... ولم يكن عليهم الا أن
يدخلوا فيعلقوا قبعاتهم وينتظروا فى الصالون . حتى لقد
أصبحوا آخر الامر لا يحسون انهم ضيوف ، وانما هم أصحاب

(١) ملجأ للمجانين « المترجم »

المنزل . وهنالك الجيران ! لقد تعود كل واحد من أصدقاء روبيان أن يرى الأشخاص الذين يقطنون الحي ، رجوه الصباح ووجوه الاصيل ... بل لقد كان بعضهم يحييهم كأنهم جيرانه . ولكن صبرا ! سيذهبون الآن الى بابل ، كما نقل من قبلهم مبعدو صهيون ! ولعلمهم واجدون حيثما ينتقل الفرات صفصافات يعلقون عليها قيثاراتهم التي تعزف ألحان الحنين ، أو قل انهم سيجدون مسامير يعلقون عليها قبعاتهم . والفرق الوحيد بينهم وبين الانبياء انهم سيعودون الى تناول قيثاراتهم بعد أسبوع من غير شك ، ليغزفوا عليها من جديد ، بتلك الرشاقة نفسها وتلك القوة نفسها . لسوف يدندنون أناشيدهم القديمة ، وستبدو هذه الاناشيد جديدة كجديتها في اليوم الاول : لسوف تعود بابل فتصبح صهيون ، فقدوها ثم وجدوها !

قال لهم باليا قبل الانتقال من بوتافوجو بيوم :

— ان صديقنا في حاجة الى شيء من الراحة بعض الوقت . فلا شك انكم لاحظتم ان صحته في الايام الاخيرة قد ساءت قليلا ، حتى انه يفقد في بعض اللحظات ذاكرته ، فتختلط الامور في ذهنه وتضطرب . سوف يعالج ، ومن اجل هذا يجب ان يرتاح . وقد وجدت له بيتا صغيرا ، ولكن قد نضطر الى نقله الى مستشفى من المستشفيات .

فأصفوا الى كلامه مصعوقين ، الا ان واحدا منهم ، هو بيو ، استرد صحو ذهنه قبل غيره ، فأجاب بقوله : كان ينبغي لنا أن نفعل هذا منذ زمن طويل ، غير ان ذلك كان يقتضي أن يكون لنا تأثير حاسم في روبيان .
وأضاف :

— كثيرا ما قلت له ، ولكن بعبارات مهذبة جدا بطبيعة الحال ، ان عليه أن يستشير طبيبا ، اذ يبدو لي انه يشكو من قرحة في معدته . وكنت أقصد من ذلك ألا ألفت انتباهه طبعا . ولكنه كان يجيب دائما بأنه لا يشكو من شيء ، وانه يهضم هضمًا جيدا ... فكنت أقول له : « ولكن اقبالك على الطعام قد قل ، حتى انك في بعض الايام لا تكاد تأكل شيئا . وقد أصابك من ذلك نحول ، ومال لونك الى شيء من الشحوب ... » لم أكن أستطيع أن أصارحه بالحقيقة طبعا . حتى لقد ذهبت الى طبيب من أصدقائي لاستشيريه في الامر . غير ان عزيزنا الطبيب روبيان رفض أن يستقبله

وكان الاربعة الآخرون يهزون رءوسهم مؤيدين هذه القصة الملفة . وهل ينتظر منهم حقا أكثر من ذلك بعد هذه الضربة التي سقطت على رءوسهم . وأخيرا سألوا عن عنوان المنزل الجديد من أجل أن يذهبوا اليه سائلين عن صحته . مسكين صديقنا ! وحين استطاعوا في نهاية الامر أن ينتزعوا أنفسهم من البيت انتزاعا ، وأن يستأذن بعضهم بعضا بالانصراف حدث ما لم يكن في حسابهم : لقد أصبح يصعب عليهم أن يفترقوا ! لا لان شيئا من الصداقة أو الاعتبار كان يربطهم بعضهم ببعض ، فان مصالحهم قد جعلتهم متباغضين . غير أن ما تعودوه من الاجتماع كل يوم ، من تناول الغداء والعشاء معا على مائدة واحدة ، قد أوجد بينهم رابطة من أقوى الروابط : انهم في أول الامر لم يحتمل بعضهم بعضا الا بحكم الضرورة . ثم أصبحوا بمضى الزمن يحتاجون بعضهم الى بعض ! ان كلا منهم سيؤلمه انه لا يرى الوجوه والاشارات واللحى والشوارب والصلعات والحركات الغريبة التي ألف ان يراها . ان كل واحد منهم سيشعر بالحنين الى ما يتميز به رفاقه من طرق في الحياة وأساليب في الطعام والكلام ... هذا أكثر من فراق ، هذا تفتت !

١٦٢

لاحظ روبيان انهم لم يرافقوه الى منزله الجديد ، فأرسل يستدعيهم . ولكن لم يجيء منهم أحد ، فامتلا صاحبنا حزنا لغيابهم ... حتى لقد شعر بأن أسرته تهجره . وحاول أن يتذكر هل جرحهم بعمل من أعماله أو قول من أقواله ، فلم يتذكر شيئا .

١٦٣

— تحدثت الى الرجل ، فوجدت حقا ان عنده تصورات جنونية ، لكنني اعتقد ، رغم كوني غير أخصائي في الامراض العقلية ، ان شفاؤه ممكن . وهل تعرفين ماذا اكتشفت ؟ لقد اكتشفت أمرا شائقا ...

قالت دونا فرناندا دون أن تجيب عن سؤال الدكتور فالون :
— تعتقد ان شفاؤه ممكن ؟

ان الدكتور فالون نائب ، نائب وطبيب معا . وهو رجل أعزب ، مثقف ، لكنه فاتر ربيي ، واذا كان صديقا للأسرة ، رجته دونا

فرناندا أن يفحص روبيان ، بعد سكناه في شارع البرنسيب بمدة قصيرة .

— نعم ، أعتقد ان شفاؤه ممكن ، شريطة أن يعالج علاجاً منتظماً .
قد لا يكون لمرضه سوابق في أسرته . يجب أن يفحصه طبيب
أخصائي . ولكن ألا تريدان أن تعرفي الأمر الشائق الذي اكتشفته؟
— ماذا اكتشفت ؟

قال وهو يبتسم :

— هنالك شخص تعرفينه قد يكون هو السبب في مرضه ..
— من ؟

— دونا صوفيا ..

— كيف ؟

— لقد كلمني عنها في حماسة ، وقال انها أجمل امرأة في العالم ،
وانه منحها لقب دوقة لأنه لم يستطع أن يجعلها امبراطورة ، ولكن
يجب ألا يندفع الى آخر الطريق ، إذ قد يفعل ما فعله عمه : يطلق
أمراته ليتزوج دونا صوفيا واستنتجت من ذلك انه قد أحب
صديقتك حبا قويا ، وشجعني على هذا الاعتقاد ما لاحظته من انه
يرفع الكلفة حين يتحدث عنها : صوفيا جاءت ، صوفيا ذهبت ،
صوفيا قالت ... لا تؤاخذي ، انني أعتقد ان هذا الحب كان
متبادلاً ...

— آه ... لا ...

— دونا فرناندا ، أعتقد انهما قد أحب كل منهما الآخر هل
يدهشك هذا ؟ أنا لا أعرفها كثيراً . وأظن انك أنت أيضاً لم تعرفيها
منذ مدة طويلة ولا صاحبتهما مصاحبة حميمة . انه من الجائز جداً
أن يكونا قد تحابا ، وأن يكون هذا الهوى العنيف قد ... ولنفرض
انها طردته من بيتها ... صحيح ان به جنون العظمة ... ولكن
هذا لا ينفي ذاك ...

كانت دونا فرناندا لا تنظر اليه ، لانزعاجها من هذا الافتراض
الذي يفترضه . انها تريد أن تتحاشى الجدل في هذا الأمر ،
لاعتقادها بأنه موضوع لا يليق الخوض فيه ، وظلت الى ذلك ترى
أن هذه الشبهة مستحيلة لا يمكن أن تصدق وليس لها أساس تقوم
عليه . لن تستطيع يوماً أن تصدق وجود هذا الحب الذي يشتمل
على خيانة زوجية ، ولو أكد صدقه روبيان نفسه . أليس روبيان
مجنوناً ؟ رهبه عاقلاً غير مجنون ، فلن تصدقه ... لا لن تصدق .

أنها لا تستطيع أن تتصور أن صوفيا قد أحبت هذا الرجل ،
لا بسببه هو ، بل بسببها هي ، لأنها امرأة قوية عفيفة . يستحيل .
وأرادت أن تنبرى للدفاع عن صوفيا . لكنها أحجمت مرة أخرى
عن الخوض في هذا الموضوع ، رغم ما بينها وبين الدكتور فالون من
صداقة حميمة ، واكتفت بأن كررت السؤال الذي سبق أن طرحته :
— أنت تقدر إذن أن شفاءه ممكن ؟

— أعتقد أن شفاءه ممكن . لكن فحصي لا يكفي . أنت تعلمين
أن الأفضل في مثل هذه الأمور أن يؤخذ رأي طبيب أخصائي .

وبينما كان الدكتور فالون في الشارع بعد برهة من الزمن ، ابتسم
... ابتسم لاشمئزاز دونا فرناندا من تصديق ظنونه . وقال
لنفسه : « من المحقق مع ذلك أن شيئا قد حدث . أن الرجل
وسيم وإن لم يكن كأدونيس جمالا ، وإن في عينيه لبريقا . هذا
محقق .. » وتذكر بعض عبارات روبيان ، وتذكر حركاته ، وتذكر
ما كان في صوته من رنين حنون ، فكانت شكوكه تزداد وضوحا .
« هذا أكيد .. » . وأصبح يرى أن من المستحيل ألا يكون قد
أحب كل منهما الآخر . وبدأ له أن رفض دونا فرناندا لهذه الفكرة
يدل حقا على سداجة كبيرة ! اللهم إلا أن يكون ذلك الرفض منها
وسيلة لتغيير مجرى الحديث ولتحاشي الخوض في هذا الموضوع .
نعم ، هو كذلك ...

وفي تلك اللحظة تسمر النائب في مكانه فجأة على غير إرادة منه .
لقد مرت بخاطره شبهة جديدة . لكنه لم يلبث أن هز رأسه بعد
بضع لحظات على نحو قاطع ، كمن يكذب نفسه ويحكم على ظنه
بأنه سخي . واستأنف سيره . غير أن الشكوك عنيدة ، وهي حين
تكون راسخة في قلب أحد الناس رسوخا وطيدا ، لا تكثر بهزات
الرأس ولا بإشارات النفي ! « من يدري ؟ لعل دونا فرناندا قد
أولعت هي أيضا بعينه الجميلتين . ألا يمكن أن يكون اهتمامها به
استمرارا لحبها ؟ الخ ... »

وكلما أوغل الدكتور فالون في طرح هذه الاسئلة ، كان شيء ما
في قرارة نفسه يجيب عنها بنعم . وقاوم ظنونه بعض المقاومة : أنه
صديق الأسرة ، وهو يحترم دونا فرناندا ، ويعرف فضيلتها .
ولكنه ظل يقدر أن من الجائز مع ذلك أن تكون قد نشأت في
نفسها عاطفة مكتونة خفية ... من يدري ؟ لعل غرام صاحبها
بالرجل هو الذي حرض هذه العاطفة في نفسها ! وهذا كثيرا ما يقع !

ان عدوى الجذام تفسد اظهر دم ، ورب جرثومة صغيرة تهدم
أقوى جسم !

وهكذا كانت رغبته في المقاومة تتراجع شيئاً بعد شيء أمام
شعوره بأن الامر جائز ، فمرجح ، فمحقق . لقد سمع عن بعض
أعمال البر والاحسان التي تقوم بها دونا فرناندا . ولكن الحالة
التي نحن بصدددها الآن حالة خاصة جداً . ان هذا الاهتمام
الشديد الذي تبديه دونا فرناندا برجل لا هو بالذي يختلف الى
المنزل كثيراً ولا هو بالصديق القديم ولا هو بالقريب ، ولا هو
بالزميل لزوجها ، رجل لا تربطه بحياتها رابطة من علاقات ولا
رابطة من أسرة ، حتى ولا رابطة من عادة أو ألفة ، ان هذا
الاهتمام الشديد الذي تبديه بهذا الرجل لا يمكن أن يكون مرده الا
الى باعث خفى ، هو الحب من غير ريب . ان حب الاطلاع قد
يجر امرأة شريفة الى الخطيئة ، وقد يجريها من ثم الى عذاب
الضمير . لعل دونا فرناندا قد عرفت كيف تتوقف حين وجب
التوقف ، لكن بقي لها مع ذلك شيء من العطف على المريض .
من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟

١٦٤

من ذا الذي يعرف والحالة هذه ما وقع ؟ ذلك ما رددته الدكتور
فالون في صباح الفد . ان الليل لم يبدد شكوكه . من ذا الذي
يعرف في هذه اللحظة ؟ نعم ، ان هذا لا يمكن أن يكون عطفاً
فحسب . وأخذ الدكتور فالون يؤول هاملت دون أن يعرفه
شكسبير !

« ان بين السماء والارض ياهوراس أشياء كثيرة . لا تستطيع
أن يتخيلها نزوعك الباطل الى حب البشر وخيرهم . » ان شيئاً
من الحب قد مازج هذا كله . لاحظوا ان الدكتور فالون لا ينتقد
شيئاً ولا يأسف لشيء . ألم أقل لكم انه ذو عقل ريبى ؟ ولكنه
لم يفض الى أحد بشيء من شكوكه ، لانه كان رجلاً متكماً أيضاً .

١٦٥

لما عاد كارلوس ماريا وزوجته الى ريو ، انقطع اهتمام دونا
فرناندا بروبيان الى حين . لقد استقبلتهما في المرقأ ، وأقفلتهما

١٦٥

٨ - الفيلسوف ام الكلب؟ ج ٢

إلى تيجوكا ، حيث كان أحد أصدقاء كارلوس ماريا قد استأجر بيتا وأعدّه ، عملاً بما أوصاه به صديقه . ولم تذهب صوفيا إلى المرفأ ، وإنما اكتفت بإرسال مركبتها تنتظرهما على رصيف قاروكس . غير أن دونا فرناندا كانت قد أخذت عربتها ، فأقلت بها جميع المستقبلين ومنهم باليا . وبعد الظهر ذهبت صوفيا تزور القادمين .

كانت دونا فرناندا لا تتمالك نفسها من شدة الفرح . إن رسائل ماريا بنديكتا قد صورت ما يشعران به من سعادة ، غير أنها في أول الأمر لم تلاحظ في حركات الزوجين ولا في عينيهما ما يؤيد ذلك . فكل ما يظهر عليهما هو انهما راضيان . وقد أجهشت ماريا بنديكتا بالبكاء حين قبلت صديقتها ، وكذلك فعلت دونا فرناندا ، وتعانقت المرأتان كما تتعانق اختان . وفي الغد سألت دونا فرناندا صديقتها هل هما سعيدان ، فلما أجابتها بنعم تناولت يديها وحدقت إليها طويلاً دون أن تجد ما تقوله ، ثم لم تستطع إلا أن تكرر سؤالها :

— أنتما إذن سعيدان ؟

فأجابت ماريا بنديكتا :

— نعم . .

— لا تستطيعين أن تتصورى مدى ما أشعر به من ارتياح لهذا الجواب : لا لأن عذاب الضمير كان يمكن أن يقلقني كثيراً لو لم تحققى السعادة التي رجوت أن أوفرها لك ، لا هذا فحسب ، بل أيضاً لأن رؤية سعادة الآخرين تبعث في النفس كثيراً من السرور . هل يحبك كما أحبك في أول يوم ؟

— اعتقد أنه يحبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبدُه عبادة .

لم تفهم دونا فرناندا معنى هذه الكلمات الأخيرة فهما واضحا . « اعتقد أنه يحبني أكثر مما أحبني في أول يوم ، لأنني أنا أعبدُه عبادة . . » الحق أن النتيجة لا يبدو أن لها صلة بمقدماتها . ولكن ينبغي هنا أن نشير هاملت مرة أخرى فنقول : « أن بين السماء والأرض ياهوراس أموراً كثيرة لا يتصورها تفكيرك المنطقي الباطل » . وأخذت ماريا بنديكتا تحدث صديقتها عن رحلتها وتسرد لها مشاعرها وذكرياتها بأدق التفاصيل . واذ انضم إليهما تروجهما أثناء ذلك ، أخذت تلجأ إليه في كثير من الأحيان ليسد ثغرات ذاكرتها ، فتسأله :

— كيف كان هذا يا كارلوس ماريًا ؟

فكان كارلوس ماريًا يروي ، ويشرح ، ويصحح ، ولكن دون أى اهتمام ، بل وبشيء من الملل والضجر . وقد أدرك أن ماريًا بنديكتا أشركت صديقتها في جميع أسرار سعادتهما ، فكان لا يستطيع أن يخفى استيائه من ذلك . ما حاجتها إلى ذكر أنها كانت سعيدة معه ، ما دام الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك ؟ وفيهم تديع بين الناس ملاطفاته وكلماته العاطفية الرقيقة وسائر النعم والآلاء التي أسبغها عليها في جلال كجلال اله رحيم ؟

أن عودتهما إلى ريو دي جانيرو لم تكن إلا نزولا عند رغبتها . لقد أرادت ماريًا بنديكتا أن تعود إلى ريو دي جانيرو لتلد ، وقد رضخ زوجها لأرادتها على مضض ، ولكنه رضخ .. لماذا على مضض ؟ ذلك ما يصعب شرحه كما يصعب فهمه . لقد كانت لكارلوس ماريًا آراء شخصية غريبة في الأمومة ، آراء مدفونة في قرارة نفسه لم يفض بها يوما إلى أحد . كان يرى أن الطبيعة لم تكن على شيء من الحشمة حين جعلت الحمل أمرا يعرفه جميع الناس وتراه جميع الأنظار ويحتل مكانة خطيرة حتى أنه ليشوه الجسم ويذكر بأمور ليس فيها شيء من الاحتشام ومن أجل ذلك كان يرغب في العزلة والتخفى والغياب . كان في الأشهر الأولى يتمنى لو يعيش في منزل منعزل قائم على رابية عالية موحد الأبواب لا يطرقه زائر ، تنزل منه امرأته ذات يوم حاملة طفلها بين ذراعيها وفي عينيها سطوع فرح الهى !

لكنه لم يقترح على زوجته شيئا من ذلك ، اذ لو فعل لاضطر أن يناقش ، وهو امرؤ لا يحب المناقشة ، ويؤثر أن يرضخ على أن يناقش . وطبعي أن ماريًا بنديكتا كانت تهزها مشاعر تختلف عن هذه المشاعر كل الاختلاف . لقد كانت تعد نفسها مستودعا آلهيا سريا يعيش فيه اله هو ابن اله آخر . وكان حملها مصحوبا بأوجاع وانزعاجات تخفيها عن زوجها ما وسعها الأخفاء ، ولكن ذلك كان لا يزيد على أن يسبغ على الكائن الجديد الذي سيولد شأنًا أعظم . وما دام احتمال الآلام شرطا لمجيء هذا الكائن الجديد إلى العالم ، فلقد كانت ماريًا بنديكتا تحتملها في أذعان ، ولعلها كانت تستقبلها في فرح ... أنها تخضع لقوانين « الطبيعة » راضية ... وكانت تردد جواب مريم الناصرية صامتة : « أنا خادمة الرب . فلتكن مشيئته .. »

قالت ماريا بنديكتا لزوجها حين أصبحا منفردين :

- ما بك ؟
- أنا ؟ لا شيء .. لماذا ؟
- كان يبدو عليك الضجر ؟
- لا ... لم أكن ضجرا ...
- بل كنت ضجرا ...

فابتسم كارلوس دون أن يجيب . ان ماريا بنديكتا تعرف حق المعرفة هذه الابتسامة الصفراء الخاصة التي كانت ترسم على شفتيه في بعض الأحيان ، تلك الابتسامة التي لا يفهم كثيرون ولا تعبر عن حنان ولا عن ملامة . فلم تلح ، بل خرجت وهي تعض على شفتيها .

فلما صارت في غرفتها لم تستطع بعض الوقت أن تفكر في شيء آخر غير تلك الابتسامة الغامضة الخرساء التي تدل دلالة واضحة على انزعاج لا بد أن تكون هي سببه . وأخذت تستعرض كل الحديث الذي جرى ، وجميع الحركات التي صدرت عنها ، فلم تشعر على شيء يمكن أن يكون سبب هذا الفتور وهذا الموقف الغريب من كارلوس ماريا . أتراها أسرفت في الافضاء بذات نفسها ؟ انها في لحظات السرور تحب أن تفتح قلبها للأصدقاء والغريباء على السواء . وكارلوس ماريا يشجب هذه العادة ، ويرى ان اظهار السعادة الحميمة على هذا النحو أمر عامي مبتذل . وتذكرت ماريا بنديكتا انها لما كانت في باريس ، وسط الجالية البرازيلية ، شعرت غير مرة باستياء زوجها من افاضة في الكلام ، وحاولت يومئذ أن تمسك عن الحديث . ولكن أليس شأنها مع دونا فرناندا شأننا آخر ؟ أليست دونا فرناندا أصل سعادتها ؟ لذلك استبعدت ماريا بنديكتا هذا الافتراض ، وبحيث عن افتراض آخر . فلما عجزت عن ايجاد فرض آخر عادت الى الاول ، وانتهت على عاداتها الى الاقرار بأن زوجها على حق ، فمهما تكن الصداقة التي بينها وبين دونا فرناندا حميمة ، ومهما يكن شكرانها لها قويا ، فما كان ينبغي لها أن تطلعها على جميع تفاصيل حياتها ، لقد كان ذلك منها خفة وطيشا ...

ووافتها غثيانات قطعت جبل تأملاتها . ان « الطبيعة » تذكرها في الوقت المناسب بأن هناك سرا كبيرا - سر بقاء النوع - هو اخطر شأنا وأشد لاجاجة من جميع انزعاجات زوجها . وخضعت لهذه الضرورة . لكنها مضت الى زوجها بعد بضع دقائق ، فأحاطت عنقه بذراعها اليمنى . كان زوجها جالسا يقرأ مجلة انجليزية . فتناول يدها المتدلية على صدره وأتم قراءة الصفحة التي كان يقرأها .

سأله ماريا بنديكتا حين رآته يطوى المجلة :

- هل تسامحني ؟ لن أترثر بعد اليوم هذه الثثرة كلها !

فتناول كارلوس ماريا كلتا يديها ، وأشار برأسه إشارة تأييد وهو يبتسم ، فكان شعاعا من أشعة الشمس سرى فيها ، فأخذت تسطع جذلا وغبطة ، حتى لكان ابنها كان وهو في رحمها يشاركها هذا الفرح ويبارك أباه !

١٦٧

- عظيم ! على هذه الصورة انما كنت أحب ان أراكما .

كذلك صاح صوت من جهة الشرفة ..

فابتعدت ماريا بنديكتا عن زوجها بسرعة : ان واحدا من الابواب الثلاثة التي تصل الصالون بالشرفة كان مفتوحا ، ومن ذلك الباب انما وصل الصوت . انه روبيان يفاجئهما مبتسم الوجه . وهما يريان اول مرة بعد عودتهما . ولم ينهض كارلوس ماريا ، بل رمقه بنظرة رصينة سائلة . لكن وجه روبيان ذا الشاربين الطويلين الدقيقين ظل يبتسم منقلا بصره بينهما ، وهو يردد :

- عظيم ! على هذه الصورة انما كنت أحب ان أراكما !

ودخل روبيان ومد اليهما يده فصافحاه بغير حرارة ، وراح يفدق على ماريا بنديكتا عبارات المديح في حماسة : انها فائنة وان زوجها ممتاز . ولاحظ ان اسمهما واحد ، ماريا ، فقال ان ذلك يدل على ان اقترانهما مكتوب منذ الازل . وختم خطابه بقوله ان الوزارة قد سقطت .

فلم يتمالك كارلوس ماريا ان سأل :

- الوزارة سقطت ؟

فأجابه روبيان :

- لا حديث للمدينة غير هذا .

ثم أردف يقول وهو يجلس على أحد المقاعد مسندا كلتا يديه إلى العصا التي كانت إلى ذلك الحين تحت ذراعه :
- أحسب أنني سأستغنى عن استئذانكما بالجلوس ، مادمتما لا تدعوانني إليه . نعم ، لقد قدمت الوزارة استقالتها . سأعين وزارة أخرى . وسأشرك فيها باليا ، صديقنا باليا ، قريبك باليا ، وانت أيضا يا عزيزي ستكون وزيرا إذا أحببت . أريد أن يكون مجلس الوزراء ممتازا ، ألا يضم إلا أصدقاء ، على أن يكونوا جميعا نشيطين مستعدين للتضحية بحياتهم في سبيلي . سأستدعي مورفي ، وبيو ، وكاماشو ، وروهر ، والماجور سيكويرا . هل تذكرين الماجور ياسيدتي ؟ ستكون له وزارة الحربية فيما أظن . لا أعرف رجلا أقدر منه في الشؤون العسكرية .

كانت ماريا بنديكتا تذرع الصالون جيئة وذهابا وقد استبد بها الضجر والملل ، آملة أن يرسلها زوجها في طلب شيء من الأشياء . وأشار إليها زوجها بحركة من رأسه أن تذهب ، وكانت لا تتمنى أكثر من ذلك ، فاعتذرت من الزائر وخرجت . واستمر روبيان يكيل لها المديح بعد خروجها : أنها لملك حقا . ثم لم يلبث أن استدرك ضاحكا : بل هناك ملاكان ، هناك ملاكان في هذا البيت ! بارك الله فيهما ! ومد إليه كارلوس ماريا يده كمن يستأذنه بالانصراف .

- سيدى العزيز ...

- هل أستطيع أن أضمك إلى الوزارة ؟
فلما لم يفز بجواب ، أول الصمت بأنه قبول ، ووعد صاحبه بأن يسند إليه وزارة مرموقة « ستكون وزارة الدفاع للماجور . ووزارة العدل لكاماشو . ألا تعرفهما ؟ هما رجلان عظيمان ، وربما كان كاماشو أعظم من الماجور أيضا . » واتجه كارلوس ماريا نحو الباب ، فتبعه روبيان يسير في طريق الخروج من غير أن يشعر . لكنه لم يخرج بسرعة . وها هو ذا يتوقف على الشرفة قبل أن ينزل الدرج ، ويأخذ بالتحدث إلى كارلوس ماريا في عدد من الشؤون الحربية . قال انه قد رد ألمانيا إلى الألمان ، فتلك بادرة حسنة وسياسة حكيمة ، وانه أعطى فينيسيا للإيطاليين ، لانه لم يعد في حاجة إلى أرض جديدة . وهناك الأقاليم الرينانية ، لكنه لا يتعجل الآن استرجاعها .

قال كارلوس ماريا ملحا وهو يمد إليه يده :

— سيدى العزيز ...

وظفر أخيرا بحمله على الاستئذان بالانصراف ، وأغلق الباب .
ولفظ روبيان بضع كلمات أخرى ثم هبط الدرج . كانت ماريـا
بنديكتا تراقبهما من قرارة البيت ، فلما نزل روبيان ، لحقت
بزوجها ، وأمسكت يده لترى روبيان وهو يجتاز الحديقة . كان
يتكلم أثناء سيره ، وكان لا يسير قدما ، بل يتوقف من حين إلى
حين ، ويحرك يديه ببعض الإشارات ، أو يتناول غصنا من الأغصان
اليابسة ، وينظر فيرى حوله ألف شيء من الأشياء التى يفوق
جمالها جمال ربة البيت وتفوق بتميزها زوجها ! وكان الزوجان
بنظران إلى بطلنا من وراء النافذة ، فلما ندت عنه حركة غليظة ،
لم تستطع ماريـا بنديكتا أن تمنع نفسها من الضحك ، أما
كارلوس ماريـا فلم يفقد شيئا من هدوئه المعهود فيه ..

١٦٨

قالت ماريـا بنديكتا :

— هل تعرف من سيصبح وزيرا اذا صبح ان الوزارة قد
سقطت ؟

فنظر اليها كارلوس ماريـا نظرة السائل ، فأجابته :

— نسيبك تيوفيلو . لقد ذكرت لى نانان انه يأمل هذا ، وانه
انما بقى فى ريو دى جانيرو هذا العام لهذا الغرض . فأغلب
الظن ان الكلام على سقوط الوزارة دار منذ ذلك الحين ، او
امله تنبأ بسقوطها ... من الجائز جدا ان يكون قد تنبأ بسقوط
الوزارة ... لا اذكر الآن ما الذى قاله لى على وجه الدقة ،
ولكن يبدو على كل حال انه سيشترك فى الوزارة الجديدة ..
— جائز ...

— انظر ، هل رأيت ؟ روبيان يذهب من هناك . هو ذا يقف
وينظر الى الفضاء . لعله ينتظر عربة . لقد كانت له عربة فى
الماضى . لا ... هو ذا يستأنف المشى ...

١٦٩

هتف كارلوس ماريـا يقول :

— اذن سيصبح تيوفيلو وزيرا ؟

ثم لم يلبث أن أردف :
— احسب انه سيكون وزيراً ممتازاً . وأنا ، هل تودين أن
أصبح وزيراً ؟
— اذا أردت أنت ذلك فكيف أستطيع أن أمنعك ؟

— هل معنى هذا اننى لن أصبح وزيراً لو كان الامر منوطاً بك
وحدك ؟

تساءلت ماريا بينها وبين نفسها وهى تفحص وجه زوجها :
« بماذا أجيب ؟ » .

لكنه صاح يقول وهو يضحك :
— اعترفى بأنك تعبديننى ولو لم أكن الا حاجب وزير !

قالت المرأة الشابّة وهى تطوق عنقه بذراعيها :
— طبعاً ...

فوضع كارلوس ماريا يده على شعرها فى رفق ، ودمدم يقول
بى كثير من الجد :

— لقد أصبح برنادوت ملكاً وأصبح بونابارت امبراطوراً ،
فهل تودين لو تكونين أم ملك السويد ؟

فلم تفهم ماريا بنديكتا معنى هذا السؤال فهما واضحا ، ولا
شرحه لها زوجها ، ولو فعل لكان مضطراً أن يقول لها انها ربما
كانت تحمل فى رحمها برنادوت جديداً . لكن هذا الافتراض
يشتمل على رغبة ، وهذه الرغبة تساوى اعترافاً بأنه دون ذلك .
وداعب كارلوس ماريا شعر امرأته مرة أخرى بحركة تكاد تقول :
« لقد اخترت يا ماريا احسن نصيب ... » وكأن ماريا بنديكتا
فهمت معنى هذه الحركة ، فها هى ذى تهتف قائلة :

— نعم ، صحيح !

وابتسم زوجها وتناول المجلة الانجليزية من جديد . وكانت
ماريا بنديكتا مسندة ظهرها الى المقعد فراحت تمرر أصابعها فى
شعره بخفة وصمت ، ما وسعها ذلك ، حتى لا تزعجه . وعاد
يقرأ ويقرأ ويقرأ ... فكفت المرأة الشابّة عن مداعبته شيئاً
فشيئاً ، نازعة أصابعها واحدة بعد أخرى ، ثم تركت الصالون ،
بينما كان كارلوس ماريا يتابع قراءة مقال بقلم سير تشارلز ليتل ،
الحائز على شهادة الماجستير فى الفلسفة ، عن تمثال نرجس الشهير
الموجود فى متحف نابولى .

حين هبط المساء ، وذهب روبيان الى منزل دونا فرناندا ، قال له الخادم انه لا يستطيع الصعود ، فسيده مريضة وسيده يلازمها ، وهما في أغلب الظن ينتظران الطبيب ، فلم يظهر صاحبنا أى عناد ، بل عاد أدراجه .

والواقع عكس ما زعمه الخادم . فان تيوفيلو هو الذى كان مريضا ، وان دونا فرناندا هى التى كانت تلازمه . لكن الخادم لا يستطيع الا أن ينفذ الامر الذى صدر اليه . وهناك خادم آخر أحس بأن السيد هو المريض لانه رآه عند عودته الى البيت منهوك القوى .

وكانت تصل الى الخدم من غرفة سيديهما ، التى تقع فوقهم تماما ، أصوات تقوى تارة وتضعف تارة أخرى ، ويتخللها الصمت فى كثير من الأحيان . وهذه خادمة صغيرة السن تصعد على رءوس الأصابع الى فوق ، وتعود قائلة انها سمعت مولاها يئن . لاشك ان دونا فرناندا كانت فى ذروة الضيق ! لم يبق ثمة الا آذان تنصت ، والا همسات ووشوشات . . . وراح الخدم يخمنون . . . لاحظوا ان سيديهم لا يطلبان شيئا ، لا ماء ولا دواء ، حتى ولا حساء ! وكانت المائدة قد أعدت ، وكان خادم الطعام قد ارتدى ثيابه ، وكان الطباخ يحترق زهوا وقلقا فى آن واحد ، ففداء اليوم من أطيب ما أعد فى حياته من أطباق .

ما الذى جرى ؟ كان تيوفيلو لايزال منهوك القوى كما كان عند وصوله . انه جالس على احدى الارائك متعريا من ملابسه زائغ البصر مبهم النظرة . ودونا فرناندا جالسة الى جانبه ، ممسكة بيده ، تتوسل اليه أن يهدى روعه ، مؤكدة له أن الامر كله لا يستحق أن يجعله على هذه الحالة التى هو عليها . وهى تميل لترى وجه زوجها ، وتشده نحوها ، وتدعوه أن يضع رأسه على كتفها . . .

والنائب يقول لها متمتما :

— دعينى ، دعينى . . .

— الامر لا يستحق هذا كله يا تيوفيلو ؟ أهذا كله من أجل وزارة ؟ لماذا ؟ ما فائدة وظيفة تدوم وقتا قصيرا وتسبب المتاعب وتجلب الاهانات وتوجب القيام بأعمال السخرة ؟ اليس الحياة

الهادئة خيرا من مثل هذه المراكز ألف مرة ؟ اما ان هناك ظلما قد وقع ، فنعم ، واننى لاعتقد انك تستحق أن تكون وزيرا ، ولكن أهذه خسارة كبيرة الى هذا الحد ؟ هلم يا عزيزى ، هدىء روعك ... هيا بنا الى الغداء !

وكان تيوفيلو يعرض على شفتيه وهو يشد أحد جانبي لحيته . انه لم يسمع شيئا مما قالت امراته ، ولم يسمع شيئا من نصائحها ولا من تعزياتها . انه لا يتذكر الآن الا الأحاديث التى دارت فى الليلة البارحة وفى صبيحة هذا النهار . لا يتذكر الا الترتيبات السياسية التى اقترحت ، والا الاسماء التى ذكرت - أسماء من رفضوا وأسماء من قبلوا . ما من ترتيب من هذه الترتيبات قد ضم اسمه ، رغم انه كلم كثيرا من الأشخاص على المعنى الحقيقى للموقف الراهن . لقد أصفى اليه بعضهم فى اهتمام ، وأصفى اليه بعضهم الآخر بملل وضجر . وفى ذات مرة وقعت عليه عينا الشخص الذى يؤلف الوزارة كأنها تسأله ، لكن ذلك كان سريعا ، وكان توهما ! أن تيوفيلو يعيش الآن بخياله ذلك الاضطراب كله ، وتلك الجلبة كلها ، فى أولئك الذين كانوا يلاحظونه بطرف العين ، وأولئك الذين كانوا يبتسمون ، وأولئك الذين كان وجههم كوجهه ... لقد أصبح فى آخر الامر لا يفتح فمه بكلمة واحدة . ان الآمال الأخيرة التى كانت لا تزال تسطع فى عينيه قد ذابت كدوبان الثلج تحت أشعة الشمس . لقد سمع أسماء الوزراء وانتظر أن يثنى عليهم جميعا ! ولكنه كان فى حاجة الى ارادة جبارة حتى يستطيع أن يقول بضع كلمات ! وكان يخشى أن يلاحظ انهيار قواه ، أو أن تلاحظ لوعته ، غير أن جميع الجهود التى بذلها من أجل أن يخفيهما ، ما زادت هما الا ظهورا ، فكان لونه شاحبا ، وكانت أصابعه ترتجف ! ..

١٧١

كررت دونا فرناندا تقول :
- هلم الى العشاء !

فضرب تيوفيلو ركبته براحة يده ونهض ، وأخذ ينطق بكلمات حائقة غير موصولة وهو يسير فى طول الغرفة وعرضها ويضرب الأرض بقدمه ويحرك يديه بإشارات تهديد ووعيد . وأسقط فى يد دونا فرناندا أمام هذه الموجه الجديدة من الحق ، فأصبحت

أمنيتهـا ألا تطول . ولم تطل موجة الحنق ، فان تيوفيلو لم يلبثـه أن تهالك على أحد المقاعد وهو يهز رأسه ، وهوى مرة أخرى في انهيار عميق . فأخذت دونا فرناندا كرسيـا وجلست الى جانبـه زوجها .

— انت على حق يا تيوفيلو ، ولكن يجب أن تكون رجلا . انك شاب ، وانك قوى ، والمستقبل كله أمامك ، بل ان مستقبلا عظيما ينتظرك ! من يدري . . . لعل دخولك في الوزارة اليوم أن يجلب لك ضررا فيما بعد . لسوف تدخل في وزارة أخرى . عسى أن يكره المرء شيئا وهو خير له .

تمتم يقول وهو ينظر اليها :
— كل ذلك نفاق ، ومؤامرات . انى لأعرف هؤلاء الأوغاد جميعا . لو قصصـت عليك كل شيء ، كل شيء . . . ولكن ما فائدة ذلك ؟ الأفضل أن أنسى . .

ثم أردف يقول بعد بضع لحظات :
— ليس حرمانى من كرسي حقير في الوزارة هو الذى يزعجنى . ليس لكراسى الوزارة من قيمة البتة . ان أى انسان يستطيع بقليل من العمل ومن الموهبة أن يسخر من كراسى الوزارة ، وأن يبرهن على أنه فوقها قيمة وشأنا . ولكن الذى يؤلمنى هو أن معظم هؤلاء الأشخاص لا تطاول أعناقهم ركبتى ! هذا أمر أعرفه حق المعرفة ، وهم أيضا يعرفونه . يا للمتآمرين القدرين ! أين يمكن أن يجدوا من الأخلاص والامانة والحماسة في النضال مثل الذى يجدونه عندى ؟ من ذا الذى كافح في الصحافة مثلما كافحت أيام الأبعاد ؟ أنهم يعتذرون قائلين أن مجالس الوزراء تأتى من سان كرسـتوفون مشكلة جاهزة (١) . . . ليتنى أكلـم الإمبراطور !
— تيوفيلو . . .

— لو قابلت الإمبراطور لقلت له : « مولاي ، صاحب الجلالة ، انك تجهل كل شيء عن المؤامرات التى تتم وراء الكواليس ، وعن سياسة التواطؤ وتبادل المنافع هذه التى يتبعونها . انك تود يا صاحب الجلالة أن يكون خيار الناس هم الذين يعملون في مجالسك ، ولكن التافهين يصلون وحدهم الى هذه المجالس . . . فلا قيمة للجدارة والكفاءة البتة . . »

ذلك ما سأقوله له في يوم من الايام ، بل ربما قلته له غدا .

(١) قصر الإمبراطور (الترجم)

وصمت تيوفيلو ، ثم نهض بعد برهة ومضى الى غرفة مكتبه ،
التي تجاور هذه الغرفة . وصحبته زوجته . كان الظلام قد خيم ،
فأشعل تيوفيلو المصباح ، وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد
اسدل الاسى على عينيه غلالة . ان هناك أربعة رفوف تملؤها كتب
وتقارير وميزانيات وكشوف عن « الخزائن » . وهناك أيضا
مضدّة مرتبة أحسن ترتيب ، وثلاث خزائن عالية تضم مخطوطات
وبيانات ومذكرات وحسابات وسجلات ، منظمة معنونة : اعتمادات
استثنائية ، اعتمادات اضافية ، اعتمادات عسكرية ، اعتمادات
بحرية ، قرض ١٨٦٨ ، السكك الحديدية ، الدين الداخلى ، فترة
٦١ - ٦٢ ، ٦٢ - ٦٣ ، ٦٣ - ٦٤ . الخ . وتيوفيلو انما كان
يعمل هناك صباح مساء ، هنالك كان يكتب ، ويحسب ، ويجمع
عناصر خطبه وتقاريره ، لانه كان عضوا في ثلاث لجان برلمانية ،
يعمل في سبيل نفسه عامة ، ويعمل في سبيل زملائه الستة
أيضا . وكان زملاؤه هؤلاء لا يزيدون على أن يستمعوا ويوقعوا .
بل ان واحدا منهم كان يوقع حتى دون أن يسمع ، وذلك حين
تكون التقارير طويلة ، فهو يقول :

— لقد أصبحت ياعزيزى أستاذا في المادة ، وهذا يكفي . هات
القلم .

ان كل ما في البيت يشهد بالاجتهاد والعناية والعمل ، العمل
الدائب الدقيق الخصب . حتى انك لترى جرائد الاسبوع معلقة
في الحائط ، لا تنزل عنه الا لتصنف وتجلد بعد ذلك في مجلدات
يضم كل منها أعداد ستة أشهر ، من أجل أن تكون وثائق يرجع
اليها . وكانت خطب النائب مطبوعة مغلقة تحتل هي أيضا رفا
بكامله . ولست ترى في مقابل ذلك لوحة ولا تمثالا ولا زينة .
لا شيء للتسلية والمتعة ، بل كل شيء جاف دقيق يتصل بشئون
الادارة وما اليها . . .

سأل تيوفيلو امراته بعد أن ألقى على ما حوله نظرة حزينة :

— فما فائدة هذا كله اذن ؟ فيم نفعتنى تلك الساعات الطويلة
المتعبة التي قضيتها هنا والتي كانت في بعض الاحيان تمتد الليل
كله حتى مطلع الفجر . لا يستطيع أحد أن يدعى ان هذا المكتب
يدل على الفراغ والبطالة . انه يدل على العمل ، اليس كذلك ؟
أنت شاهدة على اننى أعمل ! ولكن ما فائدة هذا العمل كله ؟

دمدمت زوجته تقول :

- سر عن نفسك بالعمل ..

لكنه أجاب في حدة :

- يالها من تسرية جميلة ! لا .. لا .. انتهى ... لا أريد بعد اليوم أن أعرف شيئا من هذا كله . انظري .. ان جميع الناس في المجلس يستشيروننى ، حتى الوزراء . أؤكد لك انه ما من أحد يجهل أننى أعنى بشئون الدولة أشد العناية . من أجل أى مكافأة ؟ من أجل أن آتى الى هنا في شهر ايار (مايو) لأصفق لهؤلاء السادة ؟

قالت له امرأته في رفق :

- لا تصفق لأحد . هل تريد أن تسرنى ؟ هلم بنا نسافر في شهر آذار (مارس) أو نيسان (ابريل) لقضاء سنة بأوروبا ! وفي شهر ايار (مايو) من المكان الذى تكون فيه ، من وارسو مثلا ، تكتب الى المجلس طالبا اجازة .

ثم أضافت وهى تبتسم وتمسك وجه زوجها بيديها :

- بى رغبة فى زيارة وارسو . وافقنى . يجب أن تحببني حتى أستطيع أن أكتب الى ريو جراندى فى هذا اليوم نفسه ، لان باخرة البريد تغلق غدا . اتفقنا . انت موافق على أن نسافر الى وارسو ، اليس كذلك ؟

- دعيك من هذا المزاح يا ننان ، فما هذا أوان المزاح !

- لكننى أتكلم جادة لا مازحة . وقد أردت منذ مدة طويلة أن أقترح عليك القيام برحلة عسى أن أغير أفكارك وأن أنسيك هذه الفراطيس الجهنمية . كفى يا تيوفيلو ! لقد أصبح انتزاعك من بين أوراقك لحظة للقيام بزيارة أو نزهة شبه مستحيل . وأصبحت لا تتكلم ، وأصبح أولادنا لا يرون أباهم ، لأنه لا يجوز الدخول عليك أثناء عملك . انت فى حاجة الى شيء من الراحة . انسى اطلب اليك سنة من هدوء ، اطلب هذا جادة لا مازحة . فلنسافر الى أوروبا فى شهر آذار (مارس) !

فتمتم يقول :

- مستحيل ..

- لماذا ؟

والواقع ان ذلك كان مستحيلا . فلأن تطلب اليه اجتثاث أحشائه أهون عليه من السفر . ان السياسة تعلو عنده على كل شيء . صحيح ان فى البلاد الاخرى سياسة أيضا . ولكن ما شأنه

هو بذلك ؟ ان تيوفيلو لا يعرف شيئا عما يجرى في الخارج . ان معارفه تقتصر على مشكلة المال الذي تدين به البرازيل للندن ؛ وان علاقاته تقتصر على عدد من رجال الاقتصاد . غير ان تيوفيلو لم ينس أن يشكر لامراته نيتها . وقال لها :
- أنت طيبة ..

ان شعورا غامضا بالامل قد رد الى صوت النائب ما فقدته خلال هذه الازمة النفسية من رفق ولطف . ان منظر هذه الاوراق الكثيرة يحضه هو نفسه على استرداد شجاعته . انه ينظر الى هذه الكومة من الدراسات كما ينظر المزارع الى حقل فلاحه وبذره . سوف تنبت البذور وشيكا ، سوف ينال العمل مكافأته ، سوف تثمر الشجر عاجلا أو آجلا . ذلك ما قالت له زوجته بكلام أدق وأوضح ، ولكن صاحبنا لم يدرك هذا الامكان الا في هذه اللحظة . وتذكر نوبات الغضب والاستياء واليأس التي عاناها منذ قليل ، وتذكر الشكاوى التي صدرت عنه ، فاستحي من نفسه ... وأراد أن يضحك من ذلك كله ، لكن ضحكته لم تنطلق صادقة . وفي أثناء العشاء واحتساء القهوة تحدث الى أولاده الذين سمح لهم في ذلك المساء بأن يناموا متأخرين ، وقال نونو الذي كان تلميذا في الكلية . وسمع بتغيير الوزارة ، قال لأبيه انه يريد أن يكون وزيرا ، فعبس تيوفيلو وقال له :

- يا بني اختر ما تشاء الا أن تكون وزيرا !
- يقولون جميعا ان الوزارة جميلة يا بابا . ويقولون ان الوزير يتجول في مركبة جميلة ووراءه جندي يحرسه ..
- سأعطيك عربة !

- وانت يا بابا ، هل كنت وزيرا في يوم من الايام ؟
فحاول تيوفيلو أن يبتسم ، ونظر الى امراته . فانتهزت امراته الفرصة لترسل أولادها الى النوم ..
قال الاب وهو يقبل رأس نونو :
- نعم نعم ، كنت وزيرا ، لكنني أصبحت لا أريد أن أكون وزيرا . الوزارة مزعجة جدا ، متعبة كثيرا . اما أنت فستكون كاهنا .

- ما معنى كاهن ؟
أجابت الام :
- معنى كاهن هو أن تذهب الى سريرك يانونو .

في الغداة ، أثناء الغداء ، تلقى تيوفيلو رسالة . ان جنديا
معاوننا هو الذي جاء بالرسالة .

— جندي معاون ؟

— نعم ياسيدي ، وهو يقول انه يحمل الرسالة من رئيس
مجلس الوزراء .

ففض تيوفيلو الرسالة بيد مرتعشة . ما عساها تكون ؟ لقد
راى في الجرائد قائمة الوزراء الجدد : فالوزارة كاملة ، ولم يكن
اسم من الاسماء موضوع اخذ ورد . ما عساها تكون اذن ؟ وكانت
دونا فرناندا امام زوجها تحاول ان تحزر مضمون الرسالة من
تعبير وجهه . فرأت وجه تيوفيلو يشرق ورأت شففيه تنفرجان
عن ابتسامة رضا ، او عن ابتسامة أمل في أقل تقدير .

امر تيوفيلو الخادم : —

— قل له ان ينتظر ..

ومضى الى مكتبه ، ثم رجع بعد بضع دقائق مع الجواب . وعاد
يجلس الى المائدة صامتا ، ريثما يوصل الخادم الرسالة الى الجندي
المعاون . واذ كان في هذه المدة متنبها فقد سمع حوافر الحصان
يعدو في الشارع . وشعر النائب عندئذ بارتياح يفزو قلبه .

قال :

— اقرئني !

فقرأت دونا فرناندا رسالة رئيس مجلس الوزراء . انه يرجو
من تيوفيلو ان يجيء اليه في الساعة الثانية بعد الظهر لحديث .

— أهى الوزارة اذن ؟

فأسرع زوجها يقول لها :

— الوزارة كاملة ، والوزراء سموا وانتهى الامر .

وكان تيوفيلو لايعنى كلمة واحدة مما يقول ، لانه تصور على
عكس ذلك ان كرسيه من كراسى الوزارة قد شغل في آخر لحظة ،
فأصبح يجب ملؤه فورا . قال :

— لا بد انه اجتماع سياسى ، اللهم الا ان يكون رئيس مجلس
الوزراء يريد ان يكلمنى في امر الموازنة أو ان يعهد الى باعداد
تقرير من التقارير .

لم يقل هذا الا تضليلا لزوجته . لكنه لم يلبث ان أدرك

أن التخمينات التي قالها لزوجته قد تكون صحيحة ، فاستبد به اليأس مرة أخرى . وبعد ثلاث دقائق تدفقت في نفسه موجة جديدة من الامل . موجة من الامل ؟ بل اوقيانوس ...

١٧٣

انتظرت دونا فرناندا عودة زوجها والقلق يلتهما التهاما : كأنها هي التي ستنال منصب الوزارة ، وكأن منصب الوزارة هذا سيملاؤها فرحا خالصا من كل تعب ، بريئا من كل هم .. والحق انه كان يكفيها أن يرضى زوجها حتى تسير جميع الامور على ما يرام . وعاد تيوفيلو في الساعة الخامسة والنصف ، وكان يكفي أن يراه المرء حتى يدرك انه راض . وهرعت اليه زوجته تسأله : ماذا ؟

— مسكينة أنت يا نانان . ها نحن أولاء مشرفون على انتقال . لقد طلب الى المركز ، في كثير من الاحاح ، أن أقبل منصب حاكم من الدرجة الاولى . فهو بعد أن عجز عن اشراكى في مجلس الوزراء على ما كان يتوقع ، يود بل يريد اشراكى في المسئولية السياسية والادارية التي تضطلع بها الحكومة ، فطلب منى تولى هذا المنصب وهو من جهة أخرى يأمل أن اتولى وظائف رئيس الاغلبية في المجلس النيابى ، لأنه لا يستطيع بأى حال أن يستغنى عما أتمتع به من سمعة وتأثير « هذه كلماته نفسها » فما رأيك ؟

أجابت دونا فرناندا :

— رأى أن ننتقل ..

— هل ترين اننى كنت أستطيع الرفض ؟

— لا ..

— مستحيل ، أليس كذلك ؟ ان المرء لا يستطيع أن يرفض تقديم خدمة من هذا النوع لحكومة صديقة . والا كان الافضل أن يعتزل السياسة . وقد كان المركز لطيفا في محادثتى غاية اللطف . كنت اعرف انه رجل ممتاز ، ولكن لا تستطيعين أن تتصورى كم كان محببا وكم كان مرحا . وهو يريد أيضا أن أحضر اجتماعا يضم عددا من الوزراء والاصدقاء .. عددا صغيرا جدا .. ستة فقط .. وأسر الى برنامج حكومته ..

— متى نسافر ؟

— لا أدرى . يجب أن اراه مرة أخرى في مساء غد . لقد

عينت الساعة الثامنة موعدا للاجتماع .. ولكن ، ألا ترين اننى
أحسنت صنعا بقبول المنصب ؟
- طبعاً ..

- نعم ، اذ لو رفضت للامونى ، ولكان من حقهم أن يلومونى .
ان أول شئ يفقده الإنسان حين يعمل فى السياسة هو حرته .
وفى وسعتك أن تبقى هنا اذا شئت . ستبدأ دورة المجلس النيابى
بعد خمسة أشهر أو أربعة ، وهى لا تكاد تعطينى الوقت الكافى
للإلمام بالوضع هنالك .

١٧٤

قبلت دونا فرناندا هذا العرض . فهو يسمح للأولاد بالأنا تنقطع
دراستهم ، ولن يطول الفراق أكثر من أربعة أشهر على كل حال .
وسافر تيوفيلو بعد بضعة أيام . ومضى فى صبيحة سفره الى
مكتبه يودعه . ألقى نظرة أخيرة على كتبه وتقاريره وميزانياته
ومخطوطاته ، على كل ذلك الجزء من حياته الذى لم يكن له معنى .
ولا شأن الا عنده . وربط بعض الأوراق والاضطرابات حتى
لا تضيع ، كما أوصى امرأته بألف وصية ووصية فى هذا الامر .
- لا تقلق . سأعنى بجميع أشياءك ، وسأنفض عنها الغبار
بنفسى كل يوم .

قبلها تيوفيلو .. ان كل امرأة كان يمكن أن تحزنها هذه القبلة
حين تلاحظ ان زوجها يحب كتبه حباً شديداً حتى لكأنه يؤثرها
عليها . لكن دونا فرناندا شعرت بسعادة ..

١٧٥

منذ يوم الازمة الوزارية ، لم يعد روبيان الى منزل دونا
فرناندا . فهو لم يعلم اذن شيئاً لا عن المنصب الذى أسند الى
تيوفيلو ولا عن سفره . وكان يعيش بين كلبه وخادم واحد ، دون
أن يعانى نوبات شديدة ، ولكن دون أن يمر بفترات طويلة من
الهدوء أيضاً . وكان الخادم يقوم بخدمته على غير نظام لكنه كان
يقبل كل ما ينقده اياه روبيان من « بقاشيش » ، وينعم عدا ذلك
بلقب مركيز . وكان فى سائر الوقت يتسلى ... فحين يبدو
لسيده أن يكلم الجدران ، يهرع يتجسس عليه ، فيشهد كل الحوار
الذى يدور بينه وبينها - ذلك ان روبيان كان يجيب الجدران كما

بلو كانت تطرح عليه أسئلة . . وفي المساء كان الخادم يمضى يشرثر
مع أصدقائه من الجيران .
- كيف حال المجنون ؟

- خير حال . لقد طلب اليوم الى كلبه ان يفنى ، فنبح الكلب
كثيرا ، فسير هو بذلك سرورا عظيما ، كمن يشرب نبيذا . مهرج
كبير ! حين توافيه النوبة ، يصبح كرجل يحكم العالم حقا ! حتى
لقد قال لى أمس ، أثناء الغداء : « أيها الماركيز ريموندو ، أريد
منك أن . . . » ، وبلغ كلامه من الاضطراب اننى لم أفهم شيئا
البتة . وفي نهاية الامر أعطاني بضعة نقود !
- وأخذتها ؟
- يا له من سؤال !

وحين كان الهديان يترك روبيان ، كان يعقب كلامه العجيب
حزن أخربس في بعض الأحيان . وكانت حياته الباطنية تحاول عندئذ
أن تمحو كل أثر من آثار حالته السابقة . كأنه رجل يبذل جهدا
كبيرا مؤلما ليخرج من الهوة التى تردى فيها ، يتسلق الجدران
الوعرة ، ممزقا جلده ومطحما أظافره ، من أجل أن يصل الى أعلى
فلا يسقط مرة ثانية في الهوة التى يوشك أن يضيع فيها الى
الأبد . وكان في هذه الحالة يمضى يزور بعض الأصدقاء ، وكان
بعض هؤلاء الأصدقاء جددا وبعضهم قدامى مثل الماجور وكاماشو .

الا إن كاماشو قد أصبح منذ زمن أقل ثرثرة مما كان . وحتى
السياسة أصبحت لا تقدم له مادة يصوغ منها خطبه التى عهدناها
فيه . وأصبح اذا ظهر روبيان على بابه يتأفف ثم لا يلبث أن يكبح
تأففه . ولاحظ فيه روبيان هذا التبدل ، فأخذ يخمن أسبابه .
أتراه قد أساء الى صديقه دون أن ينتبه الى ذلك ، أم انه قد
أخذ يبعث في نفسه الضجر والسأم ؟ ومن أجل أن يغفر له صديقه
تلك الأساءة - أو ذلك الضجر - كان يتكلم متبسما متهللا ، ولا
ينسى أن يصمت بفترات طويلة ليسمح لصاحبه بأن يقول شيئا .
نسكن جهوده كلها كانت تذهب سدى . وعيشا كان يعتمد الى الكلام
عن الماركيز بارانا الذى كانت صورته لا تزال معلقة بالحائط ،

والى الإشادة بمزاياه التى سمعها من كاماشو : الماركيز العظيم . . .
السياسى المحنك . فكان صاحبه يؤيد كلامه بحركات من رأسه ،
ثم يستمر فى الكتابة : فيفتح اضبيـارات ويستشير مؤلفين
« لوبون ، كوليودا ، روشنا » ويستشهد بنصوص ، ويشطب سطورا ،

ويرجو روبيان الا يؤاخذة ، لأن عليه أن يسلم مذكرة قانونية في اليوم نفسه . وكان يتوقف في بعض الاحيان ليمضى الى المكتبة . قال له روبيان ذات يوم :
- هذه الحجرة مظلمة ..

ولكنه لم يتلق أى جواب ، فالى هذا الحد كان المحامى يبدو منهمكا في قراءة اضيارياته ... قال روبيان لنفسه : « لعلى أزعجه حقا » . وأخذ يراقب وجه كاماشو الرصين الموصد ، وأخذ يرصد طريقته في الإمساك بالقلم للاستمرار في كتابة مذكراته التي لا تنتهى .. وبعد عشرين دقيقة من صمت مطبق ، رآه يضع القلم ، وينهض صدره ، ويتمطى ويفرك عينيه ... فقال له في اهتمام :

- تعبت ، اليس كذلك ؟

فلم يزد كاماشو على أن أوما برأسه أن نعم ، ثم استعد لاستئناف الكتابة . نهض صاحبنا منتهزا هذه الهدنة القصيرة ليودعه ..

- سأعود حين تكون أقل انشغالا ..

ومد يده الى كاماشو ، فصافحه كاماشو بغير اكتراث ، واستأنف عمله . وهبط روبيان السلم ، وهو يشعر من برودة صاحبه الشهير بدهشة يمازجها الالم . ترى ماذا صنع له ، وفيم أساء اليه ؟

١٧٦

ومن المصادفات انه وقع بعد ذلك على الماجور سيكويرا . قال له :
- كنت ذاهبا اليك . فهل أنت ذاهب أيضا الى بيتك ؟

- نعم ، لكننا لا نقطن الآن في المكان نفسه ، وانا نسكن بماجديرا ، بشارع برنسيزا ..
- سيان ، هلم بنا الى هناك ..

وأحس روبيان مرة أخرى بالدوار الرهيب يغزو عقله ، فشعر بمزيد من الحاجة الى التشبث بالواقع على أى صورة من الصور . ومع ذلك كان من الاتزان والثقة في كلامه بحيث ظن الماجور انه يملك عقله كاملا ، فسأله :

- هل تعرف ان عتدى نأ هاما أرفه اليك ؟

— قل ، أسرع !
— لا ، لن أقول شيئاً قبل أن نصل !
ووصلا الى المنزل . انه مؤلف من طابقين . وفتحت لهما تونيكا
الباب . كانت ترتدى ثوبا جديدا ، وتحمل في أذنيها قرطين .
قال الماجور وهو يمسك ذقن ابنته بيده :
— انعم النظر فيها !
فتراجعت تونيكا وقد امتلأت خجلا .
قال روبيان :
— انعمت النظر ...
— ألا يدرك من يراها انها على وشك الزواج .
— ها . تهانى كلها !

— نعم ، ستتزوج . طبعاً لم تصل الى هذا بغير عناء ، لكنهد
وصلت آخر الامر ! لا أدري أين وجدت خطيبا يعبد عباد
كسائر الخطاب ... أنا شخصيا كنت أعبد خطيبتى عبادة تفوق
الخيال . ستتزوج . لقد اصطادت خطيبا . طبعاً لم تصل الى
هذا بغير عناء ، لكنها وصلت آخر الامر ! انه رجل رصين ...
أما عمره فهو بين بين ! وهو يقضى جميع أمسياته هنا . وفي
الصباح ، حين يمر أمام البيت في طريقه الى مكتبه ، ينقر على
النافذة فيما أظن ... ألا أن تكون هى في انتظاره من قبل أن يمر .
وأنا أظاهر بأننى لا أرى شيئاً ...

كانت تونيكا تومىء برأسها أن لا ... ولكن ابتسامتها كانت تقول
نعم ... مضطربة كل الاضطراب ! لقد أصبحت لا تتذكر انها
منت نفسها أن تتزوج روبيان ، وان روبيان كان أحد أحلامها
الاخيرة ، بل كان حلمها الأخير ... ودخلوا الى الصالون ، فمضت
تونيكا الى النافذة ثم عادت رافعة الرأس : انها تمشى بلا هدف .
واضح معين ، لكنها تمشى مشية من تصالح مع الحياة ..
كرر الماجور يقول :

— انه رجل جيد ، شخص طيب ... تونيكا ، هاتى صورة
خطيبك ...

فجاءت تونيكا بالصورة . انها صورة شمسية لرجل متوسط
العمر ، قصير الشعر ، قليله ، ينظر الى الامام نظرة مدهوشة ،
نحيل الوجه ، دقيق العنق ، مزرر السترة فى احكام حتى أعلاها .
— ما رأيك ؟

— وسيم جدا .

وتناولت تونيكا الصورة مرة أخرى ، وحدقت اليها بضع لحظات . لكنها لم تلبث أن حولت عنها بصرها وظلت جالسة في تعقل ، بينما طار خيالها على جناحين الى لقاء رودريك . اسمه رودريك . انه أقصر منها — وذلك ما لا يظهر في الصورة — وهو يعمل موظفا في مكتب بوزارة الحربية . لقد ماتت زوجته تاركة له أبنين ، أحدهما جندي ، والثاني ، وعمره اثنتا عشرة سنة ، مصاب بالسل ميثوس من شفائه . . . ولكن ما قيمة هذا كله ؟ اليس رودريك هو « الخطيب » المنشود ؟ ان تونيكا تركع كل مساء قبل النوم أمام صورة سيدتنا مريم العذراء ، سيدة الجبل بلا دنس ، تشكر لها نعمها وآلاءها وتسالها أن تسعدها . وهي تحلم منذ الآن في أن تنجب ولدا . وقد تسميه الفارو !

١٧٧

استمع روبيان الى خطاب طويل من الماجور . أغلب الظن ان الزواج سيتم بعد شهر ونصف . ان على الخطيب أن يفرغ أولا من اعداد البيت ، ولما كان غير غنى وكان يعيش من راتبه وحده ، فقد كان لابد له من اقتراض مبلغ من المال . صحيح انه احتفظ بيته القديم ، وانه لم يؤذ ميزانيته بشراء أثاث جديد ، غير ان هناك أشياء صغيرة لا يستغنى عنها على كل حال . . خلاصة الامر انهما س يرتبطان بروابط الزواج المقدسة بعد خمسة أسابيع أوستة .

وختم الماجور كلامه بقوله :

— وبذلك أتخلص أنا . . .

فقال روبيان محتجا :

— ها . . .

لكن تونيكا ضحكت . لقد تعودت أمازيح أبيها ، وكانت من الفرح بحيث لا يستطيع شيء أن يؤذي شعورها ، ولو أشار الماجور الى سنيها الأربعين ، لما تأذت من ذلك . هل جميع المخطوبات في الخامسة عشرة من سنهن ؟

قال روبيان لتونيكا :

— سترين مدى حسرته عليك فيما بعد !

فقال الماجور :

— كيف ؟ فى وسعى أن أتزوج أنا أيضا !
ونهض روبيان فجأة ، فمشى بضع خطوات . ولم يلاحظ الماجور
تعبير وجهه ولا أدرك أن عقل ضيفه يهيم أن يختل ، وأنه يشعر
بذلك هو نفسه . ورجاه سيكويرا أن يجلس ، وأخذ يحدثه عن
زواجه وعن معاركه الحربية . حتى إذا وصل ، بعد اللف والدوران
اللذين تتميز بهما أحاديثه ، إلى الكلام على معركة مونتي
كازيروس ، كان نابليون الثالث قد انتصب أمامه . لقد لزم روبيان
الضمت لحظة ، ثم هنا الماجور ببضع كلمات ، وذكر سولفيرينو
وماجنتا ، ووعد سيكويرا بوسام ينعم به عليه . فنظر الاب وابنته
كل منهما إلى الآخر . ولم يلبث الماجور أن قال أن الجو ينذر
بعاصفة . ولقد كانت السماء متلبدة حقا ببعض الغيوم . أفليس
من الخير أن ينصرف روبيان قبل أن يهطل المطر ؟ أنه لم يصطحب
مظلته ، ومظلة الماجور عتيقة جدا ، وهى من جهة أخرى المظيلة
الوحيدة التى يملكها .

قال روبيان فى هدوء :

— ستأتى مركبتى لتقلنى .

— لا .. لا .. لقد وقفت تنتظرك فى كامبو . ألا ترين المركبة
من هنا ياتونيكا ؟

فأومات تونيكا أيماءة مبهمة مترددة . انها لا تريد أن تكذب ،
ولكنها من جهة أخرى خائفة بعض الخوف ، تتمنى لو ينصرف
روبيان . انه من المستحيل على المرء أن يرى كامبو دا اكلاماسون
من هذا المنزل . على أن أباهما قد أمسك بذراع روبيان وأخذ
سير به نحو الباب .

— عد غدا أو بعد غد ، كما تشاء !

— ولكن لماذا لا أستطيع أن انتظر هنا حتى تصل مركبتى .
ان الامبراطورة لا تريد أن تتعرض للمطر .

— الامبراطورة ذهبت .

— ما كان ينبغى لها أن تفعل . ماكان ينبغى لاجينا أن تذهب .
أيها الجنرال .. لماذا يجب أن تبقى فى رتبة ماجور ؟ أيها الجنرال ،
أقد رأيت صورة صهرك . وأريد أن أعطيك صورتى . خذها من
قصر التويلرى . أين مركبتى ؟

— تنتظرك فى كامبو ..

— استدعها إلى هنا ..

وكانت تونيكا واقفة عندئذ الى النافذة ، فاذا هي تلتفت لتقول :
- هذا رودريك قد وصل ..
وأخذت تنظر في الشارع وهي تميل وتبتسم ، بينما كان أبوها
في داخل البيت يستمر في توجيه روبيان نحو الباب في رفق وحزم ،
معا . وكان روبيان يتوقف في بعض الاحيان ليقرع الماجور :
- انا امبراطورك ايها الجنرال !
- اعرف ، ولكن تفضل يا صاحب الجلالة بمرافقتي ...
ووصلا الى الباب ، ففتحه سيكويرا في اللحظة التي ظهر فيها
رودريك على عتبة المنزل . وتقدمت تونيكا لتستقبل خطيبها ، اكن
أباها وروبيان كان يسدان عليها الطريق . ورفع رودريك قبعته ،
فظهرت شعراته القليلة البيضاء . ان على خديه بقعا حمراء مبعثرة
لكن له اتسامة عذبة متواضعة - متواضعة أكثر مما هي عذبة -
وانه رغم العامية التي تظهر في حركاته كما تظهر في شخصه كله ،
يبعث في النفس شعورا بالارتياح . ليس في نظراته ذلك التعبير
الزائف الذي يظهر في الصورة : أغلب الظن ان مرد ذلك التعبير
الزائف الى انه اراد اتخاذ وضع خاص يظهره في الصورة بمظهر
جميل ...

قال الماجور لروبيان :

- هذا السيد هو صهرى المقبل ...
ثم اتجه الى رودريك يسأله وهو يغمز بطفرة :
- ألم تر في كامبو مركبة مع حرس من الفرسان ؟
- أظن ياسيدى ..

فقال سيكويرا وهو يلتفت الى روبيان :

- هل صدقت ! لا تضيع الوقت . تنعطف بعد شارع سان
لورنسو . ثم تسير قدما الى كامبو . الى اللقاء . الى الغد .
فنزل روبيان ثلاث درجات « وكانت خمسا » ، ووقف امام
القادم الجديد ، فحلق اليه بضع لحظات . ثم قال له انه سعيد
جدا بمعرفته وانه يتمنى ان يراه زوجا سعيدا وأبا طيبا .
ما اسمك ؟

- جوان جوزه رودريك .

- رودريك . سأبعث اليك بوسام صغير تزين به صدرك .
هذه هديتى اليك لمناسبة زواجك . ذكرنى بذلك يا سيكويرا .
فأمسك سيكويرا ذراعه لينزله الدرجتين الاخيرتين ، وليضعه

- أخيرا في الشارع .
 - قلت ان المركبة في كامبو ، أليس كذلك ؟
 - نعم في كامبو ..
 - الى اللقاء ..

١٧٨

سرعان مانسى روبيان المركبة وكوكبة الفرسان ، فنزل الى أدنى المدينة ، وبعد أن لف ودار كثيرا ، وجد نفسه في آخر الامر يصعد شارع سان جوزيه . انه منذ مر أمام القصر الامبراطوري لم ينقطع عن القيام بحركات واشارات متحدثا الى شخص يتخيل انه متأبط ذراعه : انها الامبراطورة نفسها . ولكن أهى أوجينا أم هي حسوفيا ؟ انها كلاهما أو أقل هي الثانية تحمل اسم الاولى ! وكان الناس يتوقفون في الشارع أو يهرعون من داخل المخازن الى الابواب ليروه ، فبعضهم يضحك ، وبعضهم يظل غير مكترث ، وبعضهم الآخر يحول بصره أحيانا حتى لا يرى المنظر المحزن ، منظر الجنون ! وكان يتبع روبيان ليف من الصبية العبيد وكان بعضهم يتبعونه عن كثب فلا تفوتهم كلمة مما يقول . وسرعان ما انضم الى جمعهم الصغير صبية آخرون . وأثارهم ما رأوا من فضول عام ، فأخذوا يرددون هذه الصيحة بصوت واحد :

- المجنون ... المجنون ...

وكان من شأن هذا الصياح طبعاً أن يثير انتباه الناس مزيداً من الاثارة : فهذه نوافذ تفتح في جميع طوابق المنازل ، وهؤلاء مستطلعون من الجنسين ومن جميع الأعمار يظهرون . ان بينهم مصورا ، وبائع سجاد ، وأشخاصا آخرين ، والرءوس جميعها بتراكم بعضها فوق بعض ، لترى ولتتابع بنظرها هذا الرجل الذي يكلم الجدران باشارات تفيض عظمة وفخامة . ويقول الصبية صائحين :

- المجنون ... المجنون ...

وهذا واحد منهم ، هو أصغرهم جميعا ، يتشبث بسروال واحد آخر أطول منه كثيرا ، ليستطيع متابعة الموكب الذي أقبل الآن على شارع أمودا . وظل روبيان لا يسمع شيئا . لقد أحس بصيحات الجمهور مرة ، لكنه اعتقد أنها هتافات فحيا الجمهور تحية كبيرة من قبيل الشكر . وكانت الصيحات تزداد بغير انقطاع .

يوسمع بين الاصوات على حين فجأة صوت امرأة تصيح باينها من على باب المخازن قائلة :

— ديولندو ، عد الى البيت يا ديولندو !

لكن ديولندو ، وهو الطفل الذي كان يتشبث بسروال ولد آخر أطول ، لم يستجب لنداء أمه ، ولعله لم يسمع النداء أصلا ، من شدة الضجة ، ومن شدة حماسه هو في الصياح بصوته النحيل .

— المجنون ... المجنون ...

— ديولندو !

وحاول ديولندو أن يختبئ وراء الآخرين تحاشيا لنظرة أمه . لكن أمه ركضت نحو جمهرة الاطفال فانتزعته منها . حقا انه أصفر من أن يشترك في زحمة من هذا النوع !

— ماما ... دعيني أنظر !

— تنظر ؟ ماذا تنظر ؟ هيا سر !

وأدخلته الى البيت وظلت على الباب تنظر الى ما يجري في الشارع . وكان روبيان قد توقف ، فاستطاعت أن تراه من قرب ، وأن تسمع كلامه ، وأن تلاحظ اشاراته . وأن ترقب طريقته في نفخ أوداجه ، وفي تحية الناس من حوله .

قالت لاحدى جاراتها وهي تبتسم :

— حقا ان للمجانين أطوارا مضحكة في بعض الاحيان !

وظل الصبية يصرخون ويضحكون . واستأنف روبيان بعدئذ سيره يتبعه حرسه . وعند باب المخزن طلب ديولندو من أمه ، وقد رأى القافلة تبتعد ، أن تسمح له بالمضي مع القافلة ، أو أن ترافقه اذا شاءت . فلما رأى الا أمل في ذلك ، استجمع قواه كلها ليصيح مرة أخيرة بصوت حاد :

— المجنون ..

١٧٩

أخذت الجارة تضحك . وضحكت الام . واعترفت بأن ابنها شبطان صغير ، وبأنه لا سبيل الى وقفه في مكان . يستحيل أن أغفل عنه لحظة واحدة . ما يكاد يسمع أيسر ضجة حتى يصير في الشارع . وذلك منذ كان صغيرا جدا . انه لم يكن قد أتم السنتين من عمره حين أوثك في هذا المكان نفسه أن تسحقه

عربة . كان بينه وبين الموت شعرة . فلولا ان رجلا كان يمر في الشارع ، « رجلا حسن الهمد » فأسرع الى انقاذه لمات في تلك الساعة نفسها . وفيما كانت الام تقول لجارتها هذا الكلام كان زوجها يصل الى الرصيف الثانى ثم يجتاز الشارع، فيقطع الحديث بين المرأتين . كان متجههم الوجه ، فلم يكذب يسلم على الجارة ويدخل حتى لحقت به زوجته . ماذا جرى ؟ فروى لها حكاية الصيحات ، فقالت :

— رأيتهم ، لقد مروا من هنا !

— ألم تعرفى هذا الرجل ؟

— لا ...

فكتف ذراعيه ، وظل صامتا جامدا النظر لحظة من الزمن . سألته زوجته من هذا الرجل ؟ فأجابها قائلا :

— هو ذلك الذى انقذ ديولندو من الموت ..

فارتعشت المرأة قائلة :

— أمتأكد أنك لم تخطئ ؟

— كل التأكد . لقد صادفته عدة مرات ، لكنه لم يكن على الحالة التى هو عليها الآن . مسكين . ما قولك فى هؤلاء الصبية الذين يجرون وراءه ؟ ماذا ؟ اليس فى هذا البلد شرطة ؟

ليس مرض روبيان هو ما عذب المرأة ، لا ولا الصيحات التى كانت تلاحقه ، وانما عذبها خاصة ان ابنها نفسه ، ابنها الذى انقذه هذا الرجل يوما من الموت ، قد شارك الآخرين فى الصياح . لم يكن فى وسع الولد ان يعرفه طبعاً ، ولا ان يعلم انه مدين له بحياته . ولكن ذلك لا يمنعها من ان تشعر بقلق من هذه المصادفة المشؤمة ! ثم انتهت الى القاء اللوم كله على نفسها . لو راقبت طفلها أكثر من ذلك لما استطاع ان يخرج الى الشارع وأن ينضم الى عصبة الصبية . وظلت قلقة ترتعش من حين الى حين . وجذب الزوج ابنه اليه ، وطبع على رأسه قبليتين .

سأل زوجته :

— هل رأيت المشهد كله ؟

— نعم ..

— وددت لو آخذه من ذراعه وأجىء به الى هنا ، لكننى استحييت ، فان صبية السوء هؤلاء ما كانوا ليتورعوا عن أساءة معاملتى أنا أيضاً لو فعلت . وقد حولت وجهى عنه مخافة أن

يعرفنى ! مسكين لاحظى انه كان كمن لا يسمع شيئا ، وانه كان يتابع سيره راضيا كل الرضا ! واحسب انه كان يضحك ... الا ان فقدان العقل الامر محزن !

وكانت المرأة لا تزال تفكر فى مشاركة ابنها فى هذه القصة كلها . لكنها لم تحدث زوجها عنها بكلمة واحدة ، ورجت جارتها الا تشير اليها . وفى الليل لم تستطع اغماض جفניה الا فى ساعة متأخرة : لقد استقر فى ذهنها ان ابنها سيصبح بعد عدد كبير من السنين مجنونا ، وان عقابه سيكون هذا العقاب نفسه : تلاحقه عصبية من العصبية كهذه العصبية التى رافقت روبيان . وتصورت نفسها وهى فى غمرة الاستياء تبصق فى وجه السماء مجدفة !

١٨٠

بعد مشهد شارع أجودا بساعتين وصل روبيان الى منزل دونا فرناندا . وكان الصبيبة الذين يلاحقونه قد تفرقوا شيئا بعد شيء ، والفراغ الذى كان يخلفه تفرقهم لم يملأه صبية آخرون . لم يبق منهم بعد قليل الا ثلاثة ، وحدوا أصواتهم فقذفوه بأخر وداع حاد . وسار روبيان وحده . ان المارة يكادون لا يلاحظونه الآن ، لان اشاراته قلت كثيرا ، او اختلفت كثيرا على كل حال . أصبح الآن لا يكلم الجدران ، او قل لا يكلم الامبراطورة التى يصورها له خياله ، ولكنه لا يزال امبراطورا . كان يسير ، ثم يتوقف على حين فجأة ، فيدمدم بكلام لا يفهم ، وهو لا يزال غارقا فى أحلامه ، ملفعا بذلك الضباب الذى يرى من خلاله كل شيء رؤية تختلف عن الواقع كل الاختلاف وتتفوق عليه فى جمالها تفوقا كبيرا . كل فانوس يستحيل فى نظره الى حاجب ، وكل ركن من أركان الشارع يتخذ أمام عينيه صورة بساط رائع . انه ذاهب الى قاعة العرش قدما ، ليستقبل أحد السفراء ، لكن القصر واسع حقا ، فلا بد له من اجتياز قاعات لا نهاية لها ، وأروقة ليس لها آخر . وهو يتقدم سائرا على سجادة بين صفين كبيرين قرينين من حملة الحراب !

وكان معظم الناس الذين يتوقفون فى الشارع او ينحنون من النوافذ لرؤيته ينسون أفكارهم الحزينة او المملة بضع لحظات ، ينسون مشاغلهم اليومية وأحقادهم وهمومهم - من دين أو مرض أو لوعة حب أو خيانة صديق . كانت كل مصيبة من مصائبهم

الصفيرة تختفى على حين فجأة ، وهذا خير ما فى الدنيا من ألوان
العزاء ! غير ان لحظات النسيان هذه كانت سريعة كالبرق : فما
ان يمضى عنهم المجنون حتى يجدوا أنفسهم أمام الواقع مرة أخرى
وجها لوجه ، وحتى تعود الشوارع شوارع ، لان روبيان كان
ينقل معه قصره المنيف ... وقد شعر أكثر من واحد منهم بعطف
على هذا المجنون البائس ! وقارن بعضهم بين حظه وحظه فحمد
الله على نصيبه : لئن كان يجد نصيبه مرا ، انه لسليم العقل
على الأقل ! كان الناس جميعا يؤثرون خرائبهم الواقعية على
القصر الذى يتصوره خيال بطلنا !

١٨١

خجز روبيان فى مستشفى للمجاذيب . لقد نسي باليا العهد
الذى استطاعت صوفيا ان تنتزعه منه ، وصوفيا نفسها كانت
لا تذكر العهد الذى قطعت على نفسها لدونا فرناندا . ذلك انهما
كليهما كانا لا يفكران الا فى بيتهما الجديد «قصر خاص فى بوتافوجو»
الذى قطع بناؤه أشواطا كبيرة ، ويريدان ان يدشناه فى الشتاء ،
حين يجتمع المجلسان - مجلس النواب ومجلس الشيوخ - وينزل
الناس من مصيفهم فى بتروبوليس . لكن الوعد نفذ أخيرا ،
فدخل روبيان مستشفى من المستشفيات احتل فيه غرفة
وصالة ، عملا بتوصية الدكتور فالون وباليا . ولم يظهر روبيان
أى نوع من أنواع المقاومة ، بل تبع صديقيه راضيا ودخل المنزل
الجديد دخول من يعرفه كل المعرفة . وحين ودعه الدكتور فالون
وباليا ووعدها بأن يجيئا اليه قريبا ، دعاهما الى استعراض
عسكرى فى يوم السبت القادم .

سأله فالون :

- السبت ؟ طيب ...

وأردف روبيان :

- السبت يوم مبارك . وتعال أنت أيضا يا دوق باليا .

فقال باليا وهو يخرج :

- سأجىء ...

- اسمع . سأرسل اليك احدى مركباتى ... مركبة متلاثة

جديدة ... يجب أن تضع زوجتك جسمها الجميل فى مكان لم
يجرؤ أحد أن يجلس عليه من قبل . وسأئدها مخمل ودمقس ،

وعدها من فضة ، وعجلاتها من ذهب . أما الخيل فسليمة الحصان
الذى كان عمى يمتطى صهوته يوم مارنجو . الى اللقاء يادوق باليا .

١٨٢

قال الدكتور فالون بينه وبين نفسه وهو يخرج : « أما أنا
فالامر عندى واضح . ان هذا الرجل كان عشيق زوجته هذا المحترم »

١٨٣

لبث روبيان فى المستشفى . وعبثا أراد كوتكاس بوربا ، من
أجل مرافقة سيده ، أن يدخل العربية التى تقله ، أو أن يتبعها
راكضا . فان الخادم قبض عليه بعد عناء فتغلب عليه ، وأدخله
المنزل . وهكذا تكرر الوضع الذى شهدته باربا سينا تكرارا تاما
دقيقا . ولكن ألا تعرف ، ياسيدى العزيز ، ان الحياة لا تتألف
على وجه الاجمال الا من أربعة أوضاع مختلفة أو خمسة ، وان
نزوات الظروف هى التى تبدلها فى أنظارنا وتكثرها ؟ وأيا كان
الامر ، فقد طلب روبيان فى كثير من الاحاح أن يرسل اليه الكلب .
وأخذت دونا فرناندا تنهيا لتلبية رغبة المريض بعد أن نالت موافقة
مدير المستشفى على ذلك . فقررت ان تكتب الى صوفيا ، لكنها
عزمت أمرها أخيرا وذهبت الى فلاننجو بنفسها .

١٨٤

قالت صوفيا :

— سأذهب الآتى به ، المكان قريب من هنا كل القرب .
— فلنذهب كلانا . ذلك خير . ثم اننى قد خطر ببالى شيء .
هل الاستمرار فى استئجار البيت مفيد حقا ، مع ان المعالجة قد
تطول ؟ أليس الافضل أن يفسخ العقد ويباع الاثاث ويبقى مايبقى
بعد ذلك ؟

وذهبتا سيرا على الاقدام الى فلاننجو ، شارع البرنسيب ،
قلم يستغرق وصولهما الى البيت غير ثلاث دقائق أو أربع . كان
ريموندو فى الشارع ، لكنه حين رأى ناسا على الباب ، جاء
يفتح . كان كل شيء فى داخل البيت مهجورا كل الهجر ، فلا
يلاحظ فيه حتى مظهر الركون والسكون اللذين بفضلهما كانت

الاشياء تحتفظ بجزء من الحياة التى كانت تسرى فى المنزل . ذلك ان الاهمال قد سبق ههنا الهجر . والقوضى التى فى الاثاث تعبر عن جنون الشخص الذى كان يسكن البيت وعما كان يمتلىء به رأسه من دخان الافكار الهوج .

— هل كان غنيا كثيرا ؟

كذلك سألت دونا فرناندا ، فأجابتها صوفيا بقولها :

— كان على جانب كاف من الفنى حين وصوله من ميناس . لكننى اظن انه بذر كل ما يملك . حذار ! ارفعى ثوبك ! لكأن الارض لم تكن منذ قرن !

ولم تكن الارض وحدها وسخة ، فان الاثاث كان مفطى بطبقة كثيفة من الغبار . ولكن الخادم لم يشعر بأى حاجة الى ان يشرح اسباب هذا الاهمال واكتفى بالنظر والاصفاء وهو يصغر بصوت خافت لحنا رائجا من ألحان رقصة البولكا . ولم تبد له صوفيا أى ملاحظة بشأن نظافة البيت ، فقد كان كل همها ان تهرب من هذا المكان « المقرز » — ذلك هو النعت الذى نعتت به البيت بينها وبين نفسها — ولم تكن تريد الا ان تحصل على الكلب غرض هذه الزيارة . ومع ذلك كانت لا تحب ان تظهر بمظهر من يهتم بهذا الكلب ، ولا بأى شىء آخر . ان ما يشيع فى هذا البيت كله من مظاهر العامية يبعث الاشمئزاز فى قلبها وفى فكرها جميعا ، ولم تساعد ذكري المجنون أبدا على تخفيف شعورها بطول الوقت . وكانت فى قرارة نفسها تحكم على رفيقتها بأنها اما خيالية واما متصنعة ! « هذا كله غباء ! » . كذلك كانت تقول بينها وبين نفسها ، دون ان تتخلى مع ذلك عن ابتسامة التأييد التى كانت تستقبل بها ملاحظات دونا فرناندا .

قالت دونا فرناندا للخادم :

— افتح النوافذ ، الجو هنا ممتلىء برائحة العفونة ..

فزادت صوفيا وهى تتنشق مشمئة :

— آه ... نعم ... انه لجو لا يطاق !

ورغم هذا النداء لم تقرر دونا فرناندا ان تمضى . فان هذا البيت البائس ، مع انه لا يوقظ فى نفسها أى ذكرى شخصية ، كان يبعث فيها انفعالا قويا عميقا ليس ذلك الانفعال الشائع الذى يخالط نفوس الناس عامة عند رؤية الاطلال . ان هذا المنظر الحزين لم يكن عندها ذريعة للتفلسف ، فلا هو علمها ان الدهر قلب ولا ان

العالم شقى ، وانما ذكرها بالعذاب الذى الم بانسان ، انسان لا تعرفه كثيرا من جهة اخرى ، ولم تهيأ لها أسباب التحدث اليه الا لما . وظلت على هذه الحال مدة طويلة تنظر فيما حولها دون أن تفكر فى شيء ودون أن تستنتج شيئا أو أن تنبس بكلمة . كانت حزينة منطوية على نفسها انطواء كاملا . وكانت صوفيا من جهتها لا تجرؤ أن تفتح فاهها ، مخافة أن تزعج الشخصية المحترمة التى ترافقها ! وقد رفعتا كلتاهما ذيل الثوب حتى لا يتجرر على الغبار . ومن قبيل الاحتياط الاضافى ، كانت صوفيا لا تنقطع عن تحريك مروحيتها ايضا ، تحريكا عنيقا متأففا كأنها توشك فى كل لحظة أن تختنق ، حتى لقد سعلت عدة مرات .

سألت دونا فرناندا الخادم :

— والكلب ؟

— سجين الغرفة ، هناك فى آخر البيت !

— أئتنى به !

وظهر كونكاس بوربا هزيلا مهتما ، ووقف على باب الصالون . انه لم ينبج حين رأى السيدتين ، رغم انه لم يعرفهما . ولم يزد على أن رمقهما بنظرة منطفئة . وهم أن يدور ليعود الى داخل البيت ، لولا أن صفت دونا فرناندا بأصابعها ، فوقف وهو يحرك ذيله .

سألت دونا فرناندا :

— ما اسمه ؟

فأجابها الخادم بصوت بطيء وهو يضحك :

— كونكاس بوربا . اسم شخص . تقدم يا كونكاس بوربا . السيدة تناديك !

فكررت دونا فرناندا :

— تعال يا كونكاس بوربا . كونكاس بوربا !

فاستجاب كونكاس بوربا للنداء ، ولكن من غير أن يشب ، ومن غير أن يظهر أى علامة من علامات الفرح . ومالت دونا فرناندا عليه ، فحدثته عن سيده ، وسألته هل هو فى شوق اليه ، وهل يريد أن يزوره . وكانت ، وهى مائلة على الكلب هذا الميل ، تسأل الخادم عن عنايته بالكلب .

— نعم ياسيدتى . انه يأكل الآن . أما عند ذهاب سيده ، لقد كان لا يأكل ولا يشرب . حتى لقد ظننت انه أصيب بداء الكلب .

- والآن يأكل ؟
 - يأكل ، ولكن قليلا .
 - هل يبحث عن سيده ؟
 أجاب ريموندو وهو يختنق ضحكا :
 - يبدو باحثا عنه . وقد سجنته في الغرفة لأمنعه من الهرب .
 انه الآن لا يبكي ، أما في أول الامر فقد كان يبكي كثيرا .
 كانت دونا فرناندا تحك رأس الكلب في رفق . تلك أول علامة
 عطف . نعم بها بعد أيام كثيرة من العزلة والهجران . وحين انقطعت
 دونا فرناندا عن دغدغته ونهضت ، كان كل منهما ينظر الى صاحبه
 نظرة عميقة ، حتى لكأنه لم يبق بينهما سر ! .. أن حب الآخرين !
 وهو جوهر هذه السيدة النبيلة ، دونا فرناندا ، يمحو من نفسها
 أمام هذه التعاسة الغامضة كل نوع من أنواع التكبر الانساني . . .
 وكان هذا الحب الشامل يفمر الحيوان ويفتنه ، ويسمره عند
 قدمي دونا فرناندا . . . وكانت دونا فرناندا تشعر من جهتها ،
 وهي ترى الكلب ، بذلك الحزن نفسه الذي سيطر عليها حين
 علمت . بجنون سيده ، كأنها لا تفرق كثيرا بينهما . واذ أحست
 أن وجودها يحسن الى الحيوان ، رفضت أن تحرمه من هذا العزاء .
 قالت صوفيا :

- سيسرى اليك القمل .

فلم تسمعها دونا فرناندا ، بل ظلت تنظر الى عيني الكلب .
 الحزنتين الوديعتين ، الى أن خفض الكلب رأسه وأخذ يسير في
 الغرفة كلها باحثا مفتشا . لاشك أنه كان يتشم رائحة سيده .
 وكان الباب المطل على الشارع مفتوحا . فلو أن ريموندو أسرع
 يقبض عليه لهرب . وعندئذ نقت دونا فرناندا الخادم بعض المال
 وهي ترجوه أن يفسل الحيوان وأن يأخذه الى المستشفى .
 وأوصته بالعناية به أشد العناية ، فيحمله بين ذراعيه أو يربطه
 بحبل على كل حال . وتدخلت صوفيا في هذه اللحظة ، فأمرت
 بأن يجيء اليها أولا .

١٨٥

وانصرفت . نظرت صوفيا يمنة ويسرة قبل أن تسير في الشارع .
 لترى هل هناك أحد . من حسن الحظ أن الشارع كان خاليا .
 وما أن تركت صوفيا هذه الاوساخ كلها أخيرا حتى استردت فجأة

قدرتها على الكلام ، كما استردت في الوقت نفسه ذلك الفن المرهف الأخاذ ، فن فتنة الآخرين . فوضعت ذراعها تحت ذراع «دونا فرناندا في رقة ولطف ، وأخذت تحدثها عن روبيان وعن الشقاء الرهيب الذي أصابه ، لكنها حدثتها كذلك عن قصرها الخاص ببوتافوجو .. لماذا لا تذهبان معا الى هناك لتريا سير الاعمال في بناء القصر ؟ لن يكون عليهما الا أن تسرعا في شرب الشاي ، ثم تذهبا الى هناك فورا .

١٨٦

وفي نحو ذلك الوقت رزقت ماريا بنديكتا بنتا ، وقد جاء هذا الحادث يعزي دونا فرناندا عما سببه لها موضوع روبيان من هم ، فهرعت الى تيجوكا وغمرت الام بالقبل ، ومدت يدها اخيرا الى كارلوس ماريا .

صاح الاب الشاب وهو ينحني قائلا :

— طافحة فياضة على عهدي بك دائما !

— وأنت فظ غليظ على عهدي بك دائما ..

ورفضت دونا فرناندا أن تترك ماريا بنديكتا ، رغم محاولات المقاومة التي قام بها ابن عمها ، ولازمتها طوال مدة النقاهة ، وكانت من نبل النفس وحسن المودة ولطافة المرح انها كانت اها بركة حقا ! ان سعادة بعض الناس تنسيها شقاء بعضهم الآخر .. ولكن ما ان استردت الام الشابة عافيتها تماما ، حتى شغلت «دونا فرناندا بالمريض من جديد .

١٨٧

« آمل أن أثيب اليه عقله في بحر ستة أشهر أو ثمانية . لقد تحسن كثيرا .. »

ونقلت دونا فرناندا الى صوفيا هذا الجواب الذي قاله مدير مستشفى الامراض العقلية ، وعرضت عليها في الوقت نفسه أن تزور المريض اذا كانت لا ترى في ذلك ضيرا . فأجابتها صوفيا ببطاقة صغيرة كتبت عليها : « أي ضرر يمكن أن يكون في ذلك ؟ انني أنا التي لا أملك من الشجاعة مايمكنني من احتمال زيارته . لقد كان على صلة بنا تبلغ من القوة انني لا أدري هل أطيق رؤية هذا الانسان البائس وهل أطيق التحدث اليه . وقد أطلعت

كرستيانو على رسالتك فقال لى انه شرع فى تصفية أموال السيد روبيان ، وقد بقى له ثلاثة قونتات ومائتا كروزيرو «

١٨٨

قالت دونا فرناندا لنفسها : « ستة أشهر أو ثمانية ... مدة تنقضى بسرعة »

وتتابع الأشهر ، وتتابع معها موكب كبير من الأحداث : سقوط الوزارة ، تشكيل وزارة جديدة فى شهر آذار ، عودة زوج دونا فرناندا ، مناقشة القانون الخاص بأولاد العبيد ، موت خطيب تونيكا قبل الموعد المقرر لزوجهما بثلاثة أيام .. لقد ذرفت تونيكا آخر ما فى مآقيها من دموع ، حبا بالمرحوم من جهة وحزنا على نفسها من جهة أخرى ، وقد أورثها هذا البكاء احمرارا فى العينين اذا رآه الرأى ظن انها مصابة بمرض فى البصر .

وتيوفيلو الذى أولته الحكومة الجديدة من الثقة مثل ما أولته الحكومة السابقة ، قام بدور نشيط جدا فى مناقشات الدورة البرلمانية . وصرح كاماشو فى جريدته ان قانون أولاد العبيد يجعل الناس يفغرون للحكومة عجزها وجرائمها . وفى شهر تشرين الأول اكتوبر دشنت صوفيا صالوناتها فى بوتافوجو بحفلة راقصة كانت فاتحة الموسم . وكانت فى هذه الحفلة فتانة باهرة ، تعرض ذراعيها وكتفيها بغير غرور مصطنع ، وتحمل جواهر جميلة بينها عقد روبيانز ، وهو من أوائل الهدايا التى قدمها اليها « يجب أن نذكر هنا أن هذا النوع من الحلى لا يتغير زيه كثيرا » . وأعجب الناس جميعا بما فى سنيها الثلاثين من غضارة ونضارة وخفة ورشاقة . وتحدث بعض الناس بحسرة عن فضائلها الزوجية ، وعن الحب العميق الذى تكنه لزوجها .

١٨٩

فى غداة الحفلة الراقصة استيقظت دونا فرناندا من نومها متأخرة . ومضت الى مكتب زوجها فوجدته قد قرأ خمس جرائد أو ستة ، من أول سطر الى آخر سطر ، وكتب ست رسائل ، وأخذ الآن يرتب بعض الكتب فى مكتبته . قال لها :

— تلقيت هذه الرسالة منذ برهة ..

فقرأت دونا فرناندا الرسالة . انها من مدير المستشفى يعلن فيها ان روبيان قد اختفى منذ ثلاثة أيام ، وانه لم يمكن العثور عليه رغم الجهود التي بذلها رجال الشرطة وبذلها هو نفسه . وختتم المدير رسالته بقوله : « وما يزيد دهشتي من هذا الهرب ان تحسن صحته كان كبيرا ، واننى كنت آمل أن أشفيه شفاء تاما في غضون شهرين » .

ذعرت دونا فرناندا . وحملت زوجها على أن يعدها بأن يكتب الى رئيس الشرطة والى وزارة العدل راجيا أن تقوم السلطات المختصة بأقصى ما تملك من جهد فى البحث عنه . لم يكن تيوفيلو يعنيه أمر معالجة روبيان فى قليل ولا كثير ، ولم يكن يعنيه أن يعثر عليه أو ألا يعثر عليه ، ولكنه أراد أن يسر امراته التى يعرف شهامتها ، وربما كان أيضا لا يمتعض من مراسلة اناس يحتلون مثل هذه المناصب الرقيقة .

١٩٠

ولكن كيف عساهم يعثرون على روبيان وكلبه وقد سافر الاثنان الى باربا سينا ؟ لقد كتب روبيان الى باليا ، قبل ثمانية أيام ، راجيا منه أن يأتى اليه . وذهب كرستيانو الى المستشفى ، فلاحظ ان شريكه القديم قد استرد سلامة تفكيره ، فليس فى حديثه أثر من جنون ... قال له روبيان :

— لقد مرت بى أزمة عقلية . أما الآن فقد انتهى الامر ، انتهى تماما . فأرجوك أن ترحلنى من هذا المكان . وأحسب ان المدير لن يعارض فى ذلك . ولما كنت أحب أن أترك هدية صغيرة للأشخاص الذين خدمونى وخدموا كونكاس بوربا أيضا ، فأننى أرجوك أن تسلفنى ثلاثمائة كروزيرو ؟

ففتح باليا محفظته بدون تردد ، ونقده المبلغ . وقال :

— سأحاول اخراجك من المستشفى . وأحسب انه سيكون عليك أن تمكث بضعة أيام أخرى « كان ذلك قبل الحفلة الراقصة بيوم » . ولكن لا تقلق : ستخرج فى بحر أسبوع ..

وقبل أن ينصرف حدث مدير المستشفى فى الامر ، فقال له المدير ان حالة المريض حسنة ، لكنه أضاف ان أسبوعا واحدا قليل ، وان شفاءه الكامل ، الكامل ، يقتضى نحو شهرين .

فأعترف باليا بأنه رآه صحيح العقل ، ولكنه لا يدعى انه يعرف من الامر مثل الذى يعرفه محدثه ، وان المدير هو الذى يحدد موعد خروج روبيان ، وانه لا ينبغي تعجل الامور على كل حال ، ولو وجب الانتظار سبعة أشهر أو ثمانية .

١٩١

ما ان وصل روبيان الى باربا سينا ، وأخذ يصعد الشارع الذى يسمى الآن شارع تيرادنتس حتى وقف مناديا :
- للغالب البطاطا !

كان قد نسى العبارة والقصة منذ زمن طويل . لكن المقاطع خرجت الآن من بين شفتيه من تلقاء نفسها حتى وكأنها ظلت فى الهواء كاملة سليمة تنتظر من يستطيع أن يسبغ عليها معنى . لقد اهتدى بطلنا الى العبارة ، ونطق بها فى تعاضم شبيه بذلك التعاضم الذى شهدناه عليه فى اليوم المعهود ، يوم أن اتخذها رمزا للحياة والحقيقة . والحق انه أصبح لا يتذكر القصة بكاملها تذكرها واضحا ، ومع ذلك فهو يهب للعبارة معنى غامضا من معانى الصراع والنصر .

وصعد روبيان مع كلبه حتى آخر الشارع ، ومضى يقف أمام الكنيسة . لم يفتح له الباب أحد ، ولا رأى ظلا لخدام من خدام الكنيسة . وكان كوتكاس بوربا الذى لم يأكل شيئا منذ ساعات طويلة ، خافض الرأس ، ملتصقا بحذاء سيده ، ينتظر ... والتفت روبيان وأخذ يتأمل المنظر الممتد أمامه من أعلى الشارع . انها هى ، هى نفسها ، باربا سينا ، مدينته القديمة التى رأى فيها النور . ومن أعماق أعماق نفسه أخذت الذكريات فى تلك اللحظة تنبجس شيئا فشيئا ! هنا الكنيسة ، وهناك السجن ، وهناك الصيدلية التى كان يشتري منها الادوية لكوتكاس بوربا الآخر ، انها مدينته بنفسها ! لقد كان يعرف ذلك عند وصوله ، لكنه كلما طوف بصره فيها ازدحمت ذكرياته فى خاطره وتكاثرت ... ولم ير أحدا البتة . وأحس لحظة أن أحدا يتجسس عليه وراء نافذة على اليسار ، أما ما عدا هذا فخلأ ...

قال روبيان لنفسه : « لعلهم لا يعرفون اننى وصلت » .
وومض برق على حين فجأة ، وسرعان ما تبدلت السماء بالفيوم .
ثم ومض برق آخر أقرب من الاول ، وأعقبه البرق رعد ! وأخذ

المطر ينهمر ، وما أنفك يغزر حتى انطلقت الصاعقة . لقد ترك روبيان الكنيسة منذ هطلت أولى قطرات المطر ، وهو الآن يهبط الشارع الذي صعد ، ولا يزال كلبه معه أمينا وفيما جاءا . لقد طاش صواب الاثنين من قوة العاصفة ، فهما هائمان على وجهيهما بلا أمل في مأوى أو طعام . ان المطر يجلد هما بسياطه في غير رحمة . وهما عاجزان حتى عن الركض ، أما روبيان فلأنه يخشى أن ينزلق وأن يسقط ، وأما الكلب فلأنه لا يريد أن يضل عن سيده . وفي منتصف المنحدر تذكر روبيان الصيدلية فجأة فدار الى وراء ، رغم الريح التي أصبحت الآن تسفع وجهه . لكنه ما ان قطع عشرين مترا حتى كانت هذه الفكرة قد غادرت رأسه : وداعا للصيدلية ! وداعا للمأوى ! أصبح روبيان لا يتذكر السبب الذي حمله على أن يقفل راجعا ، وعاد يهبط الشارع من جديد مع كلبه ، سائرا على كعبيه . والكلب مع ذلك لا يفهم شيئا ولا يهرب من رفيقه . وبلغ الاثنان حدا واحدا من التبلبل والاضطراب في مواجهة هذه العاصفة الحاقدة التي لا تنتهى .

١٩٢

وظلا هائمين على هذا النحو زمنا طويلا . كانت معدة روبيان تعمل من الجوع ، ولكن من حسن الحظ ان الهذيان كان يعوض عن هذه الحاجة القوية بفضل الموائد المصفوفة في قصر التويلري غير ان كونكاس بوربا لا يستطيع أن يلجأ الى حيلة من هذا النوع . وظلا يصعدان ثم يهبطان ، ويهبطان ثم يصعدان ! ومن حين الى حين كان روبيان يقعد على الارض ، فيتسلق الكلب على ركبتيه عسى أن ينسى الجوع بالنوم ، ولكنه ما يلبث أن ينزل لانه يجد سروال سيده غارقا في الماء من فرط البلل . واذا عاود التسلق رغم ذلك ، فلأن هواء تلك الليلة - التي شارفت على الانتهاء - كان هواء متجلدا حقا . ومرّ روبيان بيده على الحيوان وهو يتمتم له ببعض الكلمات الغامضة .

وحين ظفر كونكاس بوربا باغماض عينيه أخيرا رغم كل شيء ، لم يلبث أن استيقظ ، لان روبيان قام يذرع جنب الرابية جيئة وذهابا من جديد . ان الريح تجلد المتشردين في غير رحمة ، وتجعلهما يرتعشان ويرتعدان . وأصبح روبيان يمشى بطيئا ، لان التعب لا يسمح له الآن بأن يخطو خطوات كبيرة كما كان يفعل في

أول الامر ، حين أخذ المطر بالهطول . حتى لقد ازداد توقفه عن السير من حين الى حين . أما الكلب الذى كاد يميته الجوع والتعب ، فلم يكن يفهم معنى هذه الرحلة الغريبة ولا الدافع انيها . ونسى المكان الذى هو فيه ، وأصبح لا يسمع شيئاً البتة . اللهم الا ذلك الصوت الاصم ، صوت مولاه . انه لا يرى النجوم التى تتلألأ الآن فى سماء صافية انجابت عنها الفيوم . ولكن روبيان كان يراها . فحين رجع الى النقطة التى بدأ منها ، أغنى باب الكنيسة ، وقعد على الأرض ، رأى النجوم تسطع فى قبة السماء . وكانت تبلغ من الجمال انه حسبها ثريات فى القاعة الكبرى . وامر باطفاء الثريات . لكنه لم يستطع أن يتحقق من أن أوامره نفذت ، لانه نام فوراً والكلب الى جانبه . حتى اذا استيقظا فى الصباح كانا يلفغان من التصاق كل منهما برفيقه انه أصبح من الصعب على المرء أن يميز أحدهما عن الآخر .

١٩٣

— للغالب البطاطا .

كذلك صاح روبيان وهو يلقي نظرة على الشارع الذى طردت الشمس الساطعة كل أثر من آثار العاصفة فيه .

١٩٤

ان السيدة أنجليكا هى التى آوت روبيان وكلبه . لقد لمحتهما حين مرا أمام بيتها . فعرفها روبيان وقبل المأوى والطعام اللذين قدمتهما اليهما .

— ولكن ما هذا كله يا صديقى ؟ كيف وصلت على هذه الحال ؟ ثيابك غارقة فى الماء من البلل . انتظر . . . سأعطيك سروال ابن أخى .

كان روبيان محموماً . فلم يأكل الا قليلاً ولم يشعر للطعام بلذة . وسأله السيدة عندئذ أن يقص عليها حياته فى العاصمة ، فأجابها بأن ذلك يقتضى وقتاً طويلاً ، وان الاجيال القادمة هى التى ستختتم هذه القصة . وأضاف يقول بحركة متعازمة : « ان أحفاد أخيك هم الذين سيرونى فى أوج مجدى » . وأخذ مع ذلك يروى لها خلاصة عن حياته : لكن الوقائع والافكار التى عرضها

لها بلغت من الجنون ان السيدة انجليكا أصبحت بعد عشر دقائق لا تفهم منها شيئاً البتة . حتى انها بعد خمس دقائق أخرى أخذت تخاف . فلما انقضت عشرون دقيقة ، استأذنت منه ، وذهبت الى إحدى الجارات تقول لها ان روبيان يبدو فاقدا عقله . وعادت اليه تصحبها الجارة وأخوها . لكن هذا الاخ لم يمكث مدة طويلة ، بل خرج ينشر النبا بين الناس . فأخذ الناس يتوافدون مشى مشى ، بل ورباع رباع ، فما هي الا ساعة حتى كان الشارع يفص بجمهور كبير جاء ليشاهد بطلنا .

فكان روبيان يصيح في المستطعين قائلاً :

— للغالب البطاطا . أنا هنا الامبراطور ! للغالب البطاطا ! وراح الناس في الشارع يرددون هذه الجملة الغامضة الناقصة ، ويقلبونها على وجوهها المختلفة ، ولكن أحدا منهم لم يستطع ان يفهم ما تعنيه . ودخل الى البيت بعض أعداء روبيان القدامى ، دخلوا بغير كلفة ، ليمتعوا أبصارهم برؤيته على هذه الحال . قالوا للسيدة انجليكا ان البقاء معه في بيت واحد أمر خطر وان من الواجب ان يرسل الى السجن ، ريثما تقتاده السلطات الى مكان آخر . وقال شخص أرحم منهم : بل لعل الافضل ان يستدعي الطبيب . فأجابه آخر :

— وماذا يفعل الطبيب ؟ الرجل مجنون !

— لعله هذيان الحمى لا أكثر ! ألا ترى ان يديه تحترقان احتراقاً !

وشجع انجليكا حضور هذا العدد الكبير من الناس ، فجلست تبض المريض ، فوجدته محموماً . فاستدعت الطبيب ، وهو ذلك الطبيب نفسه الذي عالج المرحوم كوتكاس بوربا . وقد عرفه روبيان ، وأجابه بأن الامر بسيط ، لقد أمر بحبس ملك بروسيا ، ولكنه لما يقرر بعد أيام باطلاق الرصاص عليه أم لا . ومن المحقق على كل حال انه سيطالب بغرامة مالية ضخمة . سوف يطالب بخمسة مليارات من الفرتكات . وختم كلامه بقوله وهو يضحك :

— للغالب البطاطا .

١٩٥

ومات روبيان بعد بضعة أيام . . لكنه مات وهو في أوج المجد!

انه قبيل أن يشرف على النزع - ولم يدم نزعها الا قليلا - قد وضع على رأسه تاجا . ولم يكن هذا التاج قبعة عتيقة ولا أى شىء آخر يمكن أن يوهم بأنه تاج . لا ياسيدى . ان يدى روبيان قد تناولتا فراغا ، ورفعتا فى الهواء فراغا ، ووضعنا على جبينه فراغا وكان هو الشخص الوحيد الذى رأى الشسارة الامبراطورية ، المصنوعة من ذهب ثقيل ، والمرصعة بفصوص من ماس وأحجار كريمة أخرى . لكن الجهد الذى بذله عندئذ من أجل أن ينهض جذعه لم يطل كثيرا ، فما هى الا لحظة حتى سقط من جديد ، غير أن وجهه كان يسطح مجدا .
ودمدم يقول :

- احفظوا تاجى للغالب

ولاح فى وجهه الجد . . . لأن الموت جد . . . وما هى الا دقيقتان من نزع ، وما هى الا انتفاضة رهيبة ، حتى كان روبيان قد وقع صك تنازله عن العرش .

١٩٦

أريد أن أتحدث أيضا عن نهاية كوتكاس بوربا الذى مرض هو أيضا ، وظل يئن حتى تقطعت أنفاسه ، ثم فر يبحث عن مولاة يائسا ، وعثروا عليه بعد ثلاثة أيام عند الصباح ميتا فى أحد الشوارع . ولكننى أقدر أيها القارىء انك ، حين ترانى أفرد لموت الكلب فصلا خاصا ، ستسألنى هل يشير عنوان الكتاب الى اسم الكلب أو الى اسم سميته الراحل ، ولماذا يشير الى واحد من الاسمين دون الآخر ؟ ذلك سؤال يثير أسئلة أخرى كثيرة والحديث فى ذلك كله أمر يطول . هلم أيها القارىء الكريم توصل بالشجاعة ، واذرف دموعك على الميتين كليهما ، اذا شعرت بأنك قادر على ذرف الدموع ، أما اذا كنت لا تحب الا أن تضحك ، فاضحك ! الا تدري ان البكاء والضحك سيان ! ان صليب الجنوب الذى لم تشأ صوفيا أن تتأمله كما سألتها ذلك روبيان ، هو الآن من البعد الشاسع بحيث لا يميز بين بكاء البشر وضحكهم !

انتهت

اشتراك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

السيد/هاشم علي نحاس
جدة - ص. ب. رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

جدة :

M. Miguel Macoul Oury,
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

البرازيل :

THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopstrove Road
London S.E. 26
ENGLAND.

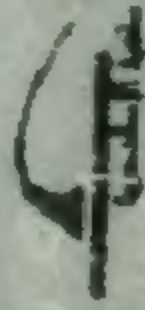
انجلترا

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

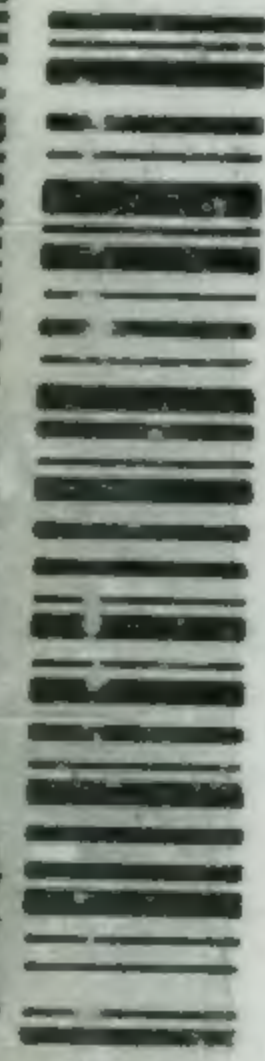
هذه الرواية

مؤلف هذه الرواية من اعلام الادب
البرازيلي ٠٠ نشأ في بيد سواضع
من بيوت العنـ.....ال بمدينة
« ريودوجانيرو » واضطرته الظروف
أن يعمل اجيرا في مطبعة ، وظل
يعان مرارة الفقر والحاجة وقتا
طويلا . ولكن ذلك لم يحل بينه وبين
التعمق في دراسة الادب وقراءة
الروايات والقصص في اوقات
الفراغ حتى نضجت موهبته القصصية
فألف مجموعة من الروايات صادقت
رواجا كبيرا وترجمت الى عدة
لغات ٠ فادبه أدب برازيلي لأن
أبطاله يعبرون عن جو البرازيل ،
ولكنه في الوقت نفسه أدب عالمي .
لأنه - كما يقول أحد النقاد - يضع
أرضه وزمانه في مؤلفاته ، ولكنـه
يخرج منهما عطرا يصلح لأناس من
أرض أخرى وأزمنة أخرى .

وهذه الرواية تعتبر نموذجا رائعا
من كتاباته القيمة الحافلة بالسخرية
والتهكم . والسخرية فيها ليست
ثرفا ، وليست نوعا من اظهار
« الفكاهة » أو مجرد تعبير عن مزاج
٠٠ انها لا تستبعد من القصـة
مرارة الدمة « ولكنها تحيل الدمة
قطرة مضيئة من الندى »



Bibliotheca Alexandrina



0668654